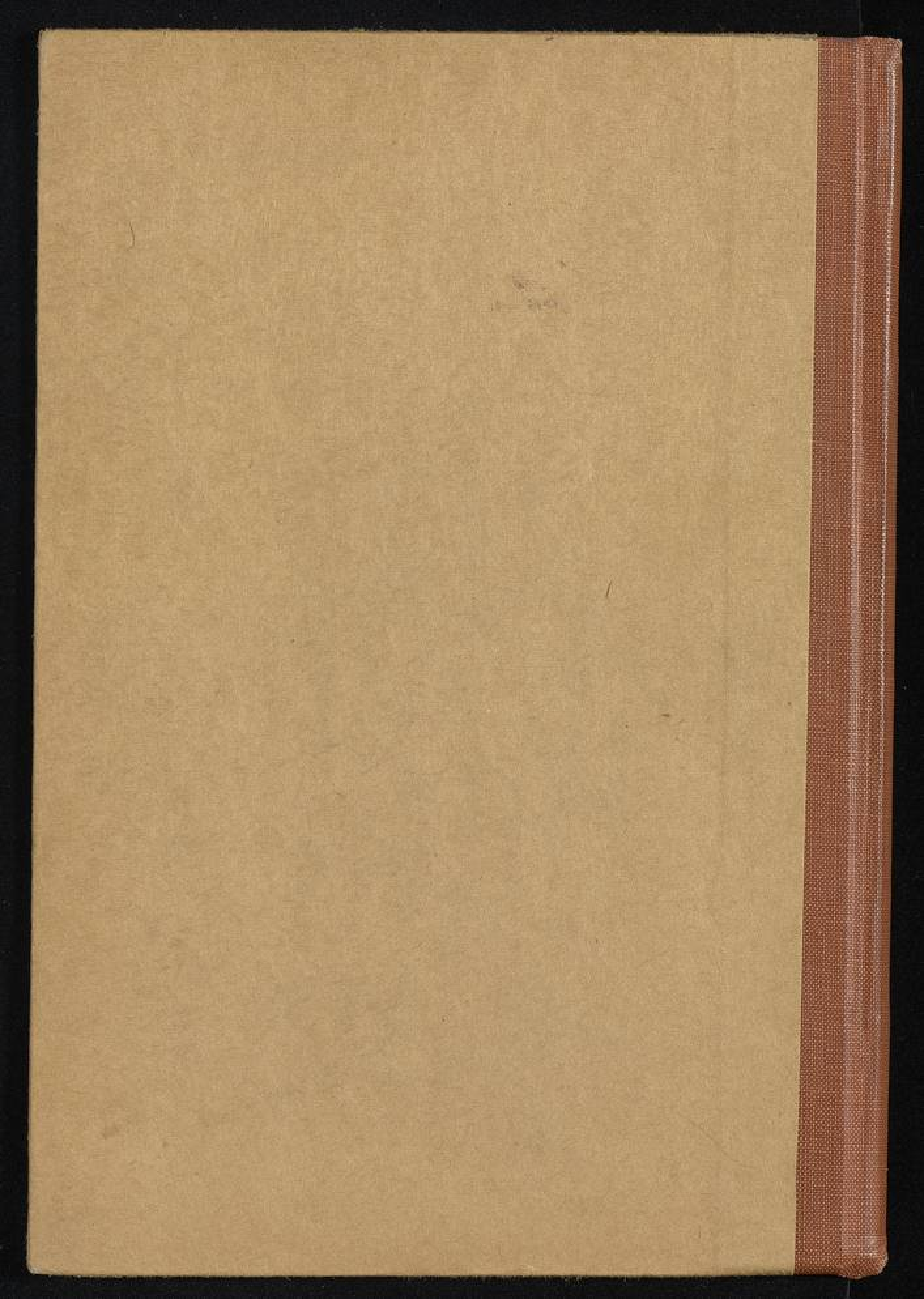
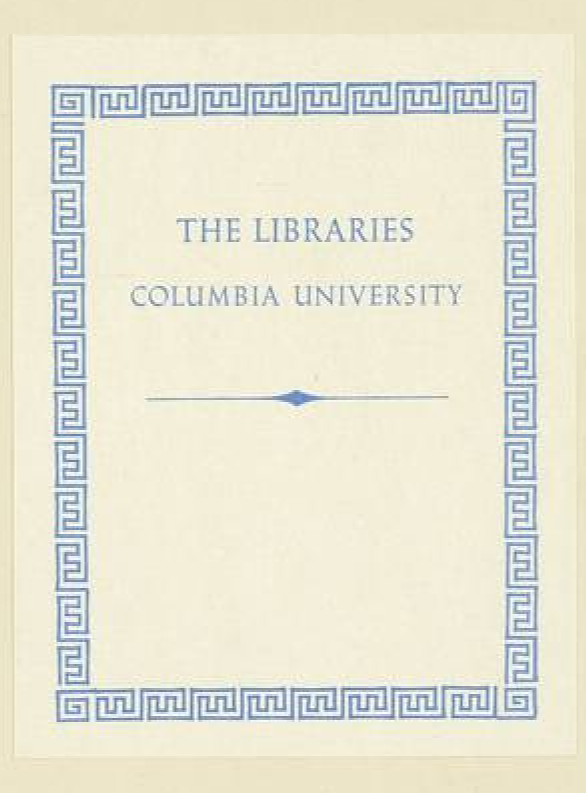
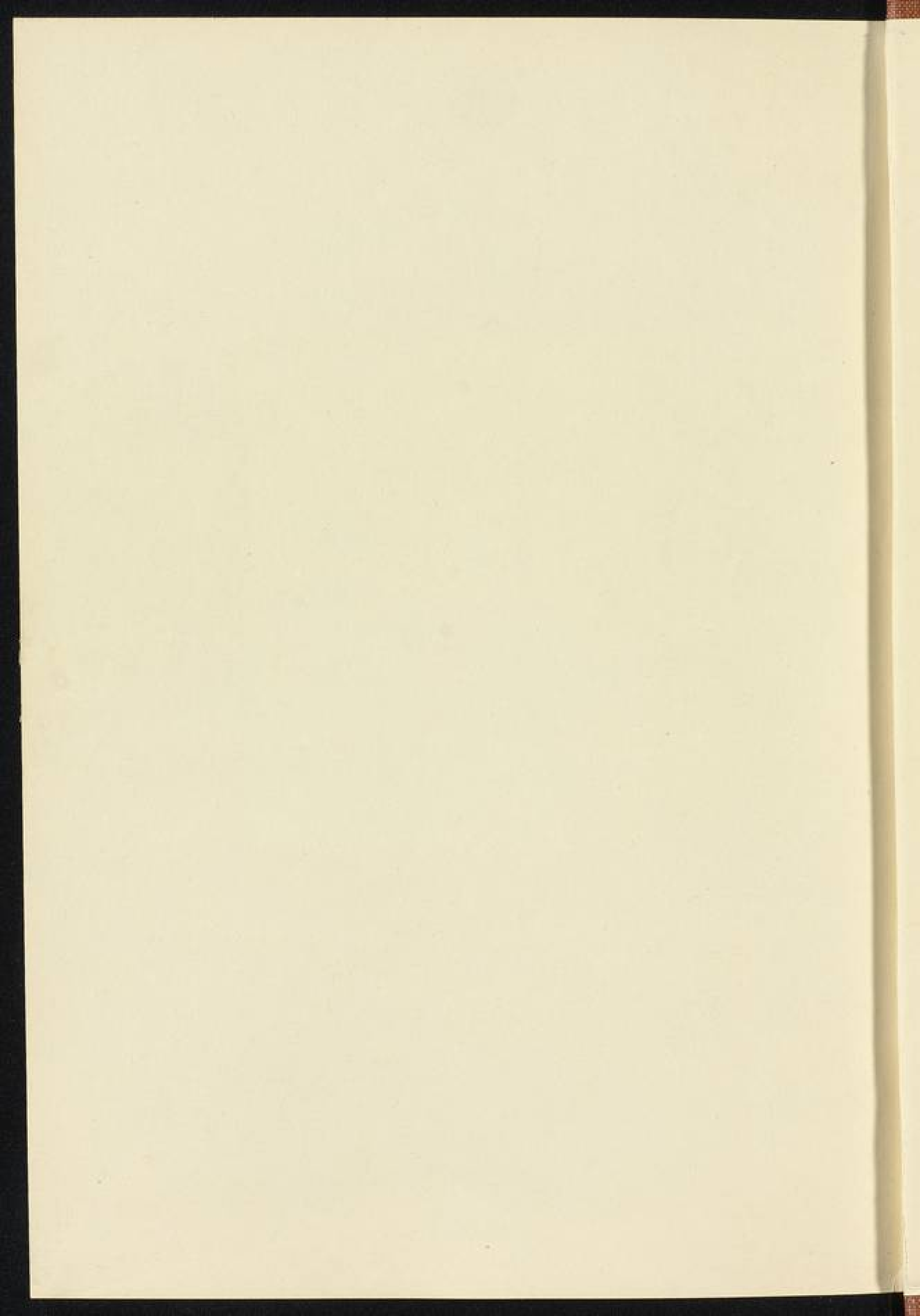
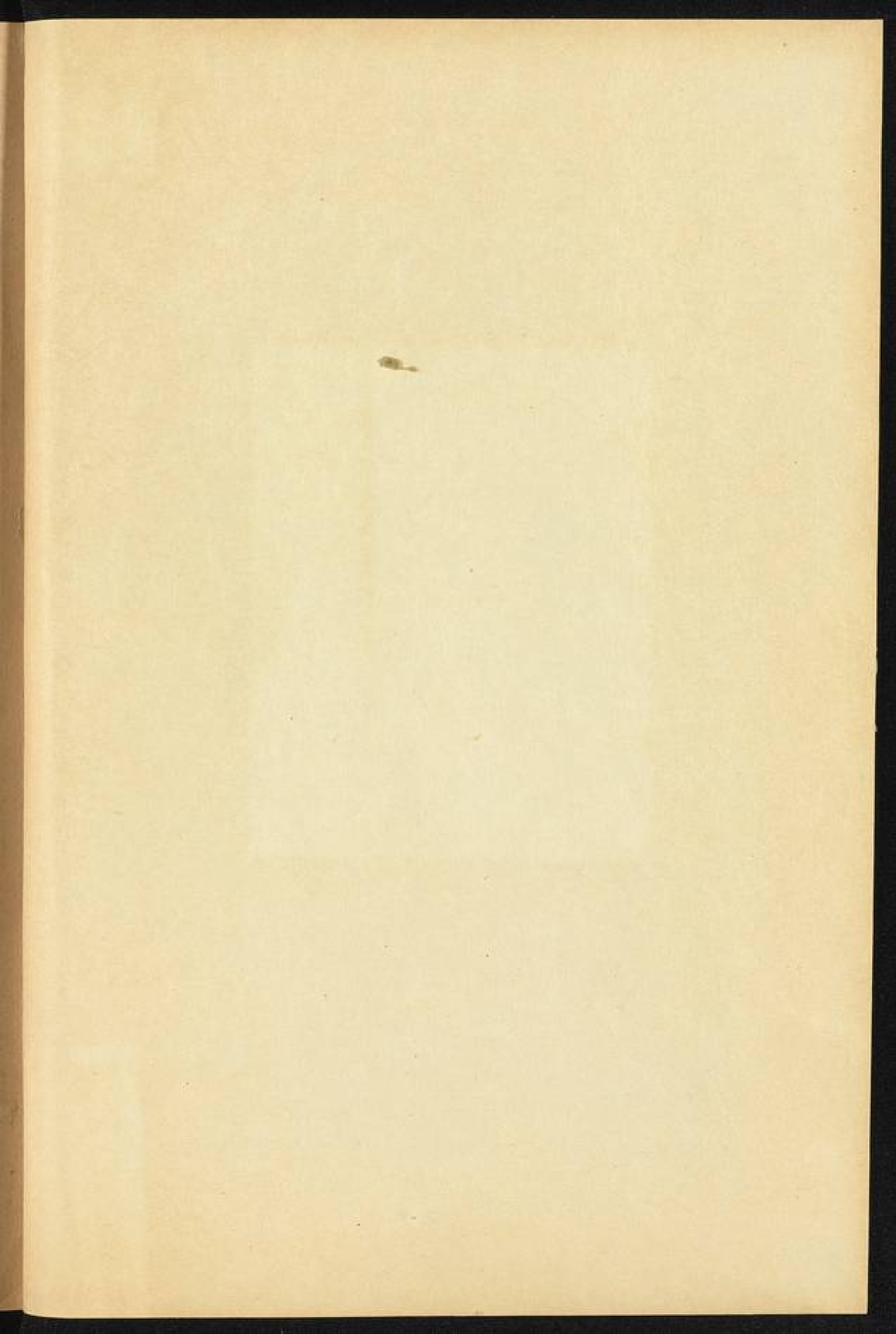








وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

تاريخ معرة النعمان

تأليف

محمد سليم الجندي

الجزء الأول

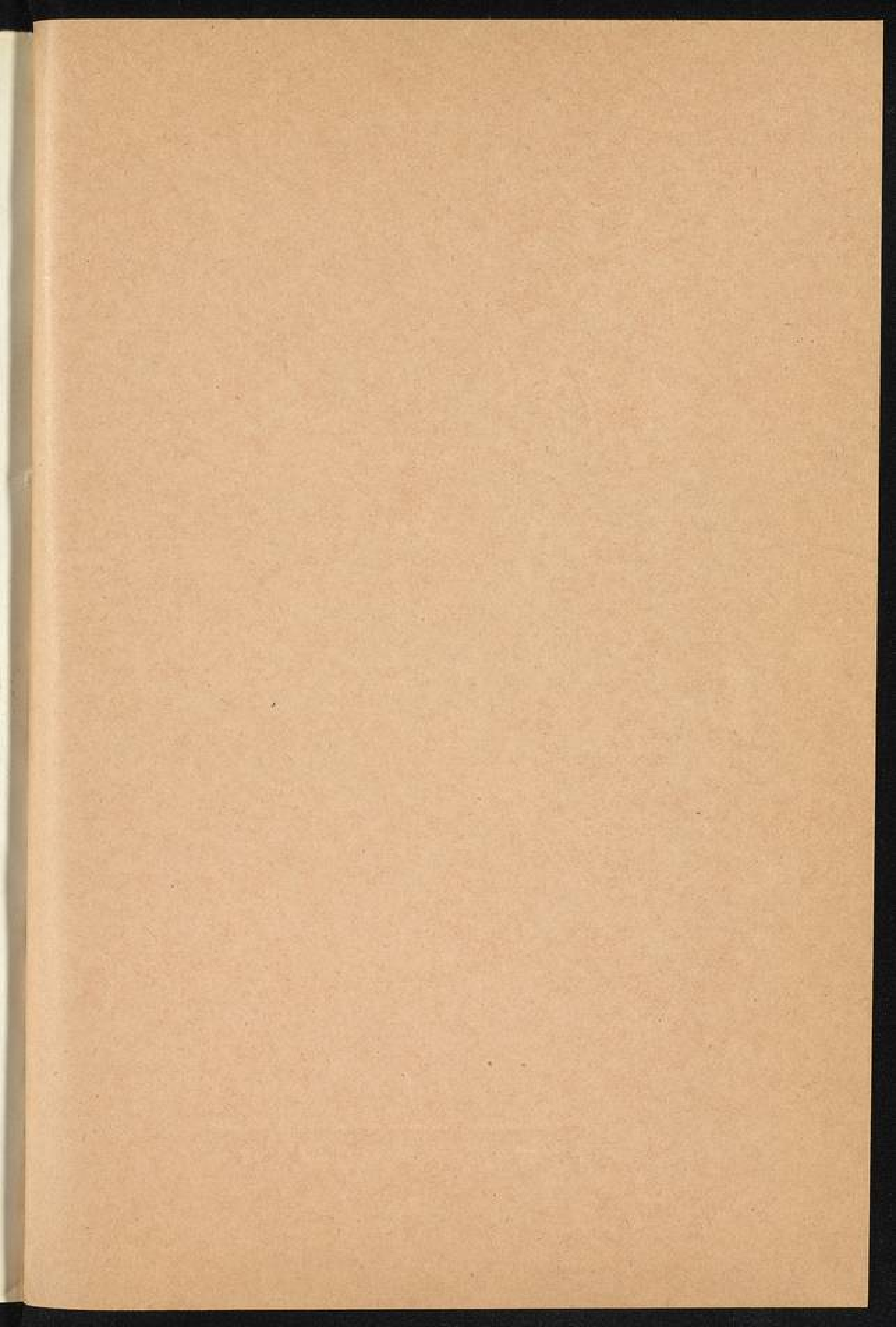
حققه وعلق عليه ووضع فهارسه

عمر رضا كحاله

سلسلة بلادنا

٤

١٣٨٣ ﻫ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦٣ م





وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

تاريخ معرة النعمان

تأليف

محمد سليم الجندي

الجزء الأول

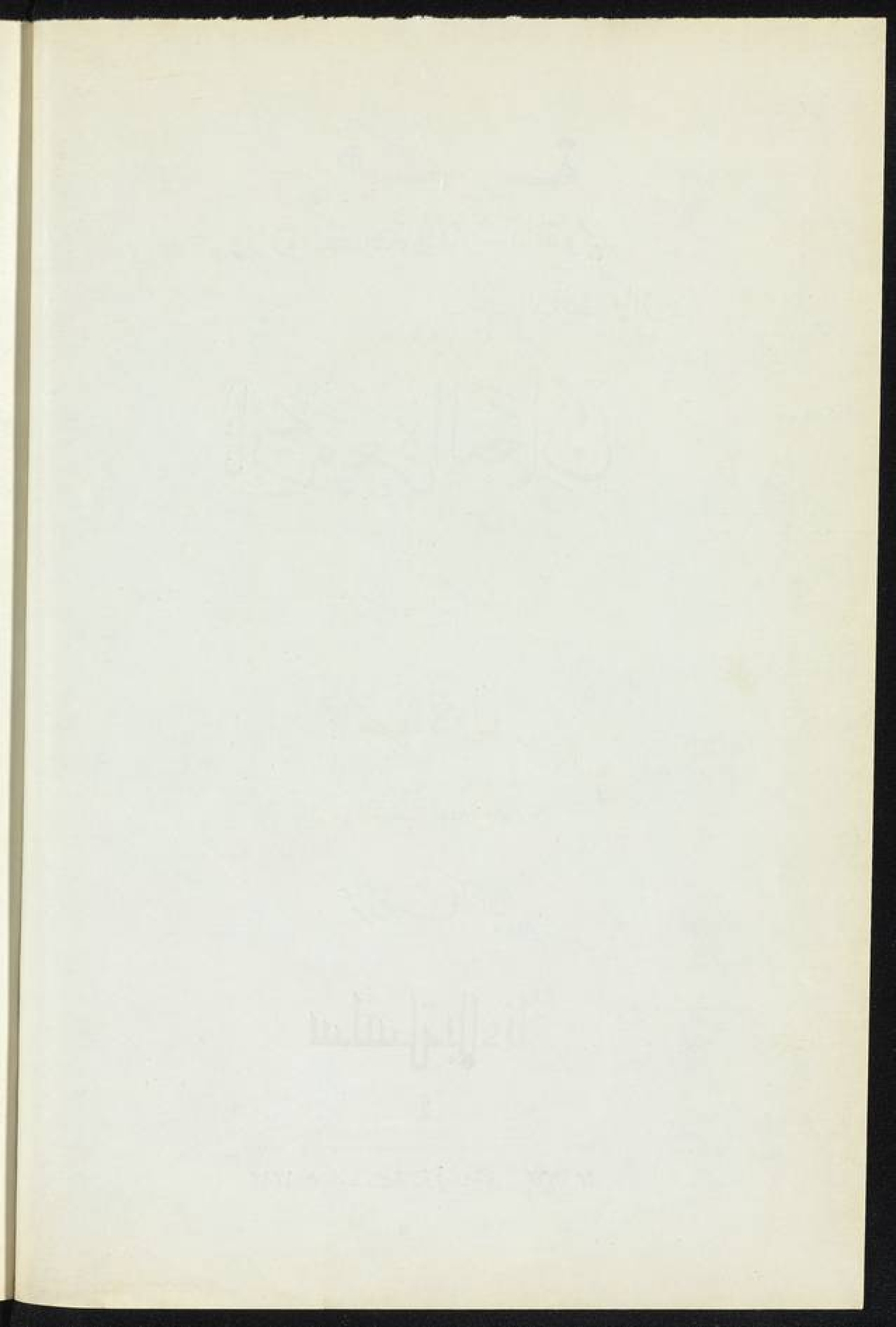
حققه وعلق عليه ووضع فهارسه

عمر رضا كحاله

سلسلة بلادنا

٤

١٣٨٣ هـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦٣ م




بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المحقق

عهدت اليّ وزارة الثقافة والارشاد القومي السورية ، في ٩ كانون الأول ١٩٦٢ م ، بمراجعة مخطوطة تاريخ معرة النعمان للاستاذ المرحوم محمد سليم الجندي ، واستدراك ما فيها من نقص ، وتكملة المعلومات والاحصاءات التي ذكرها المؤلف ، وقد تجاوزها الزمن ، وحذف ما ينبغي الاستغناء عنه .

وقبل أن أشرع في تحقيق التاريخ المذكور ، رأيت من الواجب علي أن أرحل الى معرة النعمان للتعرف على معالمها ، واستطلاع أحوالها ، فقدمت اليها ، ورغبت الى مدير منطقتها الدكتور أكرم الخاني ، أن يمد اليّ يد العون في تقديم المعلومات والاحصاءات اللازمة للمؤلف المذكور ، فلبى طلبي ، وكتب الى الدوائر ذات العلاقة بجمع المعلومات المقترحة وارسالها اليه .

وقد رافقني في هذه الرحلة السيد فائز السراج ، احـد موظفي المركز الثقافي بحماة ، لتصوير بعض معالم المعرة ، وكان مرشدنا في تلك الجولة السيد ناصر الجندي احـد مساعدي المرحوم المؤلف في بحثه عن المعرة .

ولما عدت الى دمشق بحثت في العمل الموكول اليّ ، وشرعت افكر في ترتيب الكتاب وتنسيقه ، وظللت مدة افكر في تغيير ترتيب المؤلف وتعديله وحـذف مواد واثبات مواد اخرى ، وبعد البحث الدقيق والتفكير العميق رجحت أن اترك التاريخ المذكور على حاله ، وان اضيف اليه ما استجد من معلومات واحصاءات ، واعلق عليه تعليقات توضح الغامض منه ، وتعين القارىء على فهم مضمونه ، فضبطت كثيراً من الأعلام التاريخية والجغرافية ، وفسرت بعض الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، المستعملة في بعض الأزمنة الغابرة ، وقد أشرت برمز (ج) الى تعليقات المؤلف ، وسأتبع ان شاء الله بهذا التاريخ فهرساً مفصلاً يكشف للباحث ما يبتغيه بدون عناء ونصب .

أما المؤلف رحمه الله فقد عرفته في سنة ١٩٣٠ م ، حيث قدمني اليه الاستاذ المرحوم محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي

العربي بدمشق ، على طريقته في تشجيع الشادين ، فرد عليه المؤلف بكلمات تكشف عن نفس لا تؤمن بما يقال لها الا بعد التأكد من صحة القول .

وتلك ظاهرة لمستها في تأليفه ، حيث ينقل أقوالاً كثيرة في الموضوع الذي يعـالجه ، ثم ينتهي به المطاف الى الشك بكل ما قيل فيه .

ومن أبرز صفات المؤلف انه شديد التمسك بدينه وقوميته مما جعله أحياناً يقسو على بعض الجماعات أو الأفراد ، فينعتهم بنعوت غير مستحبة ، وهي لا تزال بحاجـة الى مزيد من البحث والتمحيص .

وأما مؤلّفه تاريخ معرة النعمان فيضم بين جانبيه ابحـاثاً متعددة ومتنوعة ، يمكنني أن اوجزها بما يأتي : تعريف معنى المعرة اللغوي والعرفي ، ذكر المعرة في شعر ابنائها وفي نثرهم ، المعرة في القديم ، المعرة بعد جلاء الترك عنهـا ، لغة المعرة وحياتهـا الدينية والاجتماعية ، خصائص المعريين ، سورية والفرنسيون ، طول المعرة وعرضها وارتفاعها عن سطح البحر

والطرق المارة بها ، عدد نفوس المدينة وما الحق بها ، حكومة المعرة ومقرها ، المكاتب والمدارس والزوايا والمساجد في المعرة ، بناء ضريح أبي العلاء الجديد والمهرجان الألفي لأبي العلاء ، الخانات والحمامات والمقاهي والأسواق والدكاكين والدور والمساكن والمعاصر في المعرة ، المياه التي هي خارج المعرة ، أودية المعرة وتلالها ، القباب ومحلات مدينة المعرة واماكنها المشهورة ، الحصون بالمعرة وضواحيها ، عادات أهل المعرة في الولادة والزواج والوفاة وغير ذلك ، القرى والمزارع التابعة للمعرة ومقدار ما في كل منها من النفوس مرتبة على حروف المعجم ، وبيوت المعرة وأسرها المعروفة في القديم والحديث وأعلامها المشهورين من علماء وقراء ومحدثين وشعراء وكتّاب وادباء وامراء ووزراء وعمال في الحكومة وتجار وغيرهم .

هذا مجمل ما في الكتاب من ابحاث قيمة ، تحتاج الى جهد كبير وعمل متواصل لمعرفة مصادرها ، وهي غالباً متفرقة ومشتتة في عدة كتب مختلفة المواضيع والمباحث ، لا يقوى على جمعها وتنسيقها الا من أوتي صبر المؤلف وسعة اطلاعه وتضلعه في العلوم العربية والاسلامية .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد فاني بعد أن أنهيت الدراسة في مدرسة الحكومة الرشدية في المعرة نحو سنة ١٣١٢ هـ ، انصرفت نفسي إلى دراسة العلوم الشرعية واللسانية والعقلية على ندرتها في المعرة في ذلك العهد .

وكان والدي تغمده الله برحمته مَغْرِيًا(١) بشعر أبي العلاء وآثاره ، حريصاً على أن أطلع عليها وأحفظ منها ما يقع الي ، فكان إذا ظفر بشيء منه أمرني بحفظه ، وكنت كلما اطلعت على شيء جديد من كلامه ازددت رغبة في الاطلاع على غيره لأن آثاره كانت أندر من الكبريت الأحمر ، وأعز من بَيْض الأنوق(٢) ، وقد أتيح لي في سن الحداثة وعهد الدراسة والتعليم ،

---

(١) غري بالشيء : أولع به .

(٢) الأنوق كصبور : العقاب من جوارح الطير ، وفي المثل : أعز من بيض الأنوق : لأنها تحرزه في أوكارها في القلل الصعبة فلا يكاد يظفر به .

أن أطلع على تراجم رجال من أعيان المعرة وأعلامها، وأقف على الجيد والنفيس من أقوالهم وآثارهم، فنزعت نفسي الى الوقوف على معرفة أبي العلاء ونسبه وبلده ومذاهبه في الأدب والفلسفة.

وطمحت الى معرفة طائفة من رجال المعرة، لأني رأيت فيهم القارئ المجود، والمفسر المحقق، والمحدث المُوَثّق، والفقيه النحرير، والكاتب المبدع، والشاعر المفلق، والمتفنن المخترع، والصوفي الزاهد، ولا تكاد تجد طائفة من علماء في علم إلا وجدت في رجالها أناساً من المتقدمين في ذلك العلم، وكذلك رأيت فيهم القاضي المتثبت، والمفتي المتحري والمعدود من رجال الدهر، ومن المنجّذين (١) في السياسة وولاية الأمر، وما عرفت رجلاً في القديم والحديث نال الإمارة بشعره إلا رجلاً من المعرة

ونظرت إلى ما وصلت اليه المعرة في العصور الماضية، من سعة العمران، وازدهار الحضارة، وزخور العلم، وكثرة العلماء والشعراء والمؤلفين، وإلى ما انتهت إليه في عهد الحكومة التركية من الخراب والانحطاط، وتفشي الجهالة وندرة النابهين، من العلماء والنابغين من الشعراء، فرأيت البون شاسعاً بين العهدين.

---

(١) المنجّذ كمعظّم: المجرب والذي أصابته البلايا.

لأن المعرة في القرن الرابع والخامس والسادس ، على حسب ما رأيت ، كانت تعج بالقراء والمفسرين والمحدثين واللغويين والمؤرخين والشعراء والمؤلفين في علوم مختلفة .

وفي الزمن الذي تركتُ فيه المعرة ، وفيما قبله وبعده ، إلى أن جلت عنها الأتراك ، كانت خالية من عالم حقيقي ، أو كاتب صحيح العبارة ، أو شاعر يحسن نظم قصيدة سالمة من اللحن والخلل في الوزن .

وحسبك دليلاً على ما ذكرت أن أبا العلاء درس ثقافته الواسعة على جماعة من أهل بلده ، ولم يصح أنه قرأ على أحد من غير أهل بلده ، ولا حدثته نفسه باجتداء علم في غير بلده ، وأن ثمانين شاعراً أو أكثر وقفوا على قبره يوم وفاته ، ولم يحدثنا التاريخ أن أحداً منهم كان غريباً عن المعرة .

وان الناس في نحو سنة ١٣١٩ هـ كانوا إذا أرادوا أن يمدحوا رجلاً ويصفوه بالفضل ، قالوا : إنه كاتب قارىء ، وإذا أرادوا أن يبالغوا في الثناء عليه قالوا : كاتب قارىء ، تركي عربي ، وملأوا أشداقهم بهذه الكلمات لتدل على عظم الممدوح ، وعظم

ما مدح به ، وقد رأيت في المعرة مئات من رسائل الأحياء والأموات ، من رجال القرن العاشر إلى زمن هجرتي ، ومئات من الفتاوى والحجج والصكوك التي تصدر عن المحاكم وغيرها ، وكثيراً من النظم والنثر ، ولا أذكر أني رأيت شيئاً منها سالماً من الخطأ واللحن إلا في النادر .

وليست هذه البلية مختصة بالمعرة والمعريين ، بل كانت أمهات المدن السورية ، بل الأمة السورية كلها على هذه الشاكلة في تلك العصور .

فاني رأيت كثيراً من القصائد والخطب ، والرسائل الأخوية ، وفتاوى المفتين وحجج القضاة وأحكامهم وصكوك المحاكم وغيرها ، وبعض الرسائل والكتب لعلماء دمشق وغيرهم ، وكلها طافحة بالخطأ واللحن في صيغ الألفاظ وإعرابها ، ولا أكون مغالياً إذا قلت : إن أكثر البلاد السورية في هذا العصر لم تتغير حالتها بتغير الزمن .

ومن نظر نظرة إنصاف إلى فتاوى المفتين في هذا العصر ، وإلى الحجج والأحكام التي تصدر عن المحاكم الشرعية والمدنية ،

وإلى الصكوك التي ينظّمها كتّاب العدل ، والاتفاقيات التي يكتبها المحامون ، والمقررات التي تصدر عن المجالس النيابية ، والقوانين التي تسنها الحكومة . والمراسيم التي تصدر عن رؤسائها ، والأوامر التي تصدر عن الوزراء وغيرهم ، يجد فيها غرائب من اللحن وفساد التركيب .

وإن كنا لا ننكر أنها أحسن حالاً مما كانت عليه ، قبل نصف قرن فأكثر ، وهذا يدلنا على أمور : الأول ان الحكومة التركية كانت في عهدها الأخير جاهلة بسياسة الشعوب المنضوية تحت رايتها ، غافلة عما يجب عليها ، غارقة في سباتها العميق .

وأدل شيء على ذلك أنها كانت تشتغل في إخماد الفتن في مكان ، وإثارة الفتن في مكان آخر ، لتتخذ ذلك وسيلة لتوطيد قدمها في بعض الأمصار ، وفرض سيطرتها على بعض الشعوب ، وأنها كانت تجعل الولايات لقاء مال معين ، وانها ترخي العنان لبعض عمالها ، حتى يمتص أموال الأمة التي يولى عليها ، ثم تستصفي أمواله ، فكان العمال جباة للوزراء والملوك ، وهذه المجموعة تنعم من شقاء الأمة ، وكان هذا وأمثاله هو الشغل الشاغل لرجال الدولة وقصور الخلفاء ، وبينما هم منغمسون في

هذه الحمآت . جادون في الحيلولة بين الشعوب والعلم، بل بين أنفسهم والعلم ، طلعت عليهم أوربة بالقوى والأعتدة التي لم تكن في حسبانهم ، ما بين بنادق ومدافع ، وهددتهم بالدبابات والمصفحات، وغيرها من الأدوات التي تفتك على وجه الأرض ، وبالمدرعات والغواصات في جوف البحر وعلى وجهه ، وبالطائرات في أجواء الفضاء ، ولا تزال تطلع عليهم في كل يوم جديد ، بنوع جديد من الأسلحة التي تبيد الإنسان، وتقوض العمران ، وهم يجدون ويدأبون، ليدركوا شيئاً واحداً فيفوتهم أشياء .

وان أمة هذا شأنها بالنسبة إلى مصلحتها ، لا يرجى منها لغيرها إلا التدمير والتأخير ، وقد فعلت ، وكان من حماقتها في السياسة أنها كانت تعمل على إبقاء الشعوب التي تحت سيطرتها منغمسة في حمأة الجهل ، لأن إذلالها وهي جاهلة أيسر منه وهي عالمة ، وقد فاتها ان الشعب الجاهل الذي تحكمه ، يسهل على أعدائك صرفه عنك وجذبه اليهم .

وان دول أوربة فتحت مدارس مختلفة في العواصم والأمصار والقرى ، وقضت على الأمية ، ونبغ فيها مخترعون في كل فن ،

والدولة العثمانية لم تحدث مدرسة ابتدائية في المتصرفيات والأقضية، إلا في العهد الأخير .

وان المدارس الرشدية والابتدائية ، التي أنشأتها في الأقضية ، لا يستفيد منها أحد إلا الموظفون في العمل فيها ، فانهم يتناولون المرتب الشهري ، والاطفال لا يتعلمون إلا الشيء اليسير ، وهو تعلم الخط والاعمال الاربعة من الحساب .

وكانت الحكومة التركية تضن على العرب عامة والسوريين خاصة ، فلا تفتح لهم مدرسة ثانوية ولا عالية ، ولا ترشدهم الى شيء من هذا .

ولولا أن ترى المدارس الاجنبية التبشيرية ، قد انتشرت في مصر ولبنان ، لما فتحت كتاباً في بلد عربي ، وخلاصة ما يتحصل للمستقري الباحث عن أحوالها في تلك العصور ، انها كانت عاجزة عن إدارة نفسها ، وعن حماية بيضتها والذود عن حياضها .

الامر الثاني ان الامة السورية كانت في ذلك العهد ، مؤلفة من أخلاط ، وعناصر مختلفة ، وقد كانت الكلمة المطاعة فيها

للأعاجم والمستعجمين ، وقد دهمتها فواجع وغشيتها غواش من من الخمول والخنوع ، فانحلت كل آصرة تربط الفرد بالفرد ، والجماعة بالجماعة ، فكانت جمهرة الحكام والعمال والمتغلبين من الغرباء ، وكانت لهم الكلمة النافذة والسيطرة القاهرة ، وهؤلاء لا يهمهم إلا أن يعيشوا عيشة راضية ، وأن يشبعوا نهماتهم ، ولا يبالي الواحد منهم بعد ذلك أأصبحت البلاد عامرة ، أم غامرة ، ولا يضيره أكان الشعب في نعيم أو بؤس ، أو في جهالة أو علم ، بل يسره أن يكون الشعب كالأنعام ، يسخره في منافعه ، ويصرفه في سبيل ملاذه ، وإذا قلب الدهر له ظهر المجن ترك البلاد في شقائها ، وفر إلى بلاده أو بلاد غيرها .

فكان السوري الحقيقي المستضعف ، يسعى جهده لإرضاء المتغلب ليدفع عنه شره ، أو يقلل من أذاه ، ويعمل ليلاً ونهاراً ، ليبذل له ما يرضيه من الأموال ، ويعد نفسه موفقاً إذا استطاع أن يرضيه بكل ماليديه .

ولا يزال السوري على هذه الوتيرة إلى يومنا هذا ، يسوده الغريب ، ويتولى أمره الاجنبي ، فيحلب دره ، ويمتري خيره ، ويسخره في مصالحه ، ويمتهنه في عقر داره ، وهو أطوع له

من بنانه ، وأتبع من ظله ، وربما كان عوناً للغريب على أخيه وعيناً له .

ففقد السوري بسبب ذلك كل مقوماته ومميزاته من غيره ، وأصبح لا يعد في العير ولا في النفير ، فليس له كيان يستقر عليه ، ولا لون يثبت عليه ، وإنما هو كالماء يتلون بلون ما يجاوره أو يخالطه ، وقد يئس من خير الحياة كلها ، فأصبح أكبر همه أن يعيش مستوراً أو يموت مستوراً ، بعد أن كان يطمح إلى معالي الأمور ، وكلما بلغ منزلة عالية اشرأبت نفسه إلى ما هو أعلى منها .

رأيت هذا كله وأشباهه ، فساءني أن يجهل أبناء هذه المدينة خاصة ، والناس عامة ، من تاريخها وآثار بنائها وأبنائها ، ما يرفع الرأس ، ويقر العين ، ويبهج النفس ، وأن لا يعلم الأسباب التي شوهت نضارتها وقوضت حضارتها .

فحبب الي أن أجمع ما أستطيع جمعه ، من أخبار هذه المدينة الفاضلة ، وأخبار أهلها ، وأضم إلى ذلك ما أقف عليه من آثارها وآثارهم ، حتى لا ينسى ماضيها وماضيهم ، ولا يقنط من مستقبلها ومستقبلهم ، فان الذين عمروها في الماضي بأيديهم ،

وشهروها بألسنتهم وأقلامهم ، كانوا أناساً مثلنا ، وفي وسعنا أن نعمل ما عملوا لنترك ما تركوا من الذكر الحسن والأحدوثة الطيبة .

ومن البيّن أن المعرة لم تكن في القديم والحديث ، عاصمة لدولة معظمة ، ولا مقراً لملك من الملوك ، ولا شاطئاً يتخذ ثغراً لإقليم ، ولا معقلاً يذود عن حياض مملكة ، ولا وهبتها الطبيعة مما يجعلها محجاً يؤمه الناس من كل حدب وصوب ، فليست فيها بحسب ماعلمنا وما سمعنا أنهار جارية ، ولا معادن مغرية ، ولا مقاطع نادرة .

وإنما منحتها الطبيعة مركزاً ، جعلها حلقة واصلة بين غربي آسية الجنوبي ، وشرقي افريقية الشمالي ، ومجازاً يعبر عليه أهل الشرق الى الغرب براً وبحراً ، فهي بهذا الاعتبـــار ملتقى الشعوب والأمم .

ورزقها الله من عذوبة الماء ، ورقة الهواء ، وطيب المناخ ، ما جعل المقيم ، أو المار فيها يستطيب الإقامة ، وجعل فيها مما يدرّه الضرع ويخرجه الزرع ، ما يصبي النفوس ويطيبها ، كما جعل في سكانها من الخلال المحمودة والمزايا المحبوبة والعبقرية

الباهرة ، ما يحمل الناس على أن يقصدوها ، وبذلك كونت من نفسها لنفسها مركزاً ، يغري الطامعين في الفتح ، والاستيلاء على الشعوب ، وموارد الثروة ، والطامحين الى اقتباس العلم والادب من منابعه الثرّارة .

ولما أجمعت أمري على الشروع في تاريخ للمعرة ، يشتمل على أطوارها في العصور المختلفة ، ويضم طائفة من علمائها وأعلامها في تلك العصور ، اعترضتني عقبات صعبة المرتقى ، وعقد عسيرة الحل ، وهي كثيرة منها :

١ ـ أنني لم أطلع على تاريخ مختص بها ، أتخذه أساساً أقيم عليه بنائي ، ونبراساً أهتدي به في هذا الطريق الاقتم المبهم .

٢ ـ أن كثيراً من النساخ لا يتحرون الحقيقة في النقل ، وإنما يتسامحون فيه ، فيضعون موضع الكلمة ما يشابهها أو يقاربها ، وأكثر ما كنت أجده من هذا النوع لفظة المصري والمُقْرِي والمَقّري والمغربي وأشباهها ، بدلاً من لفظ المعري وبالعكس .

فكنت أصرف جهداً عظيماً في التمحيص والتثبت ، والرجوع إلى المظان ، لتنكشف لي الحقيقة في ذلك ، وربما كنت لم أسلّم من خطأ في هذا الباب .

٣ ـ أنني لم أقف على تاريخ للبلاد السورية ، يذكر في كل بلدة ما يتعلق بها من الناحية السياسية والدينية والاجتماعية وغيرها ، ولا كتاباً يستوعب طائفة كبيرة من أهلها ، وكل ما استطعت الوقوف عليه بعد عناء طويل وجهاد شديد ، هو أنني وقفت على طرف من أخبار المدينة ، وما انتابها من جور الإنسان في الحروب الصليبية ، والفتن والحروب التي أعقبتها من المتنفذين والفاتحين والمتغلبين والمعتدين من الحاضرين والبادين .

وطرف آخر مما أصابها من قسوة الطبيعة ، من زلزال يقوض عمرانها ، الى قحط يميت إنسانها وحيوانها ، إلى طاعون يبيد سكانها ، الى فتن تمحو حضارتها وتشوه نضارتها .

وكثيراً ما كنت أتصفح الكتاب الذي تتجاوز صفحاته الألوف ، ولا أجد فيه إلا النزر اليسير من مطلبي هذا ، وربما خرجت من الكتاب ، ولم أعثر على قليل ولا كثير ، فاحتملت هذا وذاك ، وقابلت بالصبر والتجلد كل عائق ، ودفعت كل مثبط ، وصرفت كل صارف عن العمل ، حتى تيسر لي جمع شيء إذا توفر المرء على قراءته ، وقف على شيء من أخبار

المدينة ، وعرف طائفة صالحة من علمائها ومؤلفيها وشعرائها وأدبائها ، ورآه صالحاً لأن يكون أساساً يبني عليه من يحاول إتمام هذا العمل من بعدي .

وقد استفرغت المجهود في البحث والتنقيب والتحري ، في ماهو مظنة لهذا الغرض .

فتتبعت حجج المحاكم والصكوك والوثائق والفرامانات ، وأوامر الحكام ومضابط المجالس وتوليات المتولين ، ومكاتبات الولاة والعمال والامراء والقواد ، وظهور الكتب والرسائل ، وما أشبه هذا .

وجمعت ما استطعت الوصول اليه ، مما كتب في جدر المساجد والتكايا والزوايا والرُّبط والمعاهد الدينية والمدارس والمنائر والقبور والحفائر وما شاكلها ، وفتشت عما يتعلق بهذا الغرض في كتب التاريخ والطبقات والتفسير والحديث والفقه والادب واللغة .

ولم أدخر وسعاً في هذا السبيل على قدر ما سامحت به الأيام ، وساعدتني عليه الحال والصحة ، وأفرغت عصارة هذا المجهود في هذا الكتاب .

وهو على صغر حجمه قد أحوجني إلى عمل شاق في التنقيب والجمع وتمحيص الحقيقة ، من أقوال متضاربة وآراء متشعبة وألفاظ محرفة ، وإبطال ما زعمه بعض الرواة والعلماء ، وإقامة الادلة على صحة ما أقول ، وبطلان ما يقول هؤلاء ، ويجوز لي أن لا أستصغر عملي هذا ، لأني جعلت شيئاً من لا شيء ، وبنيت هيكلاً من مادة كانت مبعثرة في بطون الكتب ، وصغت حلياً من معدن ، كانت ذراته متفرقة في نواحي الارض المختلفة ، تفرق ذرات الذهب في بطون معادنه ، وغرست نواة سوف يحمد الناس ثمرتها ، وإني لأرجو الله أن يهيء لها من يتعهدها حتى تتم الفائدة المتوقعة من غرسها ، ويدعو من ينتفع بها بالخير لي ولوالديّ اللذين ربياني صغيراً وعلماني كبيراً ، ولشيوخي الذين أناروا لي السبيل وذللوا لي كل أبيٍّ ، وتعهدوني حتى استفدت وأفدت .

وكنت أود أن أقسم هذا الكتاب ، فأجعل قسماً منه خاصاً بعمران المدينة ، وثانياً خاصاً بحياة أهلها الاجتماعية ، وثالثاً بحياتهم السياسية ، ورابعاً بحياتهم الدينية ، وخامساً بحياتهم العقلية ، وأبين أطوار كل نوع في كل عصر على حدة وأبين

أسباب الارتقاء والتوقف والانحطاط في كل زمن ، لتكون الفائدة أعم وأجزل ، ويكون تناولها أيسر وأسهل ، ولكني وجدت ذلك مستحيلاً أو قريباً من المستحيل ، لأسباب جمة منها :

١ ـ فقد المظان التاريخية الكافية لتحقيق هذا الغرض .

٢ ـ فقد الوسائل اللازمة للتنقيب والتفتيش في بطن الارض ، وفوق ظهرها ، عن الآثار التي يتطلبها البحث والتحقيق .

٣ ـ عدم معرفتي بالآثار وما يميز كلاً منها في كل عصر وجيل ، وعجزي عن الاستعانة بفريق من العلماء الحاذقين بهذا الفن .

٤ ـ عدم مساعدة الايام على فراغ من العمل ، وسلامة من العلل ، لا تمكن من استيفاء كل ما أريد من بحث واستقصاء في سفر أو حضر .

فآثرت الاكتفاء بما سمحت به الايام وبلغته القدرة .

على أن ما جمع في هذا الكتاب يدل بصورة موجزة ، على ما وصلت اليه المدينة في عهد ارتقائها وانحطاطها ، ويمثل صورة مجملة عما بلغ إليه أهلها من الرقي الفكري ، ويرينا مثالاً صالحاً من النوابغ والعباقرة من أهلها في بعض العصور .

وبعد كل ما تقدم فان عملي هذا لا يسلم من خطأ وتحريف وغفلة ، لفقد المصادر الصحيحة ، ولكثرة التشابه بين لفظ المعري وغيره مما سبق ذكره ، ولتضارب الأقوال في الحوادث وتواريخها .

ولكني بذلت الجهد في الجمع والتحري ، وإني أرجو من وقف على خلل أو تحريف ،أو خطأ فيه أن يرشدني اليه ، أو ينبه القراء له ، وفي كلتا الحالتين أكون من الشاكرين له .

محمد سليم بن محمد تقي الدين الجندي

★ ★ ★

مَعَرّةُ النُّعمان

معنى المعرة اللغوي والعرفي

لفظ المَعَرّة، على وزن مَسَرّة، جاء في اللغة لمعان كثيرة، منها: الإثم، والغرم، والأذى، والدية، والجناية، وتلون الوجه من الغضب، والشدة، والأمر القبيح والمكروه، وموضع المعَرّ وهو الجرب، وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي.

وقد قيل لرجل نزل بين حيين: أين نزلت؟ قال: بين المَجَرّة والمَعَرّة، والمجَرة البياض الذي في السماء، والمعرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي، وسميت بذلك لكثرة النجوم فيها، وقد أراد بين حيين عظيمين، وأصل المعرة موضع العَرّ أي الجرب، ولهذا سموا السماء الجرباء، لكثرة النجوم فيها، فهي تشابه الجرباء.

ويقال: أرض معرة اذا انجرد نباتها، وارض معرة قليلة النبات .

وفي كلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: اللهم إني أبرأ اليك من معرة الجيش ، أي أن ينزلوا بقوم ، فيأكلوا من زروعهم بغير علم ، أو أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمعرة اسم لهذه المدينة ، ولقرى كثيرة من عَمَلها ، وعمل حماة ، ودمشق ونَصِيبين ، وغيرها ، منها : معرة عَلْياء من بلد المعرة المذكورة ، ذكرها ياقوت في المشترك[1] . وفي التاج[2] : «هي محلة في المعرة ، ولا تعرف في هذا العهد ، والمعروف انها قرية بقرب سَرْمِين من عمل إدلب» .

ومعرة حِرْمَة: قرية بالقرب من كَفَرْطَاب ، كما قال ياقوت[3] .

ومعرة بَيْطَر : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماتِر .

ومعرة عرب : من نواحي المعرة ، وكذلك معرة ماتِر .

ومعرة الصين : وهي الآن مزرعة في الجهة الغربية ، من قرية كَفَرْنَبِل : على بعد ساعة منها .

---

(١) ياقوت : المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٤٠١ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ .

(٣) ياقوت : المشترك ٤٠١ .

ومعرة راف .

ومعرة سمولين : من نواحي أفامية .

ومعرة الإخوان .

ومعرة مَصْرِين ، أو نسرين : من عمل إدلب .

ومعرة باش : قرب يَبْرُود .

ومعرة صَيْدَنايا : قرب منين ، وكلتاهما من أعمال دمشق .

وفي عمل معرة النعمان ، ومايقرب منها ، قرى كثيرة ، اسمها مَعَر بلا تاء ، مضافاً الى اسم آخر .

منها مَعَرْشَمْشَى : من عمل المعرة ، ولعلها التي تسمى الآن معر شِمشَى .

ومَعْرَاثا : وهي قبلي المعرة ، على الجادة الآخذة الى حماة ، ويقال لها الآن : معراتا بالتاء المثناة ، وابدال الثاء بالتاء كثير في المعرة وغيرها .

ومعر شِمّارين : من ناحية المعرة .

ومعر دِبْسَى : على الطريق الآخذة من المعرة إلى إدلب .

ومعر تارح : من نواحي كَفَرْطاب ، في شماليها .

ومعر تَرْوَح : بفتح التاء ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وحاء مهملة ، وهي على الجادة الآخذة من كفرطاب إلى حماة ، ولعل أصل هذه ، والتي قبلها معرة آرح ، ومعرة أَرْوَح ، فسهلت الهمزة فيها ، ونقلت حركتها إلى ما قبلها .

ومعرشَمْسين : من أعمال كفرطاب .

ومعر زاف : من عمل إدلب .

وفي تاج العروس [1] : ان مَعَر - بلا هاء - اسم لاحدى عشرة قرية ، كلها بأعمال حماة ، ومَعَرّين بزيادة ياء ونون بلد بنواحي نَصِيبين ، وقرية بشَيْزَر ، وأخرى بحماة ، وأخرى في عَزاز ،

وإذا تأملنا المعاني المتقدمة للفظ المعرة لا نجد معنى مناسباً تمام المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقاً منه ، وإذا أمكن ذلك بضرب من التأويل في هذه المدينة ، تعذر مثله في غيرها ، ولذلك اختلف العلماء في معناها الذي اشتقت منه ، فزعم بعضهم [2] : ان المعرة معناها المَغارة ،

---

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب تاريخ في حلب ١ : ٤١٧ .

وانها سميت بذلك لأن هذه المدينة مشتملة على كثير من المغاور ، وأن أصلها في السريانية مَعَرْتا ، فتصرف بها العرب ، وقالوا : معرة ، وتاؤها في اللغتين للتأنيث .

وقال آخر : لا يبعد أن يكون هذا الأصل في تسميتها ، فإن أكثر اسماء القرى والمدن في الشام ، جاءت من الآرامية والسريانية .

وزعم آخر ، فقال : يخيل الي ان أصله مُعرّس ، ثم ابدلت التاء من السين ، وتلك لغة من لغات العرب ، ولما طال العهد على استعمال هذه الكلمة ، فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي يألفها العرب المتكلمون بها .

وزعم آخر : أن أهل المعرة كانوا يسكنون سِيَاث ، فلما افترس السبع ولداً للنعمان . دفنه في موضع المعرة ، وقال لأهل سِياث : من كان يودني فليبنِ له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته ، فبنى الناس المعرة كما سيأتي .

وزعم آخرون غير ذلك ، وقد سألت أحد العلماء باللغة السريانية ؟ فقال : إن لفظ المعرة سرياني ، أصله معرتا ،

ومعناها المغارة والجمـــع مْعَرِّي ، بامالة الراء نحو الكسرة ، لا بالكسرة الخالصة .

وإذا أمعنا النظر في هذه الأقوال وغيرها ، تبين لنا أنها كلها من باب الظن والتخمين ، وحب الإتيان بالغريب ، وتعليل الشيء بعد وقوعه ، ومثل هذا لا يصح أن يبنى عليه حكم موثوق به ، وانما يتوقف على دليل تاريخي ، خال من الشبهة والشك ، وهذا لم نجده على كثرة بحثنا عنه ، ولا نظن ان أحداً وجده ، أو يجده ، وإذا سلمنا بعض هذه الأقوال ، أو كلها ، تعذر علينا معرفة الشخص الذي حرف هذا اللفظ ، والاشخاص الذين حرفوه ، ومعرفة الزمن الذي حرف فيه ، والسبب الحامل على تحريفه ، ثم اننا لا نعلم بعد ذلك من أين جاء تشديد الراء ؟ مع أن الغالب في التحريف إرادة التخفيف ، لا التشديد .

وإذا أمكننا شيء من التأويل والتوجيه في معرة النعمان ، استعصى علينا مثله في بقية الأماكن والقرى المسماة بالمعرة ، والمضافة إلى لفظ آخر ، كمعرة الصين ، أو بَيْطَـر ، أو الاخوان ، وغيرها ، لأن التاريخ لم يخبرنا بأن الصين أو بيطر أو الاخوان ، نزلوا هذه

الاماكن ، كما لم يعرفنا من هم هؤلاء ؟ وبناء الحكم على ظنون واهية ، لا قيمة له في نظر العلم ، وقول أبي العلاء :

يُعَيِّرُنا لَفْظَ المَعَرَّةِ أنها   مِنَ العَرِّ قَوْمٌ في العُلا غُرَبَاءُ

* * *

وَمَا لَحِقَ التَّثْرِيبُ سُكَّانَ يَثْرِبٍ   مِنَ النَّاسِ لَكِنْ في الرِّجالِ غَبَاءُ[1]

يشعر بأن لفظ المعرة مأخوذ من العَر ، وهو لا يعيب أهل هذه المدينة ، كما ان اشتقاق أو أخذ « يَثْرِب » من التثريب ، لم يعب أهل المدينة المسماة بهذا الاسم ، ولا يمكن أن يراد من هذا البيت غير هذا المعنى ، اذ لا يستقيم التمثيل بالبيت الثاني إلا إذا حمل على هذا الوجه والتأويل ، وذلك يعيّن أن يكون المراد اشتقاق المعرة من العَر في رأي أبي العلاء .

والذي أعتقده أن جميع الاسماء لا تعلل ، ولا يجب أن يكون بينها وبين مسمياتها مناسبة ، ولا يجب أن يكون لها أصل تشتق منه ، وإذا تسنّى لنا وجود شيء من هذا في بعض الأسماء

---

(١) أبو العلاء المعري : اللزوميات ٢١ : وفيها :

« وهل لحق التثريب . . .   لا بل في الرجال . . . »

فلا يجب أن يكون ذلك عاماً مطرداً في كل اسم ، ولا سيما أسماء الأعلام للأشخاص والأماكن .

وان التزام مثل هذا اضطر كثيراً من العلماء الى أن يأتوا بضروب من التأويل البعيد عن العلم ، وعن مقاييس اللغة في تعليل الاسماء ، وبيان أصولها التي اشتقت منها ، كما نرى ذلك في مثل دمشق ، وحلب ، وحماة ، وحِمْص ، وإدلب ، وغيرها .

وإذا لم يكن لنا بد من التعليل وردّ الاسم الى اصل كيفما كان ، فإن أقرب الوجوه الى السداد أن نقول : إن المعرة مأخوذة من السريانية ، ثم حرّفها العرب على نحو ما تقدم .

هذا إذا لم نقل : إن اصلها عربي أخذها السريان من العرب ، أو انها مما اتفق فيه اللغتان ، فهي أصل في كليهما .

النعمان الذي أُضيفت اليه المعرة :

اختلفت كلمة المؤرخين في النعمان الذي أضيفت إليه هذه المدينة اختلافاً شديداً ، فذهب فريق الى انها أضيفت الى النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي الجليل[1] .

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري ، وأمه عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة ، والنعمان —

وقيل : إنه كان والياً في حِمْص ، فاجتاز بالمعرة ، فمات

ـــوأبوه وأمه صحابيون ، شهد أبوه بشير العقبة الثانية وبدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وبعثه في سرية إلى فدك في شعبان ، ثم بعثه في شوال نحو وادي القرى ، وهو أول أنصاري بايع أبا بكر ، واستشهد مع خالد بن الوليد بعين التمر بعد انصرافه من اليمامة سنة ١٢هـ أو سنة ١٣هـ .

وأما النعمان فإنه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وروي له عن النبي ﷺ مائة وأربعة عشر حديثاً ، وروى عنه ابناه بشير ومحمد والشعبي وآخرون ، وكان كريماً جواداً شاعراً ، استعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة سنة ٥٩ هـ ، ثم عزله يزيد عنها ، وولى مكانه عبيد الله بن زياد ، ثم بعثه إلى قومه في المدينة سنة ٦٢ هـ ، ليمنعهم عن مشاركة أهلهـــا في الخروج على يزيد ، واستعمله على حمص . ولما مات معاوية بن يزيد ، كان على حمص ، فكان يدعو الى ابن الزبير ، فاستمده الضحاك بن قيس ، فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع ، فلما انهزم الناس من مرج راهط ، لحقوا بأجنادهم ، فانتهى أهل حمص إليها ، وعليهم النعمان ، فخرج هارباً ، وطلبه عمرو بن الجلي الكلاعي ، فقتله في أواخر سنة ٦٤ هـ ، وقيل : في المحرم سنة ٦٥ هـ ، وذكر في الاصابة ، انه دعا إلى ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه ، فواقعه مروان فقتله .

ونجد ترجمته وأخباره وشيئاً من شعره في تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١ : ص ١٢٩ ، وأسد الغـــابة لابن الأثير ٥ : ص ٢٣ ، والاصابة لابن حجر ٦ : ٢٤ ، وتاريخ ابن جرير الطبري ٦ : ١٧٦ ، ١٨٨ ، و ٧ : ٤٠ ، ٤٧ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١١ ، و٥٢ ، و٧٤ ، وشذرات الذهب لابن العماد ١ : ٧٢ ، والأغاني للأصفهاني ١٤ : ١١٤ ، والكامل للمبرد ٢ : ص ٢٠٨ .

وقد ذكر بعضهم : ان قبر النعمان بن بشير في الطريق الممتدة بين حمص وسلمية (ج) .

له ولد فيها، فدفنه، وأقام أياماً حزيناً عليه، فسميت به. وقيل: إنه تديرها، فنسبت إليه، وكانت قبل ذلك يقال لها: معرة حمص، وممن ذكر اضافتها الى النعمان بن بشير ابن خلّكان [١]، والبلاذري [٢]، وأبو الفداء [٣]، وابن بطّوطة في رحلته [٤]، وابن العديم [٥]، وابن الأثير في الكامل [٦].

---

(١) هو أحمد بن محمد البرمكي الاربلي المعروف بابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ، له كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ هـ.

(٢) هو أحمد بن يحيى البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ، له كتب منها: فتوح البلدان، وتاريخ الأشراف.

(٣) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ، له كتب منها: تقويم البلدان، ومنها: المختصر في أخبار البشر رقبه على السنين، وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ.

(٤) هو محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، بدأ رحلته سنه ٧٢٥ هـ، واستغرقت خمساً وعشرين سنة.

(٥) هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد العقيلي، المعروف بابن العديم، وبابن أبي جرادة المتوفى سنة ٦٦٦ هـ، له كتب منها: بغية الطلب في تاريخ حلب، ومنها رفع الظلم والتحري عن أبي العلاء المعري وورد اسمه: كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري.

(٦) هو ابو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، له كتب كثيرة، منها: الكامل في التاريخ أو تاريخ الكامل ابتدأ فيه من أول الزمان إلى سنة ٦٢٨ هـ.

وذكر ياقوت[١] هذا القول[٢] ، ثم قال[٣] : وهذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة . والذي أظنه انها مسماة بالنعمان ، وهو الملقب بالساطع ، وهو النعمان بن عدي بن غَطَفان التنوخي . وأنكر عليه ذلك ابن العديم ، فقال في الإنصاف والتحري عند كلامه على الساطع : « وبعض الجهال يقول : ان معرة النعمان تنسب اليه ، وليس بصحيح ، بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حِمْص وقِنَّسْرِين في ولاية معاوية وابنه يزيد ، ومات للنعمان بها ولد ، وجدد عمارتها ، فنسبت اليه ، وكانت أولاً تسمى ذات القصور » .

ثم قال : « وقيل إن سِيَاث كانت المدينة ، وهي آهلة ، فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجمة ، فافترسه السبع ، فجزع عليه ، وبنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فسميت معرة النعمان لذلك ، وانما نسبت الجهال المعرة الى النعمان بن عدي المعروف بالساطع ، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع ، فظنوا أنها منسوبة اليه » . اهـ .

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ، له كتب كثيرة ، منها : معجم البلدان ، ومنها : ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، والمشترك ، وغيرها .

(٢) أي إضافتها إلى النعمان بن بشير .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

وقال ابن العديم في بغية الطلب : «أخبرني القاضي أحمد ابن مدرك المعري ، فيما يأثره عن أهل معرة النعمان ، أن معرة النعمان انما نسبت الى النعمان بن بشير ، لأن موضعها كان أجمة قصب ، وكان سكنى أهل المعرة بسِيَاث ، وهي كانت المدينة إذ ذاك ، وآثارها تدل على ذلك ، فخرج من سياث ولد النعمان يتصيد ، فافترسه الأسد عند الأجمة ، فدفنه في ذلك الموضع ، وبنى منزلاً عند قبره ، وقال لأهل سِياث : من يودني ، ويحب مرافقتي ، فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته ، فبنى الناس معرة النعمان ، وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده .

ثم قال : قلت : والصحيح أن النعمان بن بشير جدد بناءها ، وزاد فيه ، واختارها للمقام أيام ولايته ، فنسبت اليه ، وقد كانت مدينة معروفة قبل ذلك ، فتحها أبو عبيدة ، وأكثر أهلها من تنوخ .

ونقل انها منسوبة الى النعمان بن بشير ، لأن معاوية كان أقطعه اياها فنسبت اليه ، وستأتي تتمة كلامه عند الكلام على ذات القصور .

وقال أبو العباس الشَّرِيشي : « النعمان اسم للجبل المطل على المعرة فأضيفت اليه[1] » . وقال مثل هذا ابن بطوطة[2] .

وقال مغلطاي في تاريخ سلاطين مصر والشام في ذكر ما فتحه الفرنج : « معرة النعمان بن المنذر » .

ونسبها آخرون الى النعمان بن امرىء القيس ، لأنه غزا بلاد الشام غير مرة ، وأكثرَ المصائبَ والسبي في أهلها .

هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان . ومن البيِّن أن كل ما ذكروه من الوجوه والعلل في تسميتها واضافتها ، قائم على الظن لا يستند الى شيء من الحقيقة ، وكله بعيد عن الصواب . أما ما ذكره ياقوت[3] من استبعاد اضافتها الى النعمان بن بشير فواضح ، ولا يعرف في المعرة أجمة ، وموضعها الآن بعيد عن أن يكون أجمة ، ولكن في شماليها وغربيها أودية يفيض فيها الماء في الشتاء وأول الربيع ، وفيها ركايا

---

(١) الشريشي : شرح المقامات للحريري ص ١٢١

(٢) ابن بطوطة الرحلة ٣٩

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ينبجس منها الماء فيجري على وجه الأرض أحياناً . وقد يجوز أن يكون فيها في القديم آجام ، لا أجمة . ولكن المعرة أعلى من هذه الأماكن ، وليس فيها ماء يسيح على وجه الأرض في وقت من الاوقات ، ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان هناك قبر لاحتفظ الناس به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من قبور الصالحين ، وإن لم يكونوا مقبورين فيها ، كما يزعم الناس في قبر أُوَيس القَرَني ، على أن ياقوتاً ناقض نفسه إذ قال في مادة معرة النعمان ما تقدم من أنها منسوبة إلى الساطع ، وهو قبل الإسلام كما سيأتي . ثم قال في مادة « سِيَاث»[1] : بكسر أوله وبعد الألف ثاء مثلثة ، كانت بليدة بظاهر معرة النعمان ، وهي القديمة ، والمعرة اليوم محدثة ، كذا ذكره ابن المُهَذَّب في تاريخه ، واجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري ، والناس ينقضون بنيانها ، ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٢٠٧ .

مَرَرْتُ بِرَسْمٍ فِي سِيَاثَ فَرَاعَنِي ... بِهِ زَجَلُ الأَحْجَارِ تَحْتَ المَعَاوِلِ[1]

تَنَاوَلَهَا عَبْلُ الذِّرَاعِ كَأَنَّمَا ... رَمَى[2] الدَّهْرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ حَرْبَ وَائِلِ

أَتُتْلِفُهَا[3] شُلَّتْ يَمِينُكَ خَلِّهَا ... لِمُعْتَبِرٍ أَو زَائِرٍ أَوْ مُسَائِلِ

مَنَازِلُ قَوْمٍ حَدَّثَتْنَا حَدِيثَهُمْ ... وَلَمْ أَرَ أَحْلَى مِنْ حَدِيثِ المَنَازِلِ

وذكر ابن العديم عن أبي العلاء المعري : أن هذا الشعر لأخيه أبي الهيثم عبدالواحد، وأنه كتبه على حائط من حيطان سياث وروايته :

مَرَرْتُ بِرَبْعٍ مِنْ سِيَاثَ . . . .

وسيأتي في ترجمة زيد بن أبي الهيثم انه مرَّ على سياث ، وهي قرية إلى جانب معرة النعمان خراب ، فوجد رجلاً يهدم أبنية بها، ويستخرج منها حجارة ، فكتب على حائط من حيطانها بمعول :

مَرَرْتُ بِرَبْعٍ . . . .

وكانت وفاة أبي الهيثم سنة ٤٠٥ ﻫ ، وهذا يدل على أن

---

(١) ذكر هذه الأبيات ابن العديم في الإنصاف والتحري ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٤ . وفيه : « بربع من سياث .. » .

(٢) في الإنصاف : « جنى الدهر .. » .

(٣) في الإنصاف : « امتلفها .. » .

سِياثاً لم تزل آثارها باقية إلى هذا العهد، وأن المعرة كانت عامرة.

ويدل على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام، معروفة بهذا الاسم، ما ذكره ياقوت[١]، وابن الشِّحْنَة[٢]، والبَلاذُري[٣]، وغيرهم، ففي كلام هؤلاء الآتي أن في المعرة قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي، وقبر يوشع بن نون، وأن أبا عبيدة لما فرغ من فتح حماة مر بالمعرة سنة ١٥ هـ، فصالح أهلها على صلح أهل حماة.

فهذا يدل دلالة صريحة، على أن المعرة كانت عامرة، وكانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام. أما نقض أهلها بنيان سياث ليعمروا به موضعاً آخر، فلا يوجب أن يكون ما يعمرونه به مدينة المعرة نفسها. بل ربما كانوا يزيدون به في بنائها، وأهل المعرة إلى هذا اليوم كلما عثروا على بناء قديم، نقلوا حجارته، وبنوا بها بناء جديدا. وكثيراً ما أذهبوا هياكل عظيمة، ومحوا معالم جليلة في نظر التاريخ وعلماء الآثار في سبيل ذلك.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ٤: ٥٧٥.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب ١٢٩، ١٣٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١٣٠، ١٣٧، ١٣٨.

وأما قول من قال : ان النعمان الذي أضيفَت اليه هو جبل ، فلا نعرف جبلاً يطل على المعرة مسمى بهذا الاسم ، بل لا يطل عليها جبل مطلقاً ، وانما يتصل بها من الغرب جبل صغير يقال له : جبل عَطّال ، ويتصل بها من ناحية الشمال جبل يقال له : المقاطع، ويتصل بجبل الزاوية ، وكان يقال له : جبل بني عُلَيْم ، وهو على مقربة من مكان يقال له : المَحْيَا ، ويقال : إنّ فيه قبر شيث عليه السلام ، ولا يبعد أن يكون شيث محرفاً عن سِياث ، وعنده عين ماء يقال لها : عين آسية .

وربما كان اسم واحد من هذين الجبلين النعمان ثم غيّر . ولكن ذلك يحتاج الى نص تاريخي ، ولا يجوز بناء الحكم فيه على الظن وحده ، على أني سمعت من بعض اهل المعرة ان الجبيل الغربي الذي يقع غربي وادي الخطيب إلى المَحيا ، يقال له : النعمان ، ولكني لم أعثر على ما يؤيد ذلك ، وكذلك إذا قيل : إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر ، أو النعمان بن امرىء القيس ، لا يمكن أن يعوّل عليه حتى يؤيده دليل ، ولم نعثر على هذا الدليل .

وأما إضافتها الى النعمان بن عدي الملقب بالساطع فهي كغيرها تحتاج إلى ما يؤيدها ، وقد ذكروا ان تَنُوخ ملّكوا عليهم الساطع ، وكانت له وقائع وحروب مع ملوك الفرس ، ولما هلك تفرقت كلمة تنوخ ، وتنازعوا الرياسة بعده ، ثم غزا ملكُ الفرس الرومَ ، فأكثر فيهم القتل والسبي وخراب العامر ، فاستنجدوا بتنوخ ، فقاتلوا مع الروم ، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم . فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد الى الجزيرة ، وسورية مدينة بقرب الأَحصّ .

وهـذا يدل على أن الساطع لم يقدم المعرة ، وإنما تملك ومات أو قتل في العراق ، ومن البعيد أن تنسب إليه مدينة وهذه حاله ، ولعل ياقوتاً نظر الى أن المعرة كانت صلبية تنوخ ، أي فيها جمعهم المستكثر ، وأن جمهرة المؤرخين ذكروا أن المعرة كانت لتنوخ ، وأن كل أهلها أو جلهم من بني الساطع ، فزعم أنها منسوبة اليه .

وقد يشهد لهذا القول ما سيأتي عن البَلاذُري وغيره ، من أن تَنُوخ كان لهم حاضر قِنَّسْرين ، مذ أول ما تنخوا بالشام ، نزلوه وهم في خيم الشعر ، ثم ابتنوا المنـــازل ، ثم دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأن تنوخ قدموا مع أبي عبيدة ، فنزلوا مَنْبِج ، وسورية ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وكفَرْطَاب ، وغيرها ، وكانوا نصارى ، فامتنعوا عن أداء الجزية ، وأنهم قدموا على عمر لما قدم الشام ، فدفع فريق منهم له الجزية على اسم الخراج ، وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني الفصيص ولاة قِنَّسْرين .

ولكن ذلك كله ليس فيه ما يدل على قدوم الساطع المعرة ؛ أو نسبتها إليه ، بل يدل على أن المعرة كانت تسمى بهذا الاسم قبل الإسلام .

وفي المعرة أرض يقال لها : الساطعية إلى يومنا هذا ، وهي في شمالي المعرة ، ولكنني لا أعلم إلى أي ساطع تنسب .

والغالب على الظن أنها تنسب الى ساطع بن عبد الباقي بن المحسن التنوخي من بني أبي حصين ، كان شاعراً مجيداً ، مقرباً عند الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، مرض في حلب ، وحمل إلى المعرة فمات في الطريق سنة ٦٢١ ھ .

اضافتها الى حمص :

ذكر فريق من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها : معرة حِمْص ، ثم أضيفت الى النعمان بن بشير ، منهم صاحب الوفيات [١] ، والبَلاَذُري [٢] ، وأبو الفداء في حوادث سنة ١٥ ه [٣] ، وابن بَطُّوطَة في (رحلته) [٤] ، وقال ابن الأثير في (الكامل) [٥] : معرة حمص ، وهي معرة النعمان نسبت بعد الى النعمان بن بشير الأنصاري .

وقال ياقوت [٦] : إنها من أعمال حمص .

وقالوا : إن سبب إضافتها إليه ، أنها كانت مضافة إليه مع حمص في خلافة معاوية ، أو أن ولده توفي فيها على نحو ماذكرنا .

وفي (المسالك والممالك) لابن خرداذبه [٧] : من أقاليم حمص اقليم معرة النعمان ، واقليم كَفَرْطاب ، واقليم تل مَنَّس .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٣١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ .

(٤) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢٠٨ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٧) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٧٥ .

اضافتها الى حلب :

ذكر الواقدي في (فتوح الشام ص ١٠١) : أن أبا عبيدة ضم لخالد بن الوليد أربعة آلاف فارس ، وقال له : شنّ بهذه الكتيبة ، واقصد بها المعراة [١] ، واقرب من معرة حلب ، وشنّ بها الغارة على بلد العواصم .

تسميتها بذات القصور :

وذهب جماعة من المؤرخين إلى أنها كانت تسمى ذات القصور ، ثم نسبت الى النعمان بن بشير ، منهم : ابن العديم في (الإنصاف والتحري [٢]) . ونقل في (بغية الطلب في تاريخ حلب) عن أبي عبد الله محمد المسعودي أنه قال [٣] : معرة النعمان منسوبة الى النعمان بن بشير الصحابي ، كان والي حِمْص ، والعواصم ، وتلك النواحي ، وكانت المعرة قديماً تسمى ذات القصور ، فلما مات للنعمان ابن هناك قيل لها : معرة النعمان . ونقل عن أبي الحسن الهَرَوي أنه قال : كان اسمها قديماً ذات

---

(١) كذا في الأصل . (ج)

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٧ عن الإنصاف — لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٥٨٨ عن بغية الطلب — لابن العديم .

القصور ، فنسبت الى النعمان بن بشير ، لأن ابنه مات بها ، وقال : وبلغني من غيره ان التي تعرف بذات القصور هي معرة مَصْرِين ، والأول أصح .

وقد سماها ابن الوردي في قصيدته الضادية ذات القصور ، وذلك حيث يقول :

سَلاَمٌ عَلى ذَاتِ القُصُورِ وأَهْلِهَا   وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حَالٍ وَمَامَضَى[1]

وأما شَيْخ الرَّبْوَة[2] فقد قال في كتابه (نخبة الدهر) : معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولعل ذلك تحريف من النساخ ، لأن المشهور أنها ذات القصور .

المعرة من العواصم :

قال ياقوت في (معجم البلدان)[3] : العَوَاصِم حصون موانع ، وولاية تحيط بها بين حلب وأنْطاكِية ، وقصبتها أنطاكية ، كان قدبناها

(١) ابن الوردي : الديوان ٣٢٢ .
(٢) شيخ الربوة : نخبة الدهر ٢٠٥ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ .

قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها في الجبال ، فسمّيت بذلك .

وقال البَلاَذُري (ص١٣٨)[١] : فلما استخلف أمير المؤمنين الرشيد هرون بن المهدي ، أفرد قِنَّسْرين بكورها ، فصير ذلك جنداً واحداً ، وأفرد مَنْبِج ، ودُلوك ، ورَعْبَان ، وقُورُس ، وأَنْطاكِية ، وتِيزِين ، وسماها العَوَاصم ، لأن المسلمين يعتصمون بها ، فتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر ، وجعل مدينة العواصم منبج ، فسكنها عبد الملك بن صالح بن علي سنة ١٧٣ هـ ، وبنى بها أبنية .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)[٢] : ومن الأماكن المشهورة بالشام العواصم ، قال ابن حَوْقل : وأما العواصم فاسم الناحية ، وليس موضعاً بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها أنطاكية[٣] . وعدّ ابن خُرْداذبه[٤] العواصم فكثّرها ، وجعل منها كورة

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٨ .

(٢) قال المؤلف : من نسخة خطية في مكتبتي . كتبت سنة ٧٤١ هـ . وانظر النسخة المطبوعة .

(٣) في المسالك لابن حوقل ص ١١٩ النص الآتي : « والعواصم اسم الناحية وليس بمدينة تسمى بذلك وقصبتها انطاكية » .

(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ٧٥ .

مَنْبِج ، وعد منها شَيْزَر ، وأَفامِيَة ، وإِقليم معرة النعمان .

وقال ابن خَلِّـكان [١] في ترجمة علي بن محمد بن بسام الشاعر : والعواصم كورة متسعة بالشام ، قصبتها أنطاكية ، وقد ذكرها المعري بقوله :

مَتَى سَأَلَتْ بَغْدَادُ عَنِّي وأَهْلُهَا ... فَإِنِّي عَنْ أَهْلِ العَوَاصِمِ سَآلُ [٢]

وإنما قال هذا ، لأن بلاد معرة النعمان من جملة العواصم .

وقال الطبري في (تاريخه) : إن هرون الرشيد عزل الثغور كلها من بلاد الجزيرة وقِنَّسْرين ، وجعلها حيِّزاً واحداً ، وسميت العواصم ، وذلك في سنة سبعين ومائة للهجرة [٣] .

وفي (صبح الأعشى) نحو من قول ابن حوقل السابق ، وقال أيضاً : أول من سماها بذلك هرون الرشيد حين بنى مدينة طَرَسُوس سنة ١٧٠ هـ ، ثم قال : وذكر عماد الدين

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٤٤٥ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦ : ٤٤٤ .

صاحب حماة في تاريخه[١] : أن الرشيد عزل الثغور كلها من الجزيرة وقِنَّسْرِين وجعلها حيّزاً واحداً وسماها العواصم .

وهذا موافق لقول الطبري ، وهو يقتضي أن تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمّى واحد .

وقال التِّبْرِيزي في (شرح سقط الزند) عند قوله

وَلَكِنْ بِالعَوَاصِمِ مِنْ عَدِيٍّ[٢] .. :

إنه سأل أبا العلاء وقت القراءة عليه عن العواصم فقال : العواصم من حلب الى حماة ، لأنها حصون وجبال يعتصم بها الناس ، وفسّر العواصم بمثل هذا في غير موضع من شعره . ويشير الى هذا قول أبي العلاء الآتي :

فَإنِّي عَنْ آلِ العَوَاصِمِ سَآلُ[٣] .

وغيره من الأبيات .

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١٣ .

(٢) صدر بيت من لامية في السقط مطلعها :

أعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

وعجزه : « أمير لا يكلفنا السؤالا » .

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٨٥ .

(٣) صدره : « متى سألت بغداد عني وأهلها .. »

انظر ما سبق ص ٤٠ .

النسبة اليها :

قال السمعاني في (الأنساب)[1] عن أبي نصر الرّامُشي : أن النسبة الصحيحة إليها معرنمي ، وإلى معرة مسرين معرمسي . قال أبو سعد : غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)[2] : «قال في اللباب : ومعرة النعمان مدينة من الشام . وقال السمعاني في الأصل ، أعني كتاب (الأنساب) : والنسبة الى المعرة معرنمي ، قال : لأن ثم معرّتين : معرة النعمان ، ومعرة نسرين ، فالنسبة إلى الأولى معرنمي ، والى الثانية معرنسي . غير أن أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك . أقول : إني رأيت هذا النقل في الأنساب ، ولم أجده في اللباب » اه .

وأنا أقول لعل هذه النسبة رأي ارتآه قائله للتفرقة بين النسبة الى البلدتين ، ولكن لا نعلم أحداً نسب الى واحدة منهما على هذه الصورة ، لا في القديم ، ولا في الحديث .

---

(١) السمعاني : الأنساب ق ٥٣٦[٢] .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

والتسوية في النسبتين توجب أن يقال : معرمري ، أو معرنري ، أي أن يؤخذ الحرف الأول والثالث من مسرين أو نسرين ، كما أخذا من نعمان . وقد رأيت اختلاف الرواية بين مسرين ونسرين والمشهور الآن مَصْرين . ورأيت أن النسبة غير جارية على قاعدة مطردة في الأسماء كلها ، وأن أحداً لم ينسبها على هذا النمط ، وهذا كله يدل على أن هذا الرأي لم يرضه غير قائله ، ولم يكتب له الرواج عند أحد ، والمعروف منذ القديم أن النسبة إلى معرة النعمان معري فقط ، وعليه يدرج المتأخرون اليوم .

الخلاصة :

١ ـ الذي يظهر من كلام المؤرخين والأدباء ، أن هذه المدينة كانت موجودة قبل الإسلام ، بدليل ما تقدم من أن بعض التنوخيين أقاموا في ديارهم لما دفعوا الجزية باسم الخراج ، ومنهم أجداد أبي العلاء ، وولاة قِنَّسْرين .

وقد قال أبو الفداء : إن ملوك غسان كان ابتداء ملكهم

قبل الإسلام بأكثر من أربعمائة سنة، وكانت قبلهم في الشام قبيلة يقال لها : الضجاعمة [١] .

وقال القَلْقَشَنْدي [٢] : ومن الناس من يطلق تَنُوخ على الضجاعمة ودَوْس الذين تتنخوا بالبحرين .

وقال الحمداني : ولتنوخ بقايا بالمعرة من بلاد الشام. وقال مرة أخرى : إن المعرة من بلاد الشام هي صلبية تنوخ .

وقال السمعاني : تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً بالبحرين ، وتحالفوا على التوازر والتناصر ، وأقاموا هناك ، فسموا تنوخاً [٣] والتنوخ الإقامة ، وجماعة منهم نزلوا معرة النعمان [٤] .

وقال اليعقوبي [٥] نحواً من هذا .

ويمكن أن نستخلص من مجموع هذه الأقوال ، أن التنوخيين كانوا في المعرة قبل الإسلام بقرون كثيرة .

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ٧٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١ : ٢١٨ (ج) .

(٣) كذا في الأصل . (ج)

(٤) السمعاني : الأنساب ق ١١٠^١ .

(٥) انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

وسيأتي ما يدل على أنها كانت عامرة أيضاً قبل أن ينزلها التنوخيون .

٢ ـ يمكن الجمع بين الروايات المتناقضة بأن يقال : إنها كانت تسمى في القديم معرة النعمان ، وذات القصور ، كما يقال : دمشق ، وجِلّق ، والفيحاء . ثم لما جعلت من عمل حِمْص ، قيل : معرة حمص .

أما ما ذكروه من الأسباب في تسميتها بالمعرة ، واشتقاقها وإضافتها إلى النعمان ، فلا يمكن الجزم بشيء منه لما أسلفنا ذكره ، ولئن ساغ لنا التماس وجه مقبول في معرة النعمان ، فمن الصعب الشاق أن نجد مثله في معرة الصين ، ومعرة عليا ، وبيطر ، وباش ، وغيرها . والغالب أن الأسماء لا تعلل ، وأن التماس العلل لا يخلو من بعد عن الحقيقة ، على ما فيه من التكلف والعنت .

٣ ـ أن المعرة من العواصم والثغور .

٤ ـ أن النسبة إليها معري ، وكذلك نسب إليها جماعة كثيرون ، وإذا اقتصر على هذه الصورة في النسبة فهي المرادة دون غيرها .

ذكر المعرة في شعر أبنائها وفي نثرهم :

أهل هذه المدينة كثيرو التغني بها والحنين إليها ، وقد لهج جماعة كثيرون منهم ، وتشوقوا إليها حين نزحوا منها ، أو بعدوا عنها . وذكروها في أشعارهم في مواطن الهزل والجد ، تارة بلفظ المعرة ، وأخرى بغير هذا اللفظ .

أما ذكرها بلفظ المعرة فقد وقع في كلام أبي العلاء في مواطن من شعره ونثره .

فمن الأول قوله في (سقط الزند) :

سَرَى بَرْقُ المَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الكَلاَلاَ [١]

وقوله :

فَيَا بَرْقُ لَيْسَ الكَرْخُ دَارِي وإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لَيَالِ [٢]
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ المَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِهَا ظَمْآنَ لَيْسَ بِسَالِ

* * *

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٧٨

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٥ .

وقوله في اللزوم :

يُعَيِّرُنا لَفْظَ المَعَرَّةِ أنَّهـا ... مِنَ العَرِّ قَوْمٌ في العُلا غُرَباءُ [(١)]

وقوله في رواية :

نَجَّى المَعَرَّةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ ... رَبٌّ يُفَرِّجُ كُلَّ دَاءٍ مُعْضِلِ [(٢)]

* * *

وقال الأمير أبو الفتح الحسن بن أبي حَصِينَة المعري :

وَزَمَانِ لَهْوٍ بالمَعَرَّةِ مُونِقٍ ... بِسِيَاثِهَا وَبِجَانِبَيْ هِرْمَاسِهَا [(٣)]

وقال في مرثية أبي العلاء :

وَعَجِبْتُ أنْ تَسَعَ المَعَرَّةُ قَبْرَهُ ... وَيَضِيقُ بَطْنُ الأرْضِ عَنْهُ الأوْسَعُ [(٤)]

وقال أبو الحسن [علي] بن محمد بن الدويرة من أبيات تأتي في ترجمته :

أهل المعرة تحت أقبح خطـة ... وَبِهِمْ أنَاخَ الخَطْبُ وَهُوَ جَسِيمُ

---

(١) أبو العلاء ـ اللزوميات ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ وفيه : « نجى المعاشر » .

(٣) ديوانه ١/٣٥٥ .

(٤) ديوانه ١/٣٧٣ .

وقال محمود بن علي بن المهنا المتوفى سنة ٥٠٥ هـ بعد أن أخذ الفرنج المعرة :

مَعَرَّةُ الأذكياء قَدْ حَرِدَتْ عَنّا وَحَقَّ المَلِيحَةِ الحَرَدُ
في يَوْمِ الاثْنَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجَا مِنْ خَمِيسِهِمْ أَحَدُ

وقال أبو الهيثم أخو أبي العلاء :

أدْرِكْ بِإدْراكِ المَعَرَّةِ مُهْجَةً تَفْنَى عَلَيْكَ مَخَافَةً وَحِذَارا[1]

وقال عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء :

وَاحْلِفْ بِأَنَّكَ لا تَعُو دُ إلَى المَعَرَّةِ بالطَّلاقِ[2]

وقال أبو اليسر شاكر بن عبد الله حفيد محمد أخي أبي العلاء :

واتى المعرة مسرعا في سرعة الماء المراق
لله حسن جنانها بالزهر أو روض الرفاق

وقال القاضي عبد الرحمن بن مدرك من حفدة أخي أبي العلاء :

مَا لِلْمَعَرَّةِ مُشْبِهٌ في أَرْضِ مِصْرَ وَلاَ العِرَاقِ

---

(١) البيت التاسع والعشرون من قصيدة ذكرها ابن العديم في الإنصاف ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٦ .

(٢) البيت من مقطعة في الانصاف لابن العديم ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٨ .

وقال النعمان بن وادع من حفدة أخي أبي العلاء المتوفى سنة ٥٠٠ هـ :

سَقَى اللهُ قَبْراً بِالمَعَرَّةِ مُفْرَداً ... سَحَاباً مِنَ الغُفْرَانِ لَيْسَ بِمُقْلِعِ

وقال عمر بن الوردي :

رَأَى المَعَرَّةَ عَيْناً زَانَهَا حَوَرٌ ... لَكِنَّ حَاجِبَهَا بِالجَوْرِ مَقْرُونُ [1]

مَاذَا الذِي يَفْعَلُ الطَّاعُونُ فِي بَلَدٍ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونُ

وقال :

لِي فِي المَعَرَّةِ شَمْسٌ ... رِضَاهُ عَيْنُ مُرَادِي [2]

فَلاَ تَذُمُّوهُ إِنِّي ... أَدْرَى بِشَمْسِ بِلاَدِي

وقال :

مَعَرَّةُ النُّعْمَانِ عَيْنِي إِذَا ... ذَكَرْتُهَا تُفْرِطُ فِي سَيْلِهَا [3]

كَمْ زَهْرَةٍ تَضْحَكُ فِي كُمِّهَا ... وَنَسْمَةٍ تَعْثُرُ فِي ذَيْلِهَا

---

(١) ابن الوردي : الديوان ١٨٥ وفيه :
« ما الذي يصنع الطاعون ... » .

(٢) ابن الوردي : الديوان ٢٠٨ .

(٣) ابن الوردي : الديوان ٢١١ — ٢١٢ وفيه :
« ... إذا فكرتها تفرط .. »

وقال :

لَيتَني أُبْصِرُ المعرَّةَ قَاعاً صَفصَفاً كَالقِفَارِ أو كُشْبَاثَا[١]
لَوْ تَوَلّى في يَومِ الاثْنَينِ فِيهَا وَاحِدٌ طَلَّقَ الحَيَاةَ ثَلاثَا

وذكرها غير مرة في قصيدته التي يقول في مطلعها[٢] :

قِفْ وَقْفَةَ المُتَأَلّمِ المُتَأَمّلِ بِمَعَرّةِ النُّعْمَانِ وَانْظُرْ بِي وَلي

وكذلك ذكرها في قصيدته التي مطلعها[٣] :

رَعى اللهُ عَيْشاً بِالْمَعَرّةِ لِي مَضَى حَكَاهُ ابْتِسَامُ البَرْقِ إذْ هُوَ أَوْمَضَا

وذكرها عم والدي السيد أمين بن محمد الجندي في قصيدة مدح بها الوزير المشير علي رضا باشا والي الشام ، وأرّخ مساعيه بتلافي أحوال المعرة ، وذلك حيث يقول :

وَلِمَا قَدْ عَرَا المَعَرَّةَ مِمّا نَابَهَا مِنْ طَوَارِقِ الأَكْدَارِ
وَدَعَا جُلَّ رِيفِهَا مَسْكَنَ البُوْ مِ وَقَدْ كَانَ مَوْطِناً لِلْهَزَارِ

---

(١) ابن الوردي : الديوان ٢٨٠ ولعل كلمة « كشباثا » محرفة عن « كسيباثا « وسياث هي البليدة التي كانت بظاهر المعرة ودرست على حد قول ياقوت في معجم البلدان .

(٢) هي في ديوانه ص ٢٦٢ (ج) .

(٣) هي في ديوانه ص ٣٢١ (ج) .

إلى أن قال :

كَيْفَ لاَ وَهْيَ مِنْ أَجَلِّ بِلادِ الشَّـــامِ قَدْراً في سَالِفِ الأَعْصَارِ
سَارَ في مَدْحِ مَائِهَا وَهَوَاهَــا في البَرَايَا قَوَافِلُ الأَشْعَارِ
جُبِلَتْ أَهْلُها عَلَى الصِّدْقِ والنَّخْـــوَةِ والْجودِ وَالوَفا وَالبِدَارِ
لَيْسَ يُثْنِيهِمُ التَّعَسُّفُ عَمَّا حَاوَلُوا مِنْ مَكَارِمٍ وَفَخَارِ

وقال خال والدتي السيد محمد بن السيد عمر اليوسفي من أسرة السيد يوسف الشهيرة بالمعرة :

إنَّ المَعَرَّةَ وَالذِي فَلَقَ النَّوى بَلَدٌ بِهَا أَهْلُ المَكَارِمِ لَمْ تَزَلْ
يَامَنْ تَجَاهَلَ فَضْلَهَا سَفَهاً فَسَلْ رَكْباً بِأَطْلالِ الحِمَى فِيهَا نَزَلْ

وقد ذكرتها في قصيدة تشتمل على وصف أماكن فيها ، ووصف أيام الصبا التي قضيتها فيها ، وعلى وصف أهلها والحنين إليهم وإليها منها قولي :

يَاصَيِّبَ المُزْنِ مِنْ سَارٍ وَمُبْتَكِرِ حَيِّ المَعَرَّةَ في الآصَالِ وَالبُكُرِ
دَارٌ قَضَيْتُ بِهَا عَهْدَ الصِّبَا مَرِحاً خِلْواً مِنَ الهَمِّ وَالأَوْصَابِ وَالكَدَرِ

. . .

تَخَالُ أَرْجَاءَهَا في كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْتَفَّةً مِنْ نَسِيجِ الدَّهْرِ في أُزُرِ

تَخَالُ أنَ الرَّبيعَ الغَضَّ حلَّ بِهَا   فَلَمْ يُفَارِقْ مَغَانِيهَا وَلَمْ يَسِرِ

. . .

إذا النَّسيمُ عَلى وَادِي النَّسِيمِ سَرَى   وَمَاجَ مَا فِيهِ مِنْ نَجْمٍ وَمِنْ شَجَرِ

حَسِبْتَ بَحْراً خِضَمّاً جَاشَ فَاضْطَرَبَتْ

أمْوَاجُهُ مِنْ صُنُوفِ الزَّهْرِ والثَّمَرِ

فَالعَيْنُ تُبْصِرُ أنْمَاطاً مُنَمَّقَةً   مِنَ الأزَاهِرِ فِيهَا مِتْعَةُ البَصَرِ

وَالأذْنُ تَسْمَعُ لَحْنَ الطَّيْرِ سَاجِعَةً   كَأنَّمَا هِيَ أعْوَادٌ بِلاَ وَتَرِ

والأنْفُ يَنْشَقُ مِنْ أرْجَائِهِ أرَجاً   يُحْيِي النُّفُوسَ بِرَيَّا زَهْرِهِ العَطِرِ

والمَاءُ يُنْشِدُ شِعْراً في تَحَدُّرِهِ   فَتَكْتُبُ الرِّيحُ فَوْقَ المَاءِ بِالإبَرِ

. . .

وإنْ نَظَرْتَ إلَى وَادِي الجِنَانِ وَمَا   بِجَافَتَيْهِ مِنَ الرَّوْضَاتِ والخُضَرِ

حَسِبْتَ أنَّ جِنَانَ الخُلْدِ قَدْ كُسِيَتْ   مِنْ سُنْدُسٍ فَبَدَتْ في أرْوَعِ الصُّوَرِ

. . .

يَفِيضُ في جَوْفِهَا الهَرْمَاسُ مُصْطَخِباً   كَالبَحْرِ مُنْحَدِراً مِنْ رَأْسِ مُنْحَدَرِ

فَيَمْلأُ العَيْنَ حُسْناً في تَكَسُّرِهِ   وَيَمْلأُ العَيْنَ مِنْ مُسْتَعْذَبٍ نَمِرِ

. . .

وَفِتْيَةٍ كَيَتِيمِ الدُّرِّ في شَرَفٍ   لاَ بَلْ هُمُ كَالدَّرَارِي الغُرِّ في الخَطَرِ

صَحِبْتُ مِنْهُمْ مَغَاوِيراً جَحَاجِحَةً   غُرّاً مَيَامِينَ لاَ يُرْمَوْنَ بِالحَصَرِ

مِنْ كُلِّ أرْوَعَ فَوْقَ الدُّرِّ مَنْطِقُهُ   مَا بَيْنَ مُنْتَظِمٍ مِنْهُ وَمُنْتَثِرِ

وَكُلُّ أَزْهَرَ فَوقَ الغَفْرِ[1] منزلُه ... وان أقـامَ على الغبراء والعَفَرِ[2]

. . .

فقُلْ لِغِرٍّ تَغَابى عَنْ مَآثِرِهِمْ ... وَمَا لَهُمْ مِنْ جَمِيلِ الذِّكْرِ والأَثَرِ

سَلِ المَنَابِرَ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ سَمِعَتْ ... أَوْ أَبْصَرَتْ أَسداً يَنْطِقْنَ بالدُّرَرِ

وَسَائِلِ الخَيْلَ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ عَرَفَتْ ... فِي الحَرْبِ أَسْداً بِلا نَابٍ وَلاَ ظُفُرِ

وَسائِلِ الأَرْضَ هَلْ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَجَتْ ... فِيها مَلائِكَةٌ فِي صُورَةِ البَشَرِ

. . .

أُولئكَ القَوْمُ قَوْمِي لا أَرَى شَبَهاً ... فِي المَكْرُمَاتِ لَهُمْ فِي البَدْوِ والحَضَرِ

وَتِلْكُمُ الدَّارُ دَارِي لا أَرَى بَدَلاً ... بِهَا وَلَوْ كَانَ فَوقَ الشَّمْسِ والقَمَرِ

وذكرها جماعة منهم في نثرهم ، منهم : أبو العلاء ، فقد ذكرها في رسائله وكتبـه ؛ مرة بلفظ المعرة كمـا في (رسالة المنيح ص ١٥ ، ١٦)[3] و (ص ٨١)[4] ومرة أخرى بلفظ معرة النعمان

---

(١) الغفر : من منازل القمر .

(٢) العفر : ظاهر التراب .

(٣) يقول أبو العلاء في ص ١٥ : « لنشرت المعرة صحف الافتخار ... » وفي ص ١٦ : « ولعل المعرة قد نظرت أصح النظر . . . » . رسائل أبي العلاء لشاهين عطية .

(٤) يقول في رسالة بعث بها إلى أهل معرة النعمان : « هذا كتاب إلى السكن المقيم بالمعرة . . » انظر الرسائل شرح شاهين عطية .

كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم (ص٦٧)[١] . ومرة ثالثة بلفظ البلدة المضافة الى النعمان كما في رسالته الى القاضي أبي الطيب حيث يقول (ص ١٠٠)[٢] : مِنَ « المسْتَقرّ في البَلْدَةِ المُضَافَــةِ إلى النعمان » . وفي (رسالة الاغريض ص ٥٢)[٣] : « وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدُنَا لَوْ أعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ النُّعْمَــانِ الرَّبْعِيَّة ، ومَدَائِحِهِ اليَرْبُوعِيَّة ، مَلَلاً مِنْ أهْلِ هَذَا البَلَدِ المُضَافِ إلى هَذَا الاسم » . وقال في (الفصول والغايات ص ٣٠٧) : « ما أنَا وَالبَلَدَ المُضَافَ إلى النُّعْمَانِ بَعْدَ صُحْبَةِ قُرَيْطٍ وَالهِرَاج » .

وذكرها في (رسالة الغفران) بلفظ معرة النعمان في (ص١٣٥) و(ص ١٩٢)[٤] .

---

(١) يقول : « ... ورسا ثبير ، من معرة النعمان ، ولكل نبأ مستقر » . الرسائل – شرح شاهين عطية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق وفيه : « ... مللا من أهل البلد المضاف ... » .

(٤) رسالة الغفران طبعة أمين هندية سنة ١٣٢١ ويقول في ص ١٣٥ : « رُئي يصلي بموضع بمعرة النعمان .. » وفي ص ١٩٢ : « كان حق الشيخ إذا أقام في معرة النعمان سنة ... » .

وأما لفظ العواصم فقد جاء في كلام أبي العلاء ، منه قوله في السقط :

مَتَى سَأَلَتْ بَغْدادُ عَني وَأَهْلُهَا   فإِنّي عَنْ أَهْلِ العَوَاصِمِ سَآلُ [1]

وقوله فيه :

نَدِمْتُ عَلَى أَرْضِ العَوَاصِمِ بَعْدَمَا   غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالِ [2]

وقوله فيه :

تَذَكَّرْنَ مِنْ مَاءِ العَوَاصِمِ شَرْبَةً   وَزُرْقُ العَوَالِي دُونَ زُرْقِ جِمامِهِ [3]

وقوله في اللزوم :

لَوْ قَامَ أَمْوَاتُ العَوَاصِمِ وَحْدَهَا   مَلأُوا البِلادَ حُزُونَهَا وَسُهُولَهَا [4]

وله أبيات يذكرها فيها من غير أن يصرح باسمها ، كقوله في السقط :

وَمَاءُ بِلادِي كَانَ أَنْجَعَ مَشْرَباً   وَلَوْ أَنَّ مَاءَ الكَرْخِ صَهْبَاءُ جِرْيَالُ [5]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠٧ .

(٣) المصدر السابق ق ١ ص ٨٥ .

(٤) لزوم ما لا يلزم ص ٢٠٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٤ والجريال : صبغ أحمر وماء الذهب ، وسميت الخمر جريالاً لشبهها بالذهب ومائه .

وقوله فيه :

لَدَى مَوْطِنٍ يَشْتَاقُهُ كُلُّ سَيِّدٍ   وَيَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْمُتَطَاوِلُ[1]

وقوله فيه :

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ   مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِنِكَ الْبَالُ[2]

فَإِنْ أَسْتَطِعْ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِراً   وَهَيْهَاتَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وأما ذات القصور ، فلم أجد لها ذكرا إلا في بيت ابن الوردي المتقدم .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٧ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٨ .

المعرة في القديم

لم نقف على شيء نثق به من أخبار المعرة قبل أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علماً بما بلغت اليه من العمران والمدنية في القرون الخالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء والعظماء . وجل ما نعلمه من ذلك أنها جزء من سورية ، اشترك معها فيما تعاقب عليها من الأطوار والأدوار ، وانضوى تحت اللواء الذي كان يرفرف فوق أرجائها الفسيحة التي كانت منذ برأ الله الخليقة ولم تزل إلى يوم القيامة مطمحاً لأنظار الغزاة والفاتحين ، وميداناً تطحن فيه المطامعُ الدولَ والأمم ، ومجزرة للبشر يقرّب فيها القوي الضعيف ضحية لأطماعه وشهواته ، وقد شهدت هذه البقعة المباركة من الوقائع والفظائع ما لم يشهده غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والملوك والأبطال والعظماء ما يخيل إلى المرء أن أديم أرضها من تلك الاجساد ، وها نحن أولاء نقصّ عليك طرفاً من نبأ

الأولين ، وإن كنا لا نجزم بصحة شيء منه ، ولا نتحمل عهدة فيه غير صحة النقل عمن كتب في تاريخ سورية خاصة ، أو فيها وفي غيرها عامة . على أنه وإن لم يطابق كله الصواب ، فان القارىء يجد فيه من اللذة والاستطراف ما يجده في قراءة الاساطير ، وإنما غايتنا من ذكره أن نبين أن سلسلة الحروب والتنازع في هذه الدار متصلة الحلقات منذ فطر الله الناس عليها ، وأن حب الاستئثار والتمتع بتربتها الطيبة ومائها العذب وهوائها السجسج ، كان من أكبر العوامل في درس معالمها وتقويض أركان حضارتها ، ولم يزل علة العلل في تطاحن الامم من أجلها ، ولو أتيحت لها النجاة من أطماع الفاتحين ومخالب الطامحين إلى مدنيتها الزاهرة ، لكانت مثالاً جامعاً لمدنية البشر وتقلبه في جميع أطواره .

المعرة أو سورية قبل الطوفان :

زعم بعض الباحثين أن المعرة ، وهي جزء من سورية ، كانت آهلة بالناس قبل الطوفان اقربها من مهد الانسانية ، ولطول العهد على وجود البشر وحياتهم فوق ظهر البسيطة ، فإن بين

آدم والطوفان ما يقرب من ألفي عام، بحسب ما جاء في بعض الكتب السماوية، ولكن تعاقب العصور وعدم العثور على شيء من آثار الأمم التي كانوا يقطنونها، جعل تاريخها أخفى من السهى، وجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء مما يقال.

بعد الطوفان

وأما بعد الطوفان فقد كان أيضاً في منتهى الخفاء والغموض، حتى اكتشف الخط الهيروغليفي والمسماري وغيرهما، فأرشد الباحثين والمنقبين إلى معرفة كثير ممن كانوا لا يُعلمون من الدول والأمم، وأزاح النقاب عن كثير من القضايا التاريخية كانت مجهولة أو مبهمة، حتى زعم بعضهم ان الحثيين، وهم الأمة التي امتد سلطانها من جنوبي سورية إلى البحر الأسود شمالاً، وحاربت فراعنة مصر وملوك آشور وبابل، لم يعلم من أمرها شيء قبل ذلك. ومتى تم اكتشاف تلك الخطوط وما أشبهها، تسنى للباحث أن يرى من أخبار الأولين وآثارهم ما يكاد يعد من ضروب المحال. واليك خلاصة مما ذكره المؤرخون عن سورية بعد الطوفان، وهو غاية ما انتهى اليه البحث، وأرشد اليه التنقيب في زعم هؤلاء الزاعمين.

استيلاء الكنعانيين على سورية ودخولهم اليها :

زعموا .. أن الآراميين من أبناء ســـام بن نوح كانوا يقطنون سورية ، وكانت مساكن الكنعانيين في سواحل الخليج الفارسي كالقطيف والبحرين . وكانت لهم في تلك الأصقاع مدينتان عظيمتان ، تدعى إحداهما صورا والثـــانية اروادا ، فنشبت بينهم وبين ملوك بابل حرب اضطرتهم إلى هجر منازلهم ، فرحلوا إلى سورية وسكنوا في السواحل ، وسموا بلدتين صورا وأروادا باسم تينك البلدين ، ثم تغلبوا على الآراميين ، وتفرقوا في أنحاء سورية إلى أربـــع فرق ، أقامت إحداها في بلاد فِلَسْطِين . والثانية في سواحل الشام ما بين جبل لبنان والبحر وهم الفِينِيقِيُّون . واستولت الثالثة على الديار المصرية ، ومنهم الملوك العمالقة . وتوغلت الرابعة في الجهة الشمالية من الشام وسكنت في وادي نهر الأرونت [1] « العاصي » وهذه أعظم الفرق قوة وعدَداً ، وكانوا يسمون الحثيين نسبة إلى حث بن

---

(١) وفي تاريخ حمص لعيسى أسعد ١ : ٥٩ : من أسماء العاصي اورانتس وارونط ، وسماه أبو الفداء : الارنط .

كنعان بن حام بن نوح ، وذلك قبل ميلاد عيسى ﷺ بنحو ألفين وخمسمائة سنة ، وكانت قادس عاصمة ملكهم ، وهي بلدة عظيمة كانت في بحيرة حِمْص . ورسخت قدمهم في هذه البلاد ، وعظمت دولتهم ، إلى أن غزا سورية توتمس الاول أحد فراعنة مصر ، وأخضع بلاد الحثيين والسوريين عامة ، وبلغ الفرات ، وذلك في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ثم هب السوريون لمحاربة المصريين ، فالتقوا بتوتمس الثالث سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد ، ولكنهم لم يفلحوا ، ثم غزاها ثانية وأخذ من اهلها ذهباً كثيراً وعبيداً وبقراً وغيرها .

ولما ولي مصر توتمس الرابع غزا بلاد الحثيين ، وقتل كثيراً من رجالها ، وأخذ منها غنائم جمة . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد غزا رعمسيس الاول ملك مصر سورية ، فلما بلغ وادي العاصي لقي فيه جيوشاً جرارة ، يقودها سابالت ملك الحثيين ، فأوجس في نفسه خيفة منهم ، وصالحهم على أن تكون كلتا الدولتين ردأ للأخرى ، ودام ذلك حتى ملك مصر ساتي بن رعمسيس المذكور ، فأجلب على السوريين بخيله

ورَجْله ، وأتى في طريقه على العرب فخضد شوكتهم ، ثم دخل سورية ، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً ، وافتتح قادس بعد حرب ضروس ، ولكن ذلك لم يفتّ في عضــد الحثيين ولم يوهن عزائمهم ، فقد كانوا يدافعون عن أوطانهم دفاع الابطال ، ثم تصالح الفريقان على ان تعاد إلى الحثيين املاكهم المغصوبة ، وان لا يظهر ملكهم موتنار مظهر العداء للمصريين ، ولم تكــد تطفىء هذه الجذوة الملتهبة من قبل المصريين ، حتى شبت من جهة بابل ونينوى وما اليها ، واندلع لهيب الأطماع من تلك الأصقاع ، وتداعت جيوش الفتح الى سورية تداعي الجياع إلى القِصاع .

استيلاء بني اسرائيل على سورية :

ذكر أبو الفداء[1] وغيره من المؤرخين : أن داود ـ عليه السلام ـ استولى على سورية ، وفتح فيها فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمــان وماب وحلب ونَصِيبين وغيرهــا ، وامتدت شوكة الاسرائيليين في ذلك الحين ، وبقيت في حوزتهم الى أن انقرضت

(١) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ١ : ٢٥ .

دولتهم على يد بُختنَصر ملك بابل، وكان ابتداء استيلائهم على سورية قبل ميلاد عيسى بنحو أحد عشر قرناً . ولم أقف على شيء من عاداتهم وآثارهم في سورية .

استيلاء الآشوريين على سورية :

وفي سنة ١١٣٠ قبل الميلاد غزا تجلت قلاصر [١] ملك بابل بلاد الحثيين ودوخها ، كما وجد ذلك منقوشاً على تمثال في بابل بعبارة هذا معناها « أنا تجلت قلاصر المحارب الشريف ذللت بلاد سوبير الفسيحة، وقد استحوذ أربعة آلاف من فصائل الحثيين العصاة على مدينة سوبرتا ، فروعتهم مخافة سلاحي ، فأذعنوا وذلت رقابهم لنيري ، فغنمت أموالهم وأخذت مائة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي، وجيشت جنودي المظفرة، وزحفت الى بلاد ارام وسرت الى مدينة « كركميش » في بلاد الحثيين ، فعبرت الفرات ، ووضعت بهم ملحمة كبرى، وغنمت من عبيدهم وأموالهم ما لا يدركه عدد. وافتتحت بعض مدنهم ونهبتها وحرقتها ، وسرت الى جبل اللُّكَّام . فنكلت بأهله ونهبت أموالهم فدانوا لي صاغرين » اهـ.

(١) في تاريخ حمص لعيسى أسعد : ١ : ١٧٠ تغلت بلاسر .

وفي سنة ٨٨٣ ق . م غزا سورية ملك بلاد الاشوريين البابليين « آشور نسيربال » ووجدت غزوته هذه منقوشة في صخرة ، وقد ذكر فيها أنه سار بجيوشه على جانبي العاصي أياماً ، إلى أن بلغ لبنان ، وأنه قهر أكثر ملوك سورية وأخضع بلادها .

ثم غزاها بعده ابنه سلمناصر ، حتى وادي العاصي ، وقتل ألفاً وستمائة رجل ، وأسر أربعة آلاف واستاقهم الى نينوى ، فتبعته سكان العاصي بجيوش عظيمة ، فأعاد عليهم الكرة ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً ، ولم يزل سائراً بجيوشه حتى بلغ حماة ، فخرج لمحاربته ملكها ايدكولينا ، وانضمت اليه ملوك سورية ، وفيهم اخاب ملك الاسرائيليين وتسعة ملوك أُخر ، فتغلب على السوريين ، وقتل أربعة عشر ألفاً من رجالهم ، ثم تبعه أهل دمشق ، فقتل منهم عشرين ألفاً ، وأراد قتل ملكهم فهرب إلى البحر ونجا بنفسه .

ثم ملك بلاد الاشوريين بعد سلمناصر حفيده « نيرر » فأغار على السوريين .

وفي سنة ٧٤٥ ق . م تولى مملكة الآشوريين تجلت قلاصر الثاني ، فسار إلى سورية بجيوش عظيمة ، وضعضع أهلها ،

واستسلم اليه «انبال» ملك حماة ، وأسر منها ومن غيرها ألوفاً واستاقهم إلى بلاده ، ثم عاودها ثانية ، فخرب البلاد وهلك وقهر خمسة وعشرين ملكاً من ملوك سورية .

وفي سنة ٧١٧ ق. م ملك بلاد الآشوريين سرعون ، وكانت بينه وبين الحثيين شحناء تغلي مراجلها ، فأغار على بلادهم ، وقتل من رجالهم عالماً لا يحصى عدده ، وأخذ من نجا من القتل أسيراً الى بلاده ، فأسكنهم نِينوى عاصمة الآشوريين ، وأسكن من قومه أناساً غيرهم في بلادهم ، وبذلك انقرضت مملكة الحثيين في وادي العاصي ، وأصبحت مساكنهم خالية منهم كأن لم تغن بالأمس ، ثم انتشر بعدهم الآراميون سكان دمشق الأقدمون المنسوبون الى سام ، فلهذا يطلق على السوريين عامة اسم الساميين ، لأن سكان وادي العاصي وصور وأرْواد ، وان كانوا من ذرية حام ، إلا أنهم انقرضوا ، واندمج من بقي منهم في الساميين وغيرهم ، ممن يسمون بالآراميين نسبة لآرام بن سام .

تقاليد الحثيين وعاداتهم وعباداتهم :

أما صنائعهم فأعظمها العمارة ، ونحت الحجارة ، واتقان

التحصين واستخراج المعادن الحديدية ، والزراعة ، وغرس الأشجار وصناعته وغيرها .

وأما أزياؤهم فقد كانوا يلبسون ثوباً قصيرا له شقان طويلان من جانبيه ، يشدون في وسطه نطاقاً يضعون فيه الخنجر ، وكانوا يلبسون في رؤوسهم قبعة طويلة ، مستديرة على الرأس ، مخروطة من فوق ، يحزمونها بمناديل ملونة ، فيها نقوش غريبة ، وكانوا لا يحلقون لحاهم ، وإنما يحلقون رؤوسهم ، ويتركون في وسطها قزعة ، ويتخذ الرجل منهم حلقة في أذنه ، وأما نساؤهم فقد كانت تلبس ثوباً طويلاً يستر الكعبين ، يشدون عليه حبلاً ويعقدونه من خلف .

وأما أسلحتهم فهي الفأس ذو الحدين ، والرمح ، والقوس ، والعصا ، وأما أشكالهم فقد كانوا بيض الوجوه مشربة بحمرة .

واما عاداتهم فقد كانوا يحتفلون بالميت كثيرا ، فيستأجرون النائحات عليه ، ويدفنون معه أعز شيء عنده ، ويضعون في القبر شيئاً من الزيت ، وينزلون مع المرأة حليها وثيابها الفاخرة ، وكانوا ينحتون القبر حجراً كبيراً كالصندوق على قدر حجم

الميت ، ويقفون حوله ، ثم يهيلون عليه التراب ، ولهم في كل اسبوع مجتمع حافل يبيعون فيه ويشترون ، ويقدم اليه خلق كثير من الأمكنة القريبة .

وأما عباداتهم فقد كان السوريون جميعاً يعبدون الصنم المشهور المسمى بَعْل ومعناه الالـه ، ويعتقدون انه هو الاله . وهو في نظر العوام منهم ذات الشمس أو المشتري وكانت مدينة بَعْلَبَكّ محلاً لعبادة السوريين عامة ، وقلعتها بيت للصنم القديم ، كانوا يؤمونه من كل فج عميق في أيام معلومة ، وينهمكون في أحوال وحشية من الرقص على نغم المزامير والطبول ، ويجلدون أنفسهم بالسياط إلى أن تسيل الدماء ، وربما قطع الواحد منهم يده أو رجله ، وذبح الأب ولده ، ونذرت المرأة اباحة نفسها مدة من الدهر تقرباً للصنم ، وكانوا لا يأكلون السمك ، ويحترمون الطيور ، وكان في حمص هيكل للصنم ، ويقال : ان أهل حماة كانوا يعبدون صنما يسمى سيما .

استيلاء اليونان على سورية :

وفي نحو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد استولى الاسكندر اليوناني على

سورية ، وبقيت تحت حوزة اليونانيين إلى ما قبل الميـــلاد بنحو ٦٢ سنة .

استيلاء الرومانيين على سورية :

وفي سنة ٦٤ قبل ميلاد عيسى تم استيلاء الرومانيين على سورية ، وعظمت شوكتهم فيها ، ونشروا في أرجائها لواء الحضارة والعمران ، فازهرت البلاد وازداد سكانها ، واخصبت جميع أنحائها ، وقد كانت في عهدهم جنة زاهرة .

عادات الرومانيين :

كان الرومانيون كغيرهم من الأمم التي كانت قبلهم يتخذون يوماً من الاسبوع ، يجتمع فيه أهل القرى للبيع والشراء ، وأهل المعرة اتخذوا يوم السبت إلى يومنا هذا للبيع والشراء ، فترى أهل القرى الضاحية والبلاد القريبة ، كإدلب وأريحا ، وجِسْر الشُّغْر ، يؤمونها من كل حدب وصوب ، يبيعون فيها سلعهم ، ويبتاعون ميرتهم وما يحتاجون اليه . ولا أعلم السبب في اتخاذ يوم السبت دون غيره إلا أن يكون موروثاً

من عهد الحكومة التي أعقبت اليهود في الاستيلاء على سورية مخالفة لهم . وكان الرومانيون إذا مات لهم ميت حملوه في نعش ، ومشوا أمامه يحملون تمثاله وتماثيل أسلافه ، ويعضون في فم الميت شيئاً من النقود ليعطيها للشخص الموهوم المسمى شارون ، يزعمون أنه موكل بنقل الأموات الى نهر الموت ، وان هـذه النقود أجرته ، فإذا انتهوا إلى مكان دفنه ، أخذت الكهنة ماء ورشوا به من كان مع الجنازة ، وكانوا يحرقون أمواتهم ، فيطرحون جسم الميت على حطب مرتب على شكل مذبح ، ثم يدور الحاضرون حوله بكل هدوء وسكينة ، على أصوات الآلات الموسيقية ، ثم يأتي أحـد أقرباء الميت بشعلة من نار فيضرم الحطب ، وأناس يلقون الطيب والروائح الطيبة ، حتى إذا احترق الميت أطفأوا النار بالخمر ، ثم جمعوا الرماد ، ووضعوه في اناء ثمين ، ودفنوه مع الميت . وكان من عادتهم انهم يطرحون مع الجندي سلاحه ، ومع المرأة حليها .

وفي سنة ٦١٥ بعد ميلاد عيسى - ﷺ - غزا كسرى ملك الفرس سورية ، وباع المسيحيين من اليهود بأبخس الأثمان ،

فأماتوا كثيراً منهم بأنواع من العذاب ، ثم انتصر عليه هِرَقْل ، وثار عليه أكبر أبنائه المسمى شِيْرويه ، وصالح هرقل ، وأطلق سبيل الاسرى الرومانيين .

ولا شك ان المعرة كان لها نصيب وافر من كل فاجعة ، لانها على مفترق الطريق ، فإن لم يصبها وابل منه فطل .

المعرة قبل الاسلام :

تقدم أننا لم نقف على شيء من أخبار هذه المدينة قبل أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علما بما كانت عليه من الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية والدينية في تلك القرون الخالية .

ولا وُفقنا إلى معرفة أحد من أبنائها النابغين في تلك العصور. وكل ما أمكن معرفته بطريق الاستنباط من الأقوال المجملة والمقايسة بالآثار الماثلة هو ما يأتي :

ان التنوخيين كانوا نصارى ، فلما جاء أبو عبيدة امتنعوا عن أداء الجزية . ولما سار عمر - رضي الله عنه - الى الشام قدموا عليه فقال : ما أقنع منكم إلا بالدخول في الإسلام أو

السيف ؛ وأمهلهم سنتين ثم الزمهم الجزية ، فأبوا عليه وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية ، فأبى ، ثم قبل أن يأخذها على اسم الخراج ، فاستجاب له قوم منهم ، وأقاموا بديارهم . ومنهم أجداد أبي العلاء ، وأسلم بعضهم في أيام أبي عبيدة وبعضهم في أيام المهدي .

ولا نعلم من المعاهد الدينية النصرانية في المعرة الا موضعين ، أحدهما : كنيسة الاعراب وقد ذهبت معالمها ، وأصبحت محلة معروفة بالكنيسة ، وهي في الجهة الغربية من المعرة .

والثاني : الكنيسة العظمى وهي التي جعلت مسجداً ، بمقتضى الصلح كما سيأتي . وأما حالتها السياسية ، فقد كانت عملاً من أعمال الرومانيين ، خاضعة للنظم والأوضاع التي كانت ترزح تحتها سائر المدن الشامية قبل أن تنضوي تحت راية الإسلام .

وكذلك حالتها الاجتماعية شبيهة بحالة الأمصار التي يقطنها العرب في ذلك العهد ، وتسيرها النظم الرومانية .

وقد سلف أن الروم استنجدوا بتَنُوخ لما تغلب عليهم الفرس ، فأبلوا بلاء حسناً في قتالهم ، ثم تولوا قتالهم منفردين عن جند الروم فظفروا بهم ، وأن ملك الروم فرق فيهم الدنانير وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة . وسيأتي إيضاح ذلك مفصلاً ، وهو يدل على أن حالتهم كانت شبيهة بالبداوة وإن كانوا حضرا .

ولم نقف على شيء يمثل لنا الحياة العقلية فيها في ذلك العصر ، لأن تاريخ هـــذه المدينة مبعثر في بطون الكتب ، ولم نعثر على تاريخ خاص بها ، أو تاريخ يوضح لنا ذلك كما تقدم .

ويسعنا أن نقول بطريق الإجمال : إن هذه المدينة جزء من البلدان الشامية ، تعاقب عليه ما تعاقب عليها من الكوارث التي كانت تنتابها من الغزاة والفاتحين من قتل وحرق وهدم وسبي وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقترفها ذئاب البشر .

وأن هذه البقعة المباركة لم تزل مطمحاً لأنظار الطامعين في تضحية البشر في سبيل شهواتهم ، كبقية الأصقاع الشامية .

وقد شهدت من الحروب الدامية والوقائع والفظائع ماشهده غيرها من غزاة الفراعنة ، والآشوريين ، واليونانيين ، والفرس ، والرومانيين ، وغيرهم .

وبلاد الشام طيبة التربة ، عذبة الماء ، نقية الهواء . وقد كانت ولم تزل طريقاً تلتقي فيها الأمم ، وميداناً تتطاحن في سبيل الاستئثار به الدول . ولعل هذا علة العلل في تقويض حضارتها القديمة ، وطمس معالمها الزاهرة ؛ ولو أتيحت لها النجاة من مخالب الطامحين إليها ، لكانت لوحاً جامعاً لمدنية البشر وحضارته المختلفة في عصوره المتعددة .

وقد ذكر المؤرخون أن الرومانيين استولوا على بلاد الشام سنة ٦٤ قبل ميلاد عيسى — عليه السلام — ، واشتدت شوكتهم فيها ، ونشروا في أرجائها الفسيحة حضارتهم ، فازدهرت وأخصبت ، حتى أصبحت جنة زاهرة . وإن المكان المعروف بالبَلْعَاس كان في عهدهم كورة عظيمة ، ذات قرى آهلة ، وأشجار مثمرة . وكانت لهم عناية عظيمة في زرع الزيتون والعنب .

وفي المعرة وضواحيها كثير من معاصر الزيتون والعنب ، مبنية تحت الأرض . ومنها ما يرجع إلى عهد الرومانيين .

وفيها كثير من آثار الهياكل الضخمة ، والنواويس المنقورة في الجبال وفي باطن الأرض .

وأهل المعرة ينسبون إلى الرومانيين كل ماعثروا ويعثرون عليه من تلك الآثار ، مع أن منها ماهو قبل الرومانيين ، ومنها ما هو إسلامي ، والسبب في ذلك جهل الناس بمعرفة الآثار وما عليها من النقوش والكتابة ، فيرون أقرب شيء إليهم نسبتها إلى أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ، وهم الرومانيون ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار الخالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الاسلام :

لما افتتح أبو عبيدة دمشق ، أتى مدينة حِمْص فصالح أهلها واستخلف عليها عُبَادَة بن الصَّامِت الأنصاري ، ثم مضى نحو حماة فصالح أهلها على الجزية في رؤوسهم ، والخراج في أرضهم ، وجعل كنيستهم العظمى جامعاً ، ثم مر بالمعرة ، وقد خرج إليه

أهلها يقلسون بين يديه ، فصالحهم على مثل صلح أهل حماة ، وذلك سنة خمس عشرة للهجرة[١] ، وذكر ابن الأثير في الكامل[٢] : أنه صالحهم على صلح أهل حِمْص ، وهو صلح أهل دِمَشْق ، وقد ذكر ابن جرير[٣] : أنه صالح بعضهم على دينار وطعام على كل جريب أبدا ، أيسروا ، أو أعسروا ، وصالح بعضهم على قدر طاقته إن زاد ماله زيد عليه ، وان نقص نقص وذلك سنة ١٥ هـ ، ثم استخلف معاوية بن أبي سفيان ، فولى النعمان بن بشير حمص ، وأضاف اليـه المعرة كما سبق ، وكانت قِنَّسْرين وكورها مضمومة إلى حمص ، حتى ولي يزيد بن معاوية ، فجعل قنسرين وأنْطاكِية ، ومَنْبِج ، وذواتها جنداً واحدا .

ثم لما استخلف هرون الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها ، فصيرها جنداً واحدا ، وأفرد منبج ، ودُلُوك ، وأنطاكية ،

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ١ : ١٦٨ ، والبلاذري : فتوح البلدان ١٣٧ ، ١٣٨ ، ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٧٤١ ، ٧٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ : ٢٤٢ (ج) .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ٤ : ١٥٤ (ج) .

ومعرة النعمان وغيرها مما سبق ذكره ، وسماها العواصم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وقد ذكر المقدسى في (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) المؤلف سنة ٣٧٥ هـ ان معرة النعمان من مدن قِنَّسْرين ، وقصبتها حلب[1] .

ثم تعاقبت عليها دول مختلفة ، فكانت تارة من عمل حِمْص ، وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة اقطاعاً لأمير . وكان لهـــا في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها ، وسبيهم ، وخراب عمرانها . وإذا سلمت في بعض السنوات من مثل هذه الفظائع من الأمراء والملوك والمتغلبين ، نالت نصيباً وافراً من عبث البداة وغاراتهم ، فإذا سلمت من كلا الأمرين ، نالت قسطاً وافراً من ظلم الطبيعة وجورها ، ما بين زلزال يقوّض أركانها ، وطاعون يفني سكانها ، وقحط يبيد انسانها وحيوانها ، فإن سلمت من ذلك كله ، قام بمثل هذا الواجب طاغية متغلب من أهلها ، ففعل فيها ما لا يفعله الزلزال والطاعون والطبيعة .

وهي لا تزال الى هذا اليوم ، تنسج على هـــذا المنوال ،

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٥٤ .

وتحتذي على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقيته من المحن والبلاء ، يعجب كيف كتب لها الخلود إلى هذا العهد ، ولم تمح من صحيفة الوجود .

وصف المعرة وتحديدها منذ الفتح الاسلامي الى هذا العصر :

لم أقف على شيء مفصل من أخبار المعرة يوضح كيف كان عمرانها وحياة أهلها في صدر الاسلام وما بعده إلى القرن الرابع .

وقد عثرنا على بعض نصوص تاريخية ، تشير بصورة مجملة ، إلى ما كانت عليه من العمران والازدهار في القرن الرابع فما بعده ، فأثبتناها على ما فيها من الاجمال والغموض ، ليتضح لنا شيء من أحوالها ، إذ ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وهذا شيء من ذلك .

قال ابن حوقل البغدادي المتوفى سنة ٣٨٠ ﻫ في (المسالك والممالك) : والمعرة مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم .

ونقل عنه ابن العديم : أنها هي وما حولها من القرى أعذاء ليس بنواحيها ماء جار ولا عين[١] . وذكر ابن العديم : أنه شاهد عين ماء من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها .

رحلة ناصر خسرو القبادياني[٢] :

أنشأ رحلته من بلاده سنة ٤٣٧ هـ ، وعاد اليها سنة ٤٤٤ هـ ، وقد وصف البلاد التي اجتاز بها ، ومنها معرة النعمان فقال :

وبعد ستة فراسخ عن سَرْمِين ، تقول لك معرة النعمان : ها أنا ذه ، وهي مدينة آهلة بالسكان كثيراً ، ويحيط بها سور من حجر ، وقد شاهدت بالقرب من باب هذه المدينة سارية من الحجر ، كتب عليها بحروف غير عربية . فسألت أحدهم عن ذلك ، فأجابني أن هذا طِلَّسْم يحول دون العقارب ودخول المدينة والبقاء فيها ، فإذا جيء بعقرب من الخارج ، وأطلق يفر ويبتعد ، وقدرت أن هذه السارية كان علوها عشرة أذرع .

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١١٨ .

(٢) ترجم هذه الرحلة « طه حسين » صاحب ذكرى أبي العلاء ، والراجكوتي والاستاذ محمد كرد علي في مجلة المجمع ج ٢ مجلد ٦ ص ٦٦ وفي بعضها مغايرة لبعض آخر (ج) .

وأسواق المعرة طافحة بالأرزاق والخيرات ، وجامعها الأعظم مبني على أكمة قامت وسط المدينة ، ومن أي جهة اتجهت الى هذا الجامع ، كان عليك أن ترتقي سلماً ذا ثلاث عشرة درجة . ولا يزرع في هذه الجهات إلا الحنطة ، وتغل غلة حسنة . ويكثر في قراها أشجار الزيتون والتين والفستق واللوز والكرمة ، ومياه المعرة تجمع من المطر ، أو تمتاح من الآبار . اه

وذكر الميمني [١] أن [ناصر خسرو] دخل المعرة في ١٣ رجب سنة ٤٣٨ ه ،ولم يلبث فيها الآ يومين .

الطلّسم الذي كان في المعرة :

وهذا الطلسم ذكره غيره من المؤرخين ، قال ابن الشِّحْنَة [٢] : وبمعرة النعمان عمود فيه طلّسم للبقّ ، ذكر أهل المعرة أن الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة إلى خارج السور ، فيسقط عليها البق فإذا أعادها زال عنها . وأخبرني رجل من أهلها قال : رأيت أسفل داري عموداً ففتحت موضعه

---

(١) الميمني : أبو العلاء وما اليه ص ٢٤٤ .

(٢) ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ١٢٩ ، ١٣٠ .

لأستخرجه ، فانخرق إلى مغارة ، فأنزلت اليها إنساناً ظناً مني أنها مطلب ، فوجدناها مغارة كبيرة ، ولم نجد فيها شيئا ، ورأيت في الحائط صورة بقّة ، فمن ذلك اليوم كثر البق في معرة النعمان . وذكر أهل المعرة أن حيّاتِها لا تؤذي كما تؤذي غيرها ، ثم قال : وقال كمال الدين ابن العديم سمعت ابراهيم ابن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العمود القائم في مدينة المعرة هو طلّسم الحيّات ، وهـــذا العمود قائم مستقر على قاعدة بزبرة حديد في وسطه ، يميله الإنسان فيميل، وكذلك تعمل فيه الرياح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر .اه

وأمر هذا العمود غريب ، وتناقض الأقوال فيه أغرب . فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب المدينة ، وجعله طِلّسماً للعقارب . وفي كلام ابن الشِّحْنة أنه عمود قريب من السور وهو طلّسم للبق .

وفي كلام ابن العديم : أنه عمود يميله الانسان والريح ،

وهو طلّسم للحيات ، وصاحب نهر الذهب جعلها عمودين : أحدهما للبق والثاني للحيات . ولعل هذا من المزاعم الموروثة عند أهل ذلك العصر .

أما في عصرنا الحاضر فان العقارب والأفاعي في المعرة أكثر من الحصى عند جمرة العقبة ، وهي تفتك فتكاً ذريعاً في الناس ، وكثيراً ما أودت بحياة لديغها ، وان البق - أي البعوض - ينتشر في الصيف والخريف انتشاراً عظيماً ، وينقل جراثيم الملاريا وغيرها ، وقل من سلم من أهلها منها ، وهو ينبعث من المستنقعات والمراحيض المتكونة في المدينة وأطرافها .

وقد كانت في المعرة مستنقعات عظيمة ، منها : الرام الكبير ، والرام الصغير ، وهما جنوبي المدينة ، ومنها : الهارب ، وهو في عرفهم بحيرة تنصب اليها المياه القذرة التي تسيل من الحمامات . وكان في المحلة القبلية هارب لحمام السيد يوسف ، وهذه البحيرة تسقي بمائها الأرض المتصلة بها ، وفي البحيرة أقذار متراكمة منذ مئات من السنين .

وكان في المحلة الشمالية هارب أعظم من هذا ، وهو شرقي الجامع الكبير ، يفصل بينهما طريق من الشمال الى الجنوب ،

وهذا الهارب تنصب فيه المياه التي تخرج من الحمام التحتاني ، والتي تخرج من حمام التكية، والاقذار التي تفيض من مراحيض الجامع الكبير. وهذه المياه لونها أسود ، وهي خاثرة من كثرة ما يخالطها من الاقذار والاوساخ ، ويسقى بها زرع الأرض المتصلة بها ، وتسمى أرض الهارب ، وما زاد عن السقي يذهب في الارض ويتبخر في الهواء .

وقد عنيت الحكومة في العهد الأخير بازالة هذه المستنقعات الضارة ،وقلّت الملاريا بسبب ذلك[1] .

وسيأتي القول في زراعة المعرة ومياهها وجامعها وأسواقها .

وذكر ابن جبير في رحلته سنة ٥٧٨ هـ : أنه خرج من قِنّسْرين يريد حِمْص ، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والفستق

---

(١) وقد باشرت بلدية المعرة في عهد رئاسة الدكتور اكرم الخاني سنة ١٩٦٢م بانشاء مجارٍ عامة لمدينة المعرة ، وقد تم انشاء الفرع الجنوبي منها ، وبلغت تكاليفه ما يقارب ٣٠٠٠٠ ثلاثين ألف ليرة سورية ، وسيباشر قريباً بانشاء الفرع الشمالي والفروع الداخلية ، وقد رصدت البلدية لهذه الأعمال ١٧٨٠٠٠ مائة وثماني وسبعين الف ليرة سورية .

وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي أخصب البلاد وأكثرها أرزاقاً[١] .

ونقل ابن العديم[٢] عن أبي الفتح عبد العزيز ... بن زبيد المصري أنه قال : وصلت معرة النعمان ، فوجدتها واسعة الأسواق ، كثيرة الارفاق ، صحيحة الهواء ، واسعة الفضاء ، مياهها غزيرة ، وفواكهها كثيرة ، وأهلها يميلون الى الخير والتعفف ، ويعيشون بالقناعة والتعفف ، وفيهم بعض الحمية ،وشيء من العصبية ، ولهم مع هذا معرفة بالشر والخصومة ، وعادة السعاية والنميمة ، غير أن ذلك لا يتعداهم ولا يتجاوزهم الى أحد سواهم .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب)[٢] : قرأت بخط محمد بن أحمد ابن الحسن الكاتب في روزنامج (أي كتاب الاخبار اليومية) أنشأه وذكر فيه رحلته من بلاد أذربيجان الى الحج ، وعوده منه ... قال فيه : ونزلنا سَرْمِين ، فاستقبلني القائد بهـا بالاكرام والانعام ، وركب في صحبتي الى معرة النعمان ، بل مقر الروح والريحان ، بل زهرة العين والجَنان ، بل معدن البيان

---

(١) ابن جبير : الرحلة ٢٣٤ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٠ - ١ عن بغية الطلب لابن العديم .

واللسان والرجحان ، في الأدب والشعر والإتقان ، بل محل كل كريم وهِجَان . وهي مدينة تبل غلة الظمآن ، وتفثأ عَلة الغَرْثان السقْبان .

وقال ابن واضح الكاتب : ومعرة النعمان مدينة قديمة خراب ، وأهلها تَنُوخ[1] .

وقال ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ[2] : هي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حِمْص بين حلب وحماة ، ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين .

وقال ابن بَطُّوطَة في رحلته (تحفة النظار) [3] التي أنشأها سنة ٧٢٥هـ : والمعرة مدينة كبيرة حسنة ، أكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل الى مصر والشام .

وقال العزيزي : هي مدينة جليلة عامرة ، كثيرة الفواكه والثمار والخصب ، وشرب أهلها من الآبار .

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٢ : ٥٤١ ، ٦٠٧ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار ٣٩ .

ونقل أبو الفداء [١] في (تقويم البلدان) قول العزيزي هذا ، ونصه : ومعرة النعمان مدينة جيدة عامرة . . . . . .

وقال محمد الانصاري شَيْخ الرَّبْوَة [٢] : معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ، ولها عمل من أحسن الاعمال ، وهي شَعْرَاء [٣] ممدودة ، وغالب شجرها التين والفستق واللوز والمشمش والزيتون والرمان والتفاح وكثير من الفواكه ، وسائرها يشرب من ماء السماء ، لا يعتني بفلاحته أكثر من الحرث تحته ، وجبل الشُّمَّاق من أعمر الارض وأعملها فلاحا ، من رآه ورأى الاندلس ، لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الاندلس .

وقال القَزْوِيني في (آثار البلاد) المتوفى سنة ٦٨٢ هـ : معرة النعمان بليدة بين حلب وحماة ، كثيرة التين والزيتون .

وقال ابن العَديم في (بغية الطلب [٤]) ما خلاصته : المعرة مدينة حسنة ، وكان لها سور من الحجارة ، وأبنيتها أبنية حسنة ، وهي كثيرة الاشجار والفواكه ، لا سيما التين والفستق والزيتون ،

---

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٥ .

(٢) شيخ الربوة : نخبة الدهر ٢٠٥ .

(٣) أرض شعراء : كثيرة الشجر .

(٤) انظر ما سبق ص ٨٣ .

وكان الفرنج هجموها ، وتشتت أهلها ، ثم فتحها أتابك زَنْكي ابن آق سُنْقُر ، ورد على أهلها أملاكهم ، فعادوا اليها وسكنوها ، وعمرت المدينة عمارة حسنة ، لكن سورها خرب .

وبنى بها الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن عمر شَاهِنْشاه قلعة حسنة حصينة ، وانتزعها من يـــده الملك صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز غياث ، فزاد في عمارتها وتقويتها ، فقويت قلوب أهلها بالقلعة ، ورغبوا في عمارة البلد وسكناه ، وهي اليوم من أعمر البلاد ، وقد صار أكثر عبور القوافل عليها .وقد وصفها أبو العلاء في رسالة بَعَثَ بها إلى أمير فقال :

« وهذه جمل من صفة المعرة هي ضد ما قال الله عز وجل : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ [1] ﴾. الآية .. اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المَوْرِدُ بها مُحْتَبَس وظَاهِرُ تُرابها يَبَس ، لَيْسَ لَهَا مَاءٌ جَارٍ ، ولا تغرس فيها غرائب الأشجار ، وإذا أبرزَ لِاهْلِها ذِبح ، يؤمَّلُ به لديهم الربح ، تحسبه صيغ بخطر ، فَكَأنَّما يَرْمقُ بِهِ هِلَالَ الفِطْرِ ، وقد يَجيئها وقت يكون فيه جَدْيُ المَعزِ في العِزَّةِ كَجَدْيِ الفَرْقَد ، ومثل حَمَلِ الكواكب حمل النقد ، ويُبكرُ فقيرُها

---

(١) سورة محمد الآية ١٥ .

على الهداية ، قَبْلَ أبي الفَرْخَيْنِ ابْنِ دَايَة ، حتى يقف ببائعِ الرسل ، فَكَأنما وَقَفَ برضوانَ يَسْتَوْهِبُهُ ماء الحَيَوان ، فَإِن سَبَقَهُ ضِياءُ الفَجْرِ فإنه يَرْجِعُ خائباً ...» .

وهذا وصف حقيقي للمعرة في ذلك العهد ، وإن كان في بعضه مبالغة ، وأكثره تبدل بتبدل الزمان . فان المعرة ليس فيها ماء جار على وجه الارض ، ولكن فيها ينابيع ثرارة في باطن الارض ، يستخرج ماؤها بواسطة الدواليب وغيرها ، فتتألف منها بساتين كثيرة ، وقد غرس فيها غرائب الاشجار التى يمكن أن تعيش في إقليمها ، كالزيتون والرمان والعنب والتين والفستق واللوز والتفاح والخوخ والأجاص والكمثرى وغيرها ، ولكن أكثره لا يدوم طويلاً ، لشدة الحر في الصيف والبرد في الشتاء . وهناك أنواع من الشجر لا تعيش فيها كالنخل والموز والليمون والبرتقال وما شاكل ذلك .

أما اللحم وما تولّد من الحيوان ، فيكثر في زمن الربيع ، ويقل في زمن الشتاء ، وكذلك كل نوع من المأكول ، يكثر في موسمه ويقل بعد ذلك .

ولذلك أسباب كثيرة ، منها : بعد الأمصار العامرة عن المعرة كحلب وحماة ، وقلة الوسائط لنقل الاقوات والارزاق والسلع وتشعث الطرق ، وكثرة الاوحال فيها في الشتاء ، ولأن أصحاب الغنم يبتعدون بها عن المدينة بعد زمن الربيع ، وهذا شأن أكثر المدن في ذلك العهد .

أما في عصرنا الحاضر فهي كغيرها من البلاد الشامية ، تعجّ أسواقها بالارزاق والغلات والثمرات التي تزيد عن حاجة أهلها ، وعما يصدرونه إلى غيرها من المدن . وأهلها إلى هذا العهد يبكر كل واحد منهم لأخذ ما يحتاج إليه من طعام وشراب من الاسواق ، ثم ينصرف الى عمله ، والذي يحملهم على التبكير ان الإنسان إذا بكر وجد الشيء الجيد والثمرات الطيبة ، وإذا تأخر لا يجد غير الفضلات من كل شيء ، وربما فقد حاجته في الاوقات التي يقل فيها الشيء ، أو في الاشياء التي تجلب من خارج المدينة .

أما قلة الجدي والحمل واللبن على نحو ما وصف ، فلم نره ولم نسمع به الى زمن هجرتنا من المعرة سنة ١٣١٩ هـ .

وقد وصف المعرةَ كثيرون في عهد أبي العلاء وبعده وقبله ، وتكاد تتفق كلمتهم على كثرة فواكهها وثمارها ، حتى ان منها ما يحمل إلى مصر والشام .

ويجوز أن يكون اللحم في ذلك العهد قليلاً لسبب لم نعلمه ولم نسمع به .

وقد أهدى أبو العلاء بعض أصحابه شيئاً من الفستق ، وقال فيه : « وفي هذا البلد فستق رديء ، يسمى غيظ الجيران ومعنى هذا الكلام أنه إذا كسر ظن جيران السوء انه ملآن ، فحسدوا عليه ، وهم لا يعلمون انه فارغ ، وقد وجهت منه شيئاً ليعبث به أتباعه ، ولولا علمي بشرف أخلاقه وكرم نفسه لم أجسر على ذلك ، وما أولاه بأن يجربني على العادة في التفضل إن شاء الله تعالى » اه .

وقد كانت في دارنا في المعرة شجرتان ، تحمل احداهما فستقاً كبير الحجم يتشقق لعظم لبه ، ولا تحمل الثانية مثله ، ويسميها الناس ذكراً ، فاستثقلنا ما يسقط منها من الديدان والورق وقطعناها ، فصارت الأولى تحمل فستقاً فارغاً ، فصارت غيظاً لنا لا للجيران .

ومما لا شك فيه أن قول أبي العلاء في الجدي والحمل واللبن مبالغ فيه ، وإنما يراد به التقليل ، وقد استنبط الأستاذ الميمني من قول أبي العلاء « إذا أبرز لأهلها ذِبْح ، يؤمل به الرِبْح .. » ان أهل المعرة يوصفون بالبخل [١] وان القِفْطي يؤيده في قوله الآتي ، وسيأتي ما يبطل القولين معاً .

وكذلك قول أبي العلاء : انه وجه شيئاً من الفستق الفارغ .. لا يراد به حقيقته ، لأنه يبعد كل البعد أن يهدي ذلك ، وإنما أراد تحقير شأن الهدية بالنسبة إلى عظم من أُهديت اليه .

وقال في بغية الطلب : ومن أحسن ما وقع إلي في وصفها أبيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن المغربي [٢] ... والأبيات :

مَا عَلى سَاكِني المَعَرَّةِ لَوْ أَنْ م دِيَاراً نَبَتْ بِهِمْ أَوْ طُلُولاَ

---

(١) الميمني : أبو العلاء وما إليه ص ١٨ .

(٢) هو الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن الحسين بن علي من ولد بهرام جور ملك فارس ، ويعرف بالوزير المغربي ، أديب شاعر كاتب ، ولد سنة ٣٧٠هـ وتوفي سنة ٤١٨ هـ أنظر بغية الطلب ج ١ : ١٧٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٩٥ — ١٩٧ .

يَسْكُنُون العُلاَ مَعَاقِلَ شُمَّا   وَيَرَوْنَ الآدَابَ ظِلاًّ ظَلِيلاَ
مَنْزِلٌ شَاقَنِي أَنِيسٌ وَمَا كَا   نَ رُسُوماً نَوَاحِلاً وَطُلُولاَ
حَيْثُ يُدْعَى النَّسِيمُ فَظًّا وَيُلْفَى   سَبَلُ الغَادِيَاتِ شَكْساً بَخِيلاَ
أَيْنَمَا تَلْتَفِتْ تَجِدْ ظِلَّ طُوبَى   وَتَجِدْ كَوْثَراً أَغَرَّ صَقِيلاَ
تُرْبُهَا طَيِّبَ الشَّبَابَ فَمَا يَصْـ   ـحَبُ إِلاَّ السُّرُورَ فِيهَا خَلِيلاَ
فَتَرَى اللَّهْوَ إِنْ أَرَدْتَ طَلِيقاً   وَالتُّقَى إِنْ أَرَدْتَهُ مَغْلُولاَ
وَإِذَا مَا اعْتَزَى بِهَا الأَدَبُ العُذْ   رِيُّ جَاؤُوا عِمَارَةً وَقَبِيلاَ
لَيْتَ لاَ يَعْنُفُ السَّحَابُ عَلَيْهَا   لَيْتَهُ جَادَهَا عَلِيلاً كَلِيلاَ
وَسَلاَمٌ عَلَى بَنِيهَا وَلاَ زَا   لَ نَعِيمُ الحَيَاةِ فِيهِمْ نَزِيلاَ

وقال الإِصْطَخْري[١] في المعرة : هي وما حواليها من القرى أعذاء ، ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين. وقد تقدم نحو هذا عن ابن حَوْقَل .

وقال ابن العديم في (بغية الطلب) : « وقد شاهدت عين ماء من قبلي المعرة على الطريق بالقرب منها » . اه

---

(١) الاصطخري : مسالك الممالك ٦١ .

وأنا أقول : لعل هذه العين هي العين التي عند مَرْحطَاط وهي جنوبي المعرة على يسار الذاهب إلى حماة على بعد ساعة تقريباً من المعرة .

وقال صاحب التنوير في شرح قول أبي العلاء[1] :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المَخَاضِ وَحَارِمٍ   كَتَائِبُ يُشْجِينَ الفَلاَ وَخِيَامُ

ومخاض : نهر بقرب المعرة ، وكذلك قال الخُوارِزْمي في (ضرام السقط) ، وكذلك قال الفِيرُوزَابادي في (القاموس) والزَّبيدي[2] في (تاج العروس) .

وقد نقبت كثيراً فلم أجد نهراً بقرب المعرة ، ثم رأيت التَّبْرِيزِي يقول في (شرح سقط الزند) : المخاض نهر يخاض في الأرض التي تعرف بالرُّوج ، وهي قريبة من معرة النعمان ، والتقى في هذا الموضع عسكران ، أحدهما للمسلمين ، وأمير العسكر الذي للمسلمين بنجوتكين[3] التركي ، الذي اصطنعه

---

(١) التنوير على سقط الزند ، وانظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٥ : ٨٥ .

(٣) هكذا جاء في التبريزي والبطليوسي وفي غيرهما « منجوتكين » وانظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٠٣ .

أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بن معد الملقب بالمعز ، فتقاتل العسكران والمخاض بينهما ، ثم عبر المسلمون اليهم ، فانهزموا .

وذكر البَطَلْيَوْسي في (شرح سقط الزند) نحواً من هذا ، وقال: المخاض نهر يخاض قريب من المعرة بأرض تعرف بالرُّوج .

ومما تقدم يتبين ان المخاض ليس بنهر ، ولا قريب من المعرة قرب اتصال ، بل بينها مسافة بعيدة .

وقد وصفها عمر بن الوردي المعري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ في مواطن من شعره ، ووصف الطبيعة فيها ، وذكر كثيراً من الأماكن الجميلة ، ومواضع التنزه ، وسمى بعض العيون التي ينبجس منها الماء ، فقال من قصيدة مطلعها :

قِفْ وَقْفَةَ المتـأمِّلِ   بِمَعَرَّةِ النُّعْمَانِ وَانْظُرْ بي وَلي

* * *

[منها] :

يا سَعْدُ زُرْ أرْضَ المَعَرَّةِ نائِباً   عَنّي وَسِرْ فيها مَسِيرَ مُبَجِّلِ

وَادي المَعَرَّةِ في النُّفوسِ مُعَظَّمٌ   لا سِيَّما زَمَنَ الرَّبيعِ المُقْبِلِ

هِرْماسُها لَمّا تَخَضَّبَ سَيفُهُ   بَعَثوا إليهِ مِنَ النَّسيمِ بِصَيْقَلِ

* * *

[منها] :

وأرى نَضارَتَها وَبابَ شَبابِها[1] ... ضَمِناً لِساكِنِها بِسَعْدٍ مُكْمِلِ

قَلْبي لِعَيْنِ زُرَيْقٍ صادٍ شَبَّ مَنْ ... أَلِفَ العِتابَ وَلامَ لَوْمَ مُضَلَّلِ

لَوْ زُرْتَها لَفَتَحْتُ بابَ جِنانِها ... وَأَقولُ يا نَفْسُ اطْمَئِنّي وَادْخُلي

إنَّ القُلوبَ إلى القُلوبِ مَشُوقَةٌ ... قَدْ أَذْكَرَتْها بِالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

وهي في ديوانه[2]

ووصفها في قصيدة ثانية مطلعها :

رَعَى اللهُ عَيْشاً بِالمَعَرَّةِ لي مَضَى ... حَكاهُ ابْتِسامُ البَرْقِ إذْ هُوَ أَوْمَضا

وَعَصْرَ شَبابٍ في سِياثَ قَطَعْتُهُ ... وَفي أَرْضِ حِنْدُوتِينَ في ذَلِكَ الفَضا

أَعاذِلُ لَوْ شاهَدْتَ بابَ جِنانِها ... لَما كُنْتَ يَوْماً ناهِياً بَلْ مُحَرِّضا

وَلَوْ عايَنَتْ عَيْناكَ وادِي فَضالَةٍ ... عَذَرْتَ صَحيحَ الوُدِّ بِالبُعْدِ مُمْرَضا

وَلَوْ عَيْنَ مَعْراتا رَأَيْتَ صَفاءَها ... لَأَصْبَحْتَ مِنْ غَيْظِ المَلامَةِ رَيِّضا

فَصِفْ لي عُيوناً بِالمَنابِعِ فُيَّضاً ... أُريكَ عُيوناً بِالمَدامِعِ فُيَّضا

وَلا تَبْدَرا بِالبَيْدَرَيْنِ فَأَضْلُعي ... أَخافُ مِنَ الأَشْواقِ أَنْ تَتَقَضْقَضا

---

(١) لعله : « سياثها » . (ج) .

(٢) ابن الوردي : الديوان ٢٦٢ (ج) .

وَلا تَجْرِ بِالي ذِكْرُ جَرْيا وَنَحْوِها رُبىً جادَها غَيْثٌ فَرَوَّى وَرَوَّضا

فَفُسْتُقُها عِنْدَ ابْتِسامِ ثُغُورِهِ يُضاحِكُ بَرْقاً قَدْ أَضاءَ بِذي الأَضا

وَقَلْعَتُها عِنْدي وَإِنْ بانَ أَهْلُها كَما طُولَ مِنْ سُهْدي عَلَيْها وَأَعْرَضا

وَعَيْنُ زُرَيْقٍ بي إِلى مائِها ظَماً أَلَمْ تَرَ لَوْنَ الماءِ أَزْرَقَ أَبْيَضا

وَكَمْ لِعَلِيَّاتِ العَسيلِ حَلاوَةٌ وَإِنْ مَلُحَتْ في عَيْنِ مَنْ مَرَّ مُعْرِضا

وَشَوْقي إِلى أَنْوارِ مَشْهَدِ يُوشَعٍ تَشَوُّقُ مَنْ ضاقَتْ بِهِ سَعَةُ الفَضا

وَلَوْ دُرْتُ وادِي دَيْرِ سَمْعانَ ساعَةً لَكُنْتُ أُبِلُّ الشَّوْقَ مِنْ عُمَرِ الرِّضى

وَيا ماشِياً في مُلْكِ فارِسَ راجِلاً

سَعِدْتَ فَكُنْ عَنْ مُلْكِ فارِسَ مُعْرِضا

لَقَدْ طالَ بِالهِرْماسِ عَهْدي وَمائِهِ إِذا ما جَرى كَالسَّيْفِ أَحْمَرَ مُنْتَضى

ثم وصف الهرماس وما يكتنفه في مجراه ، ومدح المعرة وأعرب عن حنينه اليها وأسفه لفراقها ، ثم قال :

سَلامٌ عَلى ذاتِ القُصُورِ وَأَهْلِها وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ حُسْنِ حالٍ بِها مَضى

وهي في ديوانه [1]

---

(١) ابن الوردي : الديوان ٣٢١ (ج) .

طول المعرة وعرضها :

وقال [القَلْقَشَنْدِي] في (صبح الأعشى)[1] في حدود حماة :

وحدّهـــا من الشمال آخر حدود المعرة من الغرب .

وذكر لها ثلاثة أعمال ، ثالثها عمل المعرة ، قال : وهي مدينة من جُنْد حِمْص واقعة في الإقليم الرابع . قال في كتـــاب الأطوال : طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة .

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان)[2] : القياس أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وتعرف بمعرة النعمان ...

أبواب المدينة :

قال في (الروض المعطار) : ولها سبعة أبواب ، باب حلب ، والباب الكبير ، وباب شيث ، وباب الجنان ، وباب حمص ،

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ١٤١ (ج) .

(٢) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

وباب كذا[١] . قال : ويذكر أن قبر شِيث بن آدم ـ عليه السلام ـ عند الباب المنسوب إليه فيها ، وداخلها قبر يوشع بن نون عليه السلام ، وعلى ميل منها دَيْر سَمْعَان[٢] ، الذي به قبر عمر بن عبد العزيز . .

ولعل البابين اللذين لم يذكرا هما باب حُنَاك ، وقد ذكره أبو المجد ابن ابن أخي أبي العلاء بقوله :

يَا مَغَانِي الصِّبَا بِبَابِ حُنَاكِ لاَ بِبَابِ الغَضَا وَوَادِي الأَرَاكِ[٣]

وباب تَلَّمَنَّس .

وقال الغزي في (نهر الذهب) :[٤] وكانت المعرة بلدة عظيمة ، تدل أطلال سورها على أن طولها ساعة في عرض مثلها ، وكان لها من جهة القبلة باب يسمى باب نصرة عند تل كبير يذكر أن فيه كنزاً ، ومن جهة الغرب باب يدعى باسم السيد شِيث ، يبعد عن قلعتها نحو عشر دقائق ، وكانت

---

(١) هكذا في صبح الأعشى ج ٤ : ١٤٢ (ج) .

(٢) ويقال : دير سِمعان بالكسر .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ٣٤٩ .

(٤) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٩ .

القلعة في وسط البلدة ، ومن جهة الشمال باب يدعى بـاب أبلَة ، عنده باب ضخم يدل على أنه من بناء السريان ، ومن جهة الشرق باب يدعى باب مَنَّس ، لأنه يخرج منه الى تَلّ مَنَّس ، وهي الآن قرية معروفة كان ظهر فيهـا عاديات زجاجية وأسس ضخمة ا هـ .

هذا ما نقلته عن المتقدمين ولم تتبين فيه الأبواب السبعة ، والعامة من أهل المعرة يزعمون أن للبلدة سبعة أبواب ، باب شِيث ، وهو في موضع يقال له : المَحْيا في الشمال الغربي من المعرة . وباب الزيت عند موضع يقال له : رام الزيت . وباب الهنا أو باب حناك عند أطلال حصن حُنَاك . وباب نصرة عند تل بَنَصْرَة الواقع في جنوبي المعرة . وباب فارس على مقربة من مدفن عمر بن عبـد العزيز في الدير الشرقي المعروف بدير سمعان . وباب منس على مقربة من قرية يقال لها : تل منس . وباب إيلا على الطريق الآخذة من المعرة الى حلب ، وان كل واحد من هذه الأبواب على بعد ساعة من المعرة .

ولا شك أن هذا الزعم قائم على الوهم والتخمين ، ولعل

سببه أن العامة سمعوا أن المعرة كانت مدينة جليلة ، لها سبعة أبواب ، منها باب شِيث وغيره ، فوضعوا أبواباً سبعة ، واضافوا كل باب الى شيء . وأخذ صاحب (نهر الذهب) كامل الغزي قول العامة فعول عليه ، والدليل على ذلك وعلى بطلانه ، أننا لا نعرف في عصرنا ولا سمعنا من شيوخ المعرة الذين أدركوا العصر الذي قبله ان هناك باباً يقال له : باب نصرة ، وانما المعروف أن هناك تلاً يقال له : تل بَنَصْرَة، والعامة تزعم أنه محرف عن باب النصر . وسيأتي أن باب إيلا قرية على بعد ساعة من المعرة . وليس بينهما ما يدل على انها كانت باباً للمعرة ، وأن القلعة ليست في وسط المدينة ، بل تبعد عنها أكثر من عشر دقائق . كما ان باب شيث لا يبعد عن القلعة أكثر من هذا القدر ، ولو كانت في وسط المدينة لكان باب شيث في طرفها أو فيها . وكذلك لا يعرف أهل هذا العصر باباً في جهة الشرق يقال له : باب مَنّس .

والذي يخيل إليّ أن هذه الابواب كانت للسور ، منها : باب شيث ، وهو في الجهة الشمالية ، وباب الجنان ، وهو في الجهة الغربية يخرج منه الى وادي الجنان . وباب حُنَاك وهو

في الجنوب الغربي يخرج منه الى حصن حُناك ، وهذا الباب ذكره أبو المجد[1] محمد ابن ابن أخي أبي العلاء في قوله الآتي :

يا مَغاني الصِّبا بباب حُناك . . . .

وسيأتي ان داره بباب حناك ، وتعرف بدار القبة . وباب حِمْص في الجهة الجنوبية ، على الطريق الآخذة الى حماة ، وهو الذي احرقه قرعونه سنة ٣٦٤ ﻫ كما سيأتي . وباب حلب في الجهة الشرقية على الطريق الآخذة الى حلب . وأما الباب الكبير فلعله في الجهة الشرقية ايضاً . ولعله الذي زعم الناس انه باب مَنَّس ، وأما الباب الآخر فلم اهتد اليه .

قلعة المعرة :

سيأتي أن المعرة صارت في سنة ٦٢٦ ﻫ للملك المظفر محمود صاحب حماة ، وفي سنة ٦٣١ ﻫ نزلها ، وفيها تم بناء قلعتها ثم شحنها بالسلاح والرجال .

---

(١) في الأصل : « ذكره أبو المجد محمد أخو أبو العلاء » . وأبو المجد كنية لعلمين أحدهما محمد بن عبد الله بن سليمان ، وهو أخو أبي العلاء ، والثاني محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، وهو ابن ابن أخي أبي العلاء . والبيت لهذا الأخير كما عزاه إليه المؤلف في الصفحة ٩٧ وكما في ياقوت ٣٤٩/٣ .

وفي سنة ٦٣٥ ﻫ حاصر الحلبيون قلعة المعرة ، ثم اخذوها وخربت المعرة بسبب ذلك ، وقد استنجد الحلبيون عسكراً من الْخُوَارِزْمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباذ[1] فأمدهم بخيار عسكره فملكوا المعرة .

وفي سنة ٦٣٨ ﻫ نهبتها الخوارزمية بعدما خربوا حلب .

وفي سنة ٦٥٨ ﻫ قدم التتر على المعرة وخربوا قلعتها وأسوارها .

فيكون بناؤها قد تم سنة ٦٣١ ﻫ وقد هدمت سنة ٦٥٨ ﻫ ومدة بقائها عامرة سبعاً وعشرين سنة ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الحصون والقلعة والسور .

المعرة مركز للبريد والحمام الزاجل :

وذكر القلقشندي في (صبح الأعشى[2]) مراكز البريد في طريق حلب ، وعدَّد المراكز إلى حِمْص ، ثم الرَّسْتَن ، ثم حماة ، ثم المعرة ، ثم أنقراتا ، ثم إياد ، ثم قِنَّسْرين ، ثم حلب .

وذكر أيضاً في مطار الحمام الرسائلي وأبراجها المقررة الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها فقال : وأما

---

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٥ : ٣٩٤١ : كيقباد .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ١٤ : ٣٨١ (ج) .

إلى جهة حلب ، فتسرح من دِمَشْق الى قارا[1] (كذا) ، ثم من قارا الى حِمْص ، ثم من حمص الى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

وقال[2] في الكلام على نيابات حماة : وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات ، ولاتها أجناد ، يوليهم النائب بها ، الأولى ولاية بَرّها كما في دمشق وحلب ، الثانية ولاية بارِين ، الثالثة ولاية المعرة ، وليس بها عرب ولا تُرْكُمان .

واجتاز بالمعرة السائح التركي أوليا چلبي[3] سنة ١٠٥٩ ه وذكرها في رحلته المطبوعة في الآستانة ، وهذه خلاصة ترجمتها : المعرة قاعدة لواء يرأسه باشا ، ويتبع إيالة حلب ، وهذا اللواء منح بطريقة الأربهلق[4] إلى الدفتردار[5] إبراهيم باشا ، أخي أحمد باشا الهزارپارة[6] ، وذلك حين كان ذا ثلاثة أطواغ .

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٤ : ١٢ ، ١٣ : قارَة .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٤ : ٢٣٩ .

(٣) اسمه محمد ظلي .

(٤) أي عيناً أو نقداً .

(٥) هو مدير المال .

(٦) أي صاحب الألف قطعة .

وكان يُحصل للدفتردار المذكور منه أربعون ألف قرش ، ومقدار الخاص العائد لباشا هذا اللواء (٢٣٠٠٠٠) آقجة[١] ، وفيه سبع زعامات ، وسبع وثمانون تيمارا[٢] ، ورئيس جند ، وأمير لواء ، ورئيس مئة . ويبلغ عدد جنده مع ما يجتمع من الجيجية وجند الباشا نحو (١٥٦٠) ، وقضاؤه شريف يبلغ مرتبه ثلاثمائة آقجة ، ويحصل لقاضيه ستة أكياس . وفيه شيخ إسلام ، ونقيب أشراف ، وكان أهله فقراء ، ولذلك لم يكن عندهم حكام زائدون . وقلعة المعرة خراب ، والبلدة في مكان محجر ، وفيها (٨٠٠) دار مشيدة بالحجر جميلة ومختصرة في الجملة ، وفيها ستة وعشرون معبدا ذا محراب . وماؤها نبع يكون في شهر تموز بارداً كالثلج ، وهذا الماء هو أحد المياه ذات الرائحة ، وقد اشتهر بذلك في كل مكان .

ثم سرد حكاية أبي العلاء المعري لما كان ببغداد ، وأتوه بماء المعرة والتذ به ، وقال : سبحان الله لا بد أن يكون هذا ماء المعرة ، أو أن ماء المعرة أتي به إلى هنا ، لذلك اشتهر بين أهل البلاد العربية مثل : سبحان الله هذا ماء المعرة ، فأين هواؤها . وفي الحق أن ماء المعرة وحلب وهواءهما لا نظير لهما في الأقاليم السبعة ،

---

(١) هي قطعة من النقد الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) هو محصل الاعشار من الأرضين .

وفي المعرة خان وحمام وأربعون إلى خمسين دكانا ، وفيها انتشرت كروم التوت والزيتون ، وفي أرض المعرة القديمة دفن يوشع بن نون عليه السلام ، عاش مائة وعشرين عاماً ، وقد رأيت له قبرين ، الأول في طَرَابُلُس الشام ، والثاني في المعرة ، ولعل أحدهما مقام له . وفي المعرة مقـــام ومزار حضرة أبي العلاء المعري . اه .

ما تعاقب عليها من الحوادث والكوارث ، وما حدث فيها الى عهد جلاء الترك عنها :

قد رأيت ما عثرنا عليه في كلام المتقدمين من وصف المعرة وضاحيتها مما يمثل لنا شبحاً ضئيلاً مما بلغت إليه من الحضارة والعمران ، وكنا نود أن نقسم الكلام في ذلك إلى أنواع ، نبين في كل نوع حالتها السياسية والاجتماعية والعقلية ، ولكن قلة المأخذ ، وفقدان تاريخ خاص بها ، اضطرنا إلى الاكتفاء بما أوردناه على النمط الذي تخيرنا . وقد تعاقب على هذه البلدة الطيبة ضروب من الكوارث والمصائب التي طمست معالمها وشوهت نضرتها من حروب طاحنة وفتن مدمرة ،

وقاسى أهلها من العذاب والهون والسبي والقتل والنهب من المتغلبين والخارجين على السلطان وغيرهم ما لم يقاسه أحد.

ولم يسعفنا التاريخ بالاطلاع على تلك الحوادث تامة، حتى نوردها متناسقة، ونميز كل نوع من غيره، فنبين كلا منها في فصل على حدة، ونضيف إلى ذلك فصلاً فيمن وليها من الأمراء، وآخر فيمن تغلب عليها، وآخر في القضاة وغيرهم. ولكننا نزلنا على حكم الضرورة، فسردنا الحوادث المختلفة على ترتيب السنوات، وسلكنا سبيل الايجاز بقدر الطاقة.

في سنة ١٤١ ه أسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر في البلاد الخالية المجاورة بلاد المردة في لبنان، فجلا الأمير فِنْد بن مالك وأخوه الأمير أرْسلان بجماعة من عشيرتهما من بلاد المعرة، فنزلوا في وادي التيم في الحصن المعروف بحصن أبي الجيش، ثم تفرقوا في جبل لبنان، وعمروا الخالي من أرضه [1].

في سنة ٢٠٨ ه قدم عبد الله بن طاهر بن الحسين وزير

(١) محمد كرد علي: خطط الشام ١ : ٦٨ (ج).

المأمون لهدم حصون الشام ، فهدم سور المعرة ، وحِصْن الكَفر ، وحصن حُنَاك [١] ، وغيرهما من حصون المعرة [٢] .

وفي سنة ٢٢٦ ﻫ قلد الراضي محمد بن رائِق أمير الأمراء ببغداد طريق الفُرات ، وديار مُضَر ، وجُنْد قِنَّسْرين والعَواصِم ، ـ وقد بينا أن المعرة منها ـ .

وفي سنة ٢٣٢ ﻫ ولي ناصر الدولة بن حَمْدان على أعمال ابن رائق كلها .

وفي سنة ٢٤٥ ﻫ حدث زلزال عظيم في الشام في شباط ، وسقطت من ذلك كنيسة حناك الكبرى وغيرها .

وفي أيام المستعين بالله وثب بالمعرة المعروف بالفصيص ، وهو يوسف بن ابراهيم التنوخي ، فجمع جموعاً من تَنُوخ وصار إلى مدينة قِنَّسْرين ، فتحصن بها ، ولم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى أمير المؤمنين ، فاستماله واستعمل عطيف بن نعمة ، وصار إليه ، ثم قتل عطيفاً وهرب إلى الجبل الأسود ، وكانت خلافة المستعين من سنة ٢٤٨ ﻫ إلى سنة ٢٥٢ ﻫ تقريباً .

---

(١) سيأتي بيانها . (ج)

(٢) وجد في هامش الدر المنتخب لابن الشحنة ان ذلك كان سنة ٢٠٧ ﻫ (ج) .

وفي سنة ٢٧٦ هـ ملك الثغور والعواصم والرَّقّة أحمد بن طولون ، ثم ملكها اسحق بن كنداج بعد وفاة ابن طولون ، بعد أن استأذن الموفق بذلك .

وفي سنة ٢٨٨ هـ حفر لُؤلؤ [١] والي المعرة غلام وصيف ابن صوراتكين أمير حِمْص ، خندقاً على المعرة ، وحاصرها جَهِير بن محمد التَّنُوخي ، وبنو كِنانة ، وطال الحرب بينهما ، ثم انصرف عنها ، ولم يستطع فتحها .

وفي الانصاف لابن العديم أن جهير بن محمد التنوخي ولي معرة النعمان .

وفي سنة ٢٩٠ هـ حضر القِرْمِطي ، واسمه الحسين ، ثم تسمى أحمد أبا العباس الملقب بصاحب الشامة المهدي ، لشامة كانت في وجهه .

وأغرى أبا الحَجَر المُؤَمَّل بن المصبح ، وهو رجل كردي تولى أفامِيَة من قبل الخليفة نحو أربعين سنة ، فأوقع بأهل المعرة ،

---

(١) لعل لؤلؤا هذا هو الذي اخرج من حمص من قبل الإخشيدية لقتال المتنبي ، حين ادعى النبوة في بادية السماوة ونحوها ، كما ذكر ذلك التنوخي صاحب نشوار المحاضرة ص ٦٠٩ (ج) .

حتى قتلهم قتلاً ذريعاً ، ثم لما قتل القرمطي أسرى إلى هذا الكردي ابراهيم وأنجوا إبنا الفصيصي فأوقعا به ، فهرب حتى ألقى نفسه في بحيرة أفامِيَة فأقام بها أياماً ، وقتل ابنه ، فقال فيه بعض شعراء المعرة :

تَوَهَّمَ الحَرْبَ شطْرَنجاً يُقلِّبُها   للقمْرِ يَنقُلُ مِنْهُ الرّخَّ والشّاهَا

جَازَتْ هَزِيمَتُه أنْهَـارَ فَامِيَةٍ   إلى البُحَيْرَةِ حَتّى غَطّ في مَاهَا

وذكر ابن خلدون في تاريخه [١] : أن القِرْمِطي هذا استباح حِمْص وحماة والمعرة ، وخُطب له فيها . وقال ابن المُهَذَّب المعري في تاريخه : إن القرمطي قتل في معرة النعمان بضعة عشر ألفاً ، وأقام يقتل وينهب ويحرق خمسة عشر يوماً ، وأنه التقى سنة ٢٩١ هـ بعساكر الخليفة المكتفي في تمنع ، وهي من المعرة على الطريق الآخذة من حماة إلى حلب ، فانهزم أبو شامة ، وابن عمه المدثر ، وغلام رومي ، ثم أمسكوا ، وقتلهم الخليفة في بغداد .

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ : ٨٦ (ج) .

وذكر ابن خلدون في تاريخه[١] : أن ذَكْرَوَيْه بن مهدويه[٢] داعية القرامطة سار من حِمْص إلى حماة والمعرة وبَعْلَبَك، ثم إلى سَلَمْيَة، فقتل جميع من فيها حتى النساء والصبيان والبهائم، ونهب سائر القرى من كل النواحي .

وفي (إعلام النبلاء)[٣] : أن المكتفي لقي القرامطة، بين تل بنش وكفر طاب في عشرة آلاف فارس، فنصره الله عليهم، وما ذكرناه أقرب إلى الصواب وإلى ما ذكره المؤرخون، ولعله تَل مَنَّس، ولعل تمنع هي القرية المعروفة الآن بالتمانعة، وهي قرب خان شيخون شرقي طريق السيارات الاخذة من المعرة إلى حماة .

وفي مجلة المجمع العلمي العربي[٤] : نحو مما ذكرناه عن ابن المهذب وابن خلدون وكذلك في الشذرات[٥] في حوادث

---

(١) ابن خلدون : العبر ٤ : ٣٠٩ (ج) .
(٢) وفي أعلام الزركلي : زكروية بن مهرويه .
(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ١ : ٢٣٢ .
(٤) مجلة المجمع العلمي العربي ١٢ : ٦٠٨ (ج) .
(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ٢ : ٢٠٦ .

سنة ٢٩١هـ، وفي (مرآة الجنان) لليافعي[١] أيضاً : أن القِرْمطي قتل وسبى في المعرة .

وفي سنة ٣٢٣ هـ عملت الجهة القبلية في المسجد الجامع في المعرة بالرخام والفصوص والجص ، وقد صنع ذلك أخوان من دمشق ، اسم أحدهما متوكل ، وبقي إلى أن أحرقه نقفور سنة ٣٥٧ هـ[٢] .

وفي سنة ٣٢٥ هـ وردت بنو كِلاب من نجد ، وأغارت على المعرة ، فخرج إليهم والي المعرة مُعاذ بن سعيد بجنده ، وتبعهم إلى البراغيثي ، فعطفوا عليه وأسروه وأكثر جنده ، وأقام فيهم أياماً يعذبونه حتى خلصه والي حلب أبو العباس أحمد بن سعيد ابن الكِلابي[٣] .

وفي سنة ٣٣٢ هـ استعمل ناصر الدولة بن حَمْدان محمد بن علي بن مُقاتِل على قِنَّسْرين والعواصم وحِمْص

---

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٢ : ٢١٨ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٦٨ (ج) .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٤٠ .

ثم استعمل بعده في السنة المذكورة ابن عمه الحسين بن سعيد ابن حَمْدان على ذلك [١] .

وفي أبي الفداء [٢] في حوادث سنة ٣٥٦ هـ : وقيل : إن أول من ملك حلب من بني حمدان الحسين بن سعيد وهو أخو أبي فِراس حمدان .

استيلاء سيف الدولة على المعرة :

وفي سنة ٣٣٢ أو ٣٣٣ هـ استولى سيف الدولة على حلب ودِمَشْق وما بينهما ، وأقام حينـاً في دمشق ، ثم خرج إلى الاعراب، فلما عاد منعه أهل دمشق من دخولهـا فبلغ الإِخْشِيد ذلك ، فسار من الرَّمْلَة ، وتوجه يطلب سيف الدولة ، فلما وصل طَبَرِيّة عاد سيف الدولة الى حلب بغـير حرب ، لأن أكثر أصحابه وعسكره استأمنوا إلى الإخشيد الى أن نزل معرة النعمان في جيش عظيم ، فخرج سيف الدولة

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٩٦ ، ٩٧ . وابن الوردي : التاريخ ١ : ٢٧٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٣ .

ولقيه بأرض قِنَّسْرين ، وكان الإخشيد جعل مطارده وبوقاته في المقدمة ، وانتقى من عسكره عشرة آلاف سماهم الصابرية فوقف بهم في الساقة ، وحمل سيف الدولة على مقدمة الاخشيد فهزمها ، وقصد قبته وخيمته ، وهو يظنه في المقدمة ، فحمل الاخشيد ومعه الصابرية ، فاستخلص سواده ، ولم يقتل من العسكرين غير مُعاذ بن سعيد والي معرة النعمان من قبل الاخشيد ، فانه حمل على سيف الدولة ليأسره ، فضربه سيف الدولة بمستوفى ، وهو عمود من حديد طوله ذراعان ، مربع الشكل ، له مقبض مدور في وسطه كان معه ، فقتله وهرب سيف الدولة ، فلم يتبعه أحد من عسكر الاخشيد ، وسار على حاله الى الجزيرة ، فدخل الرَّقّة (١) .

وفي سنة ٣٣٨ هـ احترق حصن أفامِيَة .

وفي سنة ٣٣٩ هـ نزل بسيل ملك الروم على افامية ، وسيأتي الكلام في هاتين الحادثتين .

---

(١) بيشوف : تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء ٣٣ . راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٥١ — ٢٥٦ .

وفي سنة ٣٣٩ هـ يبس شجر الزيتون في المعرة من البرد الذي نجم عن الثلج والجليد اللذين لم ير لهما مثال ، حتى قيل : إن الفرات جمد ومشى الناس عليه ، وكانت القدور وهي على النار يجمد أعلاها .

وفي سنة ٣٤٩ هـ جاء الجليد والبرد حتى جمد الفرات والقدور على النار ويبس الزيتون في المعرة وكَفَرْطاب [١].

وفي سنة ٣٥٤ هـ عصى أهل أنطاكِية على سيف الدولة ، وسبب ذلك أن رجلاً من أهل طَرَسُوس يسمى رَشِيقا النَّسِيمي ، كان مقدما فيها ، وكان من جملة من سلمها الروم ، ثم خرج إلى أنطاكية ، فلما وصلها خدمه انسان يعرف بابن الأهوازي ، كان يضمن الأرْحاء [٢] بأنطاكية ، فسلم إليه ما اجتمع عنده من حاصل الأرحاء ، وحسّن له العصيان ، وأعلمه أن سيف الدولة بَميّافارِقين قد عجز عن العود إلى الشام ، فعصى واستولى على انطاكية وسار إلى حلب ، وجرى بينه وبين

---

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٥٩ (ج) .

(٢) لعلها جمع رَحَى التي يطحن بها ، انظر معجم البلدان لياقوت ١ : ١٩٦ .

النائب عن سيف الدولة ، وهو قَرْعُونَه ، حروب كثيرة ، صعد قرعونه إلى قلعة حلب فتحصن بها ، وانفذ سيف الدولة عسكراً مع خادمه بِشارة نجدة لقرعونه ، فلما علم بهم رَشِيق انهزم عن حلب ، فسقط عن فرسه ، فنزل إليه انسان عربي فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى قرعونه وبِشارة ، ووصل ابن الأَهْوازي إلى أنْطاكِية ، فاظهر إنساناً من الدَّيلَم اسمه دِزْبر ، وسماه الأمير ، وتقوى بانسان علوي يقيم له الدعوة ، وتسمى هو بالأستاذ ، فظلم الناس وجمع الأموال ، وقصد قرعونه إلى انطاكية ، وجرت بينهما وقعة عظيمة ، فكانت على ابن الأهوازي أولاً ، ثم عادت على قرعونه ، فانهزم وعاد إلى حلب . ثم إن سيف الدولة عاد من مَيّافارِقِين عند فراغه من الغزاة إلى حلب فأقام بها ليلة ، وخرج من الغد فواقع دزبر وابن الأهوازي ، فقاتل من بها ، فانهزموا وأسر دزبر وابن الأهوازي ، فقتل دزبر وسجن ابن الأهوازي مدة ثم قتله [١] . وقد ذكر ياقوت [٢] في معجم البلدان في «حَنْدُوثا» :

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٨ : ٢٢١ (ج) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٤٧ .

أن مقدمي المعرة عصوا مع ابن الأهوازي على سيف الدولة، ولم يسم منهم إلا محمد بن إسماعيل الخندوثاني أحد وجوه المعرة وأعيانها، كما سيأتي ذلك في ترجمته.

وقال العُكْبَري[1] في (شرح ديوان المتنبي): شَبيب بن جرير العقيلي، من قوم كانوا من القرامطة، وكانوا مع سيف الدولة، وولي شبيب معرة النعمان دهراً طويلاً، واجتمع إليه جماعة من العرب فوق عشرة آلاف، وأراد أن يخرج على كافور، وقصد دِمَشْق فحاصرها، فيقال: إن امرأة ألقت عليه رحى فصرعته، وذكر العكبري أقوالاً أخر في موته.

وشبيب هذا ذكره أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي يمدح بها كافوراً، وأولها:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدائِكَ القَمَرانِ

فقال:

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فارَقَ السَّيْفُ كَفَّهُ ... وَكَانَ عَلَى العِلاَّتِ يَصْطَحِبانِ[2]

---

(١) العكبري: شرح ديوان المتنبي ٢: ٤٣٨.

(٢) ابراهيم اليازجي: العرف الطيب ٥١٢.

وفي سنة ٣٥٦ هـ مات سيف الدولة ، وملك بعده أبو المعالي سعد الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له : قَرْعُونه [١] ، فتغلب عليه واستولى على حلب ، وأخرجه منها سنة ٣٥٨ هـ إلى حماة ، ثم صالحه سنة ٣٥٩ هـ ، وكان أبو المعالي في حِمْص ، وخُطب له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطب كل منهما في عمله للمُعِزّ العلوي صاحب مصر ، وكان لقرعونه غلام اسمه بَكجور ، فاستنابه قرعونه ، فلما قوي أمره قبض على قرعونه ، وحبسه في قلعة حلب ، وأقام بها ست سنين ، ولما استبد بكجور بالأمر كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ، فسار إليها ، فحصرها أربعة أشهر ، ثم ملكها سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد بَكجور ، ثم طلب الأمان على أن يوليه حِمْص ، فأجابه إلى ذلك وسيره إليها واستلم القلعة . وكان بكجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ، وطلب منه أن يوليه دِمَشق فوعده بذلك .

---

(١) كتبه بعضهم قرعوية . وآخر فرغوية وآخر . وآخر . وقد ضبطه ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ٦٣ : بفتح القاف واسكان الراء وضم العين ثم واو ثم نون ثم هاء اخره (ج) .

وفي سنة ٣٥٧ [١] افتتح نقفور ملك الروم المعرة ، وأحرق المسجد الجامع فيها وأكثر الدور ، وهرب الناس إلى الحصون والبراري والجبـــال ، ثم سار إلى كَفَرْطاب ، وشيزر ، فحماة ، فحِمْص .

وفي سنة ٣٥٩ هـ [٢] ملك الروم أنْطاكِية وقتلوا أهلها ، وسبوا عشرين ألف صبي وصبية ، ثم قصدوا حلب فملكوها ، وحصروا القلعة ، ثم اصطلحوا على مال يحمله قَرْغُويَه غلام سيف الدوله بن حَمْدان المتغلب على حلب إلى ملك الروم في كل سنة ، وكانت المصالحة على أن يحمل المال المقرر على حلب وما معها من البلاد ، وهي حماة ، وحمص ، وكَفَرْطاب ، والمعرة ، وأَفَامِية ، وشَيْزَر ، وما بين ذلك من الحصون والقرى ، وعلى أن لا يمكن قرعونه أهل القرى من الجلاء إذا أراد الروم الغزو ليبتاع الروم منهم ما يحتاجون إليه ، ودفع أهل

---

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٩٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ١٩ ، ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢٠٧ (ج) .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ١١٦ ، كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٦٥ ، إعلام النبلاء ١ : ٢٥٣ (ج) .

حلب الرهائن بالمال إلى الروم ، فرحلوا عن حلب ، وعاد المسلمون إليها ، والمال الذي اصطلحوا عليه ثلاثة قناطير ذهباً عن حق الأرض ، وسبعة قناطير ذهباً عن خراج بلاد حلب، وقِنَّسْرين ، وحِمْص ، وحماة ، وجُوسِيَة ، والمعرة ، وكَفَرْطَاب، وأفامِيَة ، وشَيْزَر ، وجبل السُّمَّاق ، ومعرة مَصْرِين ، والأثارب وغيرها . وعن كل حالم دينار في السنة ، سوى ذوي العاهات ، وأن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها . وقد عقدوا هدنة مؤبّدة ، ولكن سعد الدولة لم يعترف بهذه المعاهدة التي جرت بين قرْعُونه والروم ، وظل في معرة النعمان ، فأخرب الروم حمص ليحملوه على الاذعان ، ولكن جاءته نجدات فعمرها .

وفي سنة ٣٦٤ ﻫ خلع بَكجور قَرْعُونَه وأسره ، وحاصر المعرة ، وكان فيها عامل قرعونه ، وأحرق أحد أبوابها المسمى باب حمص ، ونهب جيشه بنو كِلاب .

وفي شوال سنة ٣٦٦ ﻫ سار أبو المعالي سعد الدولة من حلب وفتح المعرة وما يليها ، ونزل إلى حلب ومعه بنو كلاب ، ووقع القتال بينه وبين بكجور .

وفي ابن القلاَنِسي [1] : ملك أبو المعالي المعرة ، وأخذ غلاماً كان غلب عليها يقال له : زهير ، فقتله وسار عنها . وفيها خرج ملك الروم بانس بجيوش جناحها في عقاب الرُّوج ، والآخر في الفَرْزَل من عَلاَة معرة النعمان ، ونزل على أفَامِية .

وفي سنة ٣٨١ ﻫ توفي سعد الدولة ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصى به لُؤلؤ بن عبد الله السَّيْفي الكبير ، وهذا كان مولى لسيف الدولة مقدما عنده وعند ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه وجعله مدبر الملك بعده . فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر لملكه ، وقد تزوج أبو الفضائل ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي سنة ٣٩١ ﻫ مسموماً ، ويقال : إن لؤلؤاً سمّه وسم ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا من ذلك .

واستولى لُؤلؤ بعـــد موت أبي الفضائل على تدبير ابنيه أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالأمر وأخرجهما إلى مصر سنة ٣٩٤ ﻫ ، وبقي إلى أن مات سنة ٣٩٩ ﻫ .

---

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٨ .

وفي سنة ٣٨٢ هـ وقع قتال بين منجوتكين والحمدانيين على أَفامِيَة ، فانهزم الحمدانيون .

وفي سنة ٣٨٣ هـ عاد منجوتكين فنزل على أفامية ، فسلمها إليه وَفاء خادم سيف الدولة .

وفي سنة ٣٨٤ هـ عاد منجوتكين فحاصر حلب ، وقلت الأقوات ، فكان العزيز يمد عسكره بالميرة من غلات مصر إلى طرَابُلُس ، ومنها على الظهور إلى أفامية .

وفي سنة ٣٨٦ هـ نزل الدوقس[1] صاحب الروم على أفامية ، ووقعت حروب بينه وبين جيش بن الصَّمْصامة ، ثم قتل الدوقس .

وفي سنة ٣٨٨ هـ وقعت النار في أفامية ، واحترق ما كان فيها من الأقوات ، ونشبت فيها حرب بين الدوقس وجيش . وسيأتي تفصيل هذه الحوادث .

وفي سنة ٣٩٣ هـ خرب لُؤلؤ السَّيْفي المعروف بالحراحي كَفَرْرُوما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وكانت حصناً حصينا ،

---

(١) وفي قاموس الاعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢١٨١ : دوقاس .

وخرب حصن عار ، وحصن أرْوَح[١] ، مخافة أن يقصدها[٢] .

وفي سنة ٣٩٨ هـ سافر أبو العلاء المعري إلى بغداد ، وعاد سنة ٤٠٠ هـ بعد أن أقام سنة وبضعة أشهر .

ولما مات لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ ملك حلب بعده ابنه منصور أبو نصر مُرْتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ، فلقبه مرتضى الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دِزدار[٣] قلعة حلب ، فعصى على استاذه وكاتب الحاكم وخطب له وأخذ منه صَيْداء ، وبَيْرُوت ، وكل ما في حلب من الأموال ، واستولى على حلب ، ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، ولقب بمبارك الدولة وسعيدها وعزها ، وسار مولاه أبو نصر بن لؤلؤ إلى أنطاكِية ، وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وذلك في سنة ٤٠٦ هـ ، وقال في النجوم الزاهرة[٤] : استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك بني حمدان عنها في سنة ٤٠٤ هـ .

---

(١) وفي معجم البلدان ١ : ٢٢٤ : أروخ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣١٨ .

(٣) أي محافظ قلعة حلب .

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٤ : ٢٣٥ .

ثم تولى حلب جماعة من نواب الحاكم ، منهم : مختار الدولة والي طَرَابُلُس ، ومُرهف الدولة والي صَيْداء ، ثم صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف بعزيز الملك على ما قال ابن الأثير . ولعل الصواب أنه عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي مولى منجوتكين ، وكان أبو شجاع والي حلب من قبل المصريين في بعض أيام الحاكم ، وأيام الظاهر قتله مملوك له سنة ٤١٢ هـ أو سنة ٤١٣ هـ بقلعة حلب [١] .

وولى الظاهر مكانه رجلاً يعرف بابن شَعْبان الكُتَامي [٢] ، وولي القلعة خادم يعرف بمَوْصوف ، وبقيا فيها إلى أن انتزعها صالح بن مِرْداس .

وفي سنة ٤١٤ هـ دخلت المعرة في حوزة آل مِرْداس ملوك حلب الذين تغلبوا على أعقاب بني حَمْدان ، وانتزعوا سلطانهم من حلب والمعرة وغيرهما .

---

(١) وهذا الف له أبو العلاء كتاب الصاهل والشاحج والقائف وذكره في رسالته الى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي (ج) .
(٢) وهذا عمل له أبو العلاء الرسالة السندية (ج) .

الدولة المرداسية :

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن إدريس من بني كلاب بن ربيعة من عامر بن صعصعة من مضر ، ومن عرب البادية.

وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن محكان[١]، فملك البلد واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكاتب صالح ابن مرداس فقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تغير صالح وسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد ، ثم تصالحا ، وتزوج ابنة ابن محكان ودخل البلد ، إلا أن أكثر مقامه كان بالحلة .

ثم راسل ابن محكان أهل عانة فأطاعوه ، ونقل ماله وأهله إليهم ، ثم خرجوا عن طاعته ، وأخذوا ماله ، واستعادوا رهائنهم ، وردوا أولاده ، فاتفق هو وصالح على قصد عانة ، وسارا إليها ، ثم دس صالح إلى ابن محكان من يقتله ، فقتله غيلة ، وسار صالح إلى الرحبة فملكها وأخذ أموال ابن محكان ، واستمر على ذلك ، ولكن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فسد ما بين الحاكم ومرتضى الدولة أبي نصر

(١) في محيط المحيط للفيروزابادي ٣/٣٢٨ : رجل محكان : عسر الخلق لجوج وسموا به .

ابن لُؤلؤ ، فطمع فيه صالح بن مِرْداس وبنو كِلاب ، وكانوا يطالبونه بالصلات والخلع .

ثم اجتمعوا في خمسمائة فارس ودخلوا حلب ، فأمر مرتضى الدولة باغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مرداس ، وحبسهم ، وقتل مائتين ، وأطلق من لم يفكر به . وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء إخوتها ، وكانوا في حبسه [1] ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها فلم يقبل منهم ، وتزوجها .

وبقي صالح في الحبس ، ثم صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها واختفى في مسيل ماء حتى سكن عنه الطلب ، ثم سار بقيده ولبنة حديد في رجليه إلى قرية اليّاسِريّة ، وهي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان فعرفه جماعة من العرب ، فحملوه إلى أهله في مرج دابق ، وهي قرية قرب حلب من عمل عَزَاز ، بينها وبين حلب أربعة

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩ : ٩٤ (ج) .

فراسخ ، فجمع ألفي فارس وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة ، فقاتله صالح وأسره وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كِلاب ، فأخذ صالح ذلك ، وأطلقه ، ورحل عنه .

وفي سنة ٤١٤ ﻫ كان للمصريين نائب بالشام ، يعرف بأنوشتكين الدِزْبري [١] ، وبيده دِمَشق ، والرَّمْلَة ، وعَسْقلان ، وغيرها ، فاجتمع حسَّان أمير طَيِّء ، وصالح بن مِرْداس أمير بني كِلاب ، وسِنان بن عَلْيان أمير بني كَلْب ، وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانَة لصالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسان ، ودِمَشْق [٢] لسنان ، فسار حسان إلى الرملة فحصرها ، وكان أنوشتكين فيها ، فسار عنها إلى عَسْقلان ،

---

(١) هو انوشتكين بن عبد الله الأمير منتجب الدولة ، ولد ببلاد الترك وحمل الى بغداد ، ثم الى دمشق سنة ٤٠٠ ﻫ فاشتراه القائد دِزْبر ، ثم اتصل بالحاكم ، فبعثه الى دمشق سنة ٤٠٦ ﻫ ، ثم أرسله الى قتال صالح (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٥٨٧ : دمشق الشام بكسر أوله وفتح ثانيه هكذا رواه الجمهور ، والكسر لغة فيه وشين معجمة وآخره قاف .

واستولى عليها حسان ونهبها وقتل أهلها ، وذلك في سنة ٤١٤ هـ.

وحاصر سنان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها حروب شديدة ، وخرب داريا وأعمالها ، ومات سنان سنة ٤١٩ هـ.

وسار صالح إلى حلب وبها ابن شَعْبان الكُتَامِي ، ومَوْصوف بالقلعة ، فسلم أهل حلب المدينة لإحسانه إليهم ، وسوء سيرة المصريين معهم ، وصعد ابن شعبان إلى القلعة ، فحصره صالح بها ، فغار الماء الذي فيها ، فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم الجند القلعة إليه ، وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بَعْلَبَكّ إلى عانَة ، وأقام في حلب نحواً من ست سنين .

وقد أشار أبو العلاء الى ما فعله صالح وسنان وحسان في مواضع من شعره . كقوله في اللزوم :

أرَىَ حَلَبـاً حَازَهَا صَـالِحٌ ... وَجَالَ سِنَانٌ عَلى جِلّقَـا[١]
وَحَسّـانُ في سَلَفَي طَيء ... يُصَرِّفُ مِنْ عِزّهِ أبْلَقَـا

الى آخر الأبيات .

---

(١) انظر لزوم ما لا يلزم ص ٣٠٥ .

وقوله فيه :

وَالرَّمْلَةُ البَيْضَاءُ غُودِرَ أَهْلُهَا ... بَعْدَ الرَّفَاهَةِ يَأْكُلُونَ قفَارَهَا[١]

إلى آخر الأبيات .

وقوله فيه :

قَدْ أَشْرَعَتْ سِنْبِسٌ ذَوَابِلَهَا ... وَأَرْهَفَتْ بُحْتُرٌ عَوَامِلَهَا[٢]

لِفِتْنَةٍ لاَ تَزَالُ بَاعِثَةً ... رَامِحَهَا في الوَغَى وَنَابِلَهَا

حَسَّانُ في المُلْكِ لا يَحَسُّ لهَا ... تُزْجِي إلَى مَوْتِهَا قَنَابِلَهَا

إلى آخر الأبيات .

وقوله فيه :

أَصَابَ الرَّمْلَةَ الحَدَثَانِ يَوْماً ... فَخَصَّ وَمَا يَزَالُ أَخَا اشْتِمَالِ[٣]

إلى آخر الأبيات .

وقوله فيه :

أَلَمْ تَرَ طَيِّئاً وَبَنِي كِلاَبٍ ... سَمَوْا لِبِلاَدِ غَزَّةَ وَالعَرِيشِ[٤]

إلى آخر الأبيات .

---

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١٤٣ وفيه : « بعد الرفاغة ... » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨ وفيه : « ... بحتر معابلها » .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٧ .

وقوله في (سقط الزند) :

وَمَا أذْهَلَتْنِي عَنْ وِدَادِكَ رَوْعَةٌ وَكَيْفَ وَفِي أمْثَالِهِ يَجِبُ الغَبْطُ[١]

وَلاَ فِتْنَةٌ طَائِيَّةٌ عَامِرِيَّـةٌ يُحَرَّقُ في نِيرَانِهَا الجَعْدُ والسَّبْطُ

وَقَدْ طَوَّحَتْ حَوْلَ الفُرَاتِ جِرَانَهَا إلى نِيلِ مِصْرٍ فَالوَسَاعُ بِهَا تَقْطُو

أراد بالطائية : قوم حسان أمير طيء ، وسِنْبِس و بُحتُر : قبيلتان من طيء ، وأراد بالعامرية : قوم صالح بن مِرْداس ، وهم بنو كِلاب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة .

وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح تاذرس النصراني ، وكان عنده صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٧ هـ [٢] صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، وكان نصرانياً ، فنفر كل من في الجامع إلا القاضي والمشايخ وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ، ونهبوه ، وحرقوه ، وقتلوا الضامن ، وكان صالح بن مِرْداس صاحب حلب يومئذ في

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ .

(٢) انظر تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٢٨ — ٣٣٩ .

نواحي صَيْداء ، وكان له وزير يقال له : تازروس ، أو تاذرس
أو تادروس بن الحسن النصراني ، استوزره صالح سنة ٤١٦ هـ
وكان متمكناً عنده وصاحب السيف والقلم ، وكان أهل المعرة
قتلوا حماه الخوري ، فكان في نفس تاذروس شيء من أهل
المعرة من أجل حميه ، وكان يؤذيهم ويتتبع قتلته ،
حتى قتلهم وصلبهم . فلما أنزلوا عن الخشب ليصلى عليهم
ويدفنوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طيوراً بيضاً ، وما هي
إلا الملائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة
تاذروس ، فنقمها على أهل المعرة ، واعتدها ذنباً لهم وتربص
بهم السوء . فلما وقعت حادثة الماخور على ما ذكرنا وسوس
الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المعرة ، وكان صالح
قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ ، فحاصر المعرة ، ونصب
المناجيق ، وشدد الحصار عليها ، واعتقل سبعين رجلاً من
شيوخها وأعيانها في محبس الحصن ، ولبثوا سبعين يوماً ، وذلك
بعد عيد الفطر بأيام [١] ، وكان تاذروس أشار على صالح بن
مِرْداس أن يقتل المهذب ، وهو الشيخ أبو الحسن ، وأبا المجد

---

(١) وفي الوافي بالوفيات : فبلغ الخبر أحد كبار كتاب صالح فقبض
على سبعين (ج) .

محمد بن عبد الله بن سليمان ، أعني أخا أبي العلاء ، وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ، وقطع تاذروس على أهل المعرة ألف دينار .

وكان بعض بني سليمان جد أبي العلاء ممن اعتقل ، فلما اشتد الحصار على أهلها ، وآنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ، لأنه جاءهم بما لا قبل لهم به ، جاؤا إلى أبي العلاء ، وقالوا له : إن الأمر قد عظم وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى صالح بنفسه ، ويدبر الأمر برأيه إما بأموال يبذلونها ، أو طاعة يعطونها ، فخرج أبو العلاء ، ويده في يد قائده ، فلما فتح له باب من أبواب المعرة وخرج منه ، رأى صالح شيخاً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء فجيئوني به ، فلما مثل بين يديه سلم عليه ، ثم قال : الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع ، اشتد هجيره وطاب أبرداه ، وكالسيف القاطع ، لان صفحه وخشن حدّاه ، خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، فقال صالح : لا تثريب عليكم اليوم ، قد وهبت لك المعرة وأهلها . ثم قال له : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال أبو العلاء :

تَغَيَّبْتُ في مَــنْزِلي بُرْهَــةً   سَتِيرَ العُيُوبِ فَقِيدَ الحَسَدْ[1]

فَلَمَّا مَضَى العُمْرُ إلاَّ الأَقَــلَّ   وَحُمَّ لِرُوحِي فِرَاقُ الجَسَدْ

بُعِثْتُ شَفِيعــاً إلَى صَالِحٍ   وَذَاكَ مِنَ القَوْمِ رَأْيٌ فَسَدْ

فَيَسْمَعُ مِنِّي سَجْــعَ الحَمَامِ   وَأَسْمَــعُ مِنْهُ زَئِيرَ الأَسَدْ

فقال له صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ، ونسمع منك زئير الأسد .

ثم أمر صالح بتقويض الخيام ، فنقضت ورحل ، ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ، ولو علم ذلك لسأل صالحاً رده .

ولما رجع أبو العلاء قال :

نَجَّى المَعَرَّةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ   رَبٌّ يُعَافِي كُلَّ دَاءٍ مُعْضِلِ[2]

مَا كَانَ لِي فِيهَا جَنَاحُ بَعُوضَةٍ   اللهُ أَلْبَسَهُمْ جَنَــاحَ تَفَضُّلِ

وبعضهم يقول : إن صالحاً استدعى إليه أبا العلاء ، وهو بظاهر المعرة ، وآخر يقول : استدعاه إليه ، وهو في حلب ،

---

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٠ . وفيه : « .. رب يفرج كل أمر معضل » .

وعلى كل رواية ، خرج إليه أبو العلاء وقال له : ما تقدم .

وقد دعي للمعتقلين على المنابر بآمِد ومَيّافارقين . وهذه القصة

رواها ياقوت في (معجم الأدباء) ، وابن العديم ، والقفطي ، والذهبي ، وابن الوردي ، وصاحب (إعلام النبلاء) وغيرهم ، ونقلت عن أبي غالب بن المهذب المعري في تاريخه ، وهو أوثق الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم قد أخذ عنه .

وقد لخصنا ما ذكرناه من أقوال الجميع ، ولم يتبين لنا ظاهر المعرة الذي كان فيه صالح ، هل هو في الشرق أم في غيره ، ؟ والغالب أنه الشرق ، فان لم يكن فالشمال ، لأنها أول ما يقابل القادم من حلب إلى المعرة .

وأبو العلاء أشار إلى هذه الواقعة في اللزوميات ، حيث يقول :

أَتَتْ جَامِعٌ يَوْمَ العَرُوبَةِ جَامِعاً ... تَقُصُّ عَلَى الشُّهَّادِ بِالمِصْرِ أَمْرَهَا[1]

فَلَوْ لَمْ يَقُومُوا نَاصِرِينَ لِصَوْتِهَا ... لَخِلْتَ سَمَاءَ اللهِ تُمْطِرُ جَمْرَهَا

فَهَدُّوا بِنَاءً كَانَ يَأْوِي فِنَاءَهُ ... فَوَاجِرُ أَلْقَتْ لِلفَوَاحِشِ خُمْرَهَا

---

(١) لزوم ما لا يلزم ص ١٣٨ .

وَزَامِرَةٍ لَيْسَتْ مِنَ الرُّبْدِ خَضَّبَتْ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا تُنَفِّقُ زَمْرَهَا[١]
أَلِفْنَا بِلَادَ الشامِ إِلْفَ وِلَادَةٍ نُلاقِي بِهَا سُودَ الْخُطُوبِ وَحُمْرَهَا
فَطَوْراً نُدارِي مِنْ سُبَيْعَةَ لَيْثَهَا وَحِيناً نُصَادِي[٢] مِنْ رَبِيعَةَ نَمِرَهَا

الى أن قال :

فَإِنِّي أَرَى الآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ يَغُرُّ بَغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خَمْرَهَا
وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنَ الإِنْسِ لَمْ تَكُنْ سِوَى مُومِسٍ أَفْنَتْ بِمَا سَاءَ عُمْرَهَا
تَدِينُ لِمَجْدُودٍ وَإِنْ بَانَ غَيُّهُ يَهُزُّ لَهَا بِيضَ الْحُرُوبِ وَسُمْرَهَا

الى آخر الأبيات .

وفي سنة ٤١٩ أو سنة ٤٢٠ ﻫ جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً إلى الشام ، أضافه إلى رافع أمير الكَلْبيين لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر أنوشتكين ، فاجتمع صالح وحسان على قتاله ، فاقتتلوا بالأُقْحُوانة على الأُرْدُنّ عند طَبَرِيّة ،

---

(١) زمر يزمر غنى في القصب وامرأة زامرة . والزمارة الزانية وزمرت النعامة صوتت والربد النعام جمع ربداء وهي السوداء أو التي لونها كلون الرماد أو التي في سوادها نقط بيض أو حمر (ج) .

(٢) أي نداري (ج) .

فقتل صالح وولده الأصغر ، وأنفذ رأساهما إلى مصر .

ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب فملكها ، وكان لقبه شِبْل الدَّوْلة . فلما علمت الروم بأنطاكِيَة ذلك ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها إليهم ، فحاربوهم فهزموهم ، ونهبوا أموالهم ، وعادوا إلى انطاكية ، وبقي شبل الدولة مالكاً حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ .

وفي سنة ٤٢٠ هـ نهض أهل الغرب من ضياع المعرة ، وأفامِيَة ، وكَفَرْطَاب ، إلى كَفَرْنَبْلِ ، وكان أهلها نصارى ، فأرادوا قتلهم ، فامتنعت النصارى أياماً ، وأكثروا القتلى من المسلمين ، ثم رحلوا منها سراً إلى بلد الروم ، فأعطوهم ضيعة تعرف بنيكارين .

وفي سنة ٤٢٢ هـ ملك الروم قلعة أَفامِيَة بسبب حسان بن مفرّج الطائي أمير طَيّء وغنموا ما فيها وأسروا وسبوا . وسيأتي تفصيل ذلك في أفامية .

وفي سنة ٤٢٥ هـ حدّث بالمعرة منصور بن علي بن منصور أبو الحسين الهَرَوي الواعظ عن أبي علي أحمد بن محمد بن منصور الخالدي وغيره ، وروى عنه القاضي أبو غانم عبد الرزاق

ابن عبد الله بن المحسن بن عمرو التَّنُوخي المعري وغيره ، وهو راجع من الحج .

وفي سنة ٤٢٩ هـ أرسل الدِزْبِري العساكر المصرية إلى شِبْل الدَّوْلة ، وكان صاحب مصر حينئذ المستنصر بالله ، ولي بعد وفاة الظاهر سنة ٤٢٧ هـ ، فلقيهم عند حماة ، وقتل في شعبان ، وملك الدزبري حلب في رمضان سنة ٤٢٩ هـ .

ولما كان أنوشتكين في دمشق كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ، ويحفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل ، فعمل له كتاباً سماه (شرف السيف) .

وبقيت حلب في ملك الدزبري حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو عَلْوان ثِمَال بن صالح بن مِرْداس الملقب بمُعِزّ الدَّوْلة بالرَّحبَة ، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب ، فملكها تسليما من أهلها ، وحصر امراة الدزبري وأصحابه في القلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي فيها إلى سنة ٤٤٠ هـ .

وجهز ثِمَال إلى المعرة والياً ، فأساء التدبير ، فانحرف عنه الناس ، وهرب ، فبادر جعفر أمير حِمْص ، وتجهز إلى المعرة بنفسه ، ولقيه مُقَلَّد بن كامل بن مِرْداس ، فأوقع به وقتله ، وشهر رأسه بحلب .

ثم أنفذ المصريون إلى محاربة معز الدولة أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حَمْدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم ، ثم عاد إلى مصر .

ثم أنفذ المصريون إلى قتاله خادماً يعرف بِرِفْق ، فقاتله أهل حلب ، فانهزم المصريون ، وأسر رفق سنة ٤٤١ هـ ، ومات عندهم .

ثم أصلح معز الدولة أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب ، فانفذوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ، ولقبوه مَكِين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ ، وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة ، وعمل أبو العلاء لمعز الدولة رسالة الضبعين .

وفي سنة ٤٤٠ هـ [1] كتب سيف الدولة مُقَلَّد بن كامل بن

---

(١) ابن الوردي : التاريخ ١ : ٣٥١ .

مِرْداس الكِلابي ، وهو نازل في كَفَرْطَاب في جمع من العرب ، إلى واليه بالمعرة أبي خليفة ابن جهان ، أن يخرب سورها ، ويهدمه كله إلا بُرْج وحيدة ، وبرج بني الحجال ، ومواضع قليلة لعناية وقعت بها .

وفي سنة ٤٥٢ ه جاء معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس بجيشه إلى المعرة ، لقضاء قسم من فصل الشتاء ، وكانت وطأته شديدة على أهلها .

وفي سنة ٤٥٤ ه همّ أهل المعرة بعمل السور ، ونصبوا عليه المناجيق والعجل تجر الحجارة ، والجمال تحملها من شُبَيْث[1] وغيره ، وكان أميرها أبو الماضي ينفق عليه من ماله وجاهه ، حتى كمل في شهور سنة ٤٥٥ ه .

وفي تلك السنة أومض البرق ومضة وأعقبتها صيحة سقط الناس لها على وجوههم ، وماتت بها طيور كثيرة في المعرة .

وفي سنة ٤٥٧ ه أقطعت المعرة إلى الملك هرون بن خان ملك الترك ، فيما وراء نهر جَيْحُون ، أخذها حرباً وخَراجاً ، ووصل إليها ومعه نحو ألف رجل من التُّرك ، والدَّيلَم ، والكُرْد ، والكرج ، مع حاشيتهم وأتباعهم ، وتعففوا فيها عن

---

(١) في معجم البلدان ٣ : ٢٥٧ : جبل بنواحي حلب .

الأذى ، حتى إنهم سقوا دوابهم الماء بثمنه . ونزل بالمصلى ، وجعل في حصن المعرة بعض حجابه ، وأقام يسيراً ، ثم نقل إلى حلب ، وعوض عن المعرة مالا ، قدم هذا إلى الشام ، مغاضباً لأبيه ، وولي المعرة بعده الأمير فارس الدولة يانس الصالحي .

وفي سنة ٤٦٠ هـ جاءت رعدة عظيمة في المعرة ، أغمي على كثير من الرجال والنساء والصبيان من صوتها ، وأعقبها سحاب عظيم ، كان معظمه على جبل بني عُلَيْم ، وفيه برد ، فاقتلع الشجر ، وجرى منه سيل في وادي شُنَان ، الذي فيه العين ، فكان من الجبل القبلي إلى الجبل الشمالي ، وغطى شجر الجوز ، وأخذ صخرة يعجز عن قلبها خمسون رجلاً ، ومضى بها ، فلم يعرف لها ذلك الوقت موضع .

وفي سنة ٤٦١ هـ جمع قطبان [١] أنطاكية وقسها المعروف بالبخت جموعاً إلى حصن أسْفُونا [٢] من قرى المعرة ، بعملية

---

(١) في نهر الذهب للغزي ٢ : ٧٢ : قبطان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي ١ : ٣٧٣ أشعوبا ، وفي نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : اسقوبا ، والصواب أسْفُونا بفتح فسكون فضم الفاء وسكون الواو ونون والف كما ضبطه ياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج)

عملها لهم قوم يعرفون ببني ربيع من أهل جوزف ففتحوه وقتلوا وأسروا رجاله وواليه نادراً التركي ، فانتهى خبر ذلك إلى الأمير عز الدولة محمود بن نصر بن صالح ، وهو يسير في ميدان حلب ، فسار إليه ولم يدخل البلد ، ومعه خمسون ألفاً من الترك والعرب ، وأخذه من النصارى ، وقتل منهم ألفين وسبعمائة نفس ، فقال أبو يَعْلى عبد الباقي بن أبي حصين يمدحه ويذكره :

عِدَاتُكَ مِنْكَ في وَجَلٍ وَخَوْفٍ ... يُرِيدُونَ المَعَاقِلَ أَنْ تَصُونَا
فَظَلُّوا حَوْلَ أَسْفُونَا كَقَوْمٍ ... أُتِي فِيهِمْ فَظَلُّوا آسِفِينَا

وهذا الحصن عمره حسين بن كامل بن حسين بن سليمان ابن الدَّوْح العُمَري المرثدي [1] الكِلابي ، ومعه جماعة من المعرة ، وكَفَرْطَاب ، وضياعها في سنة ٤٥٦ ﻫ وأكمل عمارته في مدة يسيرة ، فتعجب الناس لسرعة عمارته ، ثم إن محمود ابن نَصْر رهن ولده نصراً عند صاحب أنطاكِيَة ، على أربعة

---

(١) في نهر الذهب للغزي ٣ : ٧٢ : المرشدي (ج) .

عشر ألف دينار[١] وخراب حصن أَسْفُونا إذا ملك حَلَباً ، وأخذها من عمه عطية ، فلما ملكها أخرج عزيز الدولة ثابتاً ، وشِبْل بن جامع ، وجمعا الناس من المعرة ، وكَفَرْطَاب ، وأعمالهما ، وخربا الحصن المذكور ، وذلك سنة ٤٦١ هـ فقال فيه بعض الشعراء :

وَهَدُّوا بأَيْدِيهِمْ حِصْنَهُمْ وَأَعْيُنُهُمْ حَزَناً تَدْمَعُ
عَجِبْتُ لِسُرْعَةِ بُنْيَانِهِ وَلَكِنَّ تَخرِيبَهُ أَسْرَعُ[٢]

وفي سنة ٤٦٢ هـ جاء السلجوقيون إلى أنحاء حلب ، فعاثوا في المعرة كثيراً ، وأفسدوا .

وفي (إعلام النبلاء)[٣] عن ابن العَديم في تاريخه ، عن أبي الحسن علي بن مُرْشد بن علي بن مُقَلَّد ، قال : كان أبو سالم

---

(١) في نهر الذهب للغزي : ٣ : ٧٢ ، ٧٣ : اقترض محمود بن نصر من الروم أربعة آلاف دينار ، ورهن ولده نصراً عليها وعلى هدم الحصن المذكور ، وما ذكرنا عن ابن الوردي في تاريخه ١ : ٣٧٣ وابن المهذب المعري وياقوت في معجم البلدان ١ : ٢٤٩ (ج) .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٧٣ .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٣٤١ ، ٣٤٢ .

ناجية غلام عز الدولة محمود متولي الشام ، وكان من الظلم على باب ما فتحه الحجاج ، وكان محمود قد أخرجه ليصادر الناس ، فحدثني من أثق به أنه صادر أهل المعرة ونواحيها ، وتيزين ونواحيها على ستة عشر ألف دينار ، بعد ما هتك منها الأستار ، وكان ذاك لاضطراب عقل محمود من المرض الذي ناله ومات فيه وذلك في سنة ٤٦٧ ﻫ ومحمود هذا هو عز الدولة محمود بن شِبْل الدَّولة نصر بن صالح بن مِرْداس ، وقيل توفي سنة ٤٦٨ ﻫ أو سنة ٤٦٩ ﻫ .

وفي سنة ٤٦٥ ﻫ هرب الأمير أبو الجيوش علي بن المقلد بن منقذ من حلب ، خوفاً من صاحبها الأمير محمود بن صالح ، حين عرف عزمه على القبض عليه ، ثم قصد المعرة ، وكَفَرْطَاب .

وفي سنة ٤٧٢ ﻫ زحف تاج الدولة تُتُش السَّلْجُوقي بجيش من دِمَشْق نحو شمالي الشام ، فأحرق أعمال جبل السُّمَّاق وبني عُلَيْم ، وغرّم أهل سَرْمين والمعرة مبالغ عظيمة ، وأنهب القرى في شرقي المعرة وحاصر تل مَنَّس ، ولم يظفر فيها بطائل ، وأحرق مَعرتاريحا في كورة كَفَرْطَاب ، ولعلها معرتارح .

وفي سنة ٤٧٩ هـ دخل الأمير نَصْر بن علي بن مُنْقِذ صاحب شَيْزَر ، في طاعة السلطان مَلَكْشاه ابن آلب ارسلان السلجوقي ، وسلم إليه اللاذِقيّة و كَفَرْطاب وأَفامِيَة .

وفي سنة ٤٨٤ هـ ملك قسيم الدولة حصن أفامِيَة .

وفي سنة ٤٨٨ هـ اقطع رضوان بن تُتُش مدينة المعرة وأعمالها ، إلى سقمان بن أرُتق أخي نجم الدين ايلغازي ،

وفي سنة ٤٩٠ هـ خطب للعبيدي بحلب ، وأَنطاكِيَة ، والمعرة ، وشَيْزَر شهراً ، ثم أعيدت الخطبة للعباسيين.[١] وفي (إعلام النبلاء) : خطب له في جميع الأعمال أربع جمع ، سوى حلب [١] ، وأنطاكية ، والمعرة .

وفي سنة ٤٩١ هـ[٢] خرج صنجيل في ذي الحجة ، وحصر البَارَة ، وكانت من عمل المعرة ، فقل الماء على أهلها ، فأخذها بالأمان، وغدر بأهلها ، وعاقب الرجال والنساء ، واستصفى أموالهم ،

---

(١) الطباخ : إعلام النبلاء ٧٣/١ (ج) .

(٢) بعض المؤرخين يذكر أخذ المعرة في حوادث سنة ٤٩١ هـ ، وبعضهم يذكرها في حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، ولا خلاف في ذلك ، لأن الأول نظر إلى مبدإ وصولهم إلى المعرة ، وقد كان سنة ٤٩١ هـ ، والثاني نظر الى تاريخ استيلائهم وقد كان سنة ٤٩٢ هـ (ج) .

وسبى بعضاً ، وقتل بعضاً ، وذهبوا إلى الرُّوج بين حلب والمعرة
وفي هذه السنة أخذ الفرنج أنْطاكِيَة ، فخرج من فيها من
الفرنج والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم إليهم النصارى ،
وانضموا إلى صنجيل . وكان ذلك في شعبان من السنة المذكورة
فوصلوا إلى المعرة ، ونزلوا عليها لليلتين بقيتا من ذي الحجة
وقيل في اليوم التاسع والعشرين منه ، في مائة ألف ، وحاصروها
وقطعوا الأشجار ، وزحفوا إلى سور المعرة من الناحية
الشرقية والشمالية في المحرم من هذه السنة .

واستغاث أهلها بالملك رِضْوان ، وجَناح الدولة ، فلم
ينجدهم أحد ، ثم اتخذ الفرنج برجا من خشب ، وأسندوه
إلى سورها ، فكان أعلى منه ، فزحفوا إلى البلد ، وقاتلوا من
جميع نواحيه ، حتى لصق البرج بالسور ، فكشفوه ، وأسندوا
السلالم إلى السور فصعدوه ، وكانت رسل الفرنج تتردد إلى أهل
البلد في التماس التقرير والتسليم واعطاء الأمان على نفوسهم
وأموالهم ودخول الشحنة ، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم
وألاّ يدخلوا إليهم ، بل يبعثون إليهم شحنة ، فمنع من ذلك

الخلف بين أهلها ، وثبت الناس في الحرب من الفجر إلى صلاة المغرب ، وقتل على السور وتحته خلق كثير ، ثم دخلوا البلد بعد المغرب ليلة الأحد الرابع والعشرين [١] من المحرم سنة ٤٩٢ هـ .

وانهزم بعض الناس إلى دور حصينة ، وطلبوا الأمان من الفرنج ، فأمنوهم ، وغدروا بهم ، ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على كل دار قطيعة ، واقتسموا الدور وهجموها ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ، ونهبوا ما وجدوه ، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به .

وناموا فيها ، وجعلوا يهددون الناس حتى أصبحوا ، فاخترطوا سيوفهم ، ومالوا على الناس ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شَيْزَر وغيرها من بني سُلَيْم ، وبني حُصَيْن ، وغيرهم ، وقتلوا تحت العقوبة جمعاً كثيراً ، فاستخرجوا ذخائر الناس ومنعوهم من الماء ، وباعوه منهم ، فهلك أكثرهم من العطش ، وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، ولم يبقوا بها ذخيرة

---

(١) قال ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ - ١٣٦ : من اليوم الرابع عشر من المحرم (ج) .

إلا استخرجوها ، وهدموا سور البلد وبروجه ، وأحرقوا مساجده ودوره ، وكسروا المنابر .

وفي (دائرة المعارف الفرنسية)[1] : أن الذي استولى على المعرة وخربها يسمى بوهيمو سنة ١٠٩٩ م

وقد اختلفت كلمة المؤرخين في مقدار من جاءها من الفرنج وأعوانهم من النصارى والأرمن ، وفي مقدار من قتل من أهلها من يوم فتحها إلى أن جلا عنها الفرنج ، وفي مقدار إقامتهم فيها ، فقال بعضهم ، ولم يعين مقداراً : خرج جماعة من الفرنج في شعبان ، وزحفوا مع أهل تَلْ مَنَّس ونصارى المعرة فقاتلوها ووصلت قطعة من عسكر حلب اليهم والتقوا بين تل منس والمعرة ، فانهزم الفرنج ...

وفي سنة ٤٩١ هـ لليلتين بقيتا من ذي الحجة . . حاصروا المعرة... وقال في (النجوم الزاهرة) في حوادث سنة ٤٩١ هـ : إن الفرنج ساروا إلى المعرة في ألف ألف إنسان ، وقتلوا مائة الف إنسان ، وسبوا مثلها ، وفعلوا مثل ذلك في كَفَرْطَاب .

---

(١) La grande encyclopédie 22: 851 .

وقال ابن الشِّحْنَة في (الدر المنتخب)[١] : تجمع الافرنج من أَنْطَاكِيَة والأرمن الذين في طاعتهم ، وانضم اليهم النصارى في مائة ألف ، ووصلوا الى المعرة وحاصروها ، وقطعوا الأشجار ، وعملوا برجاً من خشب ، وزحفوا الى البلد ، وقاتلوا من جميع جوانبه ، ودخلوا البلد بعد المغرب ، فقتلوا نحو عشرين ألفاً من الرجال ، وقيل : مائة ألف ، وسبوا الجميع بعد أن أمنوهم ، وهدموا أسوارها ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا المنابر ، وهدموا الدور ، وقال سبط ابن الجوزي : قتلوا من أهلها مائة ألف ، وسبوا مثل هذا العدد .

وقال ابن الأثير[٢] في حوادث سنة ٤٩١ هـ بعد ذكر فتح أنطاكية : لما فعل الفرنج بالمسلمين ما فعلوا ، ساروا الى معرة النعمان ، فنازلوها وحصروها ، وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً ، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ، ولقوا منهم الجِد في حربهم ، والاجتهاد في قتالهم ، فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازي سور المدينة ، ووقع القتال عليه ، فلم يضر المسلمين ذلك ،

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٢١٦ (ج) .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين ، وتداخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور ، وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه ، فرأتهم طائفة أخرى ، ففعلوا كفعلهم ، فخلا مكانهم أيضاً من السور . ولم تزل تتبع طائفة منهم التي تليها في النزول ، حتى خلا السور ، فصعد الفرنج اليه على السلالم ، فلما علوه تحـــير المسلمون ، ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف ، وسبوا السبي الكثير وملكوه ، وأقاموا أربعين يوماً ، وساروا الى عِرْقَة ..

وقال في (النجوم)[1] : وجاءوا الى المعرة ، فنصبوا عليها السلالم ، فنزلوا اليها ، فقتلوا من أهلها مائة ألف إنسان ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي : وسبوا مثلها .

وقال ابن القَلاَنِسي : ساروا اليها في ألف ألف إنسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا [2] .

وقال ابن العَديم نحواً من قول ابن الشِّحْنَة ، وإنهم وصلوا

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥ : ١٤٦ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

المعرة لليلتين بقيتا من ذي الحجة في مائة ألف ، ثم قال : وقتل على السور وتحته خلق كثير . ثم ذكر أنهم لما أصبحوا قتلوا خلقاً كثيراً ، وسبوا النساء والصبيان ، وقتل فيها أكثر من عشرين ألف رجل وامرأة وصبي ، ولم يسلم إلا القليل ممن كان في شَيْزَر وغيرها ، وانهم قتلوا تحت العقوبة خلقاً كثيراً . وأن أكثر الناس هلك من العطش ، ولكنه لم يحصر جميع العدد .

وفي أبي الفداء[1] وابن الوردي[2] والكامل لابن الأثير[3] : أن الفرنج استباحوا المعرة ثلاثة أيام ، ووضعوا السيف في أهلها ، فقتلوا منهم ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وذكر غيرهم : أنهم جاؤوها بمائة ألف من أنطَاكِيَة ، وضموا اليهم الأرمن الذين كانوا في طاعتهم وبعض نصارى البلاد .

وقال ميشو .. : إنهم قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين الذين اعتصموا بالمساجد ، واختبأوا في السراديب ، فأصبحت خاوية على عروشها ، وفقد الفاتحون كل زاد ، وساءت حالهم ،

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

ثم وقع بينهم الخلاف ، وصاروا يأكلون جثث الموتى . .
وفي (الدر المنتخب)[١] : وملكوا معرة النعمان ، وقتلوا كل من فيها.
والذي أعتقده أن أهل المعرة لم يقتلوا كلهم في هذه الحادثة ،
بل نجا فريق منهم ، واعتصم بالبراري والجبال ، ولجأ فريق
منهم إلى شَيْزَر وغيرها ، بدليل ما تقدم وما يأتي من أن
وجيها التنوخي دخلها بعد أخذ الفرنج إياها .

ففي كلام ميشو وغيره شيء من المبالغة يراد به : أنهم
قتلوا من بقي فيها ، ولم يعتصم بفرار أو لم يختبىء .

أما مدة إقامتهم فيها ، فقد ذكر ابن القَلانِسي[٢] : أنهم
دخلوها في المحرم ، ورحلوا عنها يوم الخميس السابع عشر من
صفر إلى كَفَرْطَاب ، ونقل عنه أنه قال : أقاموا عليها إلى أن
رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس .

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٧٧ .
(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٢٥ ، ١٢٦ .

وفي أبي الفداء [١]، وابن الوردي [٢] ، و(الكامل) [٣] : أقاموا فيها أربعين يوماً ، ثم ساروا إلى حِمْص وغيرها .

وفي ابن العَديم : وملكوها ثلاثة وثلاثين يوماً بعد الهجمة ، وهذا قريب من قول ابن القَلانِسي [٤] أنهم دخلوها في الرابع عشر من المحرم ، ورحلوا عنها .

وقد استكثر بعض أهل العصر مقدار الغزاة والمقتولين من أهل المعرة .

والحق أن كون الفرنج وأعوانهم من الأرمن والنصارى ألف ألف كثير ، وأما كونهم مائة ألف أو يزيدون شيئاً قليلاً فغير كثير ، ولا يتسنى لأقل من هذا العدد العظيم أن يحصر المعرة ويفتحها لتكافؤ العتاد والعُدَد وقتئذ بين الفريقين ، ويزيد المعرّيون على أعدائهم شدة بأسهم واستماتتهم في الدفاع عن بيضتهم ، واتساع الرقعة ما بين أنطاكية مقر الفرنج

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٢١ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٠٣ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦ .

والمعرة ووعورة مسالكها يعوز إلى عدد كبير لمحافظة الجيش الفاتح كيلا يتخطفه أهل البلاد من أطرافه . وقد كان مثل هذا الجيش وأعوانهم يعيشون مما يغنمون من بلاد أعدائهم ، وليسوا مثل الجيوش المنظمة في هذا العصر ، تتكفل له الدولة بكل ما يحتاج إليه من عدة وعتاد ، وسلاح وذخائر ، ونفقات . ولهذا يتسنى لكل أحد أن يكون في زمرة الجيش ليغنم ويشفي غلة نفسه .

وأما كون المقتول من أهل المعرة مائة ألف ، والمسبي منهم مثلها فغير كثير ، وذلك لأمور : أولها : أن المعرة كانت مدينة جليلة ، وكان أهلها كثيرين ، ولو كان عددهم قليلاً ما استطاعوا العصيان على سيف الدولة ، وصالح ابن مِرْداس حين حاصرها ، وقد قتل القِرْمِطي وغيره من أهلها خلقا كثيراً ، ولم تقفر من أهلها لكثرة الباقي منهم .

ثانيها : أن حول المعرة حصوناً كثيرة لها ، لا يزال بعضها عامراً أو ماثلا إلى اليوم ، كحِصن كَفَرْ رُوما ، وحصن حُنَاك ، وغيرهما مما هدم بعد هذا التاريخ ، ومنها ما يبعد عن

المعرة في هذا العصر نصف ساعة على الفارس ، ومنها ما هو أكثر من ذلك . وقد قدمنا قولا أن لها أبواباً سبعة ، بُعدكل واحد منها ساعة ، وهذا يدل على اتساع رقعتها ، ولا يعقل أن تكون في هذه السعة مع قلة أهلها .

ثالثها : مما لا ريب فيه أن أهل القرى التي كان الفرنج يمرون بها في طريقهم إلى المعرة والقرى المجاورة إياها ، كانوا ينزحون منها إلى المعرة ليعتصموا بها ، وكذلك الأعراب الضاربون حولها ، فمن الجائز أن يكون اللاجئون من هؤلاء إلى المعرة بقدر أهلها أو أكثر ، ويجوز أن يكون جماعة أرادوا معاونة المعريين في الحرب فحصروا مع أهل المدينة .

ولا يستكثر على الفرنجة الفاتحين أن يقتلوا أضعاف هذا العدد ، بعد ما كتب لهم الظفر ، لأنهم أقسى قلوباً من الوحوش الضارية .

وخلاصة هذه الفاجعة على وجه التقريب أن الفرنج بعد أخذهم أنطاكية ، قصدوا المعرة بمائة ألف[1] منهم أو يزيدون

---

(١) وفي النجوم الزاهرة ٥ : ١٦١ : ثم وردت الأخبار الى بغداد بأن الفرنج ملكوا أنطاكية وساروا الى معرة النعمان في ألف ألف انسان ، فقتلوا وسبوا حسب ما ذكرنا في أول ترجمة المستعلي هذا .

مع من انضم إليهم من الأرمن ونصارى البلاد ، فوصلوها لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ [1] وحاصروها من الشمال والشرق ، ثم حاصروها من جميع أطرافها ، وبنوا برجاً من خشب وأسندوه إلى السور ، وارتقوا على السلالم إلى السور ، ثم دخلوا المدينة بعد المغرب من ليلة الأحد الرابع والعشرين من محرم سنة ٤٩٢ هـ ، وقتلوا من أهلها قبل الفتح وبعده في

---

(١) قال ابن القلانسي : وفيها (٤٩١ هـ) توجه الافرنج الى معرة النعمان بأسرهم ونزلوا عليها في اليوم التاسع والعشرين من ذي الحجة وقاتلوها ونصبوا عليها البرج والسلالم ... إلى أن قال : وفي المحرم (٤٩٢ هـ) زحف الافرنج الى سور معرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية وأسندوا البرج الى سورها وهو أعلى منه فكشفوا المسلمين عن السور ولم يزل الحرب عليه الى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من محـرم وصعدوا السور وانكشف أهل البلد عنه وانهزموا بعد أن ترددت اليهم رسل الافرنج في التماس التقرير والتسليم وإعطاء الأمان على نفوسهم وأموالهم ودخول الشحنة اليهم ، فمنعهم من ذلك الخلف بين أهلها وما قضاه الله تعالى وحكم به وملكوا البلد بعد صلاة المغرب وقتل فيه خلق كثير من الفريقين وانهزم الناس الى دور المعرة للاحتماء بها ، فأمنهم الافرنج وغدروا بهم ورفعوا الصلبان فوق البلد ، وقطعوا على أهل البلد القطائع ، ولم يفوا بشيء مما قرروه ونهبوا ما وجدوه وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به ورحلوا يوم الخميس السابع عشر من صفر الى كفرطاب ، ثم قصدوا بعد ذلك ناحية بيت المقدس آخر رجب من سنة ٤٩٢ هـ (ذيل تاريخ دمشق ١٣٥ ، ١٣٦) .

الحرب والتعذيب والعطش مائة ألف وأكثر ، بعد أن أذاقوهم ضروبا من العذاب ، وسبوا من النساء والصبيان نحواً من هذا القدر ، وأنهم قطعوا الأشجار ، وأحرقوا المساجد ، وكسروا المنابر ، وهدموا الدور والبروج والسور ، وأقاموا فيها نحواً من أربعين يوماً ، ولم يبقوا عند أهلها ذخيرة ، حتى أصبحت يدل عليه قول قاعاً صفصفاً وخراباً يباباً .

ولعل دخولهم المعرة كان يوم الاثنين أو ليلة الاثنين كما بعض شعراء المعرة في ذلك :

مَعَرَّةُ الأذْكِياء قَدْ حَرِدَتْ عَنّا وَحَقُّ المليحَةِ الحَرِدُ
في يَوْمِ الاثْنَينِ كَانَ مَوْعِدُهُمْ فَمَا نَجا مِنْ خَمِيسِهِمْ أَحَدُ

وفي ابن عساكر[١] : دخل أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن مسعر التنوخي المعرة بعد أن أخذها الفرنج فقال[٢] :

هَذِهِ بَلْدَةٌ قَضَى اللهُ يَا صَا حِ عَلَيْها ، كَما تَرى بالخَرابِ

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق المجلد ٩ ق ٤١٨/٢ من مخطوطات الظاهرية .

(٢) هذه الأبيات تمثل بها وجيه وهي [والتي قبلها] لمحمود بن علي بن المهنا المتوفى سنة ٥٠٥ هـ وستأتي ترجمة كل منهما (ج) .

فَقِفِ العِيسَ وَقْفَةً وَابْكِ مَنْ كَا نَ بِهَا مِنْ شُيُوخِنَا والشَّبَابِ
وَاعْتَبِرْ إِنْ دَخَلْتَ يَوماً إِليها فَهِيَ كَانَتْ مَنازِلَ الأَحبابِ

وإِذا نظر الإنسان إِلى مدنية الفرنجة الحاضرة في القرن العشرين ، ربما أنكر ما نسب إِليهم من الفظائع والمنكرات التي ارتكبوها في المعرة وغيرها في الحروب الصليبية ، ولكن من استقرى أحوالهم لا يجد بينهم وبين الوحوش الضارية فرقاً كبيراً ، وتبين أنهم كانوا بعيدين عن كل حضارة ومدنية ، وإِليك قصة ذكرها أُسَامَة بن مُنْقِذ[1] في كتاب (الاعتبار) ، تدل على حالة الفرنجة الذين فتحوا المعرة وقوضوا عمرانها وحضارتها . قال أسامة : كان عندنا رجل حماميّ يقال له : سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي قال : فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها ، فدخل إِليها فارس منهم (أي الفرنجة) ، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام ، فمد يده فجذب مئزري من وسطي ورماه ، ورآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي ، فقال : سالم فتقربت منه ، فمد يده على عانتي ، وقال : سالم جيد وحق ديني اعمل لي

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ١٣٦ (ج) .

كذا ، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع ، فحلقته ، فمر يده عليه ، فاستوطأه ، فقال : سالم بحق دينك اعمل « للداما » ، والداما بلسانهم « الست » يعني امرأته ، وقال لغلام له : قل للداما تجيء ، فمضى الغلام وأحضرها ، وأدخلها فاستلقت على ظهرها ، وقال : اعمل كما عملت لي فحلقت ذلك الشعر ، وزوجها قاعد ينظرني ، فشكرني ، ووهبني حق خدمتي . وانما أوردت هذه القصة لأجمع فيها بين النادرة وبين ما كان الفرنجة يكلفون به الناس من الأعمال التي تتقزز منها نفوسهم ، وتأباها عاداتهم وتقاليدهم ، وبين ما كانوا عليه من الهمجية .

على أن لهم من الفظائع والمنكرات التي ارتكبوها بعد ذلك في الأندلس وغيرها في العصور الخالية ، وفي بلاد الشام وغيرها في العصر الحاضر ، ما هو أشد من هذا وذاك ، كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى .

وذكر في كتاب (البستان الجامع)[١] : أنه في سنة ٤٩٢ ﻫ نقل مصحف عثمان إلى دمشق من المعرة ، ولعل ذلك كان بعد خروج الفرنجة منها ، ويجوز أن يكون وقت دخولهم .

---

(١) البستان الجامع ص ٧ ، ٨ (ج) .

وفي سنة ٤٩٣ هـ [1] وصل مبارك بن شبل أمير بني كِلاَب ، في جمع كثير من العرب ، فخالف الملك رِضْوان ، ورعوا زرع المعرة ، وكَفَرْطَاب ، وحماة ، وشَيْزَر ، والجِسْر ، وغير ذلك ، وخلت البلاد ، ووقع الغلاء في حلب ، ولم يزرع شيء في بلدها ، ثم سلط الله الوباء على العرب ، فمات شِبْل ومُبارك ولده ، واضمحلت دولة العرب ، ثم التقى رضوان مع الفرنج ، فانهزم واستبيح عسكره ، وقتل خلق كثير ، وأخذ الفرنج برج كَفَرْحلب ، وبُرْج الحاضِر ، وصار لهم من كفرطاب إلى الحاضر ، ومن حلب غرباً ، سوى تَل مَنَّس ، فان أصحاب جَناح الدولة كانوا بها .

ثم تجمع الفرنج بالجزْر ، وسَرْمين ، وأعمال حلب ، وجمعوا العدد والغلال لحصار حلب ، وعولوا على حصارها في سنة ٤٩٥ هـ ، أو قبلها ، فبلغهم أن أنوشتكين الدانشمند نازل بعض معاقل الفرنج ، وهي ملطية ، فعادوا للدفاع عنها ، وهربوا من أعمال حلب ، وتركوا ما كانوا أعدوه ، فخرج رضوان وأخذ الغلال

(١) الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٢٨٧ عن ابن العديم (ج) .

التي جمعوها ، ونزل سَرْمِين ، وسار جناح الدولة إلى أَسْفُونا ، وبه جماعة من الفرنج فهجمه ، وقتل جميع من فيه ، وسار إلى سرمين فكبس عسكر الملك رِضْوان ونهبه ، وانهزم رضوان وأكثر عساكره ، واستغل جناح الدولة سرمين ومعرة النعمان ، وكَفَرْطَاب ، وحماة .

وفي سنة ٤٩٣ هـ أيضاً سار بيمند الفرنجي صاحب أَنْطاكِية إلى قلعة فامِيَة [١] فحصرها وقاتل أهلها أياماً ، وأفسد زرعها ، ثم رحل عنها [٢] .

وفي سنة ٤٩٦ هـ وقع بين الفرنج وبين سكمان وجكرمش وقعة عظيمة ، استظهر فيها المسلمون ، وهلك الفرنج ، وأسر القُمّص ، فأنفذ الملك رضوان إلى الَجزْر وغيره من أعمال حلب التي في أيدي الفرنج ، يأمرهم بالقبض على من عندهم من الفرنج ، ففعل ذلك أهل الفُوعَة وسَرْمين ، ومعرة مَصْرِين ، وغيرها ، ولم يبق بأيدي الفرنج غير الَجبَل ، وهَاب ، وحصون

---

(١) وتسمى : أفامية .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ١٢٥ .

المعرة ، وكَفَرْطَاب ، وصَوران ، فوصل شمس الخواص ، وفتح صوران ، فهرب من كان بلَطْمِين ، وكفرطاب ، وبلد المعرة والبَارَة إلى أنطاكِيَة ، وسلموها إلى رِضْوان ما خلا هاب .

وفي سنة ٤٩٧ ﻫ أرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماة ، يبذل له مَنْبِج ، وقلعة نجم ، على أن يصير معه على عمه الملك العادل ، فاعتذر إليه بيمين في عنقه للملك العادل ، فسار إلى المعرة ، وأقطع بلادها .

وفي سنة ٤٩٩ ﻫ نزل الفرنج على أَفَامِيَة وحاصروها حتى جاع أهلها ، ثم ملكوها ، وقتلوا قاضي سَرْمين المتغلب عليها ، وابن الصائغ الذي أظهر مذهب الباطنية بالشام وقيل : إن ابن الصائغ قتله رئيس حلب ابن بديع سنة ٥٠٧ ﻫ ، وستأتي هذه الحادثة في الكلام على أفامية .

وفي سنة ٥٠٥ ﻫ جهز السلطان محمد العساكر الاسلامية لقتال الفرنج ، وفيهم الأمير مَوْدود ، والأمير سكمان [١] ، والأمراء : ايليكي ، وزَنْكي ، وغيرهم .

---

(١) لعله سقمان كما في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٤ : ٢٥٨٥ .

فوصلوا إلى حلب ، فأغلق الملك رِضوان أبواب البلد ، ولم يجتمع بهم ، فرحلوا إلى المعرة في أواخر صفر سنة ٥٠٥ هـ ، وأقاموا عليها أياماً ، ووجدوا حولها ما ملأ صدورهم مما يحتاجون إليه من الغلات ، وما عجزوا عن حمله ، ثم تفرقوا لأسباب وبقي مَوْدود وطُغْتَكِين بالمعرة ، ثم رحلا إلى شَيْزر ، وفي الروضتين [١] : أن مودوداً حصر معرة النعمان سنة ٥٠٢ هـ وسيأتي تفصيلها في الكلام على أفامِيَة . وذكر غير واحد هذه الحادثة في سنة ٥٠٤ هـ ، فلعلها انقضت ، ودخلت السنة الثانية أي سنة ٥٠٥ هـ .

وفي سنة ٥٠٦ هـ حمل جماعة من الباطنية من أهل أفامية ، ومعرة النعمان ، ومعرة مَصْرين ، على حِصْن شَيْزَر في فصح النصارى فرتب فيه مائة راجل على حين غفلة من أهله ، فملكوا الحصن ، وأخرجوهم منه ، وأغلقوا أبوابه . ثم قتلهم بنو مُنْقذ عن آخرهم .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ٢٧ (ح) .

وفي سنة ٥٠٨ هـ [1] بلغ السلطان محمد بن مَلَكْشاه أن أميريه آقسُنقُر البُرسُقي ، وطُغتِكين صاحب دمشق ، اتفقا مع صاحب أنطاكِية الفرنجي ، فجهز في السنة المذكورة عسكراً كثيراً ، وجعل مقدمهم الأمير بُرسُق صاحب هَمدان ، وأمرهم بقتل ايلغازي وطغتكين ، فاذا فرغوا منهما قصدوا بلاد الفرنج وحصروا بلادهم ، فساروا في رمضان سنة ٥٠٨ هـ وعبروا الفُرات آخر السنة وأرادوا أخذ حلب ، فراسلوا متولي أمرها لؤلؤاً الخادم ، ومقدم عسكرها شمس الخواص ، فاستنجدا بايلغازي وطغتكين ، فسارا اليهم بألفي فارس ، فأعرض برسق عن حلب وسار إلى حماة ، وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله ، ففتحها عنوة ونهبها ، وسلمها إلى قرجان صاحب حِمْص ، وسار ايلغازي ، وطغتكين ، وشمس الخواص ، إلى أنطاكِيَة ، واستجاروا بصاحبها روجيل ، وسألوه ان يساعدهم على حفظ مدينة حماة ، فلما بلغهم فتحها ، ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين صاحب القدس ، وصاحب طَرَابُلس ، وغيرهما ، اتفق رأيهم على ترك اللقاء ،

---

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ١ : ٤٢١ — ٤٢٣ ملخصة عن ابن الأثير وغيره (ج) .

لكثرة المسلمين ، واجتمعوا في أَفَامِيَة ينتظرون تفرق المسلمين في الشتاء ، فلما رأوا عزمهم على المُقام عاد ايلغازي الى ماردِين ، وطُغْتِكِين الى دِمَشق ، والفرنج إلى بلادهم ، فقصد المسلمون كَفَرطاب وكانت بيد الفرنج ، وحصروا حصناً كان للفرنج عمروه بجامعها وأحكموه فأخذوه ، ثم ذهبوا الى المعرة ، وهي للفرنج أيضاً ، وأمن الترك وانتشروا في أعمال المعرة يسلبون وينهبون . ثم سارت العساكر عن المعرة إلى حلب ، يتقدمهم ثقلهم ودوابهم ، والعساكر في اثرها متلاحقة مطمئنة .

وفي أبي الفداء [1] : وفي سنة ٥٠٩ هـ أرسل السلطان محمد ابن مَلَكْشاه عسكراً لمحاربة طغتكين صاحب دمشق ، ففتحوا حماة عنوة ونهبوها ، ثم سلموها إلى قيرخان بن قراجا صاحب حِمْص، وأقام العسكر بحماة ، واجتمع بفَامِيَة ايلغازي وطغتكين ، وملوك الفرنج صاحب طَرَابُلُس ، وصاحب أنطاكِية وغيرهما ، وأقاموا بها ينتظرون تفرق المسلمين . فلما أقام عسكر المسلمين

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

إلى الشتاء ، تفرق الفرنج وسار طُغتُكين إلى دِمَشْق ، وايلغازي إلى مارِدين ، ثم سار المسلمون من حماة إلى كَفَرْطَاب ، وهي للفرنج ، فاستولوا عليها ، وقتلوا من بها من الفرنج ونهبوهم . ثم سار المسلمون إلى المعرة ، وهي للفرنج ثم ساروا منها إلى حلب ، فكبسهم صاحب أنْطاكِية في أثناء الطريق ، فانْهزم المسلمون ، وقتلهم الفرنج ونهبوهم ، وهرب من سلم منهم إلى بلاده .

وستأتي في الكلام على أفامِيَة رواية ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٩ هـ .

وفي سنة ٥١٣ هـ خرج الفرنج إلى المعرة ، فسبوا جماعة وأدركهم جماعة من الترك فرجعوا . ثم خرج بغدوين من أنطاكية ، فنزل على حِصْن روزا [١] غربي البارَة ، وهو حصن كان لابن مُنْقِذ وقد سلمه إليهم ، ولما جرت الوقعـــة الأولى على البَلاَط عاد فأخذه ، فحاصره بغدوين ، وأخذه في جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وأطلق من كان فيه ، ثم رحل إلى كَفَرْرُومَا ،

(١) في إعلام النبلاء للطباخ ١ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ : زور (ج) .

فأخذها بالسيف وقتل جميع من فيها ، ووصل إلى كَفَرْطَاب ، وكان ابن مُنْقِذ أحرق حصنها ، وأخذ رجاله منه خوفاً عليهم ، فرموه ورتبوا رجاله فيه .

وفي سنة ٥١٤ هـ تشاحن صاحب الأَثارِب بلاق بن إسحق صاحب ايلغازي والفرنج ، فأسرى بجماعة من عسكر حلب إلى أنطاكية ، فلقيهم عسكرها وكسرهم وعاد فتبعوه . ثم التقوا بين ترمانين وتَلّ أغدى ، فانهزم ايلغازي ، وصالحهم إلى آخر السنة على أن لهم المعرة ، وكفرطاب ، والجَبَل ، والبارة ، وضياعاً من جبل السُّمّاق [١] وَلَيْلُون ، واعزاز [٢] .

وفي سنة ٥١٩ هـ في أواخر المحرم ، رحل البُرسُقي إلى تَلّ السُّلْطان ، ومنها إلى شَيْزَر ، ثم أقام بأرض حماة أياماً حتى وصل إليه أتابك طُغْتُكِين ، فرحل في عسكره الذي لا يحد كثرة ، ونزل كَفَرْطاب فسلمت إليه يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الآخر ، وسلمها إلى صَمْصام الدين خيرخان بن قراجا ، وكان

---

(١) في الإعلام للطباخ ١ : ٤٣٧ عن ابن العديم : من جبل السُّمّاق برسم هاب وضياعا من ليلون برسم تل اغدى وضياعاً من بلد عزاز .

(٢) وتسمى عَزاز .

قد وصل إليه من حِمْص والتقاه بتَلّ السُّلْطان . وقال في (الروضتين[1]) نقلاً عن العماد الكاتب : أن زَنْكي استولى على الشام من سنة ٥٢٢ ﻫ إلى أن توفي في ٥٤١ ﻫ .

وفي سنة ٥٢٦ ﻫ نزل التُّرْكمان على بلد المعرة ، وكَفَرْطاب ، وقسموا الُمغَلاَّت ، فاجتمع الفرنج وهزموهم عن البلد .

وفي سنة ٥٢٩ ﻫ[2] أخذ عماد الدين زنكي والد نور الدين المعرة وكفرطاب من الفرنج ، وخرب أتابك زنكي سورها لما استولى عليها ، ولم يعد كما كان . وكان الفرنج استصفوا جميع أملاك المعرة ، وأخذوا كل مالهم وكتب أملاكهم ، فحضر أهلها ، أي من بقي من أهلها ، ومعهم أعقاب من هلك منهم إلى نور الدين ، وطلبوا تسليم أملاكهم التي أخذها الفرنج ، فطلب منهم كتب أملاكهم ، فقالوا : إنها عدمت . فكشف من ديوان حلب عن الَخراج ، وأفرج عن كل مُلك كان عليه الخراج لأصحابه وأعاده إليهم ، ويقال : إن عماد الدين نقض أسوار المعرة كلها .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٤٥ (ج) .

(٢) كذا في الوفيات . وفي تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٢ سنة ٥٣١ ﻫ (ج) .

وفي سنة ٥٣١ ﻫ رحل ملك الروم إلى المعرة ، ورحل عنها يوم الاثنين ثالث عشر شعبان إلى شَيْزَر وكَفَرْطَاب ، ورموها بالمناجيق ، فسلمها أهلها في نصف شعبان .

وفي ابن القَلانِسي في سنة ٥٣٣ ﻫ [1] رحل ملك الروم عن المعرة ، فهرب من كان مقيما في كَفَرْطَاب من الجند خوفاً على نفوسهم .

وفي (الروضتين) [2] : ان أتابك الشهيد سار في سنة ٥٣٤ ﻫ وحاصر حصن بارِين وكان للفرنج ، وكان من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل . وفي مدة مقامه على حصن بارين ، سير جنده إلى المعرة ، وكفرطاب ، وتلك الولاية جميعها ، فاستولى عليها وملكها ، وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة .

---

(١) وفي ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦٦ : وفي يوم الاثنين (٥٣٢ ﻫ) رحل ملك الروم عن بلد المعرة فهرب من كان مقيماً في كفرطاب من الجند خوفاً على نفوسهم .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٤١ هـ قتل عماد الدين زَنْكي ، وســـار ولده نور الدين محمود إلى حلب فملكها .

وفي سنة ٥٤٤ هـ [١] سار نور الدين إلى حِصْن فَامِيَة ، وهو للفرنج ، وبينه وبين مدينة حماة مائة مرحلة ، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال ، من أحصن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة ، وشَيْزَر ، وينهبونها . فحصره نور الدين وضيق على من به وتابع قتالهم حتى ملكه وفتحه ، وشحنه بالذخائر والسلاح والرجال . وسيأتي في أفامية رواية ابن الأثير ، وأبي الفداء .

وفي (الروضتين) [٢] : أن نور الدين حين خرج لأخذ شَيْزَر ، أمر بكتابة منشور باطلاق المظالم في حلب ، ودِمَشْق ، وحِمْص ، وحَرّان وغيرها . وكان ما أسقطه عن المعرة ثلاثة آلاف دينار في كل سنة .

وذكر بعض المؤرخين أن خَراج المعرة بلغ في عهد نور الدين محمود (٧٠٠٠) دينار وكفر طاب (١٠٠٠) دينار .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٦٢ (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٦ (ج) .

وذكر إبراهيم الحصني قاضي المعرة الآتي ذكره : أنه اجتمع بالملك العادل نور الدين بقلعة دِمَشْق ، وأن نور الدين قال لكاتبه : اكتب إلى كاتبنا بمعرة النعمان ليقبض على جميع أملاك أهلها ، فقد صح عندي أن أهلها يتقارضون الشهادة ، فيشهد بعضهم لصاحبه في ملك ، ليشهد له ذلك في ملك آخر ، فجميع ما في أيديهم بهذا الطريق ، قال : فقلت له : اتق الله فانه لا يتصور أن يتمالأ أهل بلد على شهادة الزور ، فقال : صح عندي ذلك ، فكتب الكاتب الكتاب ودفعه إليه ليعلم عليه ، وإذا بصبي راكب على بهيمة على نهر بَرَدَى ، وهو ينشد هذه الأبيات :

اِعْدِلوا مَا دَامَ أَمْرُكُمُ نَافِذاً فِي النَّفْعِ وَالضَّرَرِ
اِحْفَظُوا أَيَّامَ دولتكمْ إِنَّكُمْ مِنْهَا عَلَى خَطَرِ
إِنَّمَا الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا حُسْنُ مَا يبْقَى مِنَ الخَبَرِ

قال : فاستدار إلى القبلة وسجد واستغفر الله ، ثم مزق الكتاب ، وتلا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ﴾ .

وفي (الإعلام)[1] عن (المختار من الكواكب المضية): أن نور الدين كان قاعداً في دِمَشْق على طيارة مشرفة على بَرَدى، فوصل إليه كتاب من المعرة يذكر فيه: أن جماعة من أهل المعرة تغلبوا على كروم وزيتون وأملاك ليست لهم، ويستأذنه في قبضها، فمن أحضر بينة أو حجة سلم إليه ما كان بيده، وإن لم يحضر بقي في ديوان بيت المال. فأمر بكتب مرسوم بذلك، فشرع الكاتب يكتب، فسمع منشداً ينشد الأبيات المذكورة، فقال نور الدين: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّه﴾ . الآية. ثم أمر بابطال ذلك الكتاب وجعل يبكي .. والبيت الثالث من الأبيات المذكورة على هذه الرواية جاء هكذا:

إنَّما يَبْقَى لَكُمْ أَبَداً ... طِيبُ مَا يَبْقَى مِنَ الخَبَرِ

وفي سنة ٥٥٢ هـ وقعت في الشام زلازل، وخرب أكثر مدنها، مثل كَفَرْطَاب، والمعرة، وحِمْص، وحماة، وأَفامِيَة وحِصْن الأكراد، وعِرْقة، واللاذِقِيَّة. وكان أشدها بمدينة حماة وحِصْن شَيْزَر، فانهما خربا بالمرة، وكذا ما جاورهما

---

(١) راغب الطباخ: إعلام النبلاء ٢: ٦٩، ٧٠.

كحِصْن بارِين ، والمعـــرة ، وغيرهما من البلاد والقرى ، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله وتهدمت الأسوار والدور والقلاع .

وقد قيل : إن بعض المعلمين في حماة ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور ، وسقط المكتب على الصبيـــان جميعهم ، فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب .

ويفهم من كلام أُسامة بن مُرْشِد بن مُنْقِذ ، أن الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام كان ابتداؤها في شهر رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

ويدل كلام صاحب (الروضتين) على أن زلزلة حدثت ليلة التاسع عشر من صفر سنة ٥٥٢ هـ ثم أعقبتها زلزلة في صفر وأخرى في جمادى الأولى والآخرة ، وفي رجب ، وفي رمضان ، وشوال ، وذي القعدة ، وقد تكون في بلد أشد منها في غيره ، وقد سكن الناس في أكواخ عملوها من خشب ، وتفصيل

ما أثرته هـذه الزلازل في (الروضتين)[١]، وابن الوردي[٢]، وابن الأثير[٣]، وغيرهم .

وقال ابن العَديم : كانت كَفَرْطَاب مشحونة بأهل العلم ، وكان بها يُقرأ الأدب ويُشتغل به ، وهي عـلى مقربة من معرّة النعمان خربت أواخر القرن الخامس ، ويقول المؤرخون: إنه لم يسلم أحد من كفرطاب في زلزال سنة ٥٥٢ هـ .

وفي ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين محمود ، وجلس ابنه الملك الصالح اسماعيل في الملك ، وهو لم يبلغ الحلم ، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٧٠ هـ قدم صلاح الدين يوسف بن أيوب بلاد الشام فاتحاً ، فلما كان في حِمْص جهز عليه سيف الدين صاحب المَوْصِل عسكراً عظيماً ، وقدم عليهم أخاه مسعوداً ، فوصل الى حلب ، وانضم اليه من كان في حلب من العسكر ، والتقى الفريقان ، فانكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ،

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ١٠٤ (ج) .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١ : ٨٨ .

وذلك عند قرون حماة ، في التاسع عشر من شهر رمضان .

ثم سار الى حلب وصالحوه على ان يأخذ المعرة وكَفَرْطَاب وبارِين ، وقد اشار الى هذه الوقعة عماد الدين الكاتب في قصيدة مدح بها ناصر الدين محمد بن شِيركُوه حيث قال :

لَمَّا جَرَى العَاصِي هُنَالِكَ طَائِعاً بِدِمَائِهِمْ فَجَرَتْ بِهِ الأَنْهَارُ
وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ القُرُونِ قُرُونُهُمْ بَلْ كَلَّتِ الأَنْيَابُ وَالأَظْفَارُ
عَبَرُوا المَعَرَّةَ مَالِكِينَ مَعَرَّةً وَالعَارُ يُمْلَكُ تَارَةً وَيُعَارُ

وقد ذكر صاحب (الروضتين) [١] : تفصيل هذه الحوادث ، وما وقع من مصالحة ونقض .

وفي سنة ٥٧٢ هـ ملك صلاح الدين مُؤَيِّد الدَّوْلة أُسَامَة بن مُرْشِد . . بن مُنْقِذ ضيعة من أعمال المعرة ، زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه [٢] .

وفي سنة ٥٧٤ هـ حاصر صلاح الدين بَعْلَبَكّ ، وكان بها ابن المُقَدَّم ، ثم رحل عنها الى دِمَشْق ، وترك من يحصرها بالمنع

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٤٨ فما بعدها (ج) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ١ : ٢٦٤ (ج) .

من الدخول والخروج من غير قتال ، ثم رضي ابن المُقَدَّم بتسليم بَعْلَبَكّ ، وأن يأخذ حِصْن بَعْرِين وأعماله ، وكَفَرْطاب ، وأعيان نواحي ، وقرى من بلد المعرة بدلاً منها [١] .

وفي (مرآة الجنان) [٢] : في سنة ٥٧٤ هـ أطلق السلطان حماة عند موت صاحبها خاله شهاب الدين لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه ، وأطلق له أيضاً المعرة ومَنْبِج ، وفاء منه ، فبعث اليها نوابه .

وفي سنة ٥٧٧ هـ كان تقي الدين يتولى لعمه صلاح الدين المعرة وحماة [٣] .

وفي صفر سنة ٥٧٩ هـ فتح صلاح الدين حلب ، وقرر ولده الظاهر سلطاناً بها ، ثم كتب اليه الملك العادل نائبه بمصر أن يجعل له حلب ، فقرر صلاح الدين ولاية حلب وأعمالها الى رَعْبَان ، إلى الفُرات ، إلى حماة ، للملك العادل واستدعى

---

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥ (ج) .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٣٩٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٢٣ (ج) .

ولده الظاهر من حلب ، ودخلهـا العادل في رمضان [١] .

وفي (الخطط) [٢] : في سنة ٥٧٩ هـ نزل ابن المُقَدَّم عن أفامِية، فأقطعه الظاهر الرَّاوَنْدَان وكَـفَرْطَاب ومفردة المعرة ، وهي عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة ، فعصى ابن المقدم بالراوندان فسار اليه الظاهر فأبعده عنها . وسيأتي ذلك .

وفي سنة ٥٨٢ هـ أعاد صلاح الدين حلب إلى ولده الظاهر غازي غياث الدين .

وفيها أعاد إلى تقي الدين ما كان من البلاد، ومَنْبِج ، والمعرة ، وسائر أعمالها [٣] .

وفي سنة ٥٨٤ هـ سار صلاح الدين من حلب على طريق المعرة ، وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر ابن عبد العزيز ، فتبرك بزيارة الميت والحي [٤] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٥٢ (ج) .

(٢) محمد كرد علي : خطط الشام ٢ : ٧٩ (ج) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ٢ : ٧٠ (ج) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ٢ : ١٣٤ (ج) .

وفي سنة ٥٨٧ ﻫ جعل صلاح الدين المعرة ، وكَفَرْطَاب ، إلى المنصور بن تقي الدين بعد موته ، وفي (الدارس)[1] : في سنة ٥٨٧ ﻫ أنعم صلاح الدين على ابن أخيه تقي الدين عمر بحماة ، والمعرة ، وفَامِيَة[2] ، ومَنْبِج ، فتسلمها وبعث إليها نوابه ، والأول أصح .

وفي سنة ٥٨٩ ﻫ أرسل سيف الدين غازي صاحب المَوْصِل جيشاً عظيماً ، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعوداً إلى حلب للقاء صلاح الدين ، فلما بلغه ذلك رحل عنها الى حماة وأخذ قلعة حِمْص . ولما وصل عز الدين الى حلب ، أخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح ، وخرجوا الى حماة ، فوافاهم صلاح الدين على قرون حماة ، وطلب إليهم أن يصالحوه فأبوا ، فالتحم القتال بين الفريقين ، فانكسر عز الدين ورجاله وانهزموا ، وأسر منهم جماعة ، ثم سار ونزل على

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٢١٧ .

(٢) وتسمى أيضاً أفامية .

حلب ، فصالحوه على أخذ المعرة ، وكَفَرْطَاب ، ومَارِدِين ، كذا قال في (مرآة الجنان) ملخصاً [١] .

ولما مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ كانت كفرطاب ، وأفامِيَة بيد عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم .

وفي سنة ٥٩٦ هـ ولي قضـــاء المعرة ابراهيم الحِصْني من فقهاء دمشق ، وقد ترجمه ابن السُّبْكي [٢] في (طبقات الشافعية) ، وتوفي سنة ٦١٥ هـ . وقد ذكرنا قوله لنور الدين الشهيد حين عزم على أن يقبض على أملاك أهل المعرة .

وفي هذه السنة أيضاً كانت أفامِيَة ، وكَفَرْطَاب ، وخمس وعشرون ضيعة من المعرة لعز الدين ابراهيم بن محمـــد بن عبد الملك بن المُقَدَّم .

وفي سنة ٥٩٧ هـ مات عز الدين ابراهيم المذكور ، وصارت البلاد بعده لأخيه شمس الدين عبد الملك .

---

(١) اليافعي : مرآة الجنان ٣ : ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٢) في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤ : ١٩٩ ، ٢٠٠ : ابراهيم بن الحسن بن طاهر أبو طاهر الحموي المعروف بالحصني ، من فقهاء دمشق ولد في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة بحماة وتفقه ببغداد ، وتوفي بدمشق في صفر سنة احدى وستين وخمسمائة .

وفيها : سار الظاهر ملك حلب إلى المعرة، وأقطع بلادها واستولى على كَفَرْطاب ، وأفامِيَة ، وقد كانت لشمس الدين المذكور ، وسيأتي أن قَراقُوش نائب ابن المُقَدَّم، امتنع عن تسليم أفامية ، وخل عنها الملك .

وفي سنة ٥٩٨ هـ وصل الملك العادل حماة ، وبلغ الظاهر في حلب أن قصده محاصرته ، فلاطفه وأهدى إليه ، فوقع الصلح بينهما ، وانتزعت مفردة المعرة ، وهي عشرون ضيعة معينة من بلد المعرة ، واستقرت للمنصور صاحب حماة .

وفي سنة ٦٠٩ هـ ولي التدريس في المعرة شمس الدين ابراهيم البارزي .

وفي سنة ٦١٧ هـ صارت المعرة للملك الناصر بن الملك المنصور.

وفي سنة ٦١٩ هـ [1] فوض طغريل مدير المملكة الحلبية أمر الشغْر وبَكَاس إلى الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر ابن صلاح الدين ، فسار الملك الصالح إليهما ، وأضاف إليه الرُّوج ، والمعرة ، ومَصْرِين .

---

(١) كذا في نهر الذهب للغزي ٣ : ١١٢ ، ١١٣ (ج) .

وفيها قصد الملك المعظم عيسى صاحب دِمَشق المعرة فاستولى عليها ، وأقام فيها والياً من قبله ، وقرر أمورها ، لأن الملك الناصر لم يف له بما التزمه من المال .

وفي سنة ٦٢١ هـ كتب الملك الكامل ملك مصر إلى أخيه ملك دمشق ، أن يرحل عن سَلَمْيَة [١] ويعفو عن الناصر ملك حماة ، فأعاد له المعرة .

وفي سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة .

وفي سنة ٦٣١ هـ نزلها الملك المظفر بعد رجوعه من محاربة كيقباذ . وفي هذه السنة تم بناء قلعة المعرة ، وكان قد أشار عليه ببنائها سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني [٢] ، وهو الذي تسلم أمور حماة وتدبير شؤونها من قبل المُظَفَّر . وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، وسنزيد القول في هذا فيما يأتي .

---

(١) في معجم البلدان ٣ : ١٢٣ : ولا يعرفها أهل الشام إلا بسَلَمية .
(٢) في تاريخ ابن الوردي ٢ : ١٦٠ : المزباني ، وفي غيره الهدباني (ج) .

وفي سنة ٦٣٥ هـ [١] حاصر الحلبيون قلعـــة المعرة بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً ، وخرج عسكر المعرة حينئذ إلى حلب ، ثم سار عسكر حلب ، ومقدمهم توران شاه إلى حماة .

وفي كتاب (السلوك) [٢] : أن أهل حلب استنجدوا عسكراً من الْخَوَارِزْمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباذ ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكره ، فملكوا المعرة سنة ٦٣٥ هـ .

وفي سنة ٦٣٨ هـ نهبتها الخوارزمية بعدما خربوا حلب ، وأسروا توران شاه وارتكبوا من الزنا والفحش والقتل ما ارتكبته التَّتَر ، وقد عبروا الفرات من الرَّقة إلى الْجَبُّول ، إلى تل أَعْرَن ، إلى سَرْمِين ، إلى المعرة ، وهم ينهبون ، وفزع الناس منهم .

---

(١) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٧٠ . وابن الوردي : التاريخ ٢ : ١٦٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ١ : ٢٦٩ (ج)

وفي سنة ٦٤٦ هـ[١] ولي قضاء المعرة قوام الدين أبو العلاء المُفَضَّل ابن السلطان المعروف بابن حادور الحَمَوي ، ثم عزل عنها ، وولي المدرسة الشعيبية في حلب ، ثم قضاء حِمْص سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزل عنها ، وتوفي في حماة سنة ٦٦٠ هـ .

وفي سنة ٦٤٦ هـ[٢] ولي قضاء المعرة موفق الدين أبو القاسم الكَرْدي الحميدي .

وفي سنة ٦٥٨ هـ[٣] قدم التتر على المعرة ، وخربوا قلعتها وأسوارها. وقد بينا أن القلعة قد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وهدمت سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة بقائها عامرة سبعاً وعشرين سنة ، وبهذا يتضح بطلان ما زعمه بعض الكاتبين في هذه القلعة من أنها قبل الإسلام ، أو من بناء الصليبيين ، أو غير ذلك . وزعم أصحاب مجلة العاديّات أنها من بناء الملك الظاهر ، وزعموا في دائرة المعارف الفرنسية[٤] انها من آثار الصليبيين وهو باطل كما تقدم .

---

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٤ : ٢٦٠ (ج) .

(٢) راغب الطباخ : اعلام النبلاء ٤ : ٣١٦ (ج) .

(٣) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٤) La grande Encyclopédie 22 : 851.

وفي سنة ٦٥٨ هـ أخرج الملك قُطُز المعرة من يد الحلبيين وأعادها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها سنة ٦٣٥ هـ ، وهنّأه الشيخ شرف الدين بعودها إليه بقصيدة منها :

وَكَذَا المَعَرَّةُ إذْمَلَكْتَ قِيَادَهَا ... دَهِشَتْ سُرُوراً سَارَ في مَدْهُوشِهَا

طَرِبَتْ بِرَجْعَتِهَا إلَيْكَ كَأنَّمَا ... سَكِرَتْ بِخَمْرَةِ حَاسِهَا أوْ حِيشِهَا

وفي سنة ٦٦١ هـ أغار صاحب سِيس [١] الارمني على العَمْق ، والمعرة ، وسَرْمِين ، والفَوْعَة .

وفي سنة ٦٦٤ هـ رحل الظاهر بَيْبَرْس من دِمَشْق إلى حماة ، ثم إلى أفَامِيَة ، وسيأتي ذلك .

وفي (الشذرات) [٢] : أن ابن البارِزِي قاضي حماة شمس الدين ابراهيم بن المسلم بن هبة الله الحَمَوي ولي تدريس معرة

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٢١٧ : سِيسِيَّة وعامة أهلها يقولون سيس بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ٥ : ٢٢٨ (ج) .

النعمان ثم تحول إلى حماة ودرس بها ، وتوفي سنة ٦٦٩ هـ ، ولكنه لم يذكر أية سنة ولي تدريس المعرة .

وفي سنة ٦٩١[1] هـ نزل الملك الأشرف صلاح الدين خليل بالمعرة ، ورفع إليه أهلها قصصاً يسألون إبطال الخمارة فيها ، فأمر بابطالها ، وخربت في تلك الساعة .

وفي سنة ٦٩٩ هـ أخذ التتر المعرة مع البلاد الشامية .

وفي سنة ٧٠٠ هـ عادوا إلى المعرة وأكثروا فيها القتل والنهب ، ثم رحلوا .

وفي سنة ٧٠٢ هـ رجعوا إليها وفعلوا ما فعلوه أولاً .

وفي سنة ٧١٠ هـ صارت حماة ملكا للملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء بن علي ، وأضيفت إليه المعرة ، ثم خرجت هي وأفرادها عن حماة ، وأضيفت إلى حلب وصارت لبعض الأمراء فيها .

وفي سنة ٧١٣ هـ[2] خرجت معرة النعمان من حماة ،

---

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٣٧ .

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٤ : ٧١ (ج) .

وأضيفت إلى حلب ، وسبب ذلك أن الأمراء الذين كانوا بحماة ، ثم انتقلوا إلى حلب « قبل سنة » استقرت اقطاعاتهم بحماة ، لعدم اقطاعات تفي بجملة ما لهم .. وصارت أطماعهم معلقة بالعودة إلى حماة ، وهم مجتهدون على ذلك تارة بالتثقيل على السلطان بالشفائع ، وتارة بالسعي في ذهاب حماة مني [1] ، فلم أجد لذلك ما يحسمه إلا بتعيين المعرة وبلادها للأمراء المذكورين واضافتها إلى حلب ، ثم صدر المرسوم بذلك .

وفي سنة ٧١٦ هـ أعادها الملك الناصر بن المنصور قَلاَوُون إلى أبي الفداء ، وامتدحه شهاب الدين محمود كاتب الانشاء الحلبي بقصيدة ، منها قوله :

بِكَ تُزْهى مَواكِبٌ وأَسِرَّةْ ... وَلَكَ السُّمْرُ وَالقَواضِبُ أَسْرَهْ
وَبِأَيَّامِكَ الَّتي هِيَ رَوْضٌ ... لِلأَماني تَجْتَني ثِمارَ المَسَرَّةْ
بِكَ كُلُّ الدُّنْيا تُهَنّى وَيُضْحي ... قَدْرُها عالِياً وَكَيْفَ المَعَرَّةْ

ثم زاده على المعرة بجملة غلال بلادها .

وفي سنة ٧١٨ هـ زاده السلطان عدة قرى من بلد المعرة على ما كان مستقراً بيده .

---

(١) أي من الملك أبي الفداء صاحب حماة .

وفي سنة ٧٤٤ هـ حدث في المعرة زلزال عظيم ، فذهب بكثير من محاسنها .

وفي سنة ٧٤٥ هـ استرجع السلطان الملك الصالح بن اسماعيل ابن الناصر محمد بن قلاوون ما كان باعه الملك المُؤيد وابنه الأفضل في حماة والمعرة من أملاك بيت المال بأموال عظيمة ، وكان غالب الملك قد طُرح على الناس غصباً ، واشتريت به تقادم إلى الملك الناصر ، فقال بعض شعراء المعرة في ذلك :

طَرَحُوا عَلَيْنَا المُلْكَ طَرْحَ مصادِرٍ ثُمَّ اسْتَرَدُّوهُ بِلاَ أَثْمَانِ
وَإِذَا يَدُ السُّلْطَانِ طَالَتْ وَاعْتَدَتْ فَيَدُ الإِلٰهِ عَلَى يَدِ السُّلْطَانِ

وكأنما كاشف هذا القائل ، ونظر إلى مصير السلطان بعين الغيب ، لأن مدة السلطان لم تطل بعد ذلك .

وفي سنة ٧٤٨ هـ اقتتل سيف الدين بن فضل أمير العرب مع أحمد فياض من الأمراء قرب سَلَمْيَة ، فانكسر سيف ، وجرى على المعرة وحماة وغيرها من العرب أصحاب سيف وأحمد فياض من النهب وقطع الطريق ما لا يوصف ، وكانوا يغيرون على حماة ، والمعرة ، ففر الفلاحون ودرست القرى .

وفي سنة ٧٤٨ ﻫ أصاب أهل المعرة من النهب وقطع السابلة ورعي الكروم والزروع والقطن والمقاثئ ، وغير ذلك من ضروب الاعتداء شيء كثير من قبل أصحاب سيف بن فضل أمير العرب وأتباعه ، وأحمد وفياض بعد ما انكسر بقرب سَلَمْيَة .

وفي سنة ٧٤٩ ﻫ وقع طاعون عمّ البلاد الشامية ، ونجت منه المعرة وحدها ، ولكنها كانت تكابد من الظلم والعسف ما هو أشد من الطاعون ، وقد أشار إلى ذلك عمر بن الوردي المعري بقوله :

رَأى المَعَرَّةَ خَوْداً زَانَها حَوَرٌ … لَكِنَّ حَاجِبَهَا بِالجَوْرِ مَقْرُونُ[1]
مَاذَا الَّذِي يَفْعَلُ الطَاعُونُ في بَلَدٍ … فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونُ

وفي سنة ٧٦٢ ﻫ توفي بالمعرة القاضي شرف الدين موسى ابن سِنان بن مسعود بن شِبل الجعفري السُّلَمِي ، وله نيف وستون سنة[2] .

---

(١) ديوانه ص ١٨٥ وروايتها فيه :

رأى المعرة عيناً زانها حور … لكن حاجبها بالجور مقرون
ما الذي يصنع الطاعون في بلد … في كل يوم له بالظلم طاعون

(٢) ذيل تذكرة الحفاظ ١٣٢ (ج) .

وفي سنة ٨٠٣ هـ قدم تيمورلنك بثمانمائة ألف مقاتل ، فوقعت بينه وبين عسكر الشام حرب طاحنة خارج سور حلب ، ثم كان له النصر ، وفرّ عسكر الشام إلى المعرة ، فتبعه بجيشه العرمرم ونازلها ، وكانت تابعة لحماة ، وكان دقماق في ذلك الحين والياً على حماة ، فسارت أعيان حماة بمفاتيح البلد إلى تيمور واستأمنوه فأمنهم . وفي هذا الوقت انفصلت المعرة عن حماة ، وصارت تابعة لحلب ، وأهل المعرة يقولون : إن تيمور شدد الحصار على المعرة ، ووقع بين أهلها وبين عساكره معارك شديدة ، ثم إن رجلاً من أهلها من قوم يعرفون ببني عازار أرشد تيمور إلى موضع استطاع أن يدخل البلدة منه بغير قتال ، فلما دخلها وضع السيف في أهلها وفتك فيهم فتكا ذريعاً ، ولا تزال إلى يومنا هذا بقية في المعرة يعرفون ببني عازار ، وأهلها يصمونهم بهذا العار الموروث والشنار التليد ، والله أعلم بالحقيقة .

وفي سنة ٩٢٠ هـ توجه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار وسرباريك ابن عمه مع جماعة من التُّركُمان إلى المعرة ،

فأوقعوا بعسكر الفرنج ، وقتل المسلمون منهم مائة وخمسين ، وأسروا جفري بلنك صاحب بَسَرْفُوث [١] . من جبل بني عُلَيْم [٢] واودع سجن حلب .

وفي سنة ٩٢٢ ﻫ استولى السلطان سليم الأول العثماني على بلاد الشام ، وملك المعرة في جملة ما ملكه منها ، وأصبحت منذ ذلك العهد خاضعة للدولة العثمانية .

وفي سنة ١٠١١ ﻫ خرج نصوح باشا والي حلب ، ومعه حسين باشا ابن جانبولاذ ، لقتال الخارجين على الدولة ، مثل خداوردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي ، فالتقوا عند المعرة ثم فروا إلى حماة وأخذ ما وجده من أموالهم وأثقالهم .

وفي (إعلام النبلاء) في حوادث سنة ١٠١٤ ﻫ [٣] في ترجمة ابن جانبولاذ ، وأما ذكر أصله ومنزعه ، فجده جانبولاذ هذا كان يعرف بابن عربو ، وكان أمير الأكراد بحلب ، وولي حكومة المعرة وكِلِّز وعَزَاز ، وكان له صيت شائع . اه

---

(١) حصن من أعمال حلب في جبال بني عليم .

(٢) المعروف اليوم بجبل الزاوية .

(٣) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٣ : ٢٣٣ (ج) .

وفي المعرة الآن قوم يعرفون بابن عربو ، يزعمون أن لهم نسباً يتصل بابن عربو السابق ذكره، ولكني لا أعلم حقيقته مِن غيرهم ، وقد ذكرناهم في أُسَر المعرة .

وفي (سلك الدرر)[1] أعطي منصب حماة إلى الشريف سعد ابن زيد شريف مكة المكرمة سابقاً ، وكان ولي أولاً معرة النعمان بأمر من الدولة لاختلاف الحجاز في ذلك الحين ، وما جرى بينه وبين الشريف بركات شريف مكة ، فضبط حماة لكنه كان شديد الحلف كثير التعدي بحيث أن أهل حماة قاموا عليه وأخرجوه من البلد قهراً ، فوصل إلى معرة النعمان ، وكتب يشتكي عليهم للدولة ، وأسند ما جرى إلى حسن أفندي الدَّفْتَري ، وتتمة الحادثة فيه ، وقد قتل الدفتري المذكور سنة ١١٠٦ ه في حماة ، وأظن أن ولاية سعد بن زيد المعرة كانت سنة ١١٠١ ه .

وفي سنة ١٢٢٨ ه ثار أهل المعرة على رجل من بني العظم ، يقال له : يحيى بك ، كان متسلما « حاكماً إدارياً » في المعرة ،

---

(١) المرادي : سلك الدرر ٢ : ٣٢ (ج) .

وسبب ذلك أن داره [١] التي كانت مسكنه داخلاً ، ومقر حكمه خارجاً ، كانت متصلة بحمام يقال له : الحمام التحتاني ، فثقب جدار الحمام ، وجعل ينظر إلى النساء وهن عاريات ، فمن أعجبته توسل بكل ما أُوتيه من حول وطول إلى الاتصال بها ، فشعر أهل المعرة بذلك ، واتفقوا على قتله ، وانتدبوا من كل أسرة رجلاً ليكونوا شركاء في دمه ، فذهب المندوبون إلى داره ليلاً ، وطرقوا الباب فخرجت جارية فسألوها عنه فادعت أنه ليس في الدار ، فدخلوا الدار عنوة ، ونقبوا فيها ، فلم يقفوا له على أثر ، واشتدوا على الجارية لتدلهم عليه ، فلم تغير قولها ، فخرجوا يتعثرون بأذيال الخيبة .

وكان يحيى رأى هذا الجمهور على باب داره ، فعلم أنهم يريدون الفتك به ، فتدلى إلى بئر في داره واختفى فيها ، وأمر

---

(١) وهذه الدار يحدها من الشرق الحمام التحتانية المذكورة والطريق الآخذ الى السوق والجامع ، ومن الشمال الطريق الفاصل بينها وبين المسجد المعروف بالداودية ، ومن الغرب الطريق الآخذ الى المحلة القبلية وتمامه الدار التي كانت دار حكومة « سراية » ، ومن الجنوب الطريق المذكور والدار المذكورة « السراية » (ج) .

الجارية أن تقول : إنه ليس في الدار ، ولم يفطن المنتدبون لذلك فلما قفلوا راجعين ، استنفر أعوانه وجنوده وبطانته ، وأراد أن ينتقم من أعدائه في صبيحة اليوم الثاني ، فثار في وجوههم جمهرة الناس ، وحصروه هو وأشياعه في داره ، فلما ضاق بهم ذرعاً خرج إلى سطح دار مصاقبة لداره ، وتدلى بحبل من السطح المتصل بسطح الحمام المذكورة ، وكان الناس أقاموا له الرقباء والأرصاد ، فرآه الرقباء الذين كانوا في منارة الجامع الكبير ، وأنذروا به الرقباء الذين كانوا على سطح السوق وغيرها فرماه رجل برصاصة فأرداه قتيلاً ، وقد رأيت على سارية من سواري المسجد في المعرة هذا البيت :

يَسْعَى بِرِجْلَيْهِ مُحَمَّدٌ نَحْوَ مَصْرَعِهِ   لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً

وهو بخط جيد ، وفوقه تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ فحدثني كثير من الناس أن ذلك كتب يوم قتل يحيى بك .

وفي سنة ١٢٣٧ هـ حدث زلزال عظيم [1] في حلب ليلة الأربعاء في الثامن والعشرين من ذي القعدة الموافق شهر آب

---

(١) انظر تفصيل ذلك في إعلام النبلاء لراغب الطباخ ٣ : ٤٠٠ - ٤١١ .

ومكث أربعين يوماً ، وفي كل يوم تحدث هزة حتى هدم بسببه أماكن كثيرة في حلب وغيرها من البلدان الحلبية، مثل كِلّس ، وأنطاكِية ، والمعرة ، وما جاورها ، حتى قيل : إن عدد القتلى الذين ماتوا تحت الهدم نحو عشرين ألفاً ، وقد نظم محمد تقي الدين بن الشيخ محمد المطلي القاطن في ديار حلب قصيدة يصف فيها تلك الزلازل ويذكر البلاد والأماكن التي خربتها ، وفيها يقول :

فَكَمْ خُطُوبٍ بِأَرْضِ الشَّامِ قَدْ وَقَعَتْ   وَفِي حَمَاةَ وَحِمْصٍ أَعْيُنٌ دَمَعَتْ
وَفِي الْمَعَرَّةِ كَمْ مِنْ نِسْوَةٍ فُجِعَتْ   وَأَرْضُ رِيحَا وَسَلْقِينَ لَقَدْ صُدِعَتْ

وَأَرْضُ عِنْتَابَ مَاجَتْ فِي أَهَالِيهَا

وفي سنة ١٢٤٨ هـ استولى إبراهيم باشا بن محمد علي المصري على المعرة ، وقد سمعت من بعض المعريين أنه لما قدمها نزل ضيفاً في دار جد والدي محمد الجندي ، وكان مفتياً في المعرة وكان الباشا يحبه حباً جما ، وأرق ذات ليلة ، فرتب له مكتبة ، وجعل لها فهرساً ، وما زال ذلك شأنه معه ، إلى أن بلغه أن أمينا بن محمد المذكور هجاه بقصيدة ، ومدح التُّرْك ، واستشار

الناس عليه ، فسخط على الأب والابن معاً ، وكان إذ ذاك بعيداً عن حلب ، فجدّ في طلب أمين ، وبث عليه العيون والأرصاد ، وسد عليه المنافذ ، فلم يقف له على أثر ، لأنه كان مختبئاً في حلب ، ثم عاد إلى المعرة ، وقد أنذر أباه بضرورة احضار ابنه لمقابلته فاحضره ، فلما قابله تناسى ما أثار سخطه عليه ، وقابله باللطف والسماح ، ولم يتصد لذكر القصيدة ، وانما عامله وعامل أباه معاملة الملك الصفوح الكريم كما سيأتي في ترجمتها .

ولكنه في نحو سنة ١٢٥٥ أو ١٢٥٦ ﻫ بلغ أهل المعرة أن الترك تغلبوا على إبراهيم وكسروا جيوشه ، فهب جماعة من الرعاع ونهبوا الشونة ، واتصل به ذلك ، فبعث عليهم جنداً لينتقم منهم ، أو لما اقترب فلّه من المعرة شعروا بما يضمره لهم ، فجاء رجل من أهل المعرة . يقال له علي بن قَنْدَح على زعم من أخبرني ، وصعد منارة الجامع الكبير فيها ، وأنذر الناس بقدوم عسكر ابراهيم ، وحذرهم بأسه وشره ، فنفر الناس نفار الإبل إذا قعقع بين يديها بالشنان ، وهاموا على وجوههم في كل واد ، واعتصموا بالقرى والجبال .

ودخل العسكر المعرة ، وهي خاوية خالية ، وأطلق يده في النهب والاحراق ، حتى تركها صعيداً كأن لم تغن بالأمس ، وطمس ما أبقت الأيام من معالم مجدها وحضارتها ، وظل أهلها هاربين بضعة أيام ، ثم عادوا إليها فريقاً بعد آخر . وحدثني رجل من أهل قرية معرشورين أنه كان غلاماً حدَثاً ، فدخل الشونة [1] مع الناهبين ، ووضع في ثوبه أزراراً من أزرار الجند وأخذها .

وأخبرتني زوجة جدي ، وكانت من أوعى الناس للأخبار وأكثرهم استقراء لها ، وكانت ممن شهد الحادثة وفر مع الفارين : أن أهل المعرة حين أنذرهم النذير بقدوم العسكر ، حملوا ما استطاعوا من أعلاقهم وعقائل أموالهم ، وخبأوا غيره تحت الأرض ، وأن جمّاً غفيراً من أهل المعرة خبأوا أموالهم في محمية كانت في دار جدي « والمَحْمِيّة في اصطلاح أهل المعرة بناء تحت الأرض ، وقد يكون واسعاً ، وليس له إلا منفذ كالسرداب ، وليس له درج ينزل إليه منه ، وإنما يدلّى إليه

---

(١) سيأتي معناها (ج) .

بحبل ، والغالب أنه بناء قديم يعثر عليه فيفتح له منفـــذ ، يدخرون فيه ما يشاءون عند الفزع ، ويسدون منفذه فلا يهتدى إليه » .

وقد خبأ فريق من أهل المعرة أمتعتهم فيها ، ثم سدوا منفذها ، وفرشوه بالبلاط كبقية ساحة الدار ، فلم يهتد إليها الجند . ولما رحل الجند وعاد الناس إلى مواطنهم ، وجد أكثر هذه الأموال فاسداً من تأثير الماء والرطوبة التي في المحمية ، فكان عمل إبراهيم هـــذا في أهل المعرة ، كعمل نمروذ في ابراهيم ، آخذ الصالحين والشيوخ والأطفال والنساء عامة ، بما فعل السفهاء خاصة .

هذا ما سمعته من أهل المعرة من شيوخ شهدوا ذلك الحادث الفظيع ، وكهول رووه عن شيوخ غيرهم شهدوه .

وقد ذكر جد أبي محمد وابنه أمين : أن صورة نسبهم فقدت مع ما فقد حين نهبت المعرة سنة ست وخمسين ومائتين وألف للهجرة .

وقد رأيت في ديوان عم أبي السيد أمين بن محمد الجندي ، قصيدة يمدح بها السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود العثماني

ويذكر فيها شيئاً من أعمال المصريين في بلاد الشام وغيرها ، ويذكر جلاءهم عنها في شهر رمضان المبارك عام ستة وخمسين ومائتين وألف ، ويؤرخ ذلك في آخرها ، وقد ذكر فيها ما أصاب المعرة وأهلها ، وذلك حيث يقول :

قَصَدُوا المَعَرَّةَ بِالأَذِيَّةِ عِنْدَمَا ... سُكَّانُهَا لَبُّوا وَلَمْ يُبْدُوا قِلَى

فَوَشَى لَهُمْ مَنْ كَانَ فِيهَا عَامِلاً ... مِنْ نَحْرِهِمْ وَسَعَى بِنَا وَتَوَصَّلا

وَاللهُ أَدْرَكَنَا بِلُطْفٍ مُسْبَلٍ ... إِذْ جَاءَنَا لَيْلاً نَذِيرٌ أَوَّلا

فَوْراً خَرَجْنَا لِلْجِبَالِ بِأَهْلِنَا ... مَشْياً وَغَادَرْنَا المَتَاعَ مُكَمَّلا

فَتَرَى الذَّرَارِي وَالنِّسَاءَ بَوَاكِياً ... وَالنَّاسَ مِنْ خَوْفِ الفَضِيحَةِ جُفَّلا

فَأَتَوْا بِشِرْذِمَةٍ وَأُخْرَى بَعْدَهَا ... كُلٌّ عَلَى إِهْلاكِنَا قَدْ عَوَّلا

دَخَلُوا المَدِينَةَ وَهْيَ خَالِيَةٌ فَلَمْ ... يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا سِوَى مَا أَثْقَلا

فَرَمَوْا بِهَا النِّيرَانَ حَتَّى أُحْرِقَتْ ... وَغَدَتْ بَلاقِعَ وَاكْتَسَتْ ثَوْبَ البِلَى

حَرَقُوا الشُّيُوخَ وَلَمْ تَرِقَّ قُلُوبُهُمْ ... وَهْيَ الحِجَارَةُ بَلْ أَشَدُّ عَلَى المَلا

فَأَتَى العَبِيدُ لِيَنْظُرُوا مَا حَلَّ فِي ... أَوْطَانِهِمْ وَجَدُوهُ أَمْراً مُشْكِلا

فَالمَالُ أُتْلِفَ ثُمَّ لَمْ نَعْبَأْ بِهِ ... بَلْ بِالمَسَاجِدِ وَالمَقَامَاتِ العُلا

أَمَّا المَصَاحِفُ رَأْيَ عَيْنِي فَوْقَهَا ... مَالاَ يَفُوهُ بِهِ اللِّسَانُ تَنَزُّلا

بَطَلَ الأَذَانُ مَعَ الجَمَاعَةِ مُدَّةً بَلْ أَفْطَرُوا رَمَضَانَ مِنْ عِظَمِ البَلاَ

اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا لَمَصَائِبٌ في وَقْتِهَا ظَلَّ اللِّسَانُ مُحَوْقِلاَ

وَقَدِ انْجَلَوا عَنْهَا وَسَارُوا جَحْفَلاً لا سَلَّمَ الرَّحْمٰنُ ذَاكَ الجَحْفَلاَ

ولما دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، مدحه الشيخ أمين بن خالد الجندي الحمصي بقصيدة مطلعها :

عَرِّجْ أَخَا البَأْسَاءِ نَحْوَ بَنِي العُلا وَالثُمْ ثَرَى أَعْتَابِهِمْ مُتَذَلِّلاَ

وقد مدح فيها ابراهيم باشا ، وذكر طرفاً من أعماله ، وذم الأتراك ، وذكر جملة من أعمالهم المذمومة .

فلما فعل ابراهيم في البلاد الشامية ما فعل ، نظم عم والدي السيد أمين بن محمد الجندي هذه القصيدة التي قدمنا أبياتاً منها ، ومدح بها السلطان عبد المجيد العثماني ، وذم ابراهيم ، وذكر طائفة من أعماله الجائرة .

والقصيدتان متفقتان في الوزن والقافية ، والأولى منها تضمنت مثالاً سيئاً من أعمال الترك في البلاد السورية ، والثانية تضمنت مثالاً سيئاً من أعمال ابراهيم باشا وجنوده المصريين فيها ، فقاتل الله الفريقين ، وجازى كلا منهما بما يستحقه .

وقد ذكر في (إعلام النبلاء) كثيراً من أعمال ابراهيم باشا ، منها : أنه طرح ضريبة على كل واحد ، وسماها إعانة الجيش على الحرب ، ورتب على أنواع الحبوب فريضة سماها بالشون . وجرد المسلمين من الأسلحة ، وأنه طلب أولاد الأعيان ليجعلهم جنداً له يدرأ بهم عن البلاد كل عادية ، وأنه كان مسرفاً في القتل ، وسرد جملة من أعماله [1] .

وذكر في (نهر الذهب) [2] جملة من أعماله ، وتجنيده الصغار والكبار ، وتسخيره الناس في الأعمال الشاقة ، ونحو ذلك من المنكرات والفظائع ، وما ترتب عليها من المضار والمفاسد الخلقية وغيرها .

ومما لا ريب فيه أن المعرة شاركت غيرها من البلاد الحلبية في هذه الكوارث ، وأصابها منها طل ووابل .

وكانت الحكومة العثمانية حين خرج ابراهيم باشا إلى بلاد الشام وقبل ذلك ، ترهق أهلها ضروباً من العسف والخسف وكان المتغلبون عليها من الولاة والعمال يذيقونها أنواعاً من العذاب ، واستصفاء الأموال ، وخراب العامر وابتزاز الأموال

---

(١) راغب الطباخ : إعلام النبلاء ٣ : ٤٢٤ فما بعدها (ج) .

(٢) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٣٦١ فى بعدها (ج) .

بطرق شتى ، وقد وصف الشيخ أمين الجندي الحمصي شيئاً من أعمالهم في القصيدة السابق ذكرها التي يمدح بها ابراهيم باشا وأباه ، ويهنئه بفتح الشام ، منها قوله :

سَلَبُوا البِلادَ مِنَ العِبَادِ فَلَنْ تَرَى ... فِي حُكْمِهِمْ ذَا نِعْمَةٍ مُتَمَوِّلاَ

وقوله :

واللهُ غَيَّرَ مَا بِهِمْ مِنْ نِعْمَةٍ ... لمَّا تَغَيَّرَ حَالُهُمْ وَتَبَدَّلاَ

وَقَدِ اسْتَبَاحُوا المُنْكَرَاتِ فَلاَ تَسَلْ ... عَمَّا تَوَقَّعَ مِنْهُمْ وَتَحَصَّلاَ . .

ومنها قوله :

وَقُضَاتُهُمْ لِلسُّحْتِ قَدْ أَكَلُوا فَهَلْ ... أَبْصَرْتَ حَيًّا مِنْ مَضَرَّتِهِمْ خَلاَ

نَبَذُوا الشَّرِيعَةَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ ... وَطَغَوْا وَزَادُوا فِي الضَّلاَلِ تَوَغُّلاَ

وَمَشَايِخُ الإِسْلاَمِ أَصْبَحَ عِلْمُهُمْ ... جَهْلاً فَلَمْ تَرَ قَطُّ مِنْهُمْ أَجْهَلاَ

ثم ذكر البلاد الشامية التي افتتحها ابراهيم وذكر ما وقع فيها من المعارك والأعمال حتى قال :

وَإِلَى حَمَاةَ الشَّامِ سَارَ وَبَعْدَهَا ... لِمَعَرَّةِ النعمانِ يَخْتَرِقُ الفَلاَ

وَغَدَا يُجِدُّ السَّيْرَ فِي آثَارِهِمْ ... بِمَوَاكِبٍ وَكَتَائِبٍ لَنْ تَعْطَلاَ

حَتَّى أَتَى حَلَباً فَلَمْ يَرَ مِنْهُمُ ... إِلاَّ طَرِيحاً أَوْ جَرِيحاً مُبْتَلَى

ولما كان محمد نجيب باشا مشيراً في الشام ، وردت أوامر التنظيمات الخيرية إلى معرة النعمان ، وكانت توليته سنة ١٢٥٧ ﻫ فتليت في الجامع الكبير العُمري على الناس ، وقد عهد بتبليغها إلى السيد أحمد أبي المواهب المالكي ، والسيد أحمد الجيلاني ، وهذا بلغها أهل المعرة ، وقد ذكر هذه الحادثة السيد أمين الجندي في قصيدة مطلعها :

سَحَرَ العُقُولَ بِلَحْظِهِ الفَتّانِ ... وَنَضَا مِنَ الأحْدَاقِ سَيْفَ يَمَانِ

وفيها يقول في مدح السلطان عبد المجيد :

عَبْدُ المجيدِ بِمَجْدِهِ سَارَتْ إلى ... أَقْصَى البِلَادِ مَدَائِحُ الرُّكْبَانِ

نَزَعَ البِلَادَ مِنَ الخَوَارِجِ عَنْوَةً ... وَأَقَرَّ أَعْيُنَ عُصْبَةِ الإِيمَانِ

ويقول في المشير محمد نجيب باشا :

وَحَبَا دِمَشْقَ بِعَامِلٍ مَا إنْ لَهُ ... في عِقْدِ أَرْبَابِ الوَزَارَةِ ثَانِ

وَهُوَ النَّجِيبُ مُحَمَّدٌ زَاكِي الحِجَا ... وَمُجَنْدِلُ الأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ

ويقول في الأوامر والتنظيمات الخيرية وقراءتها في المساجد :

تُلِيَتْ جِهَاراً فِي الجَوَامِعِ لِلْوَرَى ... بِمَرَاسِمِ التَّعْظِيمِ وَالإِيمَانِ

ويقول فيمن تولّى ذلك :

وإلى حَماةَ وحِمصَ ثُمّ مَعرّةِ النْـ.. نُعْمانِ كانَ سَفيرُ هذا الشانِ

المالكيُّ أبو المواهِبِ أحْمَدٌ وَالجَهْبَذُ البَدْرُ الجَليلُ الثاني

وَاللهُ خصَّ مَعَـرّةَ النعمانِ بالبَدْرِ المُنيرِ سَميّهِ الجيلاني

وفي أنّ كلاً منهما اسمه أحمد :

هذا لَعَمْرُكَ خَيْرُ فألٍ جاءَنا بِالأحْمَدَيْنِ فَقُلْ هُما بَدْرانِ

وفي سنة ١٢٦٠ ﻫ نزحت جماعة من الفلاحين في بلاد حماة والمعرة عن قراهم ، فأصدر علي رضا باشا والي ايالة الشام أمراً إلى جد والدي محمد ، وكان مفتياً بالمعرة ، وإلى ولده أمين ، وكان قاضياً فيها أن يذهبا إلى حلب ومعهما خليل آغا رئيس جردة عساكره لاسترجاع الفلاحين النازحين فمكثوا شهراً ، وقد استطاعوا أن يرجعوا فريقاً من النازحين ، فجعل خليل آغا متسلما للمعرة .

وبالنظر لصعوبة طبعه وقع بينه وبين المفتي محمد الجندي نفار شديد ، واشتكى إلى الوالي المذكور ، فطلب المفتي إلى الشام ، وفي أثناء غيابه في الشام فر سكان القرى في المعرة ،

فعزل خليل آغا من المتسلمية ، وعين بدلاً منه عبد الله بن حسين ابن عثمان بن عبد الرزاق بن محمد الجندي الحمصي أحد القبوجي باشية للباب العالي ، وكان ابن اخت المفتي محمد المذكور ثم عاد المفتي إلى المعرة ، وحضر ابن أخته المتسلم بعده وكان دخوله المعرة في اليوم الخامس من شوال سنة ١٢٦١ هـ .

وكان عبد الله حديث السن ، وكان في طبعه صعوبة بقدر ما كان في طباع أهل المعرة من الصعوبة ، وأراد أن يسلك بالناس طريقة عادلة ، فتنكرت له خصومه ، واستثاروا عليه الدهماء والرعاع ، وحصروه في بيت خاله يوماً كاملاً ثم اضطروه إلى الخروج من البلدة قهراً .

ثم خرج في إثره مفتي المعرة المذكور ، ونقيب الأشراف فيها ، واجتمعا به خارج المدينة ، وازداد تعصب الناس على قاضي المدينة أمين ابن مفتيها ، وكتبوا شكايات إلى الوالي ذكروا فيها ما شاءوا ، ونسبوا إليه من الأعمال ما أحبوا ، ثم كلفوا القاضي أمين الجندي أن يوافقهم على ذلك ، فخرج من المعرة يوم الاثنين التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦١ هـ

وأراد اللحاق بأبيه وبالنقيب والمتسلم ، وذلك بعد خروجهم بستة عشر يوماً ، وبات تلك الليلة في قرية كفر زيتا ، وفي اليوم الثاني صلى بهم صلاة العيد وذهب إلى حماة ، ثم إلى حِمْص ، ثم طلب إليه أبوه ونقيب المعرة أن يذهب إلى دِمَشْق ، فدخلها في اليوم الثامن والعشرين من ذي الحجة واجتمع بواليها علي باشا الكوتاهيه‌لي ، وكان هـذا قد طلب خصوم المفتي والقاضي وجماعتهما من أهل المعرة ، فحضروا ودفعوا أموالاً جزيلة رشوا بها الحكام ، ثم سعوا لعزل المفتي والقاضي من منصبيهما ، وصدرت إرادة سنية باقامتهما في دمشق ، وأن لا يخرجا منها بدون فرمان عال من السلطان وبقيا فيها حتى صدر فرمان باطلاق سراحهما في غاية المحرم سنة ١٢٦٣ هـ ، فخرجا من دمشق في اليوم الرابع والعشرين من صفر من السنة المذكورة ، ودخلا المعرة في غرة ربيع الأول ، ثم أعيد كل منهما إلى منصبه السابق ، فكان الأب مفتياً والابن قاضياً ، وسيأتي تفصيل ذلك في ترجمتيهما .

وفي سنة ١٢٦٤ هـ ولت الحكومة الحاج أحمد بك بن نصوح

باشا مديرية حماة وحمص والمعرة . وقد مدحه السيد أمين الجندي بقصيدة أرّخ فيها ذلك بقوله :

لَكَ الحَمْدُ يا ذا الجودِ لا زالَ سَرْمَدا

والقصيدة موجودة في ديوانه الخطي المحفوظ في مكتبتي ومطلعها:

جَبِينُكَ أَمْ نُورُ الصَّباحِ لَنَا بَدَا   ولَحْظُكَ أَمْ سَيْفٌ لِقَتْلي تَجرَّدَا

وفي سنة ١٢٦٥ ه طبعت الحكومة العثمانية القانون السلطاني المبين فيه دخول ذوي الأسنان العسكرية إلى القُرْعَة من المسلمين القاطنين في الممالك السلطانية ، وقد سمته في آخره التعرفة في بيان القرعة العسكرية .

وقد رأيت بخط جدي سليم بن محمد الجندي على صفحة من آخر التعرفة المذكورة جملة خلاصتها أنه يقول : قد تسلمت هذه التعرفة في مدة ولايتي الفتيا في معرة النعمان ، وذلك في ٢٠ رمضان سنة ١٢٦٦ ه ، وكان محمد سعيد باشا والياً في الشام ، وكان قائم مقام المعرة في وقت تسلمه التعرفة المذكورة عثمان بك محمد باشا انجي بيرقدار زاده ، ثم ختم ذلك بخاتمه الرسمي .

وكتب على الوجه الثاني من جلد التعرفة المذكورة جملة يبين فيها أن الذي أخذ من المعرة للصنف العسكري في سنة ١٢٦٦ هـ ستة عشر رجلاً منهم ستة من المحلة الشمالية، وعشرة من المحلة القبلية، وقد ذكر أسماءهم جميعاً وأن ذلك تم عن يد المأمور بها مصطفى باشا ومحيي الدين أفندي مميز الطلبة.

ورأيت بخطه على جلد التعرفة الأخير جملة يقول فيها: في السابع من ربيع الأول سنة ١٢٦٧ هـ جاءه الشيخ يوسف الشَّحْنة وبيده مراسلة قضاء المعرة، وكان إذ ذاك السيد محمد ابن عبد الله العلوان منصوباً وكيلاً بعد وفاة ابن عمه السيد حسين العَلْوان، فبرز جميع أهل المعرة ومنعوا الشيخ يوسف ونزعوا المراسلة من يده، ودفعوها إلى السيد محمد العلوان شفقة عليهم لئلا يغلق قوناقهم «وهو المحل المعد لنزول الضيوف» لأنهم جماعة فقراء أصحاب عيال.

وفي سنة ١٢٧٠ هـ دخلت سكاير الدخان أي اللفافات وكان الناس قبلها يستعملون الدخان بالغليون الذي له قصبة وكانوا يتنافسون في الغليون كما يتنافسون في القصبات

فيتخذون الغليون من فخار ، ويتخذون القصبات من ياسمين وأبنُوس وغيرهما ، ويسمونها أمزك ، ويجعلون في رأسها قطعة من الكهرباء الجيد ، وقد تكون قدر بيضة الدجاجة ، ويغالون في ترصيعها وتزيينها بالفضة والذهب والماس والفيْرُزَج وغيرها وقد أنكر الناس استعمال اللفائف أولاً ، ثم ألفوه لخفة مؤونته وحمله ، وهجروا الغليون وما يتعلق به .

وفي سنة ١٢٧١ هـ جاء إلى حلب بزر البندورة ، وتسمى الطماطم ، وزرع فأثمر ، وكان الناس يأكلونه ما دام أخضر فاذا احمر أنفوا من أكله ، ثم ألفوا أكله بعد احمراره وافتنوا في أكله واتخاذ عصير منه واتخاذ دبس أيضاً ، وقلما خلا طعام فيه خضر أو لحم من البندورة ، ودرج أهل المعرة على آثار الحلبيين في ذلك .

وفي سنة ١٢٧٦ هـ وضع نظام البرق في الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ وضع نظام البريد ، وكان بريد الحكومة قبل ذلك بواسطة السُّعاة والنجابين . وقد سمت الحكومة العثمانية

الأول تلغرافاً ، والثاني بوستة ثم استعمل الناس كلمة البرق بدلاً من تلغراف ، وكلمة بريد بدلاً من كلمة بوستة ، وذلك بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ هـ .

وفي المعرة مركز للبريد والبرق ، ولكني لا أعلم على التحقيق في أية سنة أنشأتهما الحكومة .

وفي سنة ١٢٨٠ هـ دخل البترول ومصابيحه مدينة حلب ، وكانوا يسمونه الكاز أو الغاز ، ويقال لمصباحه لَمْبَة ، ومن عادة المعرة أن تحتذي على مثال حلب في كل شيء ، وكان الناس يخشون من استعماله على صدورهم أن تتأذى برائحته ، ويخافون على أبصارهم من شدة نوره .

ثم اقتصروا عليه ، وهجروا ما كانوا يستصبحون به من الشمع والزيت والشحم ، واستغنوا عن السراج والقنديل والفنار وغيرها من أدوات الاستصباح .

وفي (نهر الذهب)[1] في سنة ١٢٨٤ هـ أعلنت الدولة العثمانية النَّفير العام في بلادها لمحاربة روسيا ، وحشدت عساكر من جميع بلادها ، ومنها المعرة .

---

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٠٤ .

وفي سنة ١٢٨٦ هـ ألحقت معرة النعمان بولاية حلب وكانت قبلاً ملحقة بولاية دِمَشْق مضافة إلى حماة.

وقد ذهب إليها والي حلب يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول من السنة المذكورة ، فرتب أمورها وطاف في قراها .

وفي سنة ١٢٩٦ هـ أعلنت الحكومة التركية النفير العام في البلاد العثمانية لمحاربة الروس ، وهـذه الحرب المعروفة بحرب القرم والقريم ، وقد كانت الغلبة فيها للدولة العثمانية وحليفتها انكلترا وفرنسا ، وقد عاد المتطوعون بعد ستة أشهر .

وفي شهر رمضان من سنة ١٣٠٨ هـ كان رجل يحرث أرضاً على مقربة من مزار أو مسجد الشيخ حمدان في شرقي المعرة ، فاستعصت سكة الحرث ، وأخذ يعالج إخراجها ، فوجدها داخلة في طرف حجر كبير منحوت ، فأخبر صاحب الأرض بذلك، فأخذ يكشف التراب عن هذه الحجر ، فسقطت وسقط معها عدة أحجار مثلها ، وهي كلها مربعة مستطيلة ، طولها أكثر من أربعة أمتار ، وعرضها دون المتر ، فكشف عنها التراب ، وأخرج الردم ، فانحسر عن باب من الحجر الأسود

المحفور عليه نقوش وكتابة لم تمكن معرفتها ، وإذا في داخله غرفة كبيرة تحت الأرض منقورة في الصخر ، سقفها وأرضها وجدرها من صخرة واحدة ، وعلى سقف الباب وكثير من الأحجار أنواع من الرسوم ، وفي صدر الغرفة مقابل الباب قبران محفوران في الصخر ، وعن يمين الداخل قبران ، وعن يساره قبران ، كلها منحوتة من صخرة الجدار ، وعلى كل قبر غطاء من الحجر على قدره ، لا زيادة ولا نقص ، وبين الصندوقين المقابلين للباب عمود من الحجر قطعة واحدة مطوق من طرفيه بطوق معدني ، وبقرب العمود كوزان من الحجر ، متصل بعضهما ببعض ، ويقال : إن أصحابها أخرجوا ما في القبور من عاديات وحلي .

وأهل المعرة يسمون القبور المحفورة في الصخور خَشْخاشة ومنهم من يسميها ناووساً إذا كان فيها قبر أو قبران .

وفي أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨ هـ عاد إلى المعرة داء الهَيْضَة «الكوليرا» ، وضُرب عليها الحِجْر الصِّحّي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى أواخر صفر

لجهل الناس بمداواته ، وبأسباب التوقي منه ، وجهل الحكومة وقلة عنايتها بذلك .

وفي هذه السنة جمعت أموال من أهل الحمية والغيرة ، ورُمّم المسجد الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز في القرية المسماة بالدير الشرقي من عمل المعرة .

وفي رمضان سنة ١٣١٠ هـ منع قاضي المعرة ابراهيم الصُّوفي اللاَّذِقي الناس من الصعود إلى منارة الجامع الكبير وقت أذان العصر مع المؤذنين ، وكان من العادة أن يصعد إليها فريق من الشباب في ذلك الوقت في رمضان للتسلي ، فحظر عليهم ذلك مدعياً أنهم يشرفون على مقر نسائه في داره القريبة من المسجد فلم يمتنعوا ، وقالوا : لنا أسوة بالمؤذنين ، وفي وسع النساء أن يمكثن في غرفهن حتى ينتهي الأذان ، فأحضر قوة من الجند ، وكان هذا الجند ضبطية ، والعامة تقول ظبطية بمعنى درك في هذا العهد ، ووقفوا على باب المنارة ليقبضوا على غير المؤذنين ، فجعل الناس يلقون بأنفسهم من نوافذ المنارة على سطح السوق المتصل بها من الغرب والجنوب ، حتى ضاقوا ذرعاً بذلك ، وأصيب بعضهم برض أو كسر في رجله ، فثار عليه الناس

وقت الصلاة ، وهموا بالإيقاع به ، فترك الجامع وفر إلى دار الحكومة ، فاحتمى بها وحمته الجنود ، وتبعه الناس إليها ، ولكنهم لم يتمكنوا من ضربه وقتله ، وانما ملؤه سباً وشتماً ، وكنت ممن شهد ذلك وتبعه إلى دار الحكومة .

وفي سنة ١٣١١ هـ [١] سعى الشيخ أبو الهدى الصيّادي لدى الحكومة ، فبنى مسجداً وتكية في قرية حيش من عمل المعرة وزعم أن موضعها مرقد لأحد أجداده المسمى علي من آل خزام .

وفي سنة ١٣١٢ هـ تفشّى مرض الجدري [٢] في المعرة ، وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمي كثيرون بسببه لفقد الأطباء .

وفي سنة ١٣١٤ هـ [٣] فرضت الدولة العثمانية على المملكة إعانة ، سمتها إعانة التأسيسات العسكرية ، فأصاب قضاء المعرة (١٧٣٧٥٠) درهماً ، وهذه الاعانة لتستعين بها على حرب اليونان في السنة المذكورة ، وكانت الحكومة تفرض من حين

---

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٣ (ج) .

(٢) في الصحاح للجوهري ١ : ٢٩٥ : والجدري بضم الجيم وفتح الدال والجدري بفتحها لغتان .

(٣) كامل الغزي : نهر الذهب ٣ : ٤٢٧ (ج) .

إلى آخر ضرائب تسميها بأسماء مختلفة ، منها إعانة المعابد الاسلامية وإعانة مهاجري كريد .

وفي سنة ١٣١٥ هـ كثر الثلج والبرد في المعرة ، واشتدت وطأته فيها .

وفيها أو في سنة ١٣١٦ هـ حدث زلزال عظيم في المعرة ، سقط بسببه بعض الدور ، وبات الناس في قلق عظيم أياماً لتكرر الزلزال فيها ، ولم يحدث ضرر في النفوس .

وفي سنة ١٣١٧ هـ قتل أمير من أمراء الموالي يقال له : عزّو قتله الجند ، وكانت وطأته قد اشتدت على الناس ، واستطار شره على القاصية والدانية ، فكان يأتي القرية ، فيأمر شيخها أن يقدّم إليه ما يطلب من ملبس وقهوة وحنطة وشعير وغير ذلك ، فاذا امتنع أو تأخر أصلى القرية ناراً حامية ، وقتل من وقع عليه بصره من انسان أو حيوان ، وقد أرسلت الحكومة قوى متعددة للقبض عليه فلم توفق ، لأنه كان يدبر المكلف بالقبض عليه ويرضيه حتى يدعي أنه لم يره أو لم يجده . ثم تعقبته قوة في قرية الحيصة من عمل حماة ، وأمنه قائدها ، فاستسلم إليه ، فقاده إلى حماة ، حتى إذا كان بالقرب من مكان يقال

له : الدّفاعي ، قتله ورمى بغلاً للجند برصاصة في رجله ، وادعى أنه عصى على الجند وحاربهم ، فأصاب بغلاً لهم فقتلوه ، وهـــذا القائد كانت الحكومة أنفذته مع قوة من الجند ، ليقبض على الأمير المذكور في البادية ، فامتنع عن الاستسلام ، ووقعت بينه وبين القائد المذكور معركة شديدة ، انتهت بانهزام القائد وجنده ، وتبعه الأمير ورجاله إلى أبواب حماة ، ولذلك احتال عليه هذه المرة ، وأمنه بواسطة مختار القرية الذي نزل عنده ضيفاً ، فأخبر الحكومة بذلك ، فأرسلت القائد مع جند ، ولكن لباسهم غير لباس الجند ، فهجموا عليه وهو لا يشعر ، وقد كان نزع سلاحه ، فلم يسعه إلا الاستسلام للقوة ، فأمنه القائد ، ثم قتله كما قلنا .

وقد كان قتله راحة لاقليم حماة والمعرة وحلب ، لأنه كان يسلب قراها طوعاً وكرهاً ، ويأخذ أتاوات غير محددة بمقدار أو زمن ، ويستخف بأشراف البلاد وأصحاب القرى ورجالها .

وفي سنة ١٣٢٠ هـ تفشى الهواء الأصفر في دمشق ، فأنبأت حكومة حلب بذلك ، فأرسلت ضابطاً مع قوة من الجند الدّرَك ، إلى كل موضع من حدود ولاية دِمَشْق ، وهي قرية خان

شيخون ، والهبيط ، وقلعة المضيق ، والحمراء ، لتكون تحت إمرة الضابط . ثم فُتح في خان شيخون مَحْجَر صِحّي ، فيه أطباء وأدوات للتبخير والتعقيم ، وفحص من يمر من ولاية دمشق إلى ولاية حلب ، وضرب على بقية القرى المذكورة النطاق الصحي . وفي شهر شباط من السنة المذكورة ذهب هذا المرض من دِمَشْق ، وأزيلت الحواجز والمحاجر من الأماكن المذكورة .

وفي هذه السنة عملت الحكومة احصاء للمولودين والمتوفين في ولاية حلب ، فكان عدد المولودين في المعرة ٣٦٦ ، والمتوفين ١٩٠ .

وفي سنة ١٣٢٣ ﻫ فرضت الحكومة ضريبة جديدة اسمها ويركو شخصي ، فطرحت على كل رجل بالغ مقداراً من المال ، بقدر يُسْره وعسره ، على أن لا تقل عن خمسة عشر قرشاً في السنة إلى مائتين .

وفرضت على كل موظف في أعمالها ، أن يحسم عن كل سنة مقدار راتب يومين ، إن كان راتبه لا يتجاوز خمسمائة قرش ، فان تجاوز يحسم مقدار راتب أربعة وعشرين يوماً ، فامتنع أهل أرض الروم عن دفعها ، وهجموا على الوالي وأهانوه ،

فخافت الحكومة أن يستشري الشغب ، ويعم البلاد كلها ، فأصدرت أمراً بابطال هذا المكس .

وفي هذه السنة ١٣٢٣ هـ اتفقت الحكومة العثمانية ، وشركة سكة حديد حماة وحلب [1] ، التي شرعت في مد الخط الحديدي ما بين حماة وحلب ، على أن تدفع الحكومة ثلاثة عشر ألف فرنك وستمائة وستة وستين فرنكا ، باسم تأمينات عن كل كيلو متر ، والمسافة ١٤٣ كيلو متراً .

وفي هذه السنة اشتدت وطأة الجراد في المعرة وغيرها من أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٢٤ هـ تم مد الخط الحديدي بين حلب وحماة ، واحتفلت الحكومة بذلك في محطة حلب في ١٦ شعبان من السنة المذكورة ، وقد ذهب هذا الخط من حماة إلى حلب في البادية ولم يمر بالمعرة لأسباب كثيرة ، من أعظمها : جهل الحكومة بما هو أصلح لها وأنفع لبلادها ، ومنها : أن الخط في هذا الطريق يمر على قرية لأخي أبي الهدى الصيّادي ، وقرى لبعض

(١) انظر تفصيل ذلك في نهر الذهب لكامل الغزي ٣ : ٤٦٣ ، ٤٦٤ .

أعيان حماة والمعرة وحلب ، ولو مر بالمعرة لأبعد عن تلك القرى ، وحرم أصحابها الفائدة التي يتوقعونها من مروره ، مع أن الفرق بين الطريقين قليل من حيث المسافة ، ولو مر بالمعرة لمر على قرى كثيرة ومزارع متعددة ، وأحيا هـذه المدينة ، وجعلها من أمهات المدن الشامية .

وفي سنة ١٣٢٦ هـ أُعلن الدستور العثماني .

وفي سنة ١٣٢٧ هـ في السابع من شهر ربيع الأول خلع السلطان عبد الحميد الثاني ، وخلفه أخوه محمـد رشاد . وابتهج الناس وظنوا أنهم خلصوا من جور عبد الحميد وعماله ولكنهم لم يلبثوا أن بكوا على عبد الحميد وأيامه ، لأنهم رأوا في كل موظف اتحادي ألف عبد الحميد .

وقد أصاب المعرة نصيب وافر من عَسْف الاتحاديين وافتنانهم في النهب والسلب باسم الحكومة أو بطريق آخر .

وفي سنة ١٣٢٩ هـ اشتدت وطأة الثلج في المعرة وغيرها حتى وقف القطار عن السير بين حلب ودِمَشْق ، وسدت الطرق بين البلاد ، وارتفعت أسعار الوقود من الحطب والفحم ، ومات كثيرون من المسافرين في الطرق ، ودام ذلك أكثر من شهر

وزعم بعض المؤرخين أن نهر العاصي جمد على مقدار أربعة أذرع من جانبيه ، وأن الفرات جمد كله من بعض جهاته ، وأن كثيراً من الأعمدة الحجرية والحجارة والرُّخام في المساجد والآنية الزُّجاجية في البيوت تصدعت وتحطمت ، وأن البقول والخضراوات وأشجار التين والجَوْز والزَّيتون والرُّمان أتلفه الصقيع في كثير من الأماكن .

وفيها شبّت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية ، وانتهت سنة ١٣٣٠ هـ باستيلاء إِيطاليا على طَرَابُلُس الغرب ، وجزيرة رُودِس [١] ، وغيرها من جزر بحر إيجه .

وفي سنة ١٣٣٠ هـ ابتدأت حرب البلقان بين تركيا ودول البلقان : بلغاريا والصرب واليونان . ولم يبق لتركيا في البلقان إلا أدرنة وقرق كليسا .

وقد حشدت تركيا جيشاً كبيراً من أبناء العرب في البلاد الشامية ، وكان لأبناء المعرة حظ وافر من ذلك ، وقد أصابوا

---

(١) في معجم البلدان لياقوت ٢ : ٨٣٢ : رودس قال القاضي عياض : هو بضم أوله ضبطناه عن الصدفي والأسدي وغيرهما الا أن الخشني والتميمي فانه عندهما بفتح الراء ولم يختلفوا في الدال أنها مكسورة .

عناءً كبيراً من المشاق من تعب وبرد وجوع ، وزادهم ضِغثاً على إبّالة ما كانوا يرونه من الضباط والأمراء من الإهانة والقَسْوة والغِلْظة .

وفي سنة ١٣٣١ ﻫ سمحت الحكومة بأن تقبل الرفيعة (الاستدعاء) باللغة العربية في البلاد التي يكون أكثر أهلها عرباً ، وكذلك سمحت بالتدريس باللغة العربية في المكاتب التي في البلاد العربية .

وفيها صدر أمر بجعل الساعات على الزوال ، بدلاً من الغروب ، أي جعل الزوال مبدأً للتوقيت في جميع البلاد .

وفيها شرعت الحكومة تجد بجمع إعانة الأُسطُول في سائر بلاد الدولة العثمانية .

وفي ١٠ رمضان سنة ١٣٣٢ ﻫ الموافق ٢١ تموز سنة ١٩١٤ ميلادية أعلنت في حلب وملحقاتها الحرب العامة ، واشتركت الحكومة العثمانية فيها ، فكان نصيب المعرة من سوْق أهلها للجندية والاستيلاء على أرزاقهم وغلاتهم ، باسم الاعاشة والاعانة المختلفة الألوان ، نصيبَ بقية الأمصار الشامية ، وأصاب أهلها من الجوع والضغط والحميات وما شاكلها ما أصاب غيرها في

ذلك العهد ، وقد بلغني أن كثيراً من الأسر الكريمة في المعرة لم تطل أيديهم إلى خبز الشعير ، فكانوا يعيشون مما تنبته الأرض من البقول والنبات في الربيع ، ويدخرون منه للشتاء ، وكثير مَن ذهب ضحية الفقر والجوع .

وفي ١٢ رمضان أُعلنت الإدارة العرفية في حلب وملحقاتها وفي هذا الشهر بدأت الحكومة بأخذ الأموال من التجار ، باسم التكاليف الحربية بالقيمة التي تقدرها لجنة تسمى لجنة المبايعة ألفت لهذا الغرض ، فكانت تقدر قيمة البضاعة وتأخذها وتعطي صاحبها مضبطة بقيمتها ، على أن تدفع له بعد مدة غير معلومة . وكانت الضباط تطوف على مخازن التجار وتكتب ما عند كل واحد من بضاعة أو غلة لئلا يخفيها أو يبيعها .

وفي سنة ١٣٣٣ ﻫ وصل الورق النقدي العثماني المسمى بانق نوت ، ووضع موضع التداول بين الناس ، بدلاً من النقود المعدنية ، فأقبل الناس على تداوله ، ثم امتنعت إدارة حصر الدخان عن قبوله ، وكلفت الحكومة التجار أن تبدله بالذهب فأدى ذلك إلى هبوط قيمته ، حتى بيعت الورقة في آخر الحرب بأقل من عشر قيمتها .

وفيها فرضت الحكومة ضريبة سمتها إعانة نقدية ، باسم الكسوة الشتوية للجند ، واستمر جمعها إلى نهاية الحرب .

وفيها أجلت الحكومة العثمانية الأرمن عن بلادهم ، وفرقتهم على البلاد السورية ، وأقام في المعرة منهم فريق عظيم . وادعوا الاسلام ، فلما وضعت الحرب أوزارها ارتدوا إلى دينهم الأول .

وفي رجب سنة ١٣٣٤ ﻫ ومايس سنة ١٩١٦ م خنقت الحكومة العثمانية واحداً وعشرين رجلاً من زعماء الجمعية اللامركزية التي عقدت في باريس قبل أربعة أعوام مؤتمراً عربياً ، غايته إعطاء البلاد السورية الحكم اللامركزي تحت سيادة الدولة العثمانية ، قتلت منهم شنقاً أربعة عشر رجلاً في بَيْرُوت ، وسبعة في دِمَشْق .

وفي سنة ١٣٣٤ ﻫ ثار على الحكومة العثمانية الشريف حسين بن الشريف علي ، واستولى على مكة المكرمة ، وجُدّة ، والطائف ، ويَنْبُع ، وطرد الجيوش التركية منها .

وفيها شرعت الحكومة العثمانية باجلاء بعض الأُسر الكريمة من دِمَشْق ، من أقرباء زعماء الجمعية اللامركزية الذين خنقتهم شنقاً .

وفي سنة ١٣٣٥ هـ في اليوم السادس من المحرم نودي في مكة والبلاد الحجازية بأن الشريف حسين أمير مكة ، أصبح ملكا على البلاد العربية العثمانية .

وفيها أقر مجلس النواب العثماني توحيد أوائل الأشهر الشمسية الشرقية والغربيــة ، فاعتبر رأس السنة الشمسية الشرقية أول شهر كانون الثاني أسوة بالغربيين ، إلا أنه أبقى عدد السنين كما كان ، واعتبر أول سنة ١٣٣٣ الشرقية ابتداء من كانون الثاني ، واسقط ثلاثة عشر يوماً من كانون الأول ، وهي الفرق بين السنة الغربية والشرقية .

وبعد خروج العثمانيين من بلاد الشام ، جرت الحكومة العربية التي خلفتها على التاريخ الغربي الميلادي .

وفيها أصدرت الحكومة قانوناً ، يقضي بإلصاق طوابع على علب الكبريت (الثِّقاب) ودفاتر ورق السيكارة .

وقد قل المطر في هذه السنة أي سنة ١٣٣٥ هـ وخاف الناس من القَحْط والجَدْب ، ويئسوا من حياة الزرع ، فارتفعت أسعار القمح إلى درجة غير متوقعة ، وأعظم الأماكن التي كان

فيها المَحْل جهة الأَحصّ وقضاء المعرة . وكانت أواخر هذه السنة وأوائل السنة التي تليها أشد أيام الحرب على الفقراء حتى أنهم كانوا يقتاتون من الحشيش ، فيسلقونه ويأكلونه كما كانوا يأكلون قشور الفواكه والبقول وكل ما تنبت الأرض .

وكان تجار الحنطة والطحانون والخبازون ، يخلطون دقيق البُرّ بدقيق الشعير والذُّرَة البيضاء والصفراء والتُّرْمُس والنُّخَالة والترابُ والرماد وبزر المكانس وما أمكن خلطه، ويبيعون الخبز بأسعار باهظة وهو غير ناضج . وكان الجزارون يخلطون لحوم الحمير ونحوها بلحوم الغنم والبقر .

وكانت الأزقة والمنازل تعج بالأنين والبكاء من الجوع من الاطفال والكهول والشيوخ ، وكانت بعض الطرق تغص بالموتى من الجوع ، يجري هذا كله والتجار والمحتكرون يحملون قلوباً كالحجارة ، بل هي أشد قسوة ، فلا ترثي لشاك ، ولا ترق لباك ، ورجال الحكومة شركاء المحتكرين في القَسْوَة ، وشركاؤهم أيضاً في طلب السعادة من شَقْوة الناس ، والتماس الشبع من جوعهم ، فيتعامون عن هذه المشاهد المؤلمة ، ويتصامّون عن سماع تلك الأنات المحزنة .

وبمثل هذه الفصول المزعجة المخزية ابتدأت هذه الحرب ، وبمثلها اختتمت ووضعت أوزارها ، وبمثلها مرّ ما مرّ من الأيام السود بين أولها وآخرها ، وبمثلها انتهت أيام الدولة العثمانية .

وقد قوض الله دعائم هذه الدولة الجائرة ، وطوى سجل أعمالها على مثل المخازي التي دونت في أول صحيفة من حياتها .

وفي سنة ١٣٣٦ ﻫ اشتد الغلاء والقحط على ما ذكرنا ، وزاد على ما كان في السنة السابقة .

وفي هذه السنة في ٢٤ رمضان توفي السلطان محمد رشاد الخامس ، وتبوأ السلطان محمد وحيد الدين عرش السلطنة العثمانية بدلاً منه .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ ﻫ استولت على دمشق عرب الشريف حسين ، الذين هم مقدمة جيش بريطانيا ودخل الجيش البريطاني والعربي أول تشرين الأول سنة ١٩١٨ م ، وقد رحل عنها معظم رجال التُّرْك من موظفين وعسكريين قبل ذلك .

وفي اليوم العشرين من المحرم دخل الجيش العربي مدينة حلب يرأسه الشريف مطر نائب الشريف فيصل ونزل في دار الحكومة ، وتيقن الناس أن ظل الحكومة التركية تقلص عن بلاد الشام .

وفي يوم ٢١ منه وصلت إلى حلب الجنود الانكليزية ، على اختلاف أنواعها من فرسان ومشاة ، واختلاف أديانها وأنواعها . وقد مر العرب والانكليز بالمعرة في طريقهم إلى حلب .

وفي يوم الثاني والعشرين منه وصل إلى حلب الشريف ناصر وكيل الشريف فيصل ، وبعد وصوله بيومين ألف مجلس شورى لينتخب الدرك والشرطة أولاً ، ثم ينتخب موظفين لأعمال الحكومة ، وكان عدد أعضائه اثني عشر عضواً فانتخبوا كامل باشا القدسي رئيساً لهم ، ثم انتخبوا الموظفين .

ثم عين شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على حلب من قبل حكومة دمشق ، وعين كامل باشا القدسي قائداً عاماً وحاجباً فخرياً لملك العرب .

وفي اليوم السادس من صفر وصل الأمير فيصل إلى حلب ، ومعه الوفد الذي صحبه من دمشق ، والوفد الذي ذهب إلى حماة لاستقباله .

وأول شيء فعله هو حل مجلس الشورى ، لما بلغه عنه من سوء إدارته ، وأمر أن تؤلف لجنة من كبار الموظفين في الحكومة .

وفي اليوم الثامن منه حضر فيصل في موكب حافل إلى نادي العرب ، فجلس في مكان أعد له فيه ، وصار الناس يتقدمون إليه زمرة بعد زمرة ، يبايعون أباه على أن يكون ملكا للعرب .

ثم بعد أن أخذ البيعة لأبيه ، قام إلى مكان آخر أعدّ له ، وسمع أقوال الشعراء والخطباء ، ثم خطب في الجمع خطبة ذكر فيها ما وقع بين والده وبين التُّرْك ، وذكر الأسباب التي ألجأته إلى الخروج عليهم ، وما وقع بينه وبين دول الغرب من المحالفات والعهود ، وما حدث منهم من المساعدات المادية والمعنوية ، ثم حضّ على التمسك بأهداب الوحدة

والمحافظة على الاستقلال ، وطلب منهم أن يعنوا بحفظ الأمن وترقية المعارف ، وكانت هذه الخُطْبَة جامعة لكل ما ينوي عمله من وجوه الاصلاح ، ومن الوسائل التي تحفظ استقلال الأمة وتعلي شأنها بين الأمم .

وفي اليوم العاشر من صفر وردت إلى فيصل برقية تقضي بشخوصه إلى مكة المكرمة ، ليقابل والده فيها ، ثم يذهب إلى باريس ليمثله في مذاكرات الصلح ، فذهب فوراً .

وفي ٢٩ رجب من سنة ١٣٣٧ هـ و ١٩ نيسان سنة ١٩١٩ م عاد من أوروبا ، فوصل إلى بَيْروت في اليوم المذكور ، وشخص إلى دِمَشْق .

وفي يوم ١٢ رمضان وصل إلى حلب الأمير فيصل قادماً من دمشق في القطار ، ونزل في الدار المعـــدة لنزوله في محلة العزيزية .

وفي اليوم التالي أقام له نادي العرب حفلة حضرها الجمّ الغفير من الحلبيين ، وألقى خطاباً أشار فيه إلى أن الحلفاء الظافرين أرسلوا لجنة لتبحث عن رغائب السوريين في نوع

الحكم الذي يريدونه ، بعد جلاء الترك عن بلادهم ، وحضهم على التآلف والتكاتف ، والابتعاد عن كل ما يدعو إلى تفريق الكلمة ، والتمسك بالعروبة ، وتوحيد الكلمة والرأي ، ثم عاد إلى دِمَشْق .

وقد وصلت برقية من المارشال أللنبي ، يقول فيها : تصل إلى الشرق عما قريب اللجنة التي تبحث في الأمور المتعلقة بمستقبل سورية وفِلَسْطين والعراق السياسي ، وذلك بعد أن يكون المندوبون الأمريكيون قد تحقق سفرهم إلى هذه الأقطار وعندما تنتهي هذه اللجنة من فحص الحقائق المتعلقة بهذا الشأن يقدّم أعضاؤها رأيهم إلى مجلس الدول المتحالفة العظمى ، فيقرر المجلس الأمر تقريراً نهائياً .

وفي اليوم السادس عشر من رمضان اجتمع في دار الحكومة في حلب المنتخبون الثانويون ، وانتخبوا أعضاء ليمثلوا حلب وملحقاتها في المجلس العمومي ، والمؤتمر السوري الذي تقرر اجتماعه في دمشق .

وفي اليوم التاسع من شوال دعا الأمير فيصل أعضاء المؤتمر

السوري إلى النادي العربي في دِمَشْق ، ولما اجتمع الأعضاء خطب فيهم خطبة بيّن فيها أن الغرض من اجتماع المؤتمر تمثيل الامة السورية أمام اللجنة الامريكية ، وإيضاح مطالب السوريين لتقدمه اللجنة إلى مؤتمر السلام ، ووضع قانون أساسي يكون دستوراً لأعمال الأمة في المستقبل .

وبعد مدة يسيرة اجتمع أعضاء المؤتمر وقرروا أن يكون جوابهم واحداً إلى اللجنة الامريكية ، وهو عبارة عن طلب الاستقلال التام لسورية بجميع حدودها الطبيعية المعروفة وعدم تجزئتها ، ورفض كل حماية ووصاية عليها ، ومنع الهجرة الصهيونية ، وإقامة حكومة دستورية ديمقراطية يرأسها الأمير فيصل ، ووضع قانون أساسي تُراعى فيه حقوق الأقليات .

وإذا لم يكن بد من انتداب دولة على سورية لأسرار لا ندرك غايَتها ، فلتكن هذه المساعدة من دولة أميركا البعيدة عن المطامع الاستعمارية بشروط معينة ، على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال سورية السياسي ، بل تكون عبارة عن مساعدة فنية علمية لمدة عشرين سنة ، وإذا أبت امريكا ذلك

فلتكن هذه المساعدة من انكلترا بالشروط المتقدمة ، واننا نرفض كل حق تدعيه دولة فرانسة ، كما نرفض كل مساعدة تقدمها لسورية ، ولم يكن قرارهم هذا عن اجماع ، بل أقره ٤٦ عضواً وخالف فيه ١١ عضواً ، وعُدّ ١٦ عضواً مستنكفين .

وفي ليلة ١٦ شوال سنة ١٣٣٧ ﻫ وصل أعضاء اللجنة الأمريكية الى حلب بالقطار .

وفي صباح يوم ١٧ منه أخذ شيوخ العشائر ووجهاء المحلات في حلب ووجهاء الأقضية يفدون على اللجنة على سبيل الانفراد ، فتسألهم عن مصير بلادهم ، فكان كل واحد يصرح بما يطلبه، وكانت مطالب هؤلاء لاتخالف ما قرره المؤتمر السوري.

وفي شهر ذي الحجة سنة ١٣٣٧ ﻫ سافر فيصل الى أوروبا ، ليحضر في باريس اليوم السادس عشر من ايلول سنة ١٩١٩ م ، وهو اليوم الذي عين لتبحث فيه المسائل السورية .

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٨ ﻫ انسحب الجيش الانكليزي من دِمَشق وحلب ، وأصبحت محافظة الأمن منوطة بالحامية الوطنية المتطوعة ، الى أن يقرر مصير البلاد في مؤتمر الصلح الدولي .

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني من سنة ١٣٣٨ هـ عاد الأمير فيصل الى بيروت ، فدِمَشق .

وفي اليوم التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ هـ وصل الى حلب في قطار خاص ، وفي اليوم العاشر ألقى خطاباً في حفلة أقيمت له في نادي العرب حض فيها على توحيد الكلمة والتجنيد ، وقال فيها : إن البلاد لا تتخلص إلا بقدرة الله وقوة التجنيد ، وان الجند حرس الاستقلال ، ثم عاد في اليوم العاشر الى دمشق .

وفي جمادى الأولى من هذه السنة ، عين عبد الحميد باشا القَلْطَقْجي حاكماً عسكرياً على حلب ، وأحدثت فيها متصرفية مستقلة ، ثم بعد قليل عادت حلب ولاية كما كانت في السابق .

وفي الثامن عشر من جمادى الآخرة من سنة ١٣٣٨ هـ والموافق ٨ آذار سنة ١٩٢٠ م أعلن استقلال سورية ، وتوج الملك فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وأخذت وفود المهنئين من البلدان السورية تفد على دِمَشْق ، وكان المؤتمر السوري قد قرر إعلان ملكية فيصل .

وفي اليوم العشرين من رجب سنة ١٣٣٨ هـ عين رَشيد طَليع والياً على حلب .

وبعد مبايعة الملك فيصل شرعت الحكومة السورية تدعو إلى التجنيد ، وأخذت تزيد الضرائب .

ومنذ شعر السوريون أن الحكومة الافرنسية ستتولى الانتداب على جميع سورية ، كما تولته على لبنان ، وعلى المنطقة الشرقية من سورية ، تألفت في هذه المنطقة عصابات ، واستفحل أمرها ، حتى جهز الافرنسيون جيشاً عظيماً لتفريقها ، ولم تخمد ثورتها إلا بعد عناء وجهد .

ثم انتشرت العصابات في جميع الحدود السورية ، فأقلق ذلك الافرنسيين ، وارتابوا في الملك فيصل ، واعتقدوا أن ذلك من تدبيره وعمله ، وكان الجنرال غورو المفوض للجمهورية الافرنسية بلبنان يعزز جيوشه في الساحل ، ويعد العدد للانقضاض على سورية .

ثم أرسل في ١١ تموز سنة ١٩٢٠ م إلى فيصل كتاباً يقول فيه : كانت السكينة سائدة في سورية أثناء الاحتلال الانكليزي ، فلما حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ، ابتدأ الفساد ، ولا يزال آخذا في الازدياد .

وفي ١٤ تموز أرسل إلى الملك فيصل بلاغاً يكلفه فيه أن يعطي فرنسا الخط الحديدي من رياق إلى حلب ، وأن تلغي الحكومة السورية القُرْعَة العسكرية ، وأن يقبل الانتداب الافرنسي والنقود السورية ، ويضرب على أيدي الاشقياء ، فطلب منه فيصل أن يمهله أربعاً وعشرين ساعة ، فلما انقضت مدّدت أربعاً وعشرين ساعة أخرى ، ثم مددت مرة ثانية ، ولم يجب لانقطاع الاسلاك البرقية ، وأكثر الناس يقولون : إن مدير البرق والبريد أخر إرسال جواب فيصل عمداً لغرض في نفسه ، وكان الجنرال غورو أتم تأهبه واستعداده ، فسار بجيوشه إلى دِمَشْق ، والتقى الجيش الافرنسي والجيش العربي في ميسلون ، وكان مع الجند العربي فئة من متطوعة دمشق وجماعة من البدو ، فكانت الغلبة للجيش الافرنسي ، لوفرة عدده وعدده ، ووحدة قيادته وحسن تدريبه ، ولأن جيش فيصل كان مؤلفاً من أخلاط أكثرهم كان قلبه مع الافرنسيين.

ويقال : إن الجنرال غورو أعلم الملك فيصلا بأنه يتوقف عن الزحف ، إذا قبل بالمواد التي ذكرها في البلاغ والانذار

الذي أرسله إليه مع شروط أضافها إلى ذلك ، فتأخر جواب الملك ، فزحفت الجيوش الافرنسية ، ودخلت دمشق في اليوم الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ م بعد معركة شديدة قتل فيها من الجيش العربي والمتطوعين عدد عظيم ، وأسر عدد كبير.

هـذا ما حدث في جهات دِمَشْق ، أما ما كان في حلب فقد جاء أمر من قائد الجيوش في دمشق إلى قائد الجيش في حلب بأن يستعد إلى مقاومة الجيوش الافرنسية ، فأخذ يعد جيشاً من الجند الوطني واستطاع أن يضم إليه بضع مئات منه واستدعت الفئة القائمة على الأمر بعضاً من الأعراب واستنفرت العامة ، فخرج فريق منهم إلى الثُّكْنَة العسكرية وطلبوا من القائد السلاح فلم يعطهم ، وطلب الجند عدداً من المدافع فقال لهم : ان المدافع التي في الثكنة مختلة لا تصلح للاستعمال .

ثم ورد أمر من القائد العام في دمشق إلى قائد حلب بالتسليم وعدم مقاومة الافرنسيين ، ثم جاء أمر بمقاومة الافرنسيين .

ولما رأت حكومة حلب هذا التناقض ، وتيقنت عجز الأمة عن المقاومة عقدت مجلساً مؤلفاً من وجهاء حلب ، واستشارتهم

في ما يجب أن يفعلوا ، فاختلفت الآراء بقدر اختلاف العقول والمدارك ، ثم رأى كامل باشا القدسي ان محاربة الافرنسيين تضر البلاد ولا تنفعها ولا توصل الأمة إلى غايتها المطلوبة ولما كان من رجال العسكرية وأمرائها ، وكان عالماً بما عند الأمة من عَدد وعُدد أجمع الناس على قبول رأيه ، وقرروا التسليم للجيش الافرنسي عن طوع ورضى .

وقبل أن يصل الجيش الافرنسي إلى مدينة حلب ، حلقت فوقها طائرة افرنسية وألقت نسخاً من منشور باللغة العربية ، جاء فيه : ان دولة فرانسة لا تتعرض إلى استقلالكم بسوء ، ولا تدعو أحـــداً منكم إلى الجندية ، وانها ستخفف عنكم الضرائب وتبقي كل موظف منكم في عمله .

وان مقاومة جيشها بالقوة يضر بالمدينة وأهلها ويضطر الجيش الافرنسي إلى أعمال لا تحمد مغبتها ، والمنشور والبيان طويل طافح بالوعد والوعيد .

وفي صباح الجمعة وهو اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٢٣ تموز سنة ١٩٢٠ م دخل الجيش الافرنسي مدينة حلب ، واحتل المراكز التي أرادها في أطراف المدينة ،

ثم جرى احتفال عظيم بقدوم الجنرال دي لاموط قائد الجيش الافرنسي في المنطقة السورية الشمالية ، ثم زار مقر الولاية ، وألقى خطاباً قال فيه : إن فرانسة وجيوشها لم تدخل هذه البلاد بصورة عدائية لأهلها ، وليست غايتها الاستيلاء على البلاد واستعمارها ، بل إن الواجب الوطني هو الذي ألقى على عاتقها لترقية البلاد واسعادها ، وابلاغها الدرجة القصوى من الرقي والعمران . وعلى هذا فان الحكومة ستبقى على ما هي عليه محافظة على شكلها وموظفيها وقوانينها وأحكامها ، وان جميع الضباط والقوات الافرنسية يحترمون هذه الاحكام والقوانين وسيكونون مؤيدين لتنفيذ أوامر الحكومة وأحكامها . ثم طلب من رؤساء الاديان والاعيان والاهلين دوام الالفة والمحبة واطاعة الحكومة ، لانهم يكونون سعداء بذلك ، لا سيما إذا تحققت أمانيهم ورأوا بلادهم سعيدة حرة مستقلة .

وفي اليوم التاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٣٨ ه الموافق ٣ آب سنة ١٩٢٠ م عين كامل باشا القدسي الحلبي والياً على حلب .

وفي اليوم العشرين من حزيران سنة ١٩٢١ م أعلن الجنرال غورو في دِمَشْق أساس الوحدة السورية ، بانشاء مجلس اتحاد لها يتألف من دولة دمشق وحلب والعلويين ، أعضاؤه خمسة عشر عضواً ، من كل دولة خمسة ، والاعضاء يختارون منهم رئيساً . وقد عين صبحي بركات الخالدي رئيساً ، واختار لدوائر الاتحاد جماعة من الاتراك والارمن والروم مع العرب ، فاستاء الوطنيون لذلك .

واجتمع هذا المجلس في السنة الاولى في حلب ، ثم نقل إلى دمشق ، وبقي فيها إلى انتهاء حياته .

وفي يوم ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٤ م و ٤ ذي القعدة سنة ١٣٤٢ ﻫ أعلن المفوض السامي الجنرال ويغاند في دمشق الوحدة السورية ، وتأليف الدولة العربية السورية من حكومتي دمشق وحلب فقط ، واخرج بذلك دولة العلويين ودولة جبل الدروز ودولة لبنان .

وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م الموافق سنة ١٣٤٣ ﻫ أعلنت الوحدة بين دمشق وحلب فقط ، وعينت

الوزارة برآسة صبحي بركات الخالدي ، على أن لا تسأل وزارته أمام مجلس النواب ، وتستمد قوتها من المفوض السامي ويكون للمستشارين الكلمة النافذة في كل أمر .

وفي حزيران سنة ١٩٤١ م الموافق جمادى الاولى سنة ١٣٦٠ ﻫ دخل الجيش الانكليزي مدينة دِمَشْق بعد حرب مع الجيش الافرنسي الذي كان في بلاد سورية ولبنان، ثم طلب المفوض السامي للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان والقائد الاعلى لجيوش الشرق فيها الهدنة ووقف القتال إلى أن يتم الصلح ، فوقف ، وانتهت المصالحة بين الفريقين ، واستولى الجيش الانكليزي على الثكنات والقِلاع والمَسَالِح ، ودخل مدينة حلب في الساعة ١٢/١٥ من يوم الاربعاء الموافق ١٦ تموز سنة ١٩٤١ م و ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ ﻫ من طريق مَنْبِج ، وطريق المعرة .

وفي سنة ١٣٦٩ ﻫ يبس أكثر شجر الزيتون والتين واللوز وغيرها في المعرة وحلب وإدلب وكثير من البلاد الشامية ، وذلك بسبب الصقيع ويقدر عدد الشجر الذي يبس في هذه البلاد بألوف الاولوف .

وكانت التجار تنقل حطب الزيتون من حلب والمعرة وإدلب

وغيرها إلى حماة وحِمْص ودِمَشْق وغيرها . ولم يعهد الناس مثل هذه المصيبة في الشجر .

ومما تقدم يتضح أن المعرة كانت حين الفتح الاسلامي من عمل حِمْص ولذلك أضيفت إليه . ثم جعلها الرشيد من العَواصِم بعد أن استخلف سنة ١٧٠ هـ . والظاهر أنها أعيدت إلى حمص ، لأن واليها لؤلؤاً كان غلاماً لوصيف بن صور اتكين ، وبنى خندقاً عليها سنة ٢٨٨ هـ .

ثم استولى عليها سيف الدولة سنة ٣٣٣ هـ ، فصارت تابعة لحلب ، ثم تغلب بنو مِرْداس عليها .

ثم تغلب عليها الفرنجة سنة ٤٩٢ هـ .

ثم استخلصها عماد الدين زَنْكي سنة ٥٢٩ هـ ثم ملكها سنة ٥٣١هـ .

ثم جعلها صلاح الدين من اقطاع ابن أخيه تقي الدين عمر وألحقها بحماة سنة ٥٨٢ هـ .

ثم ملكها الحلبيون سنة ٦٣٥ هـ ، ثم أعيدت إلى ملك حماة المظفر سنة ٦٥٨ هـ .

ثم استولى عليها التتر سنة ٦٩٩ هـ ، ثم عادت إلى ملك حماة أبي الفداء سنة ٧١٠ هـ .

وظلت حينا من الزمن من عمل حماة. قال ابن فضل الله العمري في حماة : وليس لها سوى عملين عمل بارِين وعمل المعرة ، ونقله عنه ابن الشِّحْنة [1] في (الدرّ المنتخب) .

ثم صارت من عمل حلب في أخريات العهد التركي ، [ثم صارت من مناطق محافظة ادلب]، ولم تزل كذلك إلى هذا اليوم .

---

(١) قال ابن الشحنة في الدر المنتخب ص ١١ : وحماة اليوم منفردة بعمل لكنها كانت من مضافات حلب قديماً ومضاف إليها المعرة وقرى كثيرة من بلد المعرة .

المعرة بعد جلاء الترك

كيف ترك الترك المعرة :

اتضح لنا مما سبق ذكره أن المعرة من أكثر البلاد الشامية مصائب ونوائب ، من الغزاة والفاتحين والمتغلبين والمناهبين ، والطبيعة القاسية ، وأنها أكثرها صبراً على النوائب ، وأشدها محاسنة للزمن الجائر ، وأنها خربت مراراً وعمرت ، ونزح أهلها عنها حيناً من الزمن وعادوا إليها ، وأن أفظع ما لقيته من الكوارث من الصليبيين ، ثم من التتر ، ولكنها أستطاعت بعد ذلك أن تستعيد نضرتها وعمرانها ، وأن تظل مدينة جليلة ، كما وصفها المؤرخون وأصحاب الرّحل .

ولما استولت عليها الدولة العثمانية ، كانت تباع بيع السلع للمولّين من قبل الحكومة ، أو تعطى لقاء فريضة مقطوعة لمتغلب . وقد ضن علينا التاريخ بمعرفة حالتها في أول الحكم العثماني ، ولكننا لم يفتنا معرفة آخره .

فقد كانت المعرة في ذلك العهد مركز قضاء ، فيه حاكم إداري يسمى : قائم مقام ، وقاض شرعي يشرف على أعمال المحكمة القانونية ، ثم جعل فيها حاكم مدني غير القاضي يحكم بالقانون المدني وتتألف المحكمة التي يرأسها من عضوين ، وقد تغير شكل الحكام المدنيين والمحاكم المدنية أكثر من مرة . وكان الأمر كله بيد الحاكم الإداري ، فان كان حسن السيرة ، كان ضعيف الارادة ، ولقي من المتغلبين من أهلها ضروباً من الكيد والمعاكسة ، ثم لا يزالون يشكون أمره ، ويفترون عليه لحكومة حلب التي لا تعدم أنصاراً لهم منها ينعمون بما يبذلونه إليهم من الأموال التي يبتزونها من الفقراء ، حتى يستبدلوه بغيره ، فان كان مثل الأول صار إلى مثل ما صار إليه ، وان كان على غير هذه الشاكلة وضع يده في أيديهم ووافق شن طبقة على السلب والنهب والعَسْف والتعذيب ، لامتصاص دم الأمة فيها ، وهي تستغيث بحكومة حلب وبحكومة الاستانة [١] أحياناً

---

(١) هي إستانبول وقد ذكرها شمس الدين سامي في معجميه قاموس الأعلام وقاموس تركي بمادة استانبول ولم نعثر فيهما على مادة استانة .

فلا نجد سامعاً ولا مجيباً ، ذلك لأن هذا العامل من بِطانة والي حلب ، أو من خاصة وزير في الاستانة ، أو خاصة موظف كبير في حلب أو الاستانة ، وكان أكثر الموظفين يحرش بين أعيان المدينة وكبرائها ، ويوقع بينهم البغضاء ، فيمالىء فريقاً على آخر ، ليضعفه ويستنزِف ماله ، ثم ينقلب على الآخر فلا تزال الفتن متقدة بين الأهلين ، ولكل فريق أنصار في حكومة المعرة وحلب أو الاستانة ، فيقدم لها بالجملة ما ينهبه من الناس بالمفرق . وكثير من هؤلاء الحكام من تولى هـذا القضاء ، وهو صفر الوِطاب ، فارغ الجِراب ، فانقلب عنه بعد برهة ، وهو أغنى من كنز ، وأخصب من روضة ، بعد أن يكون أدى ما فرض عليه لموليه ، وقدم من الهدايا والتقادم لرؤسائه ، ومن يخاف شرهم من أعوانهم ، ما يقيه شرهم ، ويضمن له رضاهم وحمايته ومناصرته .

وكذلك شأن القاضي وغيره من رجال الحكومة ، يأتي أحدهم أشعث أغبر بالي السِرْبال ، فلا يلبث أن ينقلب على أرائك النعيم والترف من أموال الفقراء ، وينفق الاموال الجزيلة في سبيل شهواته وملاذه .

وكثيراً ما مالأ هؤلاء العمال الاغنياء والاعيان ، على أكل مال الضعيف ، واغتصاب ما يملكه من عقار أو أرض .

وقد رأيت كثيراً من فقراء المعرة ورجال الطبقة الدنيا فيها تذرعوا بوسائل مختلفة ، حتى أصبحوا من أعوان الحكام ، فانتعشوا وارتاشوا ، وأصبحوا في عداد الوجهاء والاغنياء ، ولكن الواحد منهم لا يصير غنياً حتى يفقر ألوفاً من أهل المدينة أو الضاحية وكان للحكام القسم الاوفى ، والقَدَح المُعَلَّى من هذا النهب .

وعلى هذا النمط كانت تساس المعرة ، وتحت مثل هذه الاعباء كانت ترزح ، وكانت الحكومة ترهقها بالضرائب على فقر أهلها .

ولم تكن البلدة وضاحيتها متمتعة بالأمن والطمأنينة ، وانما كانت أيدي العُتاة والبُغاة والمتمردين تعبث بها ، وقلما مر اسبوع لم تقع فيه سرقات ، أو قطع طريق ، أو نهب أو تعد على عقار أو شجر ، أو نحو ذلك ، وكان البدو يشن الغارة على نفسه ، وعلى أهل القرى التي تجاوره ، ويرعى زرعها ويفسد ضرعها .

وكانت البَدَاة تغير على المعرة نفسها ، فتخرج طائفة من مقاتلة أهلها ، فتصد غارتهم عنها ، وتذود عن حياضها بسلاحها وقد أخبرني والدي أنه كان وهو صغير ، يرى من سطح داره أسنة الرماح تلمع في أيدي البدو المغيرين على المعرة من الجهة الشرقية ، وهذا لم أره في عهدنا ، ولكن البدو لم يفتروا عن غزو القرى وقطع السابلة ، وقلما انقطعت الحرب بين الموالي والحديدية مدة طويلة ، وعلى هذا الاسلوب كانت تسير رجال السياسة في المعرة .

وأما الحياة العقلية في عهد الترك الذي أدركناه ، وهو أول القرن الرابع عشر للهجرة ، إلى يوم جلائهم ، فقد كانت أسوأ ما كانت عليه في عصر من العصور ، لأن الحكومة أحدثت مكتباً رشدياً في (اصطلاحها) ، ابتدائياً في اصطلاح أهل هذا العصر ، وهو يشتمل على ثلاثة صفوف ، وقد كانت لغة التدريس فيه اللغة التركية ، كما كانت اللغة الرسمية للحكومة ، وما علمت أحداً خرج من هذا المكتب ، وهو يعلم غير الخط ، وقد كان مديره في عهدنا أي في سنة ١٣١٠ ه فما بعدها ،

رجلاً تركياً من ديوريكي [١] ، كان يدعي علم كل شيء ، ولم تجتن المدينة في عهده الطويل ، البالغ أكثر من خمسة عشر سنة فائدة علميـة ، ولم ينبغ أحد ممن تخرج به واقتصر عليه ، ومن نبغ منهم ، فانمـــا حصل عـلى ذلك من استاذ غيره .

وكان في المعرة على عهدنا شيخ يقال له : الشيخ صالح الرمضان ، وابنه محمد صالح ، كانا يحسنان النحو والفقه على مذهب أبي حنيفه والشافعي ، وقليلاً من المنطق ، فكان طلاب العلم يقرأون عليها هذه الفنون ، وكنت ممن أخذ عنهما ، وكانا يخافان أن ينبغ أحد من الطلاب فينازعهما مركزهما في المعرة .

وكان في المعرة شعراء يحسنون وزن الشعر في بعض البحور سليقة ، ويتكلفون للصناعات البديعية ، إلا أن أسلوبهم إلى العامية أقرب منه إلى اللغة الفصحى ، وما علمت أحداً في عهدي في المعرة ، يعرف شيئاً من العروض والقافية وعلوم

---

(١) في قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ٣ : ٢٢٢٠ : ديوركي .

البلاغة وعلم الأصول وغيره من العلوم العربية ، سوى مدير المكتب ، فانه كان يدعي معرفة العروض ، ولكنه لا يقيم وزن الشعر ، وكان يعرف الفلك على اصطلاح المتقدمين ، وقد قرأت عليه رسالة في الربع المجيب .

وما خلا ما أسلفنا ذكره ، لا تجد في المعرة أثارة من علم ، أما كتابة الانشاء الصحيح فهي مفقودة ، والخاصة والعامة منهم سواء ، في ركاكة الأسلوب ، والبعد عن اللغة الفصحى ، وكثرة اللحن ، وتمتاز الخاصة من العامة فيه بالسجع المتكلف ، السمج الطافح باللحن والتحريف .

هذه حالة المدينة في العهد الذي خلفتها فيه ، وهاجرت إلى دِمَشْق ، وذلك في اليوم العشرين من جمادى الأولى سنة ١٣١٩ هـ وظل هذا شأنها حتى جلا التُّرْك عنها .

ولا شك أن السبب في تأخرها في مضمار العلم ، ونضوب النبوغ فيها ، يعود إلى الحكومة والحكام الذين كانوا يصرفون الناس عن الاهتمام بالعلم ، ومجاراة البلدان الحية فيه ، إلى اهتمام كل بمواثبة أخيه ، والكيد له ، حتى انقسم الناس على

أنفسهم ، وتمكن الحكام من خطم أنوفهم ، وتسخيرهم في منافعهم .

وقد نبغ فيها في الأزمنة الغابرة عدد كبير ، لا يقلون عن النابغين في الأمصار العظيمة ، يوم كانت الحكومات تعنى بشأن العلم والعلماء ، ومن المؤسف أني لم أعثر على كثرة تنقيبي وبحثي في كتب التاريخ والتراجم ، على رجل نبغ من أهل المعرة في المعرة ، في العهد التركي يشابه أحداً من النابغين في عصر آخر ، كأنما العبقرية رحلت عن هذه المدينة منذ وطئتها قدم الترك ، ومن برّز في هذا العصر ، فإما أن يكون تثقف في مدينة أخرى ، أو أتم ثقافته فيها ، وإما أن يكون نبوغه بالنسبة للعدم ، أو بالنسبة لآخر ، ويمكننا أن نقول : إن الحياة العقلية في المعرة في عهد الترك ، أسوأ ما كانت عليه في جميع العصور ، وأن جميع أهل المدينة وضاحيتها كانوا أُميين أو عاميين وقد يكون فيها رجل فقيه ، يعلم شيئاً من أحكام الفقه كالمفتي وأمين الفتوى ، ولكن واحداً من هؤلاء لا يستطيع أن يكتب نصاً أو حادثة أو صكا خالياً من اللحن والركاكة كما تشهد بذلك الآثار التي خلفها ذلك الزمن .

حالة اللغة في هذا العهد :

لغة أهل المدينة تشبه اللغة العامية في المدن الشامية ، مع اختلاف قليل ، وقد تجد فيها كثيراً من الألفاظ العربية الصحيحة الفصيحة ، منها ما هو باق على حالته ، ومنها ما حرف تحريفاً قريباً ، ومنها ما حرف تحريفاً بعيداً سيئاً .

ومخارج الحروف في ألسنة أهلها كلها صحيحة ، إلا القاف فان فريقاً منهم يجعلها بين القاف الخالصة والكاف ، وكثير منهم يجعلها بين الهمزة والقاف ، ومنهم من يجعلها همزة في قليل من الكلمات ، وأسباب هذا أن المعريين خالطوا الأتراك كثيراً ، فاقتبسوا من لهجتهم ولغتهم ، وارتضخوا لُكْنَةَ تركية .

وكثر اختلاطهم بالحلبيين بالسفر والتجارة والمصاهرة ، وقد كانت جمهرة الموظفين في أعمال الحكومة من التُّرْك والحلبيين ، فأحبوا أن يحتذوا على مثالهم في محاوراتهم ، وظهر ذلك جلياً في بعض الحروف وفي إمالتها ، وفريق منهم خالط الدمشقيين فتأثر لسانه بتحريف بعض الحروف ، وأهل المعرة مولعون بحب الغريب في كل شيء ، وإيثاره على ما لديهم ،

وهذه السجية سهلت عليهم هجر الفصيح من لغتهم ، واستبداله بالغريب الفاسد ، وتأصل الغريب في نفوسهم أكثر من غيره .

ويمكن أن يبين باختصار ما طرأ على اللغة من الدخيل والتحريف والتبديل واللهجات التي اقتبسها المعريون المتأخرون من غيرهم بما يأتي :

١ ـ ان المعريين خالطوا العُثمانيين التُرك ، أكثر من أربعة قرون ، فتسرب إلى لغتهم كثير من اللغة التركية ، لأنها لغة الحاكم ، ولغة القوي الغالب ، ولغة الغريب ، وقد جلت الترك عن المعرة ، ولكن لا يزال بعض الكلمات التركية متفشياً في لغة المعرة وضاحيتها إلى هذا اليوم .

مثل لا تقارش فلاناً أي لا تخالطه ، وما له حيارة ، أي حيلة ، وتركته آچيق أي مفتوحاً ، وقيدته في خانته أي مسكنه وذهب إليه دوغري أي تواً ، وامشي دوغري أي مستقيماً ، وأكلت عرمودا أي كمثرى : انجاص ، وعمل يجابش معه أي بادله الوظيفة ، وفلان برتبة ظابط أي ضابط ، وكره كون : قره‌قول : أي مخفر ، وقناق أي مثوى ومضيف ، وجندي

زاده أي ابن الجندي ، وباشكاتب أي رئيس الكتاب ، وخوجه أي شيخ ، وقباداي أي شجاع .

ويدخلون لفظ جي في آخر الكلمات ، للدلالة على النسبة مثل توتنجي ، قهوهجي ، مهلبجي ، شراباتجي ، شربجي ، عرض حالجي .

٢ ـ ان المعريين اقتبسوا من الحلبيين إمالة بعض الكلمات مثل باب الجنين أي الجنان ، وطردت الذبين أي الذبان ، وأذن العِشى أي العشاء .

واقتبسوا نحت بعض الكلمات وادخال بعضها في بعض ، مثل ايش فَسْطُو أي أي شيء في وسطه ، ومثل اِكُوَه خَيُّو أي اليكه يا أخي ، ولِيكْ فلاناً ولِيكُو أي اليك فلانا واليكه .

واقتبس فريق قليل منهم من الدمشقيين ابدال الشين سيناً ، والجيم زاياً ، والقاف همزة .

والسبب في ذلك كله أن فريقاً من أعيان المدينة وأغنيائها ، كانوا يختلفون إلى حلب وحماة ودِمَشْق ، وكانوا يتظرفون بالتشبه بأهل تلك البلاد ، وتقليدهم في أقوالهم وأفعالهم ، وزاد الأمر

ضِغْثاً على إِبّالة ، أن فريقاً كبيراً من أهل المعرة تزوجوا من نساء حلب وحماة ودمشق ، فتفشت لهجات هذه البلاد في المعرة ، بواسطة هؤلاء الزوجات ، وارتضخت أولادهن لُكْنة بلادهن ، وقلد هؤلاء المتظرفين فريق عظيم ، فأصبحت أهل المدينة كأوتار العود ، لكل واحد منهم نغمة ، وكنت تسمع ابن الشامية يقول : يابي شوف السمس ، واشتر لنا من هذا الزوز ، وابن الحموية يقول : إي يا خيُّو اَرْوَاح ، وابن الحلبية يقول : إيش قَسْطو ، وابن المعرية يقول : يابو ليك أخوي تشطح أي تسطح .

وهكذا أضاعت هذه المدينة لهجتها الأصلية ، وقد كانت أقرب اللهجات إلى العربية الفصحى ، كما كانت مخارج الحروف فيها أقرب إلى الصواب من غيرها ، وأكثر هذا التحول حدث في أيامنا ، لأن الاختلاط بسبب المتاجرة والمصاهرة كان فيها أكثر مما قبلها .

٣ ـــ زاد المعريون على غيرهم ابدال السين شيناً ، في مثل قولهم شطحه فتشطح أي سطحه فتسطح ، ولبس الشروال أي السروال .

٤ ـــ استعملوا كلمات لا تعرفها العرب ، ولا تجيزها قواعد اللغة وأصولها ، مثل قولهم عَجَقها إذا زاد فيها وأكثر ، والمكان معجوق إذا كان فيه اناس كثيرون ، والأشياء معجوقة إذا كانت غير مرتبة .

ولم أر من ذكر هذه المادة : عجق : ولا ما اشتق منها ، وقد قال في (شفاء الغليل)[١] لا يجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية غير اسم جقوت . وقال في (التاج)[٢] القاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب ومثله في (اللسان) في مادة : قيح[٣] .

ومثل قولهم : فلان خَرْطَبِيل ، يريدون أنه أبله غبي ضعيف العقل أهوج .

٥ ـــ وقد أكثروا من تحويل الألفاظ إلى وزن فَعُّول في اعلام المذكر والمؤنث ، فقالوا في قاسم : قسوم ، وفي هاشم هشوم ، وفي محمد حَمُّود ، وفي بركة : برُّوك ، وفي فاطمة وخديجة وعائشة وأسماء فَطّوم وخَدّوج وعَيُّوش وأسُّوم .

---

(١) الخفاجي : شفاء الغليل ١٨٣ (ج) .

(٢) الزبيدي : تاج العروس ٢ : ٩٠ (ج) .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ٢ : ٥٦٨ .

وشاركوا بقية البلدان الشامية في تقديم بعض الحروف على بعض في الكلمة الواحدة ، حتى تخرج الكلمة من الصحيح الفصيح إلى العامي ، كقولهم : هذا جوز فلانة ، وقد جوز ابنه ، والأصل زوج فلانة وزوج ابنه .

وشاركوهم في ابدال الذال المعجمة بالدال المهملة في مثل أذّن وأذان وذكر ، فيقولون : أدّن ، وسمعت الأدان ، ودكّر يوم الجمعة ، وكذلك يبدلونها في كلمة أُذن للتي يسمع بها ، فيقولون : سمعت بأدني ، وملأ أداننا ، ويجمعونها على دانات ، فيقال : داناته كبيرة ، كما يقال : آدان .

وشاركوهم في ابدال الثاء المثلثة بالثاء المثناة ، في مثل ثوم وكراث فيقولون : توم وكرات .

وشاركوهم في مساواة النطق في الثاء والسين والزاي والذال والظاء والضاد ، فيقولون : رجل خبيس وحسه على العمل سم ضربه ، والصواب خبيث ، وحثه ، وثم ضربه .

وكذلك يقول : أزكر الله وزكرني بالأمر غداً ، وفلان زخر لنا ، والأصل اذكر الله وذكرني وهو ذخر .

ويقولون اركبه على ضهره وقلم ضفره ، والصواب اركبه على ظهره وقلم ظفره .

وشاركوهم أيضاً في ابدال الفاء تاء مثناة ، مثل : فم فيقولون : تم .

وفي ادخال الباء على الأفعال ، مثل : باكل ، بقوم ، بيجي ، بنام ، بتبرد ، والأصل : آكل ، واقوم ، ويجيء ، وينام ، وتبرد .

وفي ادخال لفظ بدي على الأفعال ، مثل : بدي آكل ، بدي أشرب ، بدو يسافر ، بدو يكتب .

وقد ذكرنا في كتابنا (الأمثال في بلاد الشام) : أن أصل بدي ربما كان بودي ، تقول بودي أن أذهب ، فحذف العامة الواو ، وابدلت كسرة الباء فتحة ، ثم توسعت العامة بهذه الكلمة ، فاستعملتها في الأفعال والأسماء ، فقالوا : بدي أكتب ، وبدي أسافر ، وبدي الكتاب ، وبدي الأمانة ، وكلها بمعنى أتمنى وأُريد ، وإذا دخلت الباء وحدها ، أو لفظ بدي على الفعل حذف حرف المضارعة منه في أكثر الأحيان ، فيقولون : كل يوم بنام ساعتين أي أنام ، أو بدي نام الآن .

وشاركوهم أيضاً في ادخال لفظ عَمّال على الفعل المضارع لتخصيصه بالدلالة على الحال ، فيقولون : عمال بصلي ، وعمال يصلي ، وعمال بيكتب ، والأصل : أصلي ، ويصلي ، ويكتب ، وقد يحذفون اللام من عمال ، فيقولون : عما يقرأ ، عما يتوضأ .

و في جعل أل للنسب بدلاً من ياء النسب ، فيقولون : محمد الخالد ، مصطفى الأحمد ، خالد الدرويش ، ويريدون بالأول المنسوب إلى خالد ، وبالثاني المنسوب إلى أحمد ، ومثله على السيد يوسف ، وعثمان البم ، وخليل الخشان ، يريدون بذلك المنسوب إلى أسرة السيد يوسف ، وأسرة البم والخشان ، وهكذا .

ومع كل ما تقدم فان المستقري لكلام المعربين ، يجد فيه كثيراً من الكلمات التي يتكلمون بها على وجهها الصحيح ، وفي معناها الحقيقي ، مثل : كلمة مشمش ، فانهم يلفظونها بكسر الميمين ، مع أن جمهرة بلاد الشام يضمونها ، ومثل : كلمة ضَنّى بمعنى كثرة الأَولاد ، يقال : ضَنَت المرأة ضَنّى وضناء إذا كثر ولدها ، قال الجوهري[1] يهمز ولا يهمز .

---

(١) الجوهري : الصحاح ٢ : ٥٠٨ .

وفي كلامهم ألفاظ محرفة تحريفاً قريباً ، مثل : كلمة دَرْدَك فيقال : في دار فلان دردك ، أي أطفال صغار ، وأصل هذه الكلمة دَرْدَق بالقاف ، والدردق في اللغة الصبيان الصغار ، والصغير من كل شيء ، وأصله الصغار من الغنم ، ومثل كلمة كرْسَعَنّة لنبات معروف وأصله قَرْصَعَنّة [1] على المشهور ، وألفاظ استعملت مطلقة ، وهي في اللغة مقيدة كلفظ العَجِيّ ، فانه فاقد أمه من الانسان والابل . وبعض المعريين يطلقونه على الصغير وإن لم يفقد أمه .

الحياة الدينية :

وأما الحياة الدينية فيها ، فان جمهرة أهلها مسلمون ، على مذهب أهل السنة ، وقد كان فيها طائفة قليلة من النصارى ، يعدون على الأصابع ، منهم : فريق يشتغل في الصياغة ، وآخر في الصباغة ، وكان أهل المعرة يحسنون معاملتهم ، ويعطفون عليهم لضعفهم وقلتهم ، وولي رجل منهم عملاً في دائرة المالية في القضاء ، وما رأيت ولا سمعت أن أحداً من أهل المعرة أو غيرهم ، تعدى على واحد قط في الماضي والحاضر ،

(١) وفي معجم الألفاظ الزراعية لمصطفى الشهابي ص٢٥٦ و٤٨٢ : قِرْصَعْنَة.

بل كان النصارى في دعة وراحة أكثر من المسلمين ، وليس لهم كنيسة ولا دير ، وانما كانوا يجتمعون إلى بعضهم ، وكانت نساؤهم يحتجبن كالمسلمات ، وكان الرجال والنساء يختلطون بأمثالهم من المسلمين ، ويجتمعون بهم في محافل الفرح والحزن ، ويعاملهم المسلمون بأحسن مما يعامل به بعضهم بعضاً .

وليس في المعرة من غير المسلمين غير النصارى .

وكان أهل المعرة وضاحيتها على مذهب الإمام الشافعي ، وانما كانت الفُتْيا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، لأَن الحكومة التركية أوجبت ذلك في جميع البلدان الخاضعة لسلطانها من عربية وغيرها ، حتى أن المفتين فيها كانوا شافعيين ، وهم من أسرتنا إلى اليوم ، وقد كان كل من جدي وأخيه وأبيه مفتين على مذهب الحنفية ، وهم شافعيون ، وكان أكثر القضايا والخصومات التي تقع بين الناس ، يفصلها الشيوخ والعلماء على مذهب الشافعي ، يقص كل من المتخاصمين أمره على الشيخ بحضور خصمه ، فيفصل بينهما صلحاً ، أو حكماً ، ويسمع البينة ، ويحلف اليمين ، إلا إذا طلب أحد الخصمين الاستفتاء

بصورة رسمية ، فان الحكم فيها يكون على مذهب أبي حنيفة .

وكان الصالحون من الناس يقنعون بالحكم الشرعي ، ويحجمون عن الرجوع إلى المحاكم الشرعية والنظامية ، لأنهم يعتقدون أن ليس للحق فيها نصيب ، وهم على صواب في اعتقادهم هذا ، لأن المحاكم كانت خاضعة للمؤثرات ، فان الحاكم أو العضو كان يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً ، تبعاً لمنفعته الشخصية ، من مال يجره ، أو رئيس يرضيه ويسره أو عدو يكيده ، وقد يكون التأثير من رجل عظيم في الدولة فإني أعلم رجلاً من خاصة أبي الهدى الصيّادي قتل رجلاً آخر على مشهد من الناس ، وجاء جمع غفير فشهدوا لدى الحاكم بأن فلاناً أطلق رصاصة من مسدسه على فلان ، عامداً طائعاً ، فأرداه قتيلاً ، واستوفت شهادتهم جميع الشروط التي تؤهلها للقبول ، وكانت المحكمة تحاول أن تجد فيها ما يوجب إبطالها ، الا عضواً واحداً ، فلما أعياهم ذلك كلفوا العضو المستنطق أن يوافقهم على ما يريدون ، فأبى ، فوردت برقية من أبي الهدى يلمح فيها إلى مساعدة القاتل ، فأبى ، فوردت

برقية من المرجع المختص بنقل الدعوى إلى حلب ، فنقلت ، ثم قررت براءة القاتل ، وخرج يسرح ويمرح ، وبعد حين أخرج هذا العضو من المحكمة ، وهو من أبناء عمنا .

وليس هذا مما انفردت به المعرة ، بل كان ذلك شأن أكثر الحكام والمحاكم في ذلك العهد ، وربما امتازت المعرة من غيرها بتولية القضاة والحكام العاميين أو الأُميين ، فقد أدركنا فريقاً منهم لا يحسن أن يكتب غير اسمه ، ولا يستطيع أن يقرأ سطراً صحيحاً ، وذلك لأن الوظائف كانت تباع بيع السلع ، أو تعطى ارضاءاً لفلان لأنه من بطانة فلان ، وظل ذلك حتى أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦ ﻫ فقل ذلك مؤقتاً ، ولم ينقطع بتاتاً .

وليس في المعرة فِرق من المسلمين غير السنيين ، وانما كانوا يكرهون غير السنيّ ، وأكثر أهل المدينة محافظ على إقامة الشعائر الدينية ، من صوم وصلاة وغيرهما ، وأما الزكاة فقلما وجبت على واحد إلا قليلاً ، لأن معظمهم فقراء يرتزقون كل يوم كالطيور ، ولهم عادات ومعتقدات سيأتي بيانهما .

الطرق :

وفي المعرة طرق متعددة كالقادرية [1] ، والرفاعية [2] ، والنَّقْشَبَنْدية [3] ، والشاذلية [4] ، ولكل طريقة آداب ونظم

---

(١) نسبة لعبد القادر بن موسى الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي ، وهو من كبار المتصوفين ، وقد ولد في جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧١ هـ ، وانتقل إلى بغداد شاباً ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب الوعظ ، وتفقه وسمع الحديث ، وقرأ الأدب وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد ، وتوفي بها سنة ٥٦١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي ٤ : ١٧١ ، ١٧٢) .

(٢) نسبة لأحمد بن علي الرفاعي المولود سنه ٥١٢ هـ وقد تفقه وتأدب في واسط بالعراق ، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير ، وتوفي بأم عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة (ملخصة عن الأعلام للزركلي ١ : ١٦٩ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٢ : ٢٥) .

(٣) في كتاب المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية لمحمد أمين الكردي الاربلي ص ٩ : نقشبندية أي منسوبة إلى نقش بند ومعناه ربط النقش والنقش هو صورة الطابع إذا طبع به على شمع ونحوه وربطه بقاؤه من غير محو أي لأن الشيخ محمداً بهاء الدين النقشبندي كان يذكر الله بالقلب إلى أن انتقش وظهر لفظ الجلالة إلى ظاهر قلبه فلذا سميت نقشبندية .

(٤) نسبة لأبي الحسن علي بن عبد الله الشاذلي ، وهو الصوفي والفقيه والناظم ، فقد ولد سنة ٥٩١ هـ ، وتوفي بصحراء عيذاب سنة ٦٥٦ هـ (ملخصة عن معجم المؤلفين لكحالة ٧ : ١٣٧) .

وشيوخ وأحوال خاصة ، وأكثر الطرق انتشاراً في العهد الذي هاجرت فيه ـــ ١٣١٩ هـ ـــ من المعرة الطريقة الرفاعية ، والشاذلية .

أما الطريقة الرفاعية فلأن أبا الهُدى الصَّيّادي سعى لدى الحكومة العثمانية ، فاستثنت المنسوبين إلى الشيخ الرفاعي من الخدمة العسكرية ، وفتحت تكايا وزوايا للرفاعيين ، ووظفت أموالاً تنفق على القائمين بها ، وكان أخو أبي الهدى يزور المعرة حيناً بعد آخر ، فيقيم الأذكار على طريقة الرفاعية ، وكان رجال هذه الطريقة يزورونه في المعرة ، ويجتمعون به ويشاركون في إقامة الأذكار حباً بالمنفعة ، فكثر انتشار هذه الطريقة . ولما مات أبو الهدى انقطعت الأذكار ، إلا التي كان أصحابها يقيمونها قبل ظهور أبي الهدى .

كيفية الذكر عند هؤلاء الرفاعيين :

الذكر طريقتان : إحداهما رسمية ، والثانية عادية .

أما الأولى فهي تكون في الغالب من قبل أهل الميت بعد موته بأيام معدودة ، يكلف الرجل شيوخ هذه الطريقة بعمل

ذكر يكون ثوابه لوالده أو غيره ، فيعين له الوقت في الجامع الكبير ، والغالب أن يكون بعد العصر ، فاذا انتهى إمام المسجد من صلاة العصر ، جلس شيوخ هذه الطريقة وخلفاؤهم ومريدوهم ، على شكل حلقة كبيرة في الجهة التي تكون غربي المنبر وجلس معهم الناس ، فأخذ أهل الطريقة يضربون بالمزاهر والصُّفّافتين ، حتى تبلغ أصواتها عنان السماء ، ويسمعها الداني والقاصي ، ثم يمسكون عن الضرب بها . ويضعون مسبحة ، أي سبحة حباتها كبيرة ، كل واحدة بقدر الجوزة الكبيرة ، فيديرونها في الحلقة ثم يبدأ أكبر الشيوخ بقوله : فاعلم أنه لا إِله إِلا الله بصوت ضخم ، وترتيل شديد بحيث تمتد أكثر من دقيقة ، ويهز رأسه وجسمه إلى الأمام ، ثم إِلى الوراء حتى تنتهي الجملة .

فينطق الحاضرون كلهم بصوت واحد ، يشبه صوت الشيخ في جهره وترتيله ، ويميلون إِلى الأمام والوراء .

ثم ينشد المنشدون أبياتاً في مدح النبي (ص) على نمط الذكر ونغمته ، ويتحركون كما يتحرك الذاكرون ، وبعد أن

ينشدوا بضعة أيام ، يسرع الشيخ في لفظ الذكر قليلاً ، ويتابعه الذاكرون والمنشدون ، ثم يسرع أيضاً ، ويجعل حركة رأسه نحو اليمين والشِّمال ، ويتابعه الذاكرون في جميع أقواله وأفعاله ، ثم ينشد رئيس المنشدين أبياتاً ، ثم ينهض الشيخ والحاضرون كلهم ، فيذكرون الله على أشكال شتى وبألفاظ شتى ، فيقولون : لا إله إلا الله تارة على الشكل المعروف ، وتارة يضمون الكلمات فيقولون لُوا أُلوه إلّـو اللّـوه ، وتارة يقولون: لا يلاه إلا الله ، وتارة هُمْهُمْ الا اللوه وتارة يا اللّـوه ، وتارة أُمْ ، ويكررونها ويفصلون بينها بما يشبه النحنحة ، وتارة همهمهم يا اللوه ، وهكذا يأتون بألفاظ مختلفة .

والشيخ هو الذي ينقلهم من فصل إلى فصل ، ومن نغمة إلى نغمة ، فيبدأ ذلك ، ثم يتابعونه ، ويشير إليهم بيده أو يديه ، أو يضرب باحداهما على الأخرى لينتبهوا عند الانتقال من فصل إلى آخر ، أو من حالة إلى ما هو أسرع منها ، أو أخف ، أو للمحافظة على النغم والوحدة .

والمنشدون يستحثونهم بالنشيد ، كما يستحث الحادي الإبل

بالحِداء ، فاذا انتهوا قرأوا دعاءاً موروثا لهم ، أوله : نسأل المولى علينا يتوب ترضي مشايخنا ، وتصفى القلوب .. وهذا الدعاء يدعونه كلهم بصوت واحد عال ، ثم يدعو لهم الشيخ ، وينفضّ الجمع .

وقد ينبغ بعض الذاكرين ، فيتقن الالفاظ ، والافعال ، والحركات ، والسكنات ، ويحسن التحول والانتقال ، على وفق النظم والاداب المتبعة عندهم ، ومن كان كذلك يسمى ذِكّيرا .

وهذا الذكّير يظهر مهارته وبراعته في أثناء الذكر ، فيخالف القوم في تحركهم من اليمين إلى الشمال ، أو من الامام إلى الوراء ، ثم يعود بسرعة ، وإذا كانوا يميلون من الامام إلى الوراء ، مال من اليمين إلى الشمال ، واظهر كأن يخالفهم ، ثم عاد بسرعة إلى موافقتهم . وقد يبطىء إذا أسرعوا ، ويسرع إذا أبطؤا ، ويأتي بمثل هذه الاعمال للدلالة على قدرته ، ويدقق أحوال الذاكرين والمنشدين ، فيحسبون له حساباً .

وإذا أخذ الشيخ مالا على الذكر ، أعطى منه جماعته ، وأجزل حصة الذكّيرين ، وشيخ الطريق يقرب الذّكيرين

ويباهي بهم ، ويكرمهم ويخاف سخطهم ، فهم عنده بمثابة الأبطال عند قائد الجيش .

وإذا أمعن الانسان النظر في الأذكار ، وما يقع فيها من تحريف اسم الله ، ومناداته بصور فظيعة ، وما يحدثه الذاكرون من الأوضاع والحركات الشاذة بين يدي الله ، انكرها أشد الانكار ، لأن الله جليس الذاكرين ، والأدب يقضي عليهم بأن يكونوا في مجالسته على غاية من الهدوء والسكينة والأدب مع أن هؤلاء ينادون الله بصيغ وصور ملحّة متتابعة محرفة ، ولو نادوا بمثلها عبداً من عبيد الله ، وتصرفوا باسمه كما تصرفوا باسم الله ، للطمهم في وجوههم وصفعهم في أقفيتهم ، وسيأتي لهذا الكلام ما يتممه .

وأما الشاذلية ففريقان : أحدهما ينتسب إلى الشيخ علي الدفين في ترشيحا ، وهذا الفريق لم يكتب له التوفيق في المعرة ، لأنهم أنكروا عليه شيئاً من أعماله المنكرة ، ونسبوا إليه أفعالاً مخزية ، ثم طاردوه في المعرة ، حتى نضب معينه ، وفقد من يعينه .

والفريق الثاني ينسب الى أبي الحسن الشاذلي [1]، وهؤلاء يجتمعون في كل صباح ، بعد صلاة الصبح في المسجد ، ويقرؤن ورد الشاذلية ، ثم يذكرون الله قعوداً ، ثم قياماً ويحرفون لفظة الجلالة ، فيجعلونه آ ، وتارة بين آ وأو ، وهكذا وينشدهم بعض الذاكرين شيئاً من كلام القوم ، أو الغزل الذي يريدون به الله أو رسوله .

والناس يألفون هذا الفريق ، ولا يجدون ما ينكرونه عليهم ، لأنهم كلهم كهول أو شيوخ ، ولا يجتمعون في خلوات خاصة .

الحياة الاجتماعية :

وأما الحياة الاجتماعية فيها ، فهي جامعة بين الحياتين الحضرية والبدوية وفي أخلاق أهلها وعاداتهم شبه بأخلاق البدو والحضر ، نشأمن شدة اختلاطهم بهم ، فهم أصحاب نجدة وشجاعة وإباء وأنفة ، وكثيراً ما ثاروا في وجه الحكام ، أنفة من احتمال صغار أو إقامة على ضيم ، وقد كان أهل العصر الماضي والذي قبله اشد أنفة وشجاعة من أهل هذا العصر

---

(١) نسبة إلى شاذلة قرية من افريقية .

الحاضر ، فإنهم كانوا يصدون غارة البدو بأنفسهم ، ويذودون عن حياضهم بسلاحهم ، ولشد ما ثاروا على الحكام وقهروهم. وقد حدثني بعض شيوخهم أن الحكومة التركية كانت أرسلت مأموراً لسحب القُرْعة العسكرية، اسمه حكمي باشا فضاق به أهل البلد ذَرْعاً ، فثاروا عليه ، وحصروه في دار الحكومة وهمُّوا بقتله ، لولا أنْ حماه مفتيها وبعض أعيانها ، ثم جاءت قوة من الجند من حلب فأنقذته ، وقد أسلفنا ما لأهلها من المواقف في حرب الصليبيين وغيرهم ، مما يدل على شجاعتهم ، ولا تزال هذه السجية في أكثر أهلها .

وهم أسخياء وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على جود أهلها ، منها : ما ذكره المؤرخون ، وهو أن أبا تمّام[١] كتب

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي الشاعر الأديب ، وقد ولد بجاسم من قرى حوران بسورية سنة ١٨٨ هـ ورحل إلى مصر ، واستقدمه المعتصم إلى بغداد ، ثم ولي بريد الموصل، وتوفي بها سنة ٢٣١ هـ (ملخصة عن الأعلام للزركلي ٢ : ١٧٠ ، ١٧١ ومعجم المؤلفين لكحالة ٣ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

إليهم كتاباً أوصاهم فيه بالبُحتُري [1] ، فوظفوا له أربعة آلاف درهم في كل سنة ، وسيأتي في تراجم الرجال ما يدل على سخاء المتقدمين من أهلها .

أما في عصرنا الحاضر فقلما تجد فيهم بخيلاً ، على رقة حالهم ، وقلة ذات يدهم ، وان احدهم ليؤثر ضيفه على نفسه وأولاده ، وربما باع ما يملكه من اثاث ورياش ، وقدمه لضيفه او لعافِيه ، وهو طيب النفس، مسرور مغتبط بذلك، وأهل المدينة والضاحية في ذلك سواء ، ولا تجد الى يومنا هذا في المعرة خانا ، او فندقاً للمسافرين [2] ، الا خاناً وَقفاً للقوافل لأن بيوت أعيانها وغيرهم مفتحة الأبواب لكل ضيف أو زائر او مارّ بالمدينة ، وربما تصدى بعضهم للمارة ليكونوا ضيوفاً عنده ، ولا ينزل في خانٍ أحدٌ يعرف أحداً

(١) هو الوليد بن عبيد البحتري الشاعر الأديب ، وقد ولد بمنبج من أعمال حلب سنة ٢٠٦ هـ ، ونشأ بها وخرج منها إلى العراق ، وأقام ببغداد ثم عاد إلى منبج وتوفي بها سنة ٢٨٤ هـ . (ملخصة عن معجم المؤلفين لكحالة ١٣ : ١٧٠ - ١٧٢)

(٢) قد رأيت أثناء زيارتي للمعرة في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م فندقين متواضعين ربما أسسا بعد وفاة المؤلف .

من أهلها ، وربما نزل بهم من لا يعرفهم ، فلقي من الحفاوة وكرم الوِفادة ما يبهره .

وهم أصحاب غيظ وحقد وحب الانتقام وحسد على كل نعمة. ولقد عرفت كثيراً من الناس كان يضيّق على أهله في الرزق لضيق يده، ويبذل الأموال الكثيرة ليضر عدواً له ، وكان الآخر لا يألو جهداً في ذلك ، فكان هذا وذاك ، وأشياع كل منهما يسرفون في البذل لحكومة المعرة وحلب والآستانة ، فيغنى هؤلاء ويفقر أولئك ، ويتفاقم الشر وتنمو الضغينة ، وتتوارث العداوة والأحقاد ، وكل فريق يستفرغ المجهود في ضر الفريق الآخر من تخريب عامر ، وقطع شجر ، وقتل دواب وانعام ، ورعي زرع ، ولو استطاع لأحرق خصمه ، أو أكله حياً ، والحكومة تمد كل واحد في غيه ، وتساعده على بغيه ، حتى تقوض عُمران المدينة ، وانطمست معالم حضارتها ، وأخصب الجهل فيها وأمرع وادي الشر ، وأصبحت بعد اتساع رقعتها ، وكثرة سكانها ، وغزارة العلم والأدب فيها ، شبيهة بالقرية الكبيرة الخربة ، قليلة السكان ، بعيدة عن العلم والحضارة ،

مسرحاً لا يمثل فيه إلا الروايات المحزنة ، والفواجع المخزية .

وأهل المعرة أذكياء ذوو فطنة ونباهة، ميالون الى البطالة وترك الأعمال في الغالب ، فلم يجدوا ما يصرفون فيه ذكاءهم ونباهتهم وأوقاتهم إلا إيذاء بعضهم بعضاً ، وانتقاد كل منهم صاحبه ، ولعل هذا الخلق فيهم كان قبل العهد التركي ، فان صاحب قصيدة الفراسة [١] يقول فيهم :

في شَيْزر وأختها المعرة   خلائق الجهل وطبع الشرة

فشيزر جهل بلا مضرة   والفهم والضر لدى المعرة

ويخيل إلي أن من أعظم العوامل في استفحال هذا الداء في المعرة هو البطالة ، لأن الناس فيها طبقتان : أشراف ،

---

(١) هذه القصيدة نشرت في الجزء الثالث من المجلد الثاني عشر من مجلة المجمع العلمي العربي في الصفحة ١٧٢ (ج) وقال كامل الغزي ناشر هذه القصيدة : هي أرجوزة تعد ٢٣٣ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الأجناس وما خص كل جنس من جميل الطبع وقبيح الخلق وأثر كل بلدة بأهله ... إلى أن قال : لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لابن العجمي المتوفى سنة ٨٨٤ هـ

وهم الأعيان ، وغيرهم وهم التجار والعمال والزراع ، فالأعيان يعيش أحدهم بما ورثه عن سلفه من مال وعقـار ، ولو كان قدر ما يسد به الرمق ، أو أدنى ، ويحتفظ لنفسه بمركز آبائه السابقين ، وما كان لهم من الأُبهة والعظمة ، وإن بات جائعاً ، أو يعيش مما يسلبه من الناس إن كان عاملا في الحكومة ، وهذا يضيف الى أُبهة سلفه ما عنده من عجرفة وفخفخة وعُنْجُهِيّة ، ويحمل الناس على أن يسجدوا له ، لأنه جمع بين الحسب التليد والطريف ، وليس لكلا الرجلين نصيب مـن العلم يثقف عقله ويبين له أن ليس في عمله الا ما يندي الجبين ، ويطأطىء الرأس ، ورجال الحكومة كما قلنا يمدون كلا في ضلالته وجهله .

وأما طبقة العمال فمنهم التاجر ، والبقال ، والسمان ، والنجار ، والحداد ، والحذاء ، ومن شاكلهم ، والمدينة لقلة أهلها ، وكثرة فقرهم ، يكفيها عدد قليل من هذه الفئة ، ولكن الطمع وحب الكسب ليس لهما حد يقفان عنده ، ولذلك ترى في سوق المعرة عدداً كبيراً من التجار ، والجزارين ، والبقالين ، والفاكهيين ، وغيرهم .

والعادة التي أدركناها فيها ، أن كل إنسان يؤم السوق في أول النهار ، فيبتاع ما يحتاج إليه ، وفي الضحوة الكبرى إلى المساء ، لا تجد غير الباعة الكثيرين يصرفون بقية يومهم في الأحاديث والتنادر والمجازرة ، حتى ضرب المثل العامي بكثرة البائعين وقلة المشترين ، فقيل فيه : سوقُ المعرة ألف بَيّاع ولا شَرّاء ، ومن العمال : الصناع ، وهم محصورون في الحاكة ، والصباغين ، والصواغين ، والحذائين ، واللبادين ، والنحاسين .

أما الحاكة فكانوا في القديم يحوكون الخام ، ويتخذ منه الناس القمص والسراويل وثياب البدو وما شاكلها ، فغلبت عليهم البضاعات الافرنجية ، فانصرف الناس عن حياكة الخام ، واقتصروا على حياكة العباآت المخططة ببياض وسواد أو غيره ، ويسمونها العباءة المدّففة ، وكانت جيدة متينة ، فاعرض الناس عنها ، واقتنوا من صنع العراق والعجم ، لأنها أحسن وأثمن ، فكادت تموت هذه الصنعة .

وأما الصباغون فهم يصبغون ملابس البدو والعمال باللون النيلي والأسود لا غير ، وهم كثيرون ، ولذلك كان أكثرهم

فقراء ، لأن المدينة يكفيها ثلاثة أو أربعة ، وفيها أكثر من ذلك ، وقد أخذ الناس يستغنون عن صبغ الثياب عند هؤلاء بالثياب الافرنجية المصبوغة ، ولا تلبث أن تموت هذه الصنعة .

وأما الصاغة فعملهم مقصور على لحم الحلي للأغنياء ، وصنع الخواتم للبادية ، وهم عاجزون عن صوغ حلي من أسورة وغيرها لقلة عملهم ، لأن معظم الناس يأخذون ما يريدون من حلب أو حماة ، وكذلك شأن النحاسين .

وأما الحذاءون فقد كانوا يصنعون الأحذية للحضر والبدو «وهي المعروفة بالصرماية والخف والجزمة» ، ثم انصرف الحضريون إلى اتخاذ أحذيتهم من حلب ، وكذلك أهل القرى والضاحية ثم انصرف الحضريون إلى لبس الحذاء المعروف بالقندرة وفروعها والسباط والبوط ونحوهما ، وأكثرهم يبتاعون أحذيتهم من حلب وحماة ، ولذلك نجد صناع هذا النوع قليلين في المعرة لأن عملهم في الغالب منحصر في الترقيع والاصلاح .

وأما صناعة اللبادين فقد أعرض أهل المدينة ، وأكثر

أهل القرى والبادية عن اقتناء اللبّاد ، واستعاضوا عنه بالسجاد لرخص ثمنه وطول بقائه ، واللباد هو على شكل البساط يتخذ من صوف منفوش ويلف ثم يوطأ بالارجل حتى يتلبد ويصير كالسجاد إلا أنه لا خمل له ، وفي وسعنا أن نقول : ليس في المعرة تجارة ولا صناعة يستطيع أهلها أن يعيشوا منها عيشة راضية ، فضلاً عن أن يكونوا أغنياء منها .

وأما الزُرّاع فهم أصحاب البساتين وأصحاب الأرضين ، والقسم الأول هو الذي يسقي زرعه من ركايا عميقة ، يختلف عمقها ما بين عشرة أمتار إلى أكثر ، وأحياناً يكون أقل من ذلك ، يجتمع فيها الماء مما يتحلب من أرضها وجدرانها ، ومما يسيل إليها من المطر ، يستخرجونه منها بواسطة دواليب تديرها دواب ، وعلى الدولاب حبلان يتخذان من أعواد الشجر الدقيقة ، فتلهما محكم ، ويصل بين الحبلين أعواد ، وعلى كل عود إناء يغرف الماء من الركية ، يسمونه قادوسا وبين القادوسين نحو خمسين سانتيمتراً ، ويسمون الحبال مع ما عليها صَمْدَة ، وهي مستديرة تغوص في الماء ، فاذا دار الدولاب دارت

الصمدة ، فخرجت القواديس الغائصة في الماء مملوءة ، ودخل في الماء بعض القواديس الفارغة فيمتلىء ، وهكذا فإذا وصل القادوس المملوء إلى قرب الدولاب ، ابتدأ يصب ما فيه من الماء على صندوق من دف واسع ، فاذا وصل إلى أعلى الدولاب صب جميع ما فيه ، وسال الماء المصبوب من ثغرة في الصندوق إلى ساقية ، ثم يصب في بحيرة يجتمع فيها الماء ، ثم يسقي به صاحب البستان ما يشاء من زرعه ، وربما اتخذت الصمدة من حديد ، إلا أنها تكون ثقيلة على الدواب .

وأصحاب البساتين يزرعون أنواعاً مختلفة في الصيف والشتاء يسقونها من ماء الركايا المذكورة ، ويسقون الأشجار التي يغرسونها بين الزرع وعلى حافاته ، وربما نضب الماء في السنوات التي يقل فيها المطر والثلج ، فيجف الزرع وتيبس الأشجار ، وينقلب الزارع بعد آماله الواسعة إلى يأس موجع وفقر مدقع [1] .

---

(١) وقع السيد الوليد طالب وزير الشؤون البلدية والقروية عقداً في ٢٣ نيسان سنة ١٩٦٣ م مع أحد المتعهدين ، لتقديم وتركيب التجهيزات الميكانيكية والكهربائية ، لمشروع مياه معرة النعمان ، وتبلغ كلفتها ٥٨٤٥٤ ليرة سورية والجدير بالذكر أن هذا المشروع قد كلف الوزارة حتى الآن بأعماله ـــ

وأما أصحاب الأرضين فانهم يزرعونها حنطة وشعيراً وذرة وعدساً وجلبانا وما شاكل ذلك ، وكلها تسقى بماء السماء ، فاذا أخلفهم الغيث حالفهم البؤس والشقاء .

وقد كانوا لا يعنون بزرع القطن والبقول والخضر العذِّية ثم صاروا في العهد الأخير يزرعون جميع ذلك .

وقد دلت التجارب على أن تربة المعرة خصبة ، وأن مناخها ملائم لكثير مما يغرس ويزرع ، فقد يجود فيها شجر الزَّيتون والجَوْز واللَّوْز والمِشْمش والتُفَّاح والتُوت والفِرْصاد [١] والكُمَّثْرَى والخَوْخ والكَرَز والفُسْتُق والتِينْ والعنَب والسُمَّاق والرُمَّان والزُعْرُور [٢] وغيرها .

وقد يكون من الجنس الواحد أنواع متعددة ، كالمشمش

— وتجهيزاته مبلغ ٣٦٢٦٥٢ ليرة سورية ، وهذا يكفي لارواء ٣٠ الف مواطن موزعين في أربعة قرى هي : معرة النعمان ، كفر نبل ، الحاس ، وكفر روما .

(عن جريدة الوحدة العربية بدمشق السنة ١ العدد ٥٠)

(١) جنس شجر من الفصيلة القراصية والقبيلة التوتية ، تزرع لثمرها يأكله الإنسان أو لورقها يطعمه دود قزية التوت (عن معجم الألفـاظ الزراعية للشهابي ص ٤٣٩) .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص٦٩ ، شجر مثمر معروف من فصيلة الورديات .

والكمثرى والتين والعنب والفستق ، فان في هذه الأجناس أنواعاً ، منها ما هو غاية في الجودة ، ومنها ما هو متوسط . فالمشمش يكون أنواعاً منه ما يسمى شكربارة وهو أجودها ، ومنه ما يسمى اللوزي ، ومنه المرّي وغيره .

والكمثرى ويسميه بعض العامة انجاصا ، وبعضهم عرموطا ، وهو محرف عن التركية ، كذلك يكون أنواعاً متفاوتة في الجودة والطيب .

والتفاح منه نوع يقال له : خشخاشي ، وهو حامض طيب الرائحة ، ومن الحلو أنواع متعددة .

وأما العنب فأنواعه كثيرة منه : الفُوعي وهو أبيض مشرب بصفرة ، حبه مستطيل قليلاً ، وقشرته غليظة ، ويشتد حلاوة إذا نضج ، وأهل المعرة يكثرون من غرسه ، لأنه يحمل كثيراً ، ويتحمل الحر والبرد ، ويتخذون منه الزبيب والدبس من عنبه وزبيبه ، ومنه البلدي أو الرومي وهو أبيض رقيق القِشْرة ، كرَوي الشكل ، حلو كثير الماء ، ويتخذ منه عنب ، ومن عنبه وزبيبه دبس وهو أطيب من دبس الفوعي وزبيبه .

والسباعي لونه أسود ، وحبه مدحرج كروي ، وقشرته غليظة ، وماؤه كثير ، وحصرمه شديد الحموضة ، ويحمل من ثلاث مرات إلى سبع .

القِرِمْشاني لونه ضارب إلى الصفرة ، وحبه كروي ، كبير الحجم ، كثير الماء والحلاوة ، وقشره غليظ ، وهو صلب ، وقد يتخذ منه دبس .

الحَفَرْزَلي لونه أحمر ، ضارب إلى السواد ، وحبه مستطيل وقشره غليظ ، وعناقيده مستطيلة ، ويتخذ منه زبيب جيد ، ودبس جيد ، وقد قلّ في المعرة في الأيام الأخيرة .

والزَّيني ويقال له :اصبع زينب،أواصبعة زينب ،ولونه أصفر ، وحبه مستطيل رفيع ، وحلاوته غير شديدة ، والناس لا يتخذون منه زبيباً ولا دبساً ، وبعض الناس يسميه الزيني .

الخَلّيّ لونه أسود ، وحبه كروي ليس بالكبير ، وماؤه كثير ، ويتخذ منه الخل في الغالب ، وقد يتخذ منه دبس .

البطاني أو الشامي لونه أبيض ، وحبه كروي الشكل ، كبير الحجم ، كثير الماء ، شديد الحلاوة ، وقد يتخذ منه زبيب ودبس ، وهو قليل في المعرة .

وأكثر ما يعنى أهل المعرة بالعنب الفوعي ، لأنه كثير الحمل والماء ، سريع النضج ، طويل البقاء يصلح للزبيب ، ويتخذ الدبس من عنبه وزبيبه .

ولهم طريقة في حفظ العنب إلى زمن الشتاء ، وهي أن يقطع الغصن الذي فيه العنب ، ويحفظ في مكان لا تراه فيه الشمس ، ويقل فيه الهواء ، وأحسن منها أن يؤخذ العنقود مع الغصن الذي يكون فيه ، ثم تحفر حفرة عميقة ، ويدلى فيها العنقود والغصن ، بحيث لا تمسه الأرض من جميع جهاته ، ثم تغطى الحفرة ، ويبقى العنقود متدلياً في الهواء ، متصلاً بالشجرة التي أخذ منها ، فيمتص منها ما يعيش به إلى فصل الشتاء ، فاذا أرادوا أكله كشفوا عنه الغطاء ، وأخرجوه غريضا طريا ، ويقال للغصن مع العنقود : دَارُوخ ، ويقال : داروخ أيضاً للجفنة المستطيلة الشكل المنبسطة على الارض الكثيرة الحمل .

وأما التين فأنواعه كثيرة في المعرة ، منه :

السلطاني وهو كبير الحجم كالكرة المبسطة ، ولونه يضرب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل رطباً ويابساً .

المُعَنَّق ثمره كبير الحجم على شكل الكمثرى (الانجاص) ولونه ضارب إلى الصفرة ، وهو شديد الحلاوة ، ويؤكل رطباً ويابساً .

الشُوشاري لونه خمري ، فيه حمرة إِلى السواد ، كبير الحجم ، غليظ القِشرة ، حلوه شديد ، ولا يتخذون منه يابساً ، وبعضهم يسميه شنشاري .

الخضرَاوي لونه أخضر وهو كبير الحجم ، ويبقى إلى نهاية الخريف ، وهو قسمان : كبير الحجم ويسمى كف العرب ، وصغير بالنسبة إِلى الاول ويسمى خضراوي ، ولا يتخذون منه يابساً .

الِحيشاوي لونه خمري ، وطعمه حلو ، ويؤكل أخضر ويابساً ولعله منسوب إِلى قرية حيش من عمل المعرة .

هَاربي لونه الخارجي أصفر ، ولون داخله أحمر ، وفيه شيء من الحموضة ، ولعله منسوب إلى الهارب ، والهارب في عرف المعرة حديقة تسيل إليها مياه الحمام ، فتجتمع في بحيرة ، وتسقى منها أشجار الهارب ، وقد كان في المعرة هاربان : أحدهما في

المحلة القبلية ، والثاني في المحلة الشمالية ، ثم اندرس هذا وجعل مكانه طريق يصل ما بين السوق والجامع ومقام السلطان أو ليس كما ذكرناه في موضع آخر .

الكرسعاوي لونه خمري ، وحجمه صغير ، وطعمه حلو ، وينضج قبل غيره ، ويؤكل رطباً ويابساً وأظن أنه منسوب إلى كرسعة قرية من عمل المعرة .

وفي المعرة من كل جنس أنواع غير ما ذكرنا ، ولكننا اكتفينا بالمشهور ، وفي ضاحيتها كذلك أنواع متعددة .

شجرة الحمض :

دلت التجارب على أن أشجار الحوامض لا تعيش في المعرة كثيراً ، لأن وطأة الشتاء فيها شديدة ، وقـــد يكثر الصقيع فيهلكها ، ولذلك يقل فيها شجر الليمون والكَبّاد والبُرْدُقان وما شابهها . وكذلك شجر النخيل والمَوْز وغيرهما لا يعيش كثيراً .

وتنبت أرضها الحِنْطة الجيدة والشعير الجيد الكبير الحجم ، وجميع القَطاني التي يريدونها كالعَدس والجُلْبان ، والذُرَة الصفراء والبيضاء والحِمص .

وفي بساتينها يزرع كل ما يزرع من السقوي كالخِيار والقِثّاء

والكُوسا[١] والقَرْع واللُوْبِيَاء والباذِنْجان والبندورة[٢] والبامِيَة والفاصُوْلِياء والفَاْيفِاة الخضراء والحمراء والخَسّ والفُجْل والبَصَل والجَزَر واللِّفْت والشَوَنْدَر والسِاْق والكَرَنْب والكُرّاث والبراصيا والفُول والمَلْفُوف والقُنَّبِيْط والحَرْشَف (انكي نار) ، أرضي شوكي[٣] .

ويزرع في أراضيها الآنسون والسِمْسِم والقُطْن والبِطِّيخ الأحمر الجيد والأصفر ، وأجوده المسمى قاوون .

وكثير من هذه الاشياء يزرع عذياً ، فلا يسقى بغير ماء السماء ، ويكون جيداً غضاً ، ومنه ما هو أطيب من المسقي بالماء .

وقد تقدم ما يدل على أن القطن كان يزرع في المعرة منذ ستة قرون فأكثر ، وأنا أعرف جماعة في المعرة كانوا يزرعونه قبل هجرتي منها .

وأكثر الزُرّاع في الضواحي وجمهور الأغنياء من أهل المعرة ، يتخذ عمالاً لزراعته ، ومن يزرع بنفسه يشغل نفسه في زمن

---

(١) في معجم الألفاظ الزراعية للشهابي ص ١٩٢ : كُوسى ، كُوسة .

(٢) في معجم الألفاظ الزراعية ص ٦٤٥ : بَنَادُوْرَى .

(٣) في معجم الألفاظ الزراعية ص ١٢٤ : شُوَيْكي .

الحرث والزرع والحصاد والتذرية ، ثم يبقى بلا عمل بقية أوقاته .

ومما أسلفنا يتبين أن معظم الناس لا عمل لهم ، ومن له عمل منهم ، لا يشغل عمله إلا وقتاً قليلاً من حياته ، فلا يجد ما يصرف فيه بقية أوقاته ، إلا اجتماعه باشباهه ، ومشاركته إياهم في نقد زيد وسب عمرو ، والاعتراض على بَكْر والكيد لهذا ، والانتقام من ذاك ، ثم ينمي الاجتماع هذه الشرور ، ويهوّن على الانسان ضر غيره ، ويجرئه الانتقام والافتراء في سبيل الانتقام ، فيزداد الحسد وتتفاقم الضغينة ، ويستفحل الحقد ، ويستطير شَرَر الشرّ ، حتى يستعذب المُرّ ، ويستسهل الصعب ، ويطمع كل في القضاء على غيره ، ويطمح إلى أن يخلفه في مركزه ، فلا يدخر وسعاً في سبيل ذلك .

ولذلك أصبحت المدينة في أخريات المدن ، كما أصبح أهلها في أخريات الناس من حيث العمران والحضارة والعلم والتجارة والصنعة .

ومن العجيب أنك لا تحدّث واحداً من أهلها إلاّ وجدته ينكر على غيره مثل ذلك ، وهو يفعله ، ويقبح هذا العمل

ويقترفه ، ويعترف لك بأن الفساد منتشر في المدينة وضاحيتها ، ويتوجع من ذلك ويأسف ، ولكن مثلهم مثل الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، وقديماً ما درج على السنة العامة والخاصة منهم هذان البيتان وهما من شعر العامة الملحون المختل الوزن :

ان المعرة مضره   فيها الفساد مؤبد
كيف اسكن المعرة   وانا من أمة محمد

وأظن أن بعض العامة أخذه من قول شرف الدين ابن البارزي ، حين ولي قضاء شيراز :

إنما شيراز نار   وبها القاضي مخلد
قلت لا أمكث فيها   أنا من حزب محمد[1]

هذا مجمل الحالة التي كانت عليها المعرة وأهلها إلى سنة ١٣١٩ هـ ، وظلت عليها إلى أن جلت الأتراك عنها ، وقد أغفلنا ذكر شيء مما يتعلق بعمرانها ، وأرجأنا شيئاً آخر إلى وصفها في هذا العصر خشية التطويل والتكرار .

---

(١) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ٣٨٠ (ج) .

طريقة العثمانيين في أخذ الخراج والضرائب :

سلك العثمانيون طرقاً مختلفة في طرح الضرائب والمكوس وجباية الأموال من الناس .

وقد ذكر المؤرخون أن اقطاع ايالة حلب وخراجها ، كان يبلغ مسانهته ثمانمائة وسبعة عشر ألف آقجة ، وكل ثلاث آقجات بارة ، وكل أربعين بارة قرش ، وقد كان في هذه الايالة مائة وأربع زعامات ، وسبعمائة وتسعة وتسعون اقطاعاً ، وحاميتها ألفا فارس وخمسمائة فارس .

ولما فتح محمد علي باشا المصري بلاد الشام ، كان يأخذ من الأجانب من رسوم المكوس والضرائب ، أقل مما يأخذه من أهل البلاد ، حتى اضطر بعض التجار إلى ابتياع حماية الأجانب ، ليستطيعوا أن يتجروا ، وكان فرض على كل رجل ساكن في المدينة ضريبة تسمى « الفردة » ، تختلف من خمسة عشر قرشاً إلى خمسمائة قرش ، بحسب حال الرجل ، ولما عاد الترك إلى البلاد وجدوا صعوبة في جبايتها فأبدلوها بضريبة على البيوت .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ قسمت الدولة العثمانية بلاد الشام إلى ايالتين : ايالة دِمَشق ، وايالة صَيْداء ، ويدخل في الأولى دمشق ، والمَرْج ، والغُوطة ، ووادي العَجم ، ووادي بَردى ، وجبل قَلَمُون ، وحماة ، وحِمْص ، وبَعْلَبَكّ ، ومَعَرّة النُّعْمان ، وعَجْلون ، والبِقاع ، وحاصبيا ، وراشيا ، وحَوْران ، وجبل الدُّروز ، وحِصْن الأكراد ، والقُنَيْطَرة ، وكان دخل هذه الايالة من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة « ٤١٨٠٥ » أكياس ، والكيس خمسمائة قرش ، يضاف إليها « ٩٠٠ » كيس ، كانت تدفعها الخزينة إلى الأوقاف ، وهذا عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحصن الاكراد ومعرة النعمان وعجلون عينا من الأعشار والرسوم ، وهو « ١٨٧٥٩ » إرْدَباً من القمح ، و « ٢٥٨٨٤ » اردباً من الشعير و « ٩٥١ » من الذُّرَة ، و « ١٣٣٩٣ » أوقة من السمن ، و « ٣٢٠ » اوقة من الحرير ، و « ١٣٠٠ » رأس من الغنم .

خصائص المعربين :

إذا استقرى الانسان تاريخ المعربين في القديم والحديث ، تبين أنهم يتشابهون في بعض الخصائص ، ولعدم اطلاعنا على تاريخ المتقدمين اطلاعاً كافياً ، لمعرفة حالهم حق المعرفة ، نجد في المتأخرين خصائص لم نقف على مثلها في أخبار السابقين.

فمن الخصائص المشتركة في غالب الأزمان ، تكنية الولد صغيراً ، فان المتقدمين كانوا يكنون أطفالهم بمثل أبي العلاء ، وأبي المجد ، وأبي النَّدى ، وأبي الحسين ، وأبي الفتح ، وأبي المكارم ، قبل أن يولد لهم أولاد ، وربما لا يكون لهم أولاد ، وقد ظلت هذه السنّة متبعة حيناً من الزمن ، ثم تهاون بها الناس قليلاً في أخريات العهد التركي ، وفي الزمن الأخير منه أساء فريق من الناس استعمالها ، فقد كانوا يكنون أشخاصاً بكنى مستهجنة كأبي خُرج ، وأبي العِنَب ، أو مستقبحة بذيئة كأبي سُرْم [١] ، ولكنهم في هذا العهد رجع فريق منهم إلى التكنية كما كان في العصور السابقة .

---

(١) أي طرف المعي المستقيم والدبر .

ومن الخصائص المشتركة أيضاً التلقيب ، فإنك تجد كثيراً في أسماء المتقدمين مثل : نجم الدين ، وتاج الدين ، وبدر الدين ، وشمس الدين ، وشرف الدين ، وزين الدين ، وكمال الدين . وقد كان هـذا قليلاً في العصور الاول ، كثيراً في العصور الوسطى ، وأول من عرفته من أهل المعرة ممن لقب بمثل ذلك بهاء الدين ابراهيم بن شاكر أبي اليسر التنوخي المولود سنة ٥٦٥ هـ ، وابنه تقي الدين اسماعيل بن ابراهيم المولود سنة ٥٨٩ هـ ، ونجم الدين بن أسعد بن حلوان المولود سنة ٥٩٣ هـ ، وأخوه موفق الدين المتوفى سنة ٦٤٢ هـ .

وأما العصور المتأخرة فقد درج أصحابها على طريقة الترك ، فيسمون الولد محمداً أو أحمد أو غيرهما ، ثم يلصقون به لقباً ، ليفرق بينه وبين من يشاركه في اسمه ، مثل : سليم وأمين وصالح ومدحة ، وكان العامة يسمون هذا اللقب مخلصاً ، وربما كان اللقب أعجمياً أو عربياً غير فصيح ، مثل : محمد نيازي ، أحمد عزمي ، جواد حقي .

ومن هذه الخصائص المشتركة تكرار الاسم في الاسرة

الواحدة ، وتسمية الحفيد باسم الجد ، كما ترى مثل ذلك في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد ابن سليمان ، وفي مثل محمد سليم بن محمد تقي الدين بن محمد سليم ، ومنهم من يكرر الاسم في الاب والابن والحفيد كما ترى في ترجمة محمد بن محمد بن محمد . وقد رأيت في حجة شرعية من محكمة المعرة محمد بن محمد بن محمد الجندي ، والغالب أن يكون مثل هذا ، إذا كان الجد أو الاب أصاب حظاً ، أو منزلة سامية في الحياة ، فانهم يسمون باسمه ، تعظيماً لشأنه باعادة اسمه وتفاؤلاً به ، ليكون الولد أو الحفيد كالاب أو الجد .

ومن خصائص المتأخرين ضعف العصبية القومية والوطنية ومن آثار هذا الضعف أن الرجل منهم قد يبلغ منزلة عظيمة في العلم أو الادب ، أو الإمرة ، أو غيرها ، فيستهين به أقرباؤه ، وأبناء وطنه ، وكلما ارتفع شأنه ازدادوا استخفافاً به ، وتحقيراً لأمره ، وربما تألبوا عليه واغروا به ، وكادوا له ، حتى يخمدوا جذوته ويخضدوا شوكته .

وإذا طرأ عليهم طارىء غريب التفوا حوله ، ورفعوا شأنه ، وعظموا الصغير من أمره ، وخصوه باحسانهم ، وغمروه بمنحهم ، وافترَوا له من المناقب والمكارم ما ليس فيه ، وقد يكون فيهم من هو أكثر منه علماً وأشد ورعاً وأفضل في كل شيء ، ولكنهم ينابذونه [١] ، وينابزونه [٢] بالألقاب المستهجنة ، وكثيراً ما كنت أسمع من شيوخ المعرة وأنا صغير إذا رأوا مثل هذا ، تمثلهم بقول القائل: أزهد الناس في الرجل أقرباؤه ، وبقول الشاعر:

لاعيبَ لِي غيرَ أني من ديارِكمُ وزامرُ الحي لم تطرِب مزامرُه

على أن هذا الخلق عام في السوريين جميعاً ، ومن استقرى أحوالهم وجد ألوفا من الشواهد والأدلة على ذلك ، وقد رأيت في دِمَشْق غير واحد من رجال المغرب يأتي المدينة ، وهو أشعث أغبر ، بالي الطِمْر ، حافي القدمين ، لا يملك من متاع الحياة وعُدَد الارتزاق الا بُرْنُسا بالياً ، وسواكا من أراك ، وسبحة عظيمة الحب ، وصرة من بخور يضعها في عمامته ، ومكحلة

(١) أي يخالفونه ويفارقونه عن عداوة .

(٢) أي يعيرونه .

ومروداً ، فإذا دخل المدينة عمد إلى مسجد من مساجدها ، فاذا أقيمت الصلاة صلى صلاة متواضع خاشع ، فاذا فرغ من صلاته بقي مستقبلاً القبلة ، وجهر بأوراده وأذكاره ليسمع الناس ، ثم لوى عنقه على صدره وأغمض عينيه ، وسكن كأنه خشبة مسندة ، لا ترى ولا تسمع منه إلا قرع سبحته وتحريك شفته ، فاذا رآه رجل من البلد من أهل المدينة أقبل عليه وجلس على ركبتيه وقبل يديه ، وتودد إليه كأنه ولد فقده ثم وجده ، أو كنز كان ينقب عنه ثم ظفر به ، فينظر إليه نظر المعرض عنه ، ليفهمه أنه لا يريد أن ينصرف عن ورده قبل أن يتمه ، فلا يزال يثني عليه ويتلطف به حتى يلتفت إليه ، فيدعوه إلى منزله ، فيأبى ، فلا يزال يلح عليه ، حتى يصحبه إلى منزله ، فيدعو جماعة من إخوانه وأشباهه ليشتركوا معه في التبرك به ، ثم يسرد طائفة من مناقبه كأنه يعرفه منذ حداثته ، ويفتري له من المكارم والكرامات ، ويبالغ في مدحه بقدر ما أُوتي من حول وطول في الكذب والاختلاق ، فيتزاحم الحاضرون على دعوته إلى منازلهم ، فيتعفف ويأبى ،

فلا يزالون به حتى يجيبهم واحداً بعد آخر على كره منه ، وكل واحد منهم يدعو في نوبته طائفة من أصحابه ليعرفهم بالشيخ ويعرفه بهم ، فيتبارون في دعوته ، فلا يمضي قليل من الزمن حتى يكثر مريدوه وأشياعه وأتباعه ، وهو يقرأ عليهم في كل مجتمع شيئاً من البردة ، أو المنفرجة ، أو الجلجلوتية ، أو نحوها ، ويحدثهم بأحاديث الجن وكيف يستطيع أن يسخرهم في أغراضه ، فيعطونه كرائم أموالهم ، ثم يهبونه من أفضل منازلهم ، ثم يزوجونه أكرم عقائلهم ، فاذا عاش وارتاش قال : إنه من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإنه كان يخفي ذلك تواضعاً ، فيزداد أولئك الأتباع تعظيماً له ويزيدون في بره وإكرامه ، فاذا تمكن من قلوبهم أوحى إلى نفر منهم أن يسعى له بوظيفة ، اما درس في مدرسة ، أو امامة في مسجد ، أو نحو ذلك ، فيعمل هذا هو وأصحابه ، ويستفرغون المجهود حتى يبلغوه مأمله ، ثم لا يلبث حتى يجيء بقريب له أو صديق فيسعى حتى يوظفه في منصب آخر بعد أن ينزع منه من كان فيه من أهل البلد ، ثم لا يزال هذا دأبه حتى يقصي

كثيراً من أبناء البلدة عن مرافق حياتهم ، ويستبدل بهم جماعة من أبناء جلدته ، حتى يصبحوا أُولي الحل والعقد في المدينة ، ويتخيروا أشرف الأنساب وأكرم الألقاب .

وقد يكون في أبناء أشياعهم من هو أفضل من هؤلاء الطُرّاء الذين لا يعرف من أمرهم شيء ، وقد يكون فيهم جواسيس للحكومات الأجنبية ولصوص وعيارون ودجالون .. ولا يبعد أن يكون مثل هذا في المتقدمين ، غير أن التاريخ ضن علينا به ، أو أننا لم نوفق إلى العثور عليه .

ومن تصفح شعر أبي العلاء في نقد الأخلاق والحياة الاجتماعية في عصره ، تبين له أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن أهل هذه المدينة اليوم يشبهون أهلها في ذلك العصر في كثير من الخلال السيئة والأخلاق الفاسدة ، ومن أقبح هـــذه الخصال أمور :

الأول الحسد ، وقد بينا أسبابه وما نجم عنه ، وفي شعر أبي العلاء وغيره كثير من ذم الحسد والحساد ، مما يدل على أن هذه العلة كانت متفشية في عصره ومصره .

الثاني الغيبة، فان الجمهور منهم يتفكه بنهش الأعراض، وانتقاص الناس ، ويعد ذلك من طُرف الحديث ، وريحان المجالس ، وأمارة على الشجاعة والجرأة .

الثالث النميمة ، تفشى هذا المرض في الأيام الأخيرة حتى أنك لا تكاد تحدث أحداً بشيء الا نقله عنك لايقاع الشر والفتنة ، فان كان من المحسنين لم يتزيد في حديثه ، وان كان غير ذلك زاد بقدر ما يحتاج إليه لايقاد الفتنة .

الرابع الصلف والتعجرف ، وأظهر موطن يتجلى فيه هذا ، أصحاب النسب الكريم والحسب القديم ، فالعباسيون مثلاً يريدون الناس على أن يعظموهم اليوم ، وان كانوا صعاليك أو جهلاء ، كما كانوا يعظمون المنصور والرشيد والمأمون ، والعلويون يحملون الناس على أن يكرّموهم ، كما كانوا يكرّمون علياً والحسن والحسين ، وان كانوا جهلاء ، فقراء ، أشقياء ، ومن كان أبوه أو جده موسراً يفرض على الناس أن يبجلوه كما كانوا يبجلون أباه ، وهكذا سبيل كل ذي حسب تليد إذا رأى أحداً انتفخ كالزق ، وتنفش كأنه خَرَب تنفج من حذار الأجدل .

أما ذوو الشرف الجديد والحسب الطريف ، فانهم يقسرون الناس على أن يعبدوهم ، وان كانوا كالأصنام في الجمود والجهل .

الخامس الاغراء والتحريش والقاء العداوة والبغضاء بين زيد وعمرو ، وهذا الخلق يلجأ إليه من كان موتوراً عاجزاً عن الانتقام ، أو من حيل بينه وبين أطماعه ، فلا يجد وسيلة يشفي بها علته ، أو يروي غلته ، إلا تسليط هذا على ذاك ، وربما أضرم فتنة التهمت الأخضر واليابس .

السادس حب الأثرة فان الرجل منهم يريد أن تموت المدينة بأسرها ليحيا وحده ، ولذلك ترى أكثرهم في صراع دائم وجدال مستمر ، يسعى كل واحد إلى إبادة خصمه ، فيسد عليه مسالك الهواء ، ويشدد الخناق ، ولا يدخر وسعاً حتى يظفر ، أو يقبر ، وقد تمالئ الحكام أحدَ الفريقين ، حتى يضعف الآخر ، وربما انقلبوا على الأول ، وانما يريدون اذلال كل منهما ، واستلاب ماله ، وتفريق رجاله ، فاذا تغلب أحدهما لا يلبث أن يصطدم بآخر ، فيقع بينهما ما وقع بين الأولين والرابح في كل حال رجال الحكومة ، لأن الظافر في كل

معركة لا يستطيع أن ينال من خصمه درهماً حتى يعطي الحكومة تسعة أعشاره .

الكلام في المعرة بعد الحرب العامة الأولى :

في سنة ١٩١٤ ميلادية الموافق سنة ١٣٣٢ هـ أعلنت الدولة العثمانية الدخول في الحرب العامة ، وجردت الجند من البلاد الشامية وغيرها ، واستولت على أموال البلاد وغلاتها ، باسم الاعانة تارة ، والاعاشه تارة أخرى ، ونعم رجال الحكومة من عسكريين وملكيين وأشياعهم وأتباعهم ، ببؤس أهل البلاد الذين ذهب شطر كبير منهم في ساحات الحرب ، وشطر آخر ضحية الجوع والحمّيات والأوبئة والأمراض الفتاكة ، ولم أقف على شيء يفصل حياة المعرة في ذلك العهد ، الا أني أعلم أنها شاركت البلدان الشامية في كل ما قاسته من ابتزاز الأموال ، وقتل الرجال ، وذل العزيز ، وعزة الذليل ، ونحو ذلك من أنواع الشقاء ، وأن جماعة من طبقات مختلفة في المعرة لم يشبعوا من خبز الشعير مدة الحرب ، وانما كانوا يعيشون مما تنبت الأرض من بقل في الربيع ، ويدخرون شيئاً آخر منه لما بعد ذلك .

ويمكن أن تلخص الحالة في زمن الحرب بأن الحكومة كانت تتصرف بالرجال والعقارات والاموال تصرفاً مطلقاً ، وأنها كانت تمتهن الاهلين وتسخرهم في مصالحها العامة كما يسخرهم رجال الحكومة في مصالحهم الخاصة . واو كتب لها الظفر في هذه الحرب ، لادعى كل واحد من الاتراك ما ادعاه فرعون وقال للناس : أنا ربكم الاعلى .

وأن الترك من عمال الحكومة وغيرهم كانوا يتنعمون من شقاء الامة ، ويشبعون من جوعها ، وأن صنائعهم من العرب والمستعربين كانوا كالعلق ، يمتصون دماء الامة ليشبعوا شهواتهم منها .

وفي اليوم الثاني من المحرم سنة ١٣٣٧ هـ الموافق ايلول سنة ١٩١٨ م . دخل الجيش الانكليزي والعربي مدينة دِمَشْق ، ثم سارت فصائل الجندين ، فدخلت المعرة ، ثم دخلت حلب في العشرين من المحرم ، وأصبحت منذ ذلك الحين تابعة للحكومة العربية في دمشق .

وفي ٢٥ تموز سنة ١٩٢٠ م دخلت الجيوش الفرنسية

بلاد الشام واستولت عليها ، لأنها كانت منتدبة عليها من قبل جمعية الأمم ، ودخلت دِمَشْق ثم حلب ، وأصبحت سورية كلها خاضعة للنظم التي تسنها الدولة المنتدبة للبلدان عامة ، وظلت المعرة تابعة لحلب ، كما كانت ، وبقيت حكومتها على ما هي عليه ، وكان فيها مستشار فرنسي ، فكان يسيّر الحكومة على وفق هواه وإرادته ، ويسخر الناس في مقاصده ومنافعه ، فكانت تذوق من ألوان الجور والسلب والعجرفة ، وتقريب العيّارين وأهل الدعارة ، واقصاء الاشراف واهانتهم ، ما كانت تذوقه بقية البلاد السورية .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ شبت الثورة ضد الفرنسيين واتخذ الثوار جبل الزاوية معقلاً لهم ، فكان بعض أهل المعرة يشاركون الثوار علناً ، وآخرون سراً ، فكان فريق منهم يخرج تحت ستار الظلمة فيمدون الثوار بما لديهم من عتاد وأسلحة ، ثم يعودون إلى بيوتهم ، ومنهم من كان يشترك في حرب الليل ، ويعود إلى بساتين المعرة نهاراً ، وقد فطن الفرنسيون لذلك

فشددوا الحصار على المعريين ، وضيقوا عليهم الخناق .

ولما هجم الثوار على المدينة ، وضع الجند متارس وحواجز من حجارة على سطح الخان والثُّكْنَة التي تقابله ، واختبؤا وراءها يقاتلون الثوار ، حتى تهشمت جدران الخان من الرصاص ، وذهبت نضرتها ، وبقيت آيات شاهدة وآثار دالة على همجية الفرنسيين وأعمالهم السيئة .

ثم دهم المعرة فئة من الصهيونيين وعلى رأسهم رجل منهم يقال له : نورس طِيبى ، أو طيبة ، فاحتل دار الحكومة ، وأخذ ما فيها من الاموال ، فاستكبر أهل المعرة ذلك ، ثم حصروه هو وأصحابه ، وقبضوا عليه وشدوا وثاقه ، وأبقوه حتى جاء جند الحكومة من حماة وحلب فسلموه إليهم ، ثم قتلته الحكومة .

ثم اعتقلت الحكومة المنتدبة جماعة من أعيان المدينة منهم المفتي ، ونقيب الاشراف ....

وخضدت شوكة المعريين حتى استسلموا للفرنسيين ، وظلوا خاضعين لسطوتهم وعدوانهم وبغيهم ، حتى خضد الله شوكتهم وأخرجهم من البلاد السورية عامة .

سورية والفرنسيون :

كان السوريون يسمعون الشيء الكثير من جور الفرنسيين وعسفهم وتعديهم على البلاد التي يستعمرونها ، ومحاولتهم القضاء على مقومات حياتهم الدينية والاجتماعية ، وأنهم لا يألون جهداً في إخراجهم عن دينهم ، ومنعهم من إقامة شعائره بطرق ظاهرة وباطنة ، وفي اخراجهم عن قوميتهم ، ومنعهم من تعلم لغتهم ، وحملهم على الطرق التي تجعلهم فرنسيين ، واستباحة أموالهم وأعراضهم واحتقارهم بصور فظيعة ، ونحو ذلك من الاعمال المنكرة الوحشية ، فكرهوا الفرنسيين بسبب ذلك كرهاً لا مزيد عليه ، وبلغ الفرنسيين ذلك عن طريق جواسيسهم .

فنقم السوريون على الفرنسيين أعمالهم وظلمهم ، وخافوا من شرهم وظلمهم ، فلما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ م ، وأراد الفرنسيون احتلال سورية تأهب أهلها لمحاربتهم على ضعفهم وقلة عَددهم وعُدَدهم ، ثم حاربوهم ، فظفر الفرنسيون ، ودخلوا البلاد عنوة ، فلما توطدت أقدامهم فيها فرضوا على الناس ضرائب مختلفة بأسماء متنوعة ، وفرضوا عليهم مقداراً من

الاسلحة ، وجمعوا أضعاف ما فرضوه من الاموال والاسلحة ولكن ليس هناك من يراقب أو يحاسب ، وعاملوا الناس بقسوة واهانة ، فوضعوا على أبواب المساكن التي تأخر أصحابها عن دفع الضريبة جنوداً من المغاربة والسودان والسنغال للارهاب ، فخاف الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، ثم بدأوا يسومون الناس سوء العذاب ، وأسكرتهم نشوة الظفر .

ومن استقصى أعمال الفرنسيين في سورية ، لا يرتاب في أن حكمهم لا يدوم ، وان أمانيهم ستعود بالخيبة والخزي ، وذلك لاسباب كثيرة ربما كان من أعظمها او أعظمها أمران : أحدهما مصدر السياسة التي كانوا يسوسون بها البلاد ، والثاني القائمون بالاعمال السياسية وغيرها .

أما الأمر الأول فان الفرنسيين كانوا يكرهون السوريين ، لما يبلغهم عنهم من كراهتهم إياهم ، فلما دخل الفرنسيون ظافرين وهم أصحاب طيش وحمق وغرور ، وقصر نظر في سياسة الشعوب ، اتصل بهم أكثر الذين كانوا يتصلون بهم من قبل ، وأوغروا صدورهم وملأوها بكره المسلمين وحرضوهم

على الانتقام منهم ، ودلوهم على ما يجهلون من أحوالهم وأموالهم فهب الفرنسيون إلى السلب والنهب والفتك والاذلال والانتقام ، كأنهم وحوش ضارية ، لقيت غنماً ليس لها من يحمي ذمارها ويذود عن حياضها ، ولو استطاعوا أن يمحوا المسلمين والعرب ، ويطمسوا معالمهم في يوم واحد لفعلوا .

وأما الأمر الثاني فان أكثر القائمين بالاعمال السياسية وغيرها من الفرنسيين، ليسوا على شيء من الاخلاق الفاضلة فقلما يجد الانسان فيهم عفيفاً ، أو نزيها ، أو طاهر اليد أو الذيل ، بل كان أكثرهم أسرق من فأرة ، وأزنى من قرد وأجوع من كلبة حومل ، وأطمع من أشعب .

وكان كثير منهم من يبيع مصلحة دولته الغالية بثمن بخس يرتشي به .

مما جعل نقمة السوريين تشتد على الفرنسيين ، وتغلي مراجل الحقد في نفوسهم ، وكانوا ينتظرون فرصاً تسنح ، ليشفوا بها غللهم .

وقد ثاروا على الفرنسيين غير مرة ، ووقعت بين الثوار

والفرنسيين ومن معهم من المتطوعة معارك دامية ، قتل فيها خلق كثير من الفريقين .

ولما اعلنت الحرب الاخيرة سنة ١٩٣٩ م تحفز الفرنسيون للقضاء على السوريين ، وأعلنوا مصادرة الاموال والرجال ، فأخذ فريق من الشبان يفرون إلى بلاد الترك والعراق وشرقي الاردن وفلسطين وغيرها ، خوفاً من أن يجندهم الفرنسيون فأعلن الفرنسيون أنهم يريدون مصادرة العمال ليشغلوهم في مثل أعمالهم ، لا ليجندوهم ، فهدأ روع الناس قليلاً .

ولكن الفرنسيين أخذوا ينصبون الشباك ليحولوا بين الناس وبين الفرار ، كما أخذوا يمدون أيديهم للاستيلاء على مرافق الحياة والتجارة بقوانين وضعوها ، ولكن أمرهم لم يطل ، فقد هزمهم الالمان ، واستولى على معظم بلادهم ، فلانت قناتهم في سورية ، وخفت غُلواؤهم .

ثم دخل الجيش الانكليزي سورية ، ووقع بينه وبين الجيش الفرنسي معارك ، كان الظفر فيها للانكليز ، لأنه أغرى كثيراً من رجال الحكم وقادة الجند الفرنسيين بابقائهم

في وظائفهم وترفيع رتبهم ، فأصبحوا تابعين لقيادة الجيش الانكليزي بحسب الحقيقة .

ثم أخذ يفل شباتهم ، ويخضد شوكتهم ، ويقصيهم واحداً بعد آخر ، ولكن أبقى لهم غرورهم وعجرفتهم وطماعيتهم في الاستفادة .

وكان الناس في سورية قبل دخول الجيش الانكليزي ، يسيرون بخطى واسعة نحو الفقر والفاقة ، ويتوقعون أزمة خانقة من تصرف الفرنسيين السيء ، ومما أحدثوه من الوظائف والادارات التي قبضوا بسببها على منافذ الحياة ومرافقها ، مثل مكتب القطع النادر ودوائر الاعاشة والميرة والاستيراد والتصدير ونحو ذلك ، فكان كل شيء تحت تصرفهم لا يدخل شيء إلى البلاد ، ولا يخرج شيء منها إلا بإذن منهم ومن رجالهم الذين كانوا يعملون لمصلحة أنفسهم قبل مصلحة حكومتهم .

وكانوا يأخذون حاجة الجيش من طعام وشراب وغيرهما مما في البلاد ، ويستولون على ما يجدونه فيها من المواد الاجنبية التي يحتاجون إليها ، فوقفت الاعمال ، وقلت البضائع ،

وارتفعت الأَسعار ، فمنها ما زاد ثمنه عشرة في المائة ، ومنها ما زاد مائة ضعف ومائتي ضعف وأقل وأكثر .

وبعد انكسارهم واستيلاء الالمانيين على قسم من بلادهم ، أخذوا يموّنون بلادهم من سورية ، فيرسلون إليها القمح والسكر والسمن والصابون والعدس وكل شيء أمكنهم إرساله ، وكان كل واحد من جنودهم يرسل في كل بريد ما يمكنه إرساله إلى أهله من ذلك .

فازداد بذلك ضيق البلاد ، واشتدت نقمة أهلها على الفرنسيين ، وكان الانكليز على عكس ذلك ، فكانوا يستقدمون إلى البلاد ما تشتد إليه حاجتها من سكر وأرز وقمح وغيرها .

وأخذوا يفتحون طرقاً ، ويحدثون أبنية للعسكر ، فقلت بذلك البطالة ، وشبع كثير مما كانوا يأخذونه من الجنود بيعاً وهبة .

وكان الانكليزيون يحسنون معاملة الناس ، ويساعدون التجار على جلب الارزاق والبضائع في كثير من الاحيان ، فأحبهم الناس بقدر ما كرهوا الفرنسيين فشعر الفرنسيون بأن نفوذهم أخــذ

يتقلص في البلاد ، وأن كرههم قد استحكم في قلوب السوريين عامة ، وكانت أذية رجالهم وعمالهم تشتد يوماً فيوماً ، وكانت جواسيسهم وبطائنهم توغر صدورهم على الناس ، ليتمكنوا بذلك من السلب والنهب ، فرتبوا من حمقهم خطة أرادوا أن يثبّتوا بها أقدامهم في البلاد ، ويستعيدوا سلطتهم ، فتأهبوا للشر ، ووضعوا متارس وأكياساً من الرمل في بعض الأماكن في الطرقات ، وعلى سطوح المنازل ، وعلى أبواب الأماكن العسكرية، وفي المنعطفات وغيرها ، حتى ان من يطوف في مدينة دمشق يظن أنه في ميدان حرب .

وشعر الأهلون والحكومة الوطنية بما يكنّه الفرنسيون في صدورهم من الكيد والشر ، فوضعت الحكومة قطعاً من الدرك في بعض الأماكن ، وعلى باب دائرة الحكومة ، ومجلس النواب .

فلما كان يوم ٢٩ مايس سنة ١٩٤٥ م . بدأ الفرنسيون باطلاق النار على المارة في الشارع الممتد بين الجامعة السورية إلى سوق الأروام والمسمى بشارع النصر ، فهرب الناس إلى منازلهم واختبأوا ، وأخذ الفرنسيون يطلقون النار بصورة

متتابعة من المدافع المثبتة في أماكن مختلفة من الثكْنَة الحميدية وشارع النصر والمستشفى العسكري وطريق الصالحية وشارع بغداد وغيره .

وكانت المصفحات والدبابات تطوف في المدينة ، وهي تطلق النار على المارة والجدران والنوافذ ، وألقيت قنابل كثيرة على بيوت فدمرتها ، وقتلت من فيها ، ووقع بين الدرك السوري والجيش الفرنسي معارك ثبت فيها الدرك على قلة سلاحهم ، وامتد ذلك إلى الليلة الثانية ، فاشتدت وطأة الفرنسيين ، وأحرقوا حارات بنيران القذائف ، وقد احترقت حارات مجاورة لحارتنا ، وهي حارة الشالة ، وكادت النار تلتهم منازلنا ، وكلما أخرجنا واحداً لاطفائها رماه الجند بالرصاص .

وفي هذه الليلة أصلوا الدرك نيراناً حامية ، فاضطر إلى الفرار من أماكنه ، وقتلوا حامية المجلس النيابي ، فقطعوهم ارْبا ارْبا ، وهم أحياء .

وقامت السيارات الكبيرة التابعة للفرنسيين تطوف في الاسواق ، ويفتح رجالها مخازن التجارة ، ويملؤونها من البضائع

التي فيها ، ويرسلونها إلى لبنان فتباع فيه ، وكثر السلب والنهب من قبل الجيش وأعوان الفرنسيين وأنصارهم ، ولم يستطع أحد من الناس أن يخرج للمحافظة على رزقه وأمتعته خوفاً على حياته ، وكانت مثل هذه الحالة في حلب وحماة وغيرهما .

ثم إن رئيس وزراء بريطانيا (ونستون تشرشل) أمر قائد الجيوش الانكليزية في سورية أن يقف القتال ويمنع الفرنسيين من عدوانهم ، وكتب إلى عميد الفرنسيين في ذلك العهد[١] برقية يذكر فيها اعتداء الفرنسيين على السوريين ويأمره بأن يوعز إلى الفرنسيين بأن يكفوا عن أعمال القتل والسلب والنهب ، وقال له فيها : إننا أمرنا قائد جيشنا الجنرال باجت أن يقف القتال والتعدي بالقوة .

فأرسل هذا القائد دبابات ضخمة إلى مراكز المدافع الفرنسية ، ومراكز القوى المحاربة والناهبة ، وأمرهم بأن يكفوا فوراً عن كل عمل ، فانصاع أكثرهم للأمر ، وتمرد فريق كانوا في بعض المنازل التي يسكنونها ، أو يقيم فيها فريق من الجند ، فهددهم بضرب المنازل ، فانقادوا صاغرين .

---

(١) لعله يريد الجنرال بينيه المفوض السامي الفرنسي .

وقويت شوكة الناس عليهم ، فكانوا ينهالون على رجالهم بالسب والشتم والاهانة ، وكان القائد أو الموظف الفرنسي لا يستطيع الخروج من مكان إلى آخر ، وكانت المصفحات والسيارات الانكليزية تنقل رجالهم من مكان إلى آخر ، وتحافظ على مراكزهم ومنازلهم ، حتى تم جلاؤهم عن المدينة .

وهذه هي النتيجة المتوقعة من السياسة التي كانوا يستوحونها من خلصائهم وأعوانهم . ومن الغريب أننا كنا نسمع سب الفرنسيين ولعنهم من رجالهم الذين كانوا يعولون عليهم في سياستهم ويستوحونها منهم ، وقد كانوا يظهرون الشماتة بهم ، ويعددون من مساوئهم ما يعلمه الناس وما يجهلونه .

أما المعرة فلم يكن فيها موظفون فرنسيون ولا جنود فرنسية ، ولذلك لم يحدث فيها شيء ، وانما حدث في حماة بين أهلها وبين الفرنسيين حروب طاحنة ، وكان فريق كبير من أهل المعرة قد خرج لمؤازرة الحمويين ، واشترك معهم في القتال ، حتى جاء القائد الانكليزي فوقفه كما فعل قائد دمشق وقائد حلب وغيرهما .

صفة المعرّة

رأيت كثيراً ممن كتب في تاريخ هذه المدينة ، كتب ما تلقاه من أفواه العامة ومزاعمهم ، أو مما أوحاه إليه هواه وتعصبه ، أو مما حدثته به نفسه ، أو نقل عمن لا يوثق بنقله فلم يصب شاكلة الصواب فيما كتب ، ومن هؤلاء صاحب (نهر الذهب)[1] فقد ذكر أن في المعرة غاراً يشتمل على قبر عَطاء الله بن أبي رَبَاح حامل لواء النبي (ص) ، وعطاء توفي في مكة ، ولم يُعرف أنه قدم المعرة أو مات فيها ، ولا عُرف أنه صحابي كما سيأتي .

وقد تابعه على ذلك أصحاب (مجلة العاديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٢ م .

وقد ذكر أصحابها أيضاً أن قلعة المعرة من عهد الملك

(١) أي كامل الغزي .

الظاهر ، وقد بينا أن بناءها تم سنة ٦٣١ هـ ، وأن الملك المظفر هو الذي بناها .

ومنهم طه حسين فقد ذكر في (ذكرى أبي العلاء) [١] أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبيين ، وأنها تعرف بقلعة النعمان . ومنهم لويس شيخو فقد ذكر الاستاذ الميمني عنه : أنه قال : إن منارة الجامع من بناء عمر بن الخطاب .

وقد بينا في هذا الكتاب الصواب في كل ما ذُكر .

ونحن نصفها الآن على وفق ما رأينا ، أو نقلنا عن الثقات والمراجع الرسمية ، لنقف بالقارىء على الصواب بقدر ما استطعنا فنقول :

المعرة الآن مدينة متوسطة ، واقعة بين حماة من الجنوب ، وحلب من الشمال ، بينها وبين حماة نحو ثمانية وخمسين كيلو متراً وبينها وبين حلب نحو ثمانين كيلو متراً ، بحسب قيود وزارة النافعة السورية [٢] سنة ١٣٥٤ هـ و سنة ١٩٣٥ م .

---

(١) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ (ج) .

(٢) أي وزارة الأشغال العامة السورية .

طولها وعرضها :

ذكر أبو الفداء في (تقويم البلدان) [١] أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة .

ارتفاعها عن سطح البحر :

قال صاحب (ذكرى أبي العلاء) [٢] : إن المعرة ترتفع عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلاثمائة متر ، والصواب أنها ترتفع نحو ٤٩٦ متراً على حسب قيد وزارة النافعة السورية وربما كان أكثر .

الطرق المارة بها :

كان أكثر الناس في القديم إلى انقضاء عهد الحكومة العثمانية يسيرون على طريق القوافل ما بين حلب وحماة ، فكان الانسان يخرج من حلب إلى خان طومان ، فسراقب ، فخان السبيل ، فالمعرة ، فخان شيخون ، فمورك ، فحماة .

---

(١) أبو الفداء : تقويم البلدان ٢٦٤ .

(٢) طه حسين : ذكرى أبي العلاء ١٢٤ .

وكان الانسان يخرج من المعرة من جنوبيها الغربي فيمر على مكان يقال له قبة الحجي ، وهو عبارة عن تل صغير يقع على يمين الخارج من المعرة ، ثم يذهب جنوباً ، فيمر شرقي حُنَاك ، إلى جهة حيش ، فخان شيخون . وسيأتي في ترجمة محمد ابن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء أن داره بباب حناك ، وتعرف بدار القبة ، فلعلها هي قبة الحجي ، وقد كان الناس في عهدنا يخرجون إلى استقبال الحجاج من هـذا الطريق ، فينتظرون وصولهم إلى المعرة في هذا المكان ، وفيه آثار تدل على أن هناك كانت أبنية مرتفعة ، ثم أخنى عليها الدهر .

وفي سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ م شرعت الحكومة بتسوية هذا الطريق وتعبيده وتزفيته من حلب إلى تَفْتَناز ، ومن المعرة إلى خان شيخون ، وغيرت مخرجه من المعرة ، فأصبح يمر من شرقي المعرة إلى مرحطاط رأساً ، وهجرت المخرج الأول الذي كان يمر على قبة الحجي إلى شرقي حُنَاك .

وفي نحو سنة ١٣٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٩٤٧ م شرعت في تعبيد طريق يصل ما بين المعرة وأريحا ، وهذا الطريق يبتدئ

من غربي المعرة ، فيمر شرقي مقبرة بني الُجندي إلى شرقي القلعة ، ويذهب إلى جهة الَمحيا ، فيمر من شمالي عين آسية ، ثم يذهب إلى أريحا [١] .

فتح شارع أبي العلاء :

كانت المعرة تقسم إلى محلتين كبيرتين : شمالية وقبلية ، وكان يفصل بينهما من الشرق الجامع الكبير ، ثم السوق ، ثم الطريق الآخذ من السوق غرباً إلى مقبرة بني الُجندي وبني العظم ، وكل محلة تقسم إلى حارات متعددة تسمى كل حارة باسم خاص ، والحارة عبارة عن مساكن متعددة يجمعها اسم واحد كحارة الحبشة ، والحارة الغربية ، وحارة الكنيسة ، ولعلها هي التي ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران [٢] حيث قال : وحُدِّثت أن أبا الطيب أيام كان إقطاعه بِصَفّ [٣] ، رُؤي يُصلي بموضع بمعرة النعمان يقال له : كنيسة الاعراب ... وربما قيل لها : زقاق كذا ، مثل زقاق رازم .

(١) وقد تم تعبيد هذا الطريق وتزفيته ، وكذلك الطريق الذي يصل المعرة بادلب .

(٢) أبو العلاء : رسالة الغفران ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

(٣) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صَفّ ضيعة بالمعره كانت اقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة ومنها هرب إلى دمشق ومنها إلى مصر .

وفي سنة ١٣٤٩ هـ سنة ١٩٣١ م فتح في المعرة شارع أبي العلاء ، ومبدؤه من طريق حلب ، شرقي المدينة ، يمر بين خان مراد وخان أسعد أو الثُّكْنَة ، ويمتد إلى غربي المدينة ، ويتصل بطريق أريحا الذي سبق ذكره .

وهذا الشارع جعل المدينة قسمين : قسم شَمالي ، وقِسم قبلي ، وقد انشئت فيه أبنية جديدة ، غيرت معالم المدينة ، وجعلتها شبيهة بالمدن الحديثة ، إلا أن الأَبنية العظيمة قليلة فيه ، وقد بنيت في غربيه مدرسة ثانوية ، فقطعت امتداده نحو الغرب ، واضطرت الطريق إلى أن يلتوي وينحرف .

عدد نفوس المدينة وما ألحق بها :

بلغ عدد سكان المعرة في الاحصاء الذي عملته الحكومة العثمانية سنة ١٣١٠ (٤٥٧٧) نفساً ، وعدد نفوس المدينة والقضاء (١٨٥٧٠) نفساً ، وبلغ في الاحصاء الذي عملته الحكومة السورية في سنة ١٣٤٠ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٢ م (٥٢٢١) نفساً .

وقد بلغ مجموع عدد نفوس المعرة وقراها بحسب قيود

الحكومة في سنة ١٣٥٩ هـ وسنة ١٩٤١ م (٣٦١٨٠) منه (٨٨٧٤) عدد نفوس المدينة وحدها ، وعدد الذكور منهم قريب من النصف ، وسيأتي جدول نبيّن فيه نفوس المدينة وكل قرية على حدة .

حكومة المعرة ومقرّها :

المعرة مركز قضاء تابع لولاية حلب في هذا العهد [١] ، وفيها حاكم إداري (قائم مقام) ، وقاض شرعي ، وقاض مدني ، يختلف بحسب تشكيلات الحكومة ، فتارة يسمى حاكماً منفرداً ، وتارة يسمى رئيس محكمة صلح ، وتارة وتارة .

وفيها مركز للبريد والبرق من عهد الحكومة التركية ، وفيها مركز للهاتف أنشأته الحكومة السورية نحو سنة ١٩٢١ م .

وفيها بلدية ولها رئيس يعين ، وأحياناً كان ينتخب .

ولها ناحيتان في كل منها مدير ، إحداهما خان شيخون ،

---

(١) وبموجب التقسيمات الادارية المعمول بها سنة ١٩٦٣ م ، فقد صارت مدينة المعرة مركزاً لمنطقة المعرة التابعة لمحافظة إدلب .

والثانية قلعة المضيق ، وفيها قوة قليلة من الدرك ، ومن قوى البادية العسكرية .

مقر الحكومة فيها :

كانت الحكومة منذ القديم تقيم في دار واقعة غربي الحمّام التحتانية والسوق ، وفيها جميع دوائر الحكومة ، ثم جعلت داراً في الساحة الكبرى في المحلة القبلية محكمة شرعية يقيم فيها القاضي الشرعي وعمال المحكمة من كتّاب وغيرهم .

وفي نحو سنة ١٩٢٦ م الموافقة لسنة ١٣٤٤ هـ أنشأت الحكومة داراً لها في شرقي المدينة وفي شرقي الخان الشمالي مسامتة له .

وفي سنة ١٣٤٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٣١ م افتتحت شارع أبي العلاء الممتد من شرقي المدينة إلى غربيها ، فمر من جنوبي دار الحكومة ، وأقامت في وسطه حديقة جميلة ، وجعلت أمام دار الحكومة حديقة ، وفي الضفة التي تقابلها من الجنوب حديقة تقاربها .

والموظفون في أعمال الحكومة الملكية عامة يعملون في الدار المذكورة .

ماء المدينة :

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أهل المعرة يشربون من الآبار ، ويسقون بعض الزرع والاشجار في البساتين من الرَّكَايا والآبار ، وأن ليس في المعرة ولا في ضاحيتها نهر جار ، إلا ما زعمه بعضهم من أن مخاضاً اسم لنهر في المعرة ، أو بالقرب منها ، وقد بينا بطلانه .

والآبار التي يستخرج أهل المعرة ماءها للشرب والاستعمال نوعان : أحدهما يجتمع ماؤه من ماء المطر الذي ينزل على سطوح الدور وساحاتها ، وبعضهم يضم إليه ما يسيل في الأزقة ويسمونه جبًّا .

وهذا الماء كله عذب ، بارد في الصيف ، حار في الشتاء ، وقد يكون فيه نوع من الدود الأحمر والعلَق .

وأكثر الآبار التي يجتمع فيها هذا الماء حديث العهد والبناء ، وفيها آبار قديمة . النوع الثاني من الآبار يتحلب ماؤه من أرض البئر ، وقد يضاف إليه ما يسيل من المطر ، ويسمون هذه الآبار بالركايا جمع رَكِيّة ، وكثير من هذه الركايا ما يكون

ماؤه ملحاً ، فيستعملونه في غير الشرب ، وهذه الركايا يكون بعضها خاصاً بأصحاب المساكن التي تكون فيها ، ويكون بعضها عامّاً ، فيخرج منها السقاؤن ماء يحملونه إلى البيوت في روايا لقاء أجر معلوم ، وفي وسع كل انسان أن يشتري قدر حاجته منه ، وفي المعرة عدة ركايا عذبة الماء يشرب منها الناس ، منها ركية الحمّام التحتانية ، وهي في أول باب السوق الغربي الشمالي المقابل للجامع ومنارته من الغرب ، وهذه الركية يخرج منها للحمام المذكورة ، ويشرب منه قسم من أهل المحلة الشمالية .

ومنها ركية العرائس ، ويقال لها : عين العرائس ، وهي شرقي المعرة ، وشمالي خان مراد ، وغربي مقام أُوَيْس ومتصلة به ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة الشمالية ، ومنها : ركية حمام السيد يوسف ، وهي في الزاوية الشرقية الشمالية من الساحة الكبرى في المحلة القبلية ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القِبلية . ومنها : الركية المعروفة بالسبيل ، وهي واقعة جنوبي المدينة في شرقي زاوية بني الكيّال إلى الجنوب ، وفي غربي مقام نبي الله يوشع إلى الجنوب ، ومنها يشرب قسم من أهل المحلة القبلية .

والسبيل في عرف أهل المعرة حفرة كبيرة تشبه البئر الواسعة ، تبنى حولها أربعة جدران ، وترتفع فوق الأرض كأنها غرفة مسقوفة ، ويجعل لها باب ينزل إلى وسطها منه ، يجتمع فيها ماء المطر ، فيرده أبناء السبيل فيشربون ويتوضئون ويسقون دوابهم منه ، ويأخذون حاجتهم ، وإذا أرادوا صلوا فوق ظهره ، والغالب أنهم كانوا يجعلونه في الطرق كطريق حلب وحماة ، لاغاثة أبناء السبيل ، ولذلك يسمونه سبيلاً . والسبيل أيضاً يطلق في عرفهم على مكان يصب فيه الماء ، يختلف طوله وعرضه من ذراعين إلى أكثر ، فيشرب منه المارة وأهل السوق ، وأكثر ما يكون هذا النوع في الأسواق ، يقف ثمن مائه أهل الصلاح واليسار ، وقد كان في عهدنا في سوق المعرة عدد من هذا النوع ، ويجمعونه على سُبلان .

ومنها ركية القهوة الكبيرة، والقهوة عبارة عن مقهى في وسط المدينة ظهرت فيه ركية ماء غزيرة ، ثم جعلت طاحونة، وركب على الركية مضخة نارية (موتور) فخرج منها ماء كثير يزيد عن حاجة الطاحونة

والمقهى ، وقد أسيل إلى بعض البيوت في أنابيب حديدية .

هذه هي أشهر الركايا العامة التي يشرب منها أهل المدينة ، وقد قدمنا الكلام على الركايا التي في البساتين ، وعلى بعض الركايا التي في الحمامات ، وسيأتي تمام ذلك .

ثم وجدت الحكومة أن الماء المستخرج من الركايا السابق ذكرها غير نظيف نظافة طبية ، ولا كاف لحاجة الأهلين ، فعزمت على جلب مياه تنبع من بطن الارض في موضع في أخريات وادي النسيم من جنوبي المعرة إلى الشرق ، وعلى رفعه إلى خزان بواسطة مضخة بخارية ، ثم توزيعه على المساجد والمساكن وغيرهما ، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم السبت السابع من شوال سنة ١٣٥٨ ﻫ وضع الحجر الاساسي لخزان الماء المذكور ، الذي بني في طرف المدينة الجديدة من الشمال الغربي ، مقابل ضريح أبي العلاء إلى الغرب ، وفي الوقت المذكور وضع الحجر الأساسي لخزان الكهرباء الذي أعد لتنوير المدينة .

وهي الآن تنار من قوة تتولد من موتور الطاحونة التي في

المقهى الكبير ، ولكن القوة المولدة لا تكفي حاجة المدينة كلها ، وقد حضر وضع الأساسين مندوب من دمشق ، ومندوب من حلب ، ومستشار الداخلية ، وهؤلاء من الفرنسيين . وحضرت طائفة من عمال الحكومة السورية معهم ، وطائفة من أعيان المعرة [1] .

---

(١) وتقوم بلدية معرة النعمان في عام ١٩٦٢ — ١٩٦٣ م في عهد رئاسة الدكتور أكرم الخاني بالأعمال الانشائية والعمرانية التالية :

١ ـ انشاء مجارٍ عامة للمدينة وقد تم انشاء الفرع الجنوبي منها وبلغت تكاليفه ما يقارب الـ /٣٠٠٠٠/ ثلاثين ألف ليرة سورية ويباشر بانشاء الفرع الشمالي والفروع الداخلية قريباً وقد رصدت البلدية لهذه الأعمال ١٧٨٠٠٠ ل.س .

٢ ـ تعبيد وتزفيت ورصف الشوارع العامة بالمدينة ٦٥٠٠٠ ل س

٣ ـ انشاء مسلخ فني وشراء سيارة لنقل القمامات ٢٥٠٠٠ ل.س

٤ ـ تزويد المسلخ بمنفخ كهربائي لنفخ الذبائح على الطريقة الحديثة ١٠٠٠ ل.س

٥ ـ انشاء حديقة عامة ونصب لتمثال أبي العلاء فيها المقدم هدية من وزارة الثقافة والارشاد القومي ٥٠٠٠ ل.س

المجموع ٢٧٤٠٠٠ ل.س

المكاتب والمدارس في المعرة :

كانت الحكومة التركية في عهدها لا تُعنى كثيراً بأهل هذا القضاء ، ولا يهمّها من أموره شيء ، إلا أخذ الأموال من طريق الضرائب والاعانات المختلفة ، وكان عمال الحكومة في ذلك العهد لا يهمهم إلا سلب الأموال من طرق الرشوة والاحتيال ، وتسليط هذا على ذاك ، واعانة كل على أخيه . وكانت جمهرة أهل المعرة ولواحقها فقراء ، يكلفون أنفسهم فوق طاقتها من الأعمال ليشبعوا نهمة العمال .

---

٦ – تزويد مصلحة الكهرباء بمجموعة كهربائية جديدة بقوة /٤٥٠/ حصاناً ٧٠٠٠٠ ل.س
بالإضافة إلى المجموعتين السابقتين بقوة /٢٣٠/ حصاناً و /١٢٥/ حصاناً .

٧ – تدعيم مشروع الكهرباء وتوسيع شبكته ٢٥٠٠٠ ل.س

٨ – مشروع جر مياه الهوة الضخم إلى مدينة المعرة التي تبعد عن المدينة /٧/ كم والذي يستفيد منه /٣٠/ ألف مواطن من المعرة وفي ثلاث قرى محيطة بالمشروع وقد بلغت نفقاته حتى الآن ٢٨١٠٠٠ ل.س

ولذلك لم يستطع أحد منهم ارسال ولده إلى مدينة أخرى ليتعلم فيها ، وقد كان في المعرة إلى نهاية سنة ١٣١٩ ﻫ مكاتب أو كتاتيب ، والمكتب [١] عبارة عن غرفة في مسجد أو زاوية أو بيت ، يعلم فيه أستاذٌ جماعة من الصبيان القراءة والكتابة ، وربما علم بعضهم في دكانه . وأنا قد تعلمت القراءة مع جماعة عند أستاذ يقال له : الشيخ أحمد من آل ادريس ، وكان حائكا في الصيف ، قرّاء في الشتاء ، وأكثر من كان يعلم الصبيان في المكاتب أو الكتاتيب من العميان ، لأنهم فقراء لا يجدون مرتزقاً من غير هذا الطريق .

وقد أنشأت الحكومة التركية مكتباً رُشديا [٢] جعلته ثلاثة صفوف ، وقد تخرجتُ فيه ، وكان عدد الطلاب قليلاً وعناية مديره بتعليم الطلاب أقل ، وأكثر من تعلم فيه خرج وهو

---

(١) المكتب بفتح الميم والتاء وسكون الكاف موضع تعليم الكتابة ويجمع على مكاتب ، وبعضهم يقول : كتاب بضم الكاف وتشديد التاء ويجمعه على كتاتيب ، وقد أنكر الأخير جماعة من اللغويين ، والتمس آخرون وجها لجوازه (ج) .

(٢) وقد كان هذا المكتب في جامع الشيخ عطا الله بمدينة المعرة .

لا يحسن غير القراءة والكتابة ، وكان مديره يقرئ الطلاب الكبار الفقه الحنفي والنحو والفلك ، وقد واظبتُ على دروسه هذه مدة طويلة ، وكان بعض علماء المدينة يقرئ الطلاب الكبار شيئاً من النحو والفقه والمنطق في غرفة في الجامع الكبير ، ومنهم من كان يقرئ في داره ، وكلا الفريقين يعلِّم مجانا ، ولا يأخذ أجراً على تعليمه ، وقد قرأت في غرفة الجامع الملاصقة لمنارته من الشرق شيئاً من النحو على الشيخ حسن ابن الشيخ صالح رمضان ، وشيئاً من النحو والفقه الشافعي على ولده الشيخ محمد صالح رمضان المعري ، وقرأت القرآن على الشيخ حسن ابن الشيخ احمد المطر في دكانه ، وعلى شيخه الشيخ عبدو الشَّحْنَة في الزاوية الداودية ، وأكثر طلاب العلم بل كلهم كانوا يحذون على هذا المثال .

ثم أنشأت الحكومة السورية في المعرة مكتبين ابتدائيين : أحدهما للذكور[1] وفيه خمسة صفوف . والثاني للاناث وفيه صفان .

ثم أنشأت مدرسة للتجهيز في الزاوية التي تقع غربي المدينة ويتصل فيها طريق أريحا بشارع أبي العلاء ، وفيها صفان

---

(١) وتسمى بمدرسة الغزالي وفيها الآن جناح قديم وآخر حديث وعدد طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢ – ١٩٦٣ م) : ٤٥٨ .

وشرع في التدريس فيها نحو سنة ١٣٦٥ هـ، ثم أنشأت صفوفاً أخر [١] وأنشأت من قبل مدرسة في خان شيخون، وفي كَفْرَنْبِل وفي التمانعة، وفي معرة حرمة [٢].

ولكن العناية بهذه المدارس أقل مما تستحقه، كما تبيّن لي ذلك من احصاء وزارة المعارف.

هذه معاهد الدراسة والتعليم الحديثة في المعرة، ولمحة من طريقتها. وأما في العهد الذي قبل سنة ١٣٠٠ هـ فلا نعلمه على التحقيق، الا أننا نقيسه على العهد الذي أدركناه، وقد كان في المعرة مدرسة للشافعية، قيل: إنها بنيت زمن الملك المنصور محمد الأول أحد ملوك الأيوبيين في حماة سنة ٥٩٥ هـ ولعله المنصور بن تقي الدين، فان صلاح الدين جعل المعرة وغيرها للمنصور سنة ٥٨٧ هـ كما قدمنا.

والمعروف في المعرة أنها مدرسة من بناء نور الدين الشهيد،

---

(١) وتسمى الآن بثانوية أبي العلاء وعدد طلابها في العام الدراسي (١٩٦٢ – ١٩٦٣ م): ٦٨٨.

(٢) وسيأتي البيان بالمدارس التجهيزية والاعدادية والابتدائية في البحث عن منطقة المعرة.

ويسميها بعضهم المدرسة النورية ، وقد ذكرها كذلك أصحاب مجلة العاديات ، وزعموا أن على بابها كتابة من سنة ٥٧٥ هـ مع أن نور الدين توفي سنة ٥٦٩ هـ ، واستولى صلاح الدين على البلاد الشامية سنة ٥٧٠ هـ ، وجعل المعرة إلى تقي الدين سنة ٥٨٢ هـ ، ثم جعلها إلى ابنه المنصور سنة ٥٨٧ هـ .

وهذه المدرسة الموجودة الآن في المحلة القبلية ، لها باب من الشرق ينزل منه إلى ساحة المدرسة ، وعلى يمين الداخل إليها غرفة صغيرة فيها قبر ، ولها ساحة فسيحة في وسطها بئر ماء . وفي الجهة الشمالية منها غرفتان صغيرتان يتجه بابهما إلى القبلة ، يعلم فيهما الصبيان رجل مكفوف البصر . وفي الجهة القبلية غرفة كبيرة سقفها قبة مزخرفة ، وعلى قنطرة بابها حجارة ضخمة مستديرة حول القنطرة على شكل جميل ، وقد اتخذها الناس مصلًّى ، وإلى جانبها الشرقي مرحاض .

وقد كتب على عتبة بابها الخارجي جمل استطعنا أن نقرأ منها هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

أنشأ هذه المدرسة المباركة والبنيّة الميمونة من ماله ، ووقفها على مذهب الامام الأعظم والسيد المكرم إمام الأمة أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي المطلبي رضوان الله عليه ، في أيام مولانا الملك المنصور ناصر الدنيا والدين عماد الاسلام والمسلمين أبي المعالي محمد حسن [1] شاهان شاه ابن أيوب ظهير أمير المؤمنين أدام الله أيامه ، العبد الفقير إلى رحمة ربه أبو الفوارس نجا بن عبد الله بن علي بن معافا رحمه الله في سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وتولى عمارتها موفق رحمه الله .

وتحت هذه الكتابة مكتوب هذه الجملة : « الله صنعه ماهر بن علي بن قانت رحمه الله » . وسيأتي أن هذا هو الذي بنى منارة الجامع الكبير . وأخبرني رجل أن تحت قبة المدرسة فوق المحراب مكتوب هذه الكلمات : « ماهر بن علي بن قانت رحمه الله » .

وكان فيها مدرسة للشافعية أيضاً بناها الشيخ عمر بن الوردي

---

(١) قال لي بعضهم : ان المكتوب هكذا محمد بن عمر بن شاهان شاه . (ج)

في النصف الأول من المائة الثامنة ، وقد بني جامعها على مثال الجامع الأعظم في حلب .

وقد هدمتها الزلازل والإهمال ، ولم يبق منها إلا بعض جدرانها ، وكان المقامرون يجلسون فيها ، وكذلك شراب الخمر والحشاشون ، إلى أن قيض الله لها رجلاً من أهل المعرة يقال له مصطفى البلاّني ، فرممها نحو سنة ١٣١٥ هـ تقريباً ، وهي واقعة في الشرق الشمالي من المعرة مسامتة لمقام الشيخ حمدان تقريباً . وطول الباقي من هذه المدرسة عشرة أمتار ، وعرضها سبعة ، وليس في شرقيها بناء في عهدنا هذا ، ولا في جنوبيها سوى الخان ، ودار الحكومة التي بنيت حديثاً . وستأتي تتمة الكلام فيها في ترجمة بانيها .

الزوايا :

وفي المعرة زوايا ، والزاوية في اصطلاحهم مسجد يدفن فيه ، أو في غرفة فيه رجل من الصالحين ، وقد يزول القبر وتبقى بركته .

منها : زاوية بني الكيّال ، وهي في جنوبي البلدة ، وكان

الرّام [1] أمامها ، ولم يفصل بينهما بناء . ثم حدثت أبنية فصلت بينهما ، وهي غربي جامع يُوشَع بن نُون (ص) وهذه الزاوية بُنيت في ربيع الآخر سنة ١١٦٢ هـ كما هو مكتوب على عتبة بابها ، وكتب إليّ بعض المعريين أن البناء فرغ منه في شهر ربيع الآخر سنة ١١٥٧ هـ على يد الحاجّ أبي بكر بن الشَّحْنَة وهو مدفون في هذه الزاوية .

ومنها : زاوية الداودية وهي في المحلة الشمالية بالقرب من الحمام التحتانية ، ومن السراي (دار الحكومة) القديمة ، ولم أعلم شيئاً من أمر هذه الزاوية ، ولا تاريخ بنائها . وقد كانت في عهدي كُتّاباً ، وقرأت فيها القرآن على الشيخ عبده ابن الشحنة ، ثم استولى عليها شيخ رفاعي الطريقة ، وقد عثر بعض الباحثين في شرقي الجبانة المعروفة بجبانة بني الجندي الواقعة غربي المدينة

(١) الرّام في عرف المعرة وضاحيتها مستنقع يجتمع فيه الماء من المطر يسقي الناس منه دوابهم ، ويستعملونه في اعمالهم ، وفي جنوبي المعرة إلى الغرب هذا الرام وإلى جانبه الشرقي رام آخر ، ويسمى الأول الرام الكبير ، والثاني الصغير ، وقد أبطلتها الحكومة ، وردمتها لما يتكون فيهما من الأقذار ، وونشر من الجراثيم الضارة كالملاريا ونحوها (ج).

على قبر مكتوب عليه بخط جميل : « عبد الكريم بن عبد الوهاب الداودي المِنْقاري في أواخر شوال سنة ٩٥٥ هـ » . ، فلعل هذه الزاوية منسوبة له ، أو لأحد من أسرته .

ومنها : زاوية الشيخ العجمي ، وهذه لم أقف على شيء من أمرها ، وهي في المحلة الشمالية أيضاً ، تشتمل على ساحة صغيرة ، وفي غربيها مقابل الباب الذي يدخل إليها منه غرفة صغيرة ، وفي جنوبي الساحة مسجد في شرقيه صُفَّة فيها قبر يقال : إنه قبر الشيخ محمد العجمي ، ولا أعلم هل هو عجمي حقيقة ، أم من بني العجمي ، وهم أسرة في حلب معروفة بالصلاح ، وهذه الزاوية يصلى فيها بعض الأوقات بجماعة ، ويقام فيها الذكر على الطريقة الرفاعية بعد الجمعة ، وشيوخها من أبناء عمنا .

المساجد :

وفي المعرة مساجد كثيرة من أشهرها وأعظمها : المسجد الجامع الكبير ، وهو في وسط المدينة من الشمال والجنوب ، وفي طرفها من

جهة الشرق ، وهو الفاصل بين المحلة الشمالية والقبلية من هذه الجهة ، وفي شماليه أرض خالية من العمران يسمونها حَيْراً ، وهي وقف له ، وقد وجدت فيها رَكِيَّة ماء مقابل باب الجامع الشمالي ، وكان غربيه متصلاً بالسوق من أوله إلى آخره ، ثم هدمت البلدية في نحو سنة ١٣٥٢ هـ القسم المتصل بالمنارة من السوق ، وأضافت مكانه إلى ساحة السوق فانكشفت المنارة من هذه الجهة .

وفي جنوبيه أرض على قدره أيضاً ، وقد بني أمامها سوق يسمى سوق الجامع ، فلم يقبل عليها الناس ، فهدمت في نحو سنة ١٣٤٩ هـ ، حين فتح شارع أبي العلاء ، وهذه الأرض مسورة بجدار يصل بين حرم المسجد القبلي وبين الركية التي يستخرج منها الماء ، ثم يسيل في ساقية على أعلى الجدار المذكور إلى مخزن في المسجد ، فيأخذ منه الناس للوضوء .

ولهذا المسجد بابان أحدهما من الجهة الشمالية ، وهو متصل بالمنارة من جهتها الشرقية ، وهذا الباب لم يكن قديماً ، وانما يقال : إن جدي فتحه ، ولا أعلم في أية سنة فتحه ، ولكنه فتحه قبل وفاته بسنوات وكانت وفاته سنة ١٢٦٩ هـ ، وإذا صح

أن جدي سليما هو الذي فتحه ، فيكون ذلك لسببين ، الأول : أن باب الجامع الأصلي من جهة السوق ، وكانت الأسواق في ذلك العهد لها أبواب تقفل كل يوم مساء ، وتفتح صباحاً ، ولا يستطيع أحد أن يدخل المسجد في هذا الوقت إلا بإذن الحراس ، وفي ذلك صعوبة على المؤذن والمتهجدين والمصلين في الغلس .

الثاني : أن جدي كان إمام هذا المسجد ، وكان لا يصل إليه بكرة إلا بواسطة الحرس ، وهذا الباب الذي فتحه قريب من باب داره ، لأنها أول دار تقع في شمالي الجامع ، فكان الجامع بعد فتحه قريباً منه ، وتسنى لمن يريد أن يأتي المسجد أن يدخله متى شاء ، من غير أن يدخل من السوق ويستأذن الحراس . وهذا الباب ينزل إليه بخمس درجات عراض : والباب الثاني ، وهو الباب العظيم من الجهة الغربية ، ينزل إليه من ساحة السوق بعشر درجات ، وقد غيرت درجاته وعرضت في نحو سنة ١٣٥٠ هـ .

وقد بني على سمته إلى الشمال ، أي إلى جهة المنارة ، ثلاث غرف

ليس لها منفذ الا أبوابها ، وفتح فوقها ثلاث نوافذ للدكاكين التي فوقها ، وأبوابها من السوق ، وقد شوهت نضرة الجامع بأبواب الغرف المذكورة والنوافذ التي فوقها .

وقد قدمنا عن ناصر خُسْرو ، وكان رأى المعرة نحواً من سنة ٤٤٠ ﻫ أن جامع المعرة مبني على أكَمَة قائمة وسط المدينة ، ومن أية جهة أتيته ترتقي إليه بثلاث عشرة درجة . وفي عصرنا الحاضر يرى هذا الجامع في منخفض من الأرض من أية جهة أتيته ، إلا من الشرق ، لأن أكثر ما يكون انخفاضه يظهر إذا انحدرت إليه من الشمال والجنوب والغرب ، أما الشرق فلخلوه من العمران لا يظهر انخفاضه عنه كثيراً .

والذي أعتقده أن في قول ناصر خُسْرو شيئاً من الحقيقة وأن الجامع كان مرتفعاً عن المدينة ، ولكن توالي الخراب بسبب الحروب والغارات والزلازل جعل المباني ركاماً ، وكان الناس حين يعودون لبناء منازلهم فقراء يعجزون عن استئصال الأبنية القديمة ، ويكتفون بالبناء على أنقاض القديم ، فجاء البناء الحادث أعلى من القديم ، وبهذا السبب صار الجامع

منخفضاً ينزل إليه بدرجات بعـــد أن كان عالياً يصعد إليه بدرجات .

وأهل المعرة إلى هذا اليوم إذا أراد أحدهم أن يبني داراً ، أو غيرها ، وعثر على بناء قديم تحت الأرض ورآه متيناً ، وضع بناءه فوقه وتوكل على الله .

ويدل على ما ذكرنا كثرة ما عثر عليه من الأبنية المختلفة ، تحت الأرض منها : أن رجلاً أراد أن يبني داراً في أرض قريبة من الجامع المذكور ، من شماليه الشرقي ، فلما كان العامل يحفر الأساس ويخرج ما يجده من الحجارة فيه ، انهار التراب في الموضع الذي كان يحفره ، فلما سكن الغبار جاء صاحب الدار وعماله ليروا سبب ذلك ، فوجدوا هُوَّة عميقة ، فأدلوا إليها عاملاً ليتبين أمرها ، فوجد أن الهوة حدثت في سقف مخزن كبير فيه آنية من الفخار لوضع الماء شبيهة بما يسمّى في بلاد الشام بالشَرْبة ، وهي دقيقة الطرفين ، منتفخة الوسط ، ولها عنق طويل ، وهي مطلية بطلاء أبيض كالحُوَّارَى وفيها نقوش مختلفة ، كأن كل واحد منها غرز ظفر يتألف

منه عدة صور متنوعة ، وقد أخرج قسم كبير من هذه الأواني صحيحاً وبيع للناس ، وكنت اشتريت واحداً منها وأنا صغير ، وربما كان ذلك سنة ١٣١٢ ﻫ أو بعدها بقليل ، وفي جنوبي هذا الموضع إلى الغرب ، حفر رجل آخر أساساً فانحسر التراب والرَّدْم عن جزء كبير من حمّام مفروش بالبَلاط الناعم ، ووجد فيه مجاري الماء إلى الحمام .

وكلا الرجلين رمم موضع الثُّغْرة التي حدثت في أرضه وقوّاها ووضع بناءه عليها .

وسقف المخزن والحمام مساوٍ لأرض الجامع المذكور تقريباً ، وربما كان فوق هذه الأبنية قصور عالية سميت المعرة من أجلها ذات القصور ، وعثر في المعرة على كثير من مثل هذه الأبنية تحت الأرض ، وفيها الآن كثير من معاصر الزيتون تحت الأرض ، وهذا وأمثاله يؤيد قول ناصر خُسْرو .

ويؤيد هذا أيضاً أنهم لما فتحوا شارع أبي العلاء ، أراد أصحاب الحمام المعروفة بحمام الزهور إصلاحها وتغيير شكلها فهدموها ، وكانت منخفضة عن السوق التي تجاورها ، فوجدوا

تحتها مخازن ، ووجدوا تحت المخازن دكاكين صاغة مردومة ، وفيها بعض الآثار الدالة على أنها كانت دكاكين صُوّاغ .

ويكون الجامع أعلى من هذه الدكاكين ، وإن كان يتبين للناظر أنه منخفض عن الأبنية الحاضرة . وقد حدثني بذلك رجل من بني الشّحْنة من أهل المعرة سنة ١٣٦٦ هـ ، وهو الذي تعهد هدم الحمام المذكورة وبناءها .

وقد يشْكل على هذا أن في بعض الجهات الشمالية والغربية والجنوبية بعض أبنية أساسها قائم على صخر تحت أديم الأرض ، وهي أعلى من الجامع .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الجامع قائماً على أكَمَة ، كما قال ناصر خُسْرو ، وما حوله قسم منه منخفض عن الجامع ، وبعد هذا قسم يختلف عن هذا ، بعضه مساوٍ له ، وبعضه أعلى منه .

ويجوز أن تكون الأمكنة العالية هي التي بنيت فوقها القصور وسميت المعرة بسببها ذات القصور .

كما يجوز أن تكون البلدة في الأصل قسمين : عالٍ ، ومنخفض ، والجامع بالنسبة للقسم الثاني عالٍ يصعد إليه بدرجات.

وفي هذا الجامع أنماط مختلفة من البناء ، ولذلك زعم بعض المؤرخين أنه عُمري ، أي بني في عهد عمر بن الخطاب وآخرون جعلوه أقدم عهداً من ذلك ، والمتأمل فيه يجد أن بناءه لم يكن في عصر واحد ، فان في الجهة الشرقية من ساحته بناء يشبه بناء الرومانيين ، وفي صحنه قبة صغيرة ، قائمة على ستة أعمدة من حجر ، تشبه البناء في عهد عمر .

ويليها إلى الشرق قبة تحتها بركة من الماء ، يتوضأ منها الشافعية ، قائمة على عشرة أعمدة من حجر ، بناؤها يشبه الأبنية المتأخرة كثيراً عن عهد عمر .

ويليها من الجنوب الشرقي قبة يسيل منها الماء إلى القبة الأولى ، وهي أصغر حجماً منها ، مستورة الجوانب ، يتوضأ منها الحنفية ، وتسمى الحنفية ، وقد كتب على وجهها الجنوبي ما يلي :

جدد هذه الحنفية المفتقر إلى رحمة ربه كيوان بك عز نصره في سنة ٩٧١ هـ ، ويلي الكتابة هذان البيتان :

غرض بو نقشدن كم اولدى اياد   دعاي خير در أيدن اولسون شاد
جونكه كرد ابن سبيل خير را   دعاي كيوان بك بجواي أهل داد

والذي يفهم مما قدمنا من كلام البَلاذري وغيره ، أن أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون كنيستهم العظمى جامعاً ، وقد ذكرنا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع سنة ٣٥٧ ه ، وأن الفرنجة أحرقوه سنة ٤٩٢ ه ، ولا أعلم إن كان خرب مع المعرة من قبل الخُوارِزْمية وغيرهم ، أو خرب في الزلازل التي خربت المعرة كلها ، وهذا يدلنا على أنه غير عُمري ، وأنه ليس أقدم عهداً من عمر .

والظاهر أنه بقي منه شيء من آثار عهد عمر ، وهو القبة المذكورة ، وشيء من آثار الكنيسة ، وهو بعض حجارة في الجهة الشرقية ، وما عدا ذلك فهو يشهد لنفسه بأنه حدث في أوقات مختلفة بعد ذلك ، ولعل المسلمين أضافوا إلى الكنيسة أكثر منها ، وفي ساحة الجامع يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب نحو (٦٠) متراً ، وعرضها من الشمال إلى الجنوب أقل من ذلك .

وفيها هذه القباب الثلاث ، وبئران أحدهما قبلي الحنفية ، والثاني شرقيها ، وحديقة بين القبة المذكورة والجهة الشرقية من الجامع ، وفي جنوبي الحديقة البئر الثانية .

والماء يسيل إلى البئرين من المطر الذي يصب في سطوح المسجد وساحته ، ومن مجرى يتكون فيه المطر الذي ينزل في الأسواق ، فينحدر في ساقية من حجارة منحوتة نحتاً بديعاً ، وكل حجر من حجارة الساقية طرفاها ، وأرضها من قطعة واحدة ، وعليها غطاء من حجر محكم الوضع ، وقد غيرت هذه الساقية ، واستعيض عنها بأخرى مؤلفة كل قطعة منها من ثلاثة أحجار ، أحدها أرض ، والآخران طرفان ، وفوقها غطاء ، وهي أقل إحكاماً من الأولى ، وذلك حين جدد بلاط الجامع نحو سنة ١٣٤٠ هـ .

وماء البئر الشرقية شديد البرودة لشدة عمقها ، ولا يبعد أن يتسرب إليها شيء مما تمتصه أرض الحديقة ، التي يسال إليها ماء البركة مرتين في كل أسبوع ، وماء الحنفية الذي لا ينقطع ، كما لا يبعد أن يتسرب إليها شيء من مياه المراحيض المستنقعة منذ مئات السنين ، وفي كل يوم يصب فيها مقدار كبير من مياه المتوضئين وأبوالهم وفضلاتهم ، وهي لا تجري إلى مكان آخر ، ولا تزيد عما هي عليه ، ويقوي هذا الظن أن البئر

المذكورة أعمق من المراحيض والحديقة ، بأكثر من ثلاثين مترًا وهي متصلة بالحديقة ، وليس بينها وبين المراحيض أكثر من خمسة عشر مترًا ، وتكثر الديدان المختلفة الألوان في هذه البئر إذا قل ماؤها ، ولعل ذلك يتولد مما يحمله الماء حين جريانه إليها من الأدران والأقذار ، وقد فطن لذلك أهل الحل والعقد ، فجعلوا المراحيض تسيل إلى مجرى واحد ، وهو يسيل إلى جهة الشرق من المدينة ، من شمالي الخان .

وفي ساحة الجامع في الزاوية الغربية الجنوبية غرفتان ، قائمتان بين جدار الحَرَم القبلي وبين باب الجامع الغربي ، كان طلاب العلم في عهدنا يجلسون فيهما للمطالعة والمذاكرة ، وربما تغلب بعضهم على واحدة فاتخذها مقرًا له ، ومجتمعًا لطلابه حين الدرس ، وقد زرت المعرة سنة ١٣٥٧ ﻫ فوجدت إحدى الغرفتين قد خربت ، والثانية على وشك الخراب .

وفي ساحة المسجد مصلى ، وهو صُفَّة كبيرة أمام الحَرَم الشمالي ، تمتد من شرقيه إلى غربيه ، في عرض نحو أربعة أمتار ، وفي وسطها من الجنوب شبه محراب متصل بها ، متقدم

عليها ، وهو مرتفع عن أرض الساحة بنحو ذراع ، ويصل بين هذا المصلى والبِرْكة حجارة مربعة الشكل ، موضوعة فوق البَلاط وضعا ، مفصولة بين كل حجر وآخر بمقدار نصف متر ، ينتقل عليها المتوضئون من البركة إلى المصلى ، كما يصل مثل هذه الحجارة بين البركة والحَرَم القبلي ، وينتقل عليها المتوضئون منها إلى الحرم .

وفي الجامع موضعان للصلاة أحدهما شَمالي ، والآخر قِبلي ، فالقبلي وهو أعظمها ، فيه المحراب والمنبر ، وفيه تكون الخطبة والجمعة وصلاة الظهر والعصر في زمن الصيف ، لاتساعه وبرودته ويسمونه الحَرَم ، ولهذا الحرم ستة أبواب قديمة فتحت منذ بنائه ، عرض كل واحد منها ٢٧٥ سانتيمتراً ، وباب جديد فتح في عهدنا في نحو سنه ١٣١٥ ﻫ وهو آخرها من الشرق ، وأقلها طولاً وعرضاً ، وفيه منبر من خشب قديم عرضه ٨٠ سانتيمتراً .

وطول هذا الحرم من الشرق إلى الغرب ٥٨ متراً و ٤١ سانتيمتراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١١ متراً و ٥٦

سانتيمتراً ، وفيه صُفتان : احداهما من الغرب ، والثانية من الشرق ، والشرقية أعلى من الغربية ، يصعد إليها بدرجات ، وقد وضعت في ناحيتها الشمالية حنفيات للوضوء نحو سنة ١٣٥٠ هـ ، وفي شرقيها غرفة صغيرة مظلمة ، وفي زاويتها الجنوبية الشرقية كوة يسيل منها الماء إلى خزان في جدار المسجد الشمالي ، بين الباب السادس والسابع الشرقي ، وفيه حنفية من الداخل ، وأخرى من الخارج يتوضأ منها ، ثم يسيل الماء من هذا الخزان إلى الحنفية التي جددها كِيوان ، ثم منها إلى البِرْكة .

وقد رأيت جماعة من العجم يتبركون بتلك الكوة ويتمسحون بمائها ، لأن بعض الناس قال لهم : إن رأس الحسين بن علي حين ذهب به إلى الشام وضع في هذا المكان ، وبنى الصالحون عليه هذا البناء ، وأسالوا الماء إليه ، ولا شك أن هذا الرجل أراد الاحتيال عليهم ، ليأخذ أموالهم باسم الزيارة ، ولكن من الناس من أثر فيه هذا الزعم ، وجعله عقيدة راسخة .

وفي الجدار القبلي من هذا الحَرَم ، بما يلي المحراب إلى

الشرق كتابة قديمة ، أثر فيها طول العهد ، وشدة ارتفاعها ، وقلة العناية بتنظيفها ، فلم أستطع قراءتها ، فكلفت قريباً أن ينقلها ، فاستعصى عليه بعض الكلمات ، وأطاعه بعض آخر ، وهذه صورة ما أمكن نقله منها بالحرف :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ، الآمر بالعدل والإحسان الناظر بعين الرحمة إلى كل إنسان ، الموفق للعمل الصالح من نعمائه ، الذي شرف عبده محمداً ﷺ ، وبجاهه فاز ، وبعد فلما جدد مولانا ملك الأمير المعز الباقي ، كافل المملكة الحموية ، أعز الله أنصاره ، وجعل الأمانة تقام إلى المعرة المعمورة ، التي أصبحت بنعمة كفاءته معمورة ، وحبه الجامع طرفاه إلى الدين ، فطالع بأمره اللائق الشريف طالب مرضاة العزيز الغفور ....

إن أوقافه يوجد منها الآن باسم النقود بالكامل ، ولم يفضل منه ما يقوم بمصالحه ،ولم يفعل ذلك من هو بالخيرات عامل ... المرسوم الشريف بكل فعل ، وأمر منيف ، رسمه بالأمر الشريف العالي ، المؤلف السلطاني الملكي الأشرفي ، الناظر بولائه إلى

تلحيظه ببيته بمصالح الله ، وأمره عام ، أخذ الاعدا . . . .
ويحفظ معالم جهاتها برمز معناها ، فلا . . . الناظر على الاستمرار
وعهد إلى إقامة شعائر الدين الحنيفي ، باتصال جهاتها ، بمعمور
جماعاتها بنيل الجنان . . . ان من يصرف ريع وقف الجامع
المعمور بالمعرة ، فانه يجد به من العمارة من يصرف بعمل
صالح ، لا يحتاج الذم الفاحش ، والستور عمن يصرف مغالق
الخطيب والمؤذنين والقوام ، ومن يكون في درجتهم ممن يقوم
بعمارة كاملة مهما فضل ، يعود ذلك ينصرف لأناس بالنقود
من الأيتام عن الأمراء والجند المستقرين على الوقف المذكور
باسم الشونة ، فليعمل المرسوم الشريف بكل وقف له غلة ،
ويعمل بحسبه ، وبمقتضاه من غير غفلة عنه ولا خروج عن
معناه ، بعد الختم الشريف إن شاء الله تعالى ، كتب في التاسع
عشر من شوال سنة ٧٧٥ هـ خمس وسبعين وسبعمائة ، فلذلك
رسم بالأمر النعماني المشار إليه على الحجر ، ليخلد إلى يوم
المحشر ، ما أذن مؤذن ، وخطب خطيب على المنبر ، والله تعالى
الموفق إلى خير الأمور . . (وبقي سطر آخر لم تمكن قراءته) .

وقد اجتمع في هذا الأثر علتان عظيمتان ، منعتنا من فهمه كله أو بعضه ، الأولى حذلقة المنشىء وحرصه على السجع السمج المتكلف ، والثانية استعصاء بعض الكلمات على الناقل وزاد ضِغثا على إبّالة كثرة أوصاف المدح ، واستعمال كلمات من مصطلح ذلك العصر يشق فهمها ، والاستدلال على غيرها وقد تقدم ما يفيد أن المعرة كانت في سنة ٧٤٥ هـ للملك الصالح بن اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، فلعل هذا المرسوم صدر منه ، أو ممن يليه في الملك ، ممن لم نقف على اسمه .

وأما الموضع الشّمالي ، ويسمونه الحجازية ، وفيه تقام صلاة الجماعة في الشتاء ، لأنه أكثر دِفْئاً من الحرَم القبلي ، وأصغر حجماً ، وقد كان يتصل به من جهة الشرق رواق عظيم في صدره غرفتان ، يقيم فيهما الفقراء من مهاجرة الغرب والهند والعجم وغيرهم ، ممن يمر بالمعرة فقيراً ، وباب هاتين الغرفتين يتجه إلى القبلة ، ويتصل بهما غرفة أخرى ، يتجه بابها إلى الغرب ، وكان يقيم فيها متولي وقف الجامع وجابيه ، ثم ضم جميع الرواق والغرفتين إلى الحجازية المذكورة ، وجعل

فيها محل للوضوء ، وفتح لها باب إلى القبلة من جهة الغرب في سنة ١٣١٢ ﻫ فما بعدها إلى سنة ١٣٤٧ ﻫ ، وتتصل الحجازية من جهة الغرب بباب الجامع الشمالي ، ومدخله إلى ساحة المسجد ، وفي سقف هذا الباب والمدخل غرفة تصل بين المنارة والحجازية ، يصعد إليها من الدرج الذي يصعد منه إلى المنارة ، وفي هذا المدخل عن يمين الداخل غرفة صغيرة تحت المنارة من الطرف الجنوبي .

وأما المصلى الذي في ساحة المسجد فتقام فيه في الصيف فقط صلاة الصبح والعشاءين بجماعة .

وفي جنوبي الحجازية الشرقي باب صغير ، فيه غرفة كانوا يضعون فيها الدابة ، التي يخرج عليها الماء من رَكية الجامع ، وتصب في خزان يسيل منه إلى المراحيض والمسجد ، وهذه الغرفة شمالي المراحيض إلى الغرب .

وأما منارة هذا المسجد فهي أجمل أثر عُمراني أبقاه الزمن في المعرة ، وأنفس ذخيرة حفظتها الأيام ، لتكون مثالاً يدل على مبلغ الفن العمراني في ذلك العهد ، وهي والحق يقال

بديعة الرُّوَاء ، محكمة البناء ، وليس في منارات المساجد التي رأيناها في بلاد الشام ومصر ، ما يشابهها في إحكام الصنع ، ودِقة الوضع ، الا منارة الجامع الكبير في حلب ، الا أن آثار الجِدّة والاتقان بادية في منارة المعرة ، أكثر منها في منارة حلب .

وهذه المنارة واقعة في زاوية الجامع الغربية الشمالية ، وهي منقسمة إلى ثمانية أبراج متساوية في الطول والعرض ، ارتفاع كل واحد منها نحو ثلاثة وخمسة وثمانين سانتيمترا وأحد الأبراج الثمانية مدفون أكثره في الأرض ، وفي كل برج أربع نوافذ من جهاته الأربع ، متساوية في الشكل والحجم ونوافذ كل برج مخالفة لنوافذ الأبراج الباقية في الشكل والحجم وفي أعلاها حلفق أي درابزين من حجارة كبيرة ، يحيط بأطرافها الأربعة ، وهو بديع الشكل ، دقيق الصنعة ، مثقب على نمط متشابه بديع ، وفي الوسط غرفة صغيرة ، توضع فيها المصابيح التي توقد في شهر رمضان والأيام المباركة ، لأنهم كانوا يوقدون مصابيح بزيت الزيتون يسمونها قناديل ،

ثم صاروا يوقدون مصابيح بزيت الكاز ويسمونها فوانيس ، يجعلونها صفاً واحداً يحيط بالمنارة من جهاتها الأربع ، وفوق الحلفق قبة قائمة على أربعة أعمدة ، وفي أطراف المنارة من جهاتها الأربع حجارة بارزة على قدر متساوٍ ، كالخطوط العريضة من أدناها إلى أعلاها ، ويقسم كل برج عن الآخر بمثل هذه الحجارة .

وقد كتب على قوس النافذه (الشباك في جهتها الشرقية هذه الجملة : (صنعه قاهر بن علي بن قانت رحمه الله) ، وقد تقدم أن هذا الرجل بنى المدرسة الشافعية سنة ٥٧٥ ه ، فيكون بناء المنارة في ذلك العهد .

ويوجد مثل هذه الكتابة بعينها في البرج الثاني من جهة الغرب ، وفي أعلى المنارة من الجهة الشمالية الغربية حجر في داخل المنارة ، نقش عليه كلمات منها : (الحمد لله رب العالمين أما بعد فقد وضع هذه الشبكة المعلم ابراهيم) ، وهناك سطر آخر لم تمكن قراءته .

وفي الطرف القبلي أمام هذه الكتابة نقش هذه الكلمات (جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج خليل

ابن الحاج محمد النظار عفا الله عنه وعن المؤمنين .)

ولم أعثر على تاريخ لهذه المنارة ، ولا على شيء غير ما ذكرته ، مما أمكن الوقوف عليه لمن كلفته بقراءتها .

ولكني رأيت في مجلة العاديات ما هذه خلاصته :

(أما الجامع فهو قديم جداً ، لأن مئذنته هي من سنة ٤٢٧ ﻫ ، وعليها كتابات لم نجد سبيلاً إلى استطلاعاتها كلها ولكن عرفنا أن الأولى منها بقلم ريحاني ، والثانية التي في البرج الثالث هذا نصهـــا : محمد بن قانت بن قاهر ابن علي ، والثالثة على البرج السابع .. ومما يذكره التاريخ عن هذه المئذنة أنه في عهد الصليبيين ، وعن أمرهم كان قد علق الناقوس فوقها ، وكان هذا الحكم قد أصدر في شأن مئذنة حلب أيضاً ، ثم ألغي كلا الأمرين ، ورجع الحق إلى نصابه) .

هذا ما ذكره أصحاب هذه المجلة ، والعهدة عليهم لأني لم أتول قراءة المكتوب على المنارة بنفسي ، ولم أجد تاريخاً ذكر أنها بنيت سنة ٤٢٧ ﻫ ، ولا علق عليها صليب .

ولكن جماعة من الفرنسيين وغيرهم توهموا أن هـذه المنارة من بناء الصليبيين، وحجتهم في ذلك النقش المرسوم على البرج الثاني ، وقد تبين أن الكتابة التي عليه ، وعلى غيره اسلامية ، عربية ، ومما لا شك فيه أنا نقشت في زمن بناء المنارة ، وقد تقدم أن باني المنارة هو الذي بنى المدرسة سنة ٥٧٥ ه فلا مساغ للشك ، أو التوهم ، فالمنارة والجامع بوضعه الحاضر إسلاميان ، عربيان ، من أساسهما إلى رأسهما ، ما عدا الجدار الشرقي الذي وراءه المراحيض فانه قديم .

ورأيت في الجزء الأول من (تاريخ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي [١]) في ترجمة الشيخ احمد بن محمد القادري الحَمَوي الجِيلاني ، أنه بنى جامع المعرة في جملة ما بناه ، ولكن لم يفصل ما هو المبنى ، وكانت وفاة المذكور سنة ١٠٣٠ ه .

أما ماء المسجد فيخرج من رَكِيّة عميقة ، يسمونها ساطورة ،

---

(١) المحبي : خلاصة الأثر ١ : ٢٩٣ (ج) .

بالدلاء على دولاب شبيه بدواليب البساتين السابق ذكرها ، ويسيل في ساقية على الجدار الذي يصل بين الجامع وبين الركية ، ثم يصب في خزان كبير قبلي المراحيض إلى الغرب وهي تبلغ واحداً وعشرين مرحاضاً ، ومنه يملأ المتوضئون الماء بأباريق من فخار بواسطة حنفيتين ، ومنه يسيل إلى الحاصل الذي في جدار المسجد ، ثم إلى حنفية كِيوان ، ثم إلى البركة ، وإذا تغير من الوسخ أسيل إلى الحديقة كما ذكرنا.

وقد أحدث المتأخرون في الجهة الشرقية الشّمالية من الحَرَم القِبْلي ، مكاناً يتوضأ منه الناس ، بدلاً من حنفية كانت في جداره بين البابين الأَخيرين من جهة الشرق ، فوضعوا حنفيات متعددة يسيل منها الماء للتوضؤ ، وجعلوا تحتها ساقية على طول المحل ، ينزل عليها الماء المستعمل ، ثم يسيل إلى المراحيض .

ولهذا الجامع أوقاف كثيرة ، يقوم بها متول ، تعينه دائرة الاوقاف ، وجاب يجبي غلاتها ورَيعها ، ويقال : إنها كانت كثيرة ، ثم عبثت بها أيدي الخونة كغيرها من الاوقاف ، فلم يبق إلا هذا .

عدد	
٨٢	دكان في المعرة
٢٦	دار —
١٧	كرم
٣٤	أرض
٤	أرض مغروسة زيتونا
٥٥	أحكار
٣٠٠	جفنة كرم في كفر قلا ، وهي مزرعة في كَفر رُوما
١	نصف بيت في كفر روما
	ربع الجب في صفة الحاكورة
	نصف حاكورة العوسجية

مسجد الشيخ عطا :

ومن المساجد المشهورة مسجد الشيخ عطا ، وهو في الجهة الغربية من منتصف البلدة ، ولم يكن في سنة ١٣١٩ ﻫ شيء من الابنية ، بينه وبين جبانة بني الجندي والمقابر الواقعه غربي البلدة ، وهو في نَشَز من الأَرض ، يحده من

الغرب طريق يمر من المحلة الشمالية من جنوبي العنبر «الأنبار» إلى المحلة القِبلية الغربية ، ومن الشمال طريق آخذ من الجبانات المذكورة إلى السوق ، ومن الشرق هذه الطريق ، وأبنية حدثت في هذا العهد وكان أمامه من جهة الشرق الجنوبي « حَيْز » يمتد إلى جهة مدفن أبي العلاء ، وليس فيه عِمارة مطلقاً ، ثم أخذ الناس يبنون فيه دورا بعد سنة ١٣١٠ هـ . وهذا المسجد يصعد إلى بابه من الشرق ببضع درجات ، يدخل منه إلى ساحة طويلة ، فيها بئر ماء ، بينها وبين الحَرَم قبر عليه شعر تركي مؤرخ سنة ١١٩٣ هـ يقال : إن فيه رجلاً باشا من الترك ويليه قبور مندرسة ، لم نعلم أصحابها ولا تاريخها ، وعن يسار الداخل من باب الساحة منارة ، منقوش عليها من الجهة الغربية كلمات ، أمكننا أن نقرأ منها هذه : « لما كان بتاريخ شهر شعبان المعظم .. بناء هذه المنارة الفقير نجم الدين سنة ٧٥٥ هـ » .

ثم يلي المنارة من الجنوب والغرب غرفة فيها قبران : أحدهما للشيخ قدور الكَيَّال ، والثاني لأبيه ، ثم يليها الحرم في جنوبي الساحة والقبور والغرف .

ويزعم الناس أنه فيه قبر عطاء الله بن أبي رَبَاح الصحابي وأخذ عنهم أصحاب مجلة العاديات ، فقالوا في الكلام على المعرة : وفيها جامع فيه غار يشتمل على قبر عطا الله بن أبي رباح حامل لواء النبي . . .

وهذا القول باطل من وجوه كثيرة : منها أن عطاء ولد في آخر خلافة عثمان ، وتوفي في مكة سنة ١١٥ ﻫ أو سنة ١١٤ ﻫ أو سنة ١١٧ ﻫ كما ذكره النووي في تهذيب الأسماء [١] ،فليس بصحابي ولا حمل لواء النبي ولا دفن في المعرة ، وليس قبره في غار ، ولا في المسجد المذكور غار أيضاً .

وأظن أن عطاء هذا هو باني المسجد ، أو رجل صالح دفن فيه ، أو كان يقيم فيه ، ويؤيد هذا أنه مشهور بمقام الشيخ عطاء ، وما عرف أن أحداً من المتقدمين يلقب أحداً من الصحابة بشيخ .

ومنها مسجد يُوشع بن نُون (ص) ، وهو في جنوبي المدينة

---

(١) محيي الدين النووي : تهذيب الأسماء واللغات ٣٣٣ (ج) .

الشرقي ، وليس في عهدنا هذا بناء في شرقيه ولا جنوبيه إلا قليلاً ، وفي كلتا الجهتين آثار أبنية في الأرض ظاهرة .

ولهذا المسجد باب من جهة الغرب يدخل منه إلى ساحة صغيرة في صدرها ، مقابل الباب صُفَّة كالإيوان ، وفي طرف الباب منارة ، وفي الجهة الشمالية من الساحة بناء يقال : إن فيه قبر يوشع ، ويليه من الجهة الغربية غرفة ، اتخذها بعض القراء البصراء مكتباً لتعليم القرآن ، وفي الجهة الجنوبية حَرَم المسجد ، وبين الحرم من الجهة الشرقية والايوان مدخل إلى المراحيض ، وأمامها ساحة تشبه الحديقة ، فيها بعض شجيرات ، والناس يعتقدون أن يوشع عليه السلام مدفون في هذا القبر ، وشايعهم بعض المؤرخين الذين يتلقفون الأخبار من العامة .

وأكثر المؤرخين على أن يوشع دفن في أرض ميراثه ، قيل : في نابُلُس وقيل : في ثمنة سارح في جنوبي نابلس .

قال ابن الشِّحْنَة [١] : وفي معرة النعمان فيما زعموا قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في مشهد هناك ، جدد عمارته الملك الظاهر غياث الدين غازي ، ووقف عليه بالمعرة وقفا

---

(١) ابن الشحنة : الدر المنتخب ٩٨ .

وهو يزار ، ولما خرج الملك المعظم فخر الدين توران شاه من حبس مصر ، اشترى له بالمعرة أرضا ، ووقفها عليه ، وفوق باب هذا المسجد حجر مكتوب عليه أن بانيه غياث الدين غازي سنة ٦٠٤ هـ .

وقال ابن سعيد المغربي في تاريخه : إن يوشع مدفون في المعرة .

وقد تقدم عن صبح الأعشى أن قبر يوشع داخل المعرة ، وقال ياقوت : وفي جانب سورها من قبل البلد [١] قبر يوشع فيما قيل ، والصحيح أنه بأرض نابُلُس. وقد زار المعرة الشيخ أمين الجندي الحمصي ، فلما دخل مقام سيدنا يوشع (ص) قال قصيدة يمدحه فيها مطلعها :

قلبي لشمس جمال حسنك مطلع   افهل يرى فيه لغيرك موضعُ

وفيها يقول :

مالي إليك وسيلةٌ في نيل ما   أملتُه الا نبيُّك يوشع

ويقول :

كهف به أهل المعرة قد نجوا   من هول كل معرة تُتوقع

(١) لعله قبلي البلدة لأنه واقع في طرفها القبلي كما ذكرنا (ج) .

وقد جرت عادة المعريين في عهدنا أن يجتمعوا في هذا المسجد في أوقات معينة ، منها يوم المولد النبوي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل سنة ، فانهم يجتمعون بعد صلاة الظهر من اليوم المذكور في الجامع الكبير العمري لاستماع قصة المولد ، وبعد انتهائها فيه يجتمعون في هذا المسجد لسماعها أيضاً ، وبعد انتهائها يوزع على الحاضرين صرر فيها ملبس ، ثم ينصرفون .

ومنها : ليلة نصف شعبان من كل سنة ، فانهم يخرجون من الجامع الكبير بعد صلاة العشاء ، وهم يرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير في الطريق من الجامع إلى هذا المسجد ، فيزورون المقام ، ثم ينصرفون كما جاءوا إلى مقام أُوَيْس القَرني [1] ، وفي يوم نصف شعبان يطبخون أرزاً ومعه طعام آخر ، ويطعمون الفقراء منه ، ويوزعون قسماً منه على الفقراء وقسماً على فريق من الأغنياء للتبرك به .

---

(١) هو أويس بن عامر ، من بني قَرَن ، كان أحد العباد المقدمين من التابعين ، أصله من اليمن كان يسكن القفار والرمال ، ووفد على عمر بن الخطاب ، ثم سكن الكوفة ، وشهد وقعة صفين مع علي ابن أبي طالب ، ويرجح الكثيرون أنه قتل فيها (ملخصة عن الأعلام للزركلي ١ : ٣٧٥) .

ولهذا المسجد أوقاف كثيرة ، كان ينفق عليه من رَيْعها ، ثم أصبحت نهباً مقسما بين المتولين والمتغلبين ، فلم يبق إلا النَّزْر اليسير منها :

ثلث مزرعة دير دُورين .

وربع فدان بيد أهالي كفر روما .

وثلث مزرعة ترنله بيد أهل كَفْر رُومَا .

جميع مزرعة كفر قنا في كفر روما .

أراضي بالخمس في كفر روما .

ثلث مزرعة معرة بيطر في قرية حاس .

ثلث مزرعة أبي مكي في قرية جَرْجنَاز .

ثلث مزرعة معران .

فدانان في كفر يعليل ضايعة ، وهي بيد أهل جرجناز .

ربع مزرعة كفر ناول ضايعة ، وهي بيد أهل الدير .

جميع مزرعة جامع خرارين .

سدس مزرعة صهيان ضايعة .

نصف قرية تَلْ مَنَّس .

أرض في بسوقلا مع أهل تل مَنّس .

ثلث مزرعة تل جراد في الرُّوج .

ثلث مزرعة داجرة في قرية معر شورين .

أرض سلم الرجم بقرب قرية معر شورين .

ثلثا مزرعة بليصا .

خمس مزرعة السقيعة قريباً من الصّرْمَان .

ثمانية فدادين في قرية كَفْرنَبِل .

أرض عجم في قرية الفَطيرة .

أرض زيتون في مَعَرْ بلت .

أرض في باب إِيلا .

أرض زيتون في قرية جبالا .

شجر زيتون في قرية سجنا .

أرض في قرية مَعَرْ زِيتَا .

زيتون في قرية مَعَرْ شمشة .

مزرعة رجم الصنف قرب قرية الغَدْفَة .

نصف مزرعة تل جبرين .

أرض في سته ضايعة .

بستان الزعكل في المعرة بيد بني العظم .

حقل الجورة ضايعة .

حَيْر في دار السلطان في المعرة ضايعة .

رابية العمود في المعرة ضايعة .

أرض وادي بنا في المعرة .

حير أبراهيم التركماني في المعرة ضائع .

أرض حقل السواد بالمعرة ضائعة .

حائران في البُرَيْج .

أرض قرب تل سريج .

أرض في وادي البيطار .

حصة الباسليق .

أرض في الباسليق .

حقل الشمس .

سهم الفستقة .

أرض جريا .

حائر القبو .

حوائر حارة الشمالية .

أرض عند الشيخ حمدان .

سدس ثلاث قطع .

والظاهر أن كثيراً من الأوقاف استباحها جماعة من المتغلبين ، فغيروا أسماءها ، فضاعت على الوقف .

وقد رأيت كتاباً من أمير الحاج ابراهيم والي الشام مؤرخاً في ١٩ صفر سنة ١٢٠٥ هـ ، إلى متسلم المعرة عبد القادر بك ، يذكر فيه أن لوقف سيدنا يوشع معيناً في بعض مزارع الميري ، في كل سنة تسعة مكاكيك حنطة بكيل الحاصل ، ويأمره فيه أن يدفعها إلى السيد محمد الجندي [١] ، وأن لا يتخلف عن دفعها في كل سنة .

ورأيت فرمانا [٢] من السلطان العثماني مؤرخاً في جمادى الآخرة سنة سبع ومأتين وألف ، يتضمن أن نصف تولية وقف

---

(١) هذا جد أبي (ج) .

(٢) اي أمراً ملكيا أو سلطانيا .

سيدنا يوشع والوظيفة المرتبة لها ، وهي آقجة [١] عدد ٢ كل يوم ، انحلت عن الشيخ ياسين ، ووجهت إلى أخيه الشيخ محمد خليفة شريكه في التولية .

مسجد أويس القرني ، أو السلطان ويس :

في شرقي المدينة على بعد نحو كيلو متر منها ، قريباً من الطريق الآخذة من حماة إلى حلب مسجد أو مقام ، وهو عبارة عن ساحة قَوْراء [٢] ، ممتدة من الغرب إلى الشرق تبلغ نحو (٢٢) متراً ، ومن الشّمال إلى الجنوب نحو (١٧) متراً ، ويتصل بها من الغرب الركية المشهورة برَكِيَّة العَرائِس ، وفي جنوبي الساحة إيوان كبير ، في غربيه غرفة كبيرة ، يزعمون أن فيها قبر أُوَيْس القَرَني ، وفي شرقيه غرفة ثانية ، وإلى جانبها من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان والغرفتين ، وطول هذا البناء طول الساحة ، وعرضه ستة أمتار ، والباب في جدار الساحة الشمالي مقابل الايوان ، وقد مات لبعض أمراء الترك ولد ، فدفنه في هذه الساحة ، فاقتفى الناس أثره في دفن

(١) هي قطعة من النقد التركي الصغير المتداول في ذلك العصر .

(٢) أي واسعة .

الصغار ، ثم الكبار ، حتى أصبحت الساحة مقبرة مكتظة بالقبور وقد توفيت لي ابنة صغيرة فدفنتها هناك ، وأهل المعرة يعظمون هذا المقام ، ويكثرون زيارته ، وتقريب القرابين والوفاء بالنذور فيه ، لأنه في سهل فسيح يتصل به من الشرق بساتين من ورائها كروم العنب ، فيجمعون بين الطاعة والاسترواح .

وقد رأيت في تاج العروس [١] ما يفيد أن مقام أُوَيْس القَرَني بكفر الحمى بالقرب من زبيد .

والصحيح أن أويسا قتل في صِفِّين مع علي بن أبي طالب ، كما ذكره ابن حجر في كتابه الإصابة [٢] ، وابن الأثير في (أسد الغابة) [٣] على أن هذا المقام ، أو المسجد كان ولا يزال مشهوراً في المعرة بأنه مقام السلطان وِيس .

مسجد الشيخ حمدان ، أو مقام الشيخ :

يزعم فريق من أهل المعرة أن فيه قبر الشيخ محمد الهمداني

(١) الزبيدي : تاج العروس ٣ : ٦١١ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : الاصابة في تمييز الصحابة ١ : ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ١ : ١٥١ ، ١٥٢ .

وهو مسجد قائم في الجهة الشرقية الشّمالية من المدينة ، شمالي مسجد أُوَيْس القَرَني إلى الشرق ، بينهما ما يقرب من كيلو متر ، وليس بينه وبين مدرسة ابن الوَرْدي بناء في عصرنا الحاضر ، وحوله من الشمال والغرب قبور قديمة وحديثة ، وآثار أبنية قديمة ، وفي شماليه كروم ، وفيها أشجار من التين والرمان وغيرهما ، وفي جنوبيه فسحة فيها آثار قبور ينحدر منها إلى الطريق الموصلة إلى مسجد أويس ، وفي شرقيه فسحة ينحدر منها إلى طريق حلب المذكورة ، وقد كانت بعض قبور شرقي الطريق أيضاً ، فدرسها أصحاب الارضين ، وأضافوها إلى أرضيهم .

وهذا المسجد له باب صغير يتجه إلى القِبلة ، يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، في غربيها بئر ماء قديمة ، وتنتهي الساحة من الشمال إلى الشرق بدرج يصعد منه إلى القُبة ، وهذه القبة فيها ضريح يقال : إن فيه الشيخ حمدان ، ولها نوافذ من جهاتها الأربع ، شبابيكها من حجارة محكمة الصنع ، وأمامها من الجنوب رواق على قدر القبة .

وفي جنوبيها في آخر الساحة مما يلي الباب إيوان كبير ، له نوافذ من جهاته الثلاث ، شبابيكها من حجر أيضاً ، ويلي الايوان من الشرق درج يصعد منه إلى سطح الايوان ، والايوان متقدم كله على الباب .

وهذا المسجد يتخذه المقامرون والحشاشون وأرباب الدعارة ، مقراً لهم في بعض الاحيان ، ويتخذه النساء متنزها لهن في الربيع والصيف والخريف يجتمعن فيه ويجمعن بين التنزه ووفاء النذور وزيارة القبور .

ولم أقف على شيء يبين لي حقيقة الشيخ حمدان ، وهذا المسجد .

مسجد الرهوبي :

في شمالي المدينة ، وآخر بناء منها في تلك الجهة .

جامع القبش :

جامع الأنطرة :

جامع الشيخ محمد الرشيدي :

هو في شمالي المدينة الغربي ، وفي الشمال الشرقي من مصلى بني الجندي الواقع في شمال جبانتهم ، وعند المنحدر الذي ينزل

منه إلى وادي الجِنان من المدينة ، وقد كان موضعَ هذا المسجد أنقاض متراكمة مساوية للطريق ، ثم مَرّ رجل فقير بالمعرة ، وكان شديد الولوع بالتنقيب عن مقامات الصالحين ، فحفر هذا المكان ، وأزال ما كان فيه من الحجارة والتراب ، فانكشف عن ساحة صغيرة فيها قبور ، وفي جنوبيها جدار فيه محراب ، والبناء كله قديم ، محكم متقن ، وبينه وبين دور المدينة إلى الشرق نحو خمسمائة متر ، وإلى الجنوب حَيْر [1] ينتهي ببناء قديم ، فيه قُبة قديمة في دار قديمة ، يقال لها : دار الجندي ، وبابها يشبه باب الحمام أو المسجد ، ثم كشف في هذا العهد في جهة الدار الغربية عن آثار مسجد ، ووجد في غربيه قبر عبد الكريم الداودي المتقدم ذكره في الزاوية الداودية .

ولما فتحت الحكومة الطريق ما بين المعرة وأريحا ، وقع هذا المسجد شرقي الطريق الذاهب من هناك إلى جهة القلعة .

وحول هذا المسجد آثار أبنية قديمة من الجنوب والشرق والشمال ، ولا يبعد أن يكون هناك سور المدينة وباب الجِنان .

---

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٣١١ : الحير بالفتح شبه الحظيرة أو الحمى .

مسجد الشيخ محمود :

هو في المحلة الشمالية ، وهو اليوم عبارة عن بقعة مستطيلة مسورة بأربعة جُدر ، محاطة بالطرق الضيقة من جهاتها الأربع في وسطها قبور ، وليس لها سقف ، ولا تقام فيه صلاة .

وقد زرت المعرة سنة ١٣٦٦ ه فوجدت هـذا المسجد متهدماً ، وقد ذهب بعض حجارته ، وسيذهب الباقي منها ، لان دائرة الاوقاف هناك لا تعنَى بالابنية العامرة ، فكيف بالمتهدمة .

جامع موسى بك :

هو في المحلة الشمالية أيضاً في الجهة الغربية .

جامع باكير أغا

جامع الشيخ خليل

جامع السيد يوسف :

هو في المحلة القبلية ، وهو جامع صغير له باب من جهة القبلة ، يدخل منه إلى ساحة صغيرة ، ينزل منها ببضع درجات إلى ساحة ، في شماليها إيوان ، وفي جنوبيها الحَرَم . وهذا المسجد تقام فيه الصلوات أحياناً . وقد بناه السيد يوسف رئيس الاسرة

التي تنسب إليه في المعرة وسيأتي ذكره .

وهذا الجامع متصل بداره العظمى من الجهة الشرقية الجنوبية .

جامع زقاق رازم

جامع الشيخ محمد المصري:

هو في المحلة القبلية ، بالقرب من الشكْنَة ، في جنوبيها من الغرب ، وفيه قُبة تحتها قبر الشيخ محمد المصري ، وبجانبها غرفة فيها ضريح يقال : إن فيه عبد الله بن المغيرة ، وفيه قبور يقال : إنها لبعض الصحابة ، وهذا كله أصبح اليوم في ساحة من مسجد بناه رجل يقال له : مصطفى من بني الحصنين ، تقام الآن فيه الصلوات غير الجمعة .

جامع المصوص

جامع الحابوسة

جامع الشيخ أبي بكر

جامع بني المندبل

جامع بني البم

جامع الشيخ ربيع

جامع بني الأصفر

جامع نور الأبصار

مسجد أبي العلا :

وهو في المحلة القِبْلية ، في غربيه طريق آخذ من الشمال الى جنوبيه ، وغربي هذا الطريق من الشمال حَيْر ينتهي بطريق يفصل بينه وبين حير آخر يسمى الحير الكبير ، وهذا ينتهي بالجَبّانة الغربية .

وفي شمالي الحير الأول من الغرب مسجد الشيخ عطاء الله السابق ذكره ، وقد قدمنا أنه حدث فيه عُمْران في عصرنا هذا .

وفي شمالي مسجد أبي العلاء وشرقيه دور .

ولهذا المسجد باب صغير من الجهة الغربية ، يدخل منه إلى ساحة طولها من الشمال الى الجنوب نحو ثمانية أمتار وسبعين سانتيمتراً ، وعرضها من الشرق الى الغرب نحو ستة أمتار واثنين وثمانين سانتيمتراً ، وفي شمالي الساحة صُفّة مرتفعة نحو (٣٠) سانتيمتراً واصلة ما بين الجدار الغربي والمدفن الذي فيه الباب وعرضها (١٢٠) سانتيمتراً وفيها بعض الشجيرات .

ويقابل هذا الباب الغرفة التي فيها قبر أبي العلاء ، ولها باب صغير يتجه الى الغرب ، وطول هذه الغرفة (٣،١٨) وعرضها (٢،٩٥) وفيها قبة ارتفاعها أربعة أمتار تقريباً .

وتحتها القبر وطوله (١،٢٥) وعرضه (٧٥) سانتيمتراً تقريباً وفوقه حجران قائمان مكتوب عليها بالخط الكوفي وطول التي عند الرأس متر واحد .

ويتصل بالقُبَّة من الجنوب غرفة صغيرة تزيد في طولها نحو متر عن الغرفة السابقة ، وعرضها نحو عرض الأولى ، وارتفاعها أقل بنحو متر ، وفيها شيخ بصير يقرىء الأطفال القرآن .

وفي جنوبي الساحة الأولى الخارجية مسجد طوله من الشرق الى الغرب (٦،٥٠) وعرضه من الشمال إلى الجنوب (٥،٥٥) وفي جنوبي هذا المسجد من الغرب قبر طويل مكتوب عليه بالخط الكوفي ، استطعنا أن نقرأ من المكتوب عليه سورة الإخلاص .

وفي هـــذا المسجد محراب وليس فيه منبر ، وفي جداره الشرقي باب يخرج منه إلى ساحة فسيحة ، طولها من الشمال إلى الجنوب (١١،٧٥) ، وعرضهـــا من الشرق إلى الغرب

(٦،٣٧) وفيها قبر طوله **نحو** مترين ، وارتفاع شاهدته **نحو** متر ، وقد كان فيها قبور كثيرة ، أخذ حجارتها جيرانها وكسّروها ، وجعلوها في عِمارتهم ، ولا يزال فيها القبر المذكور وآثار غيره .

وفي الساحة المذكورة بئر ماء يتوضأ منه المصلون ، وفيها شجيرات من التين والرمان .

وأصل مسجد أبي العلاء ساحة من دور أهله عليها باب قديم صغير . هكذا قال جمهور من المؤرخين .

وهذا الرسم الأول فيه صورة باب الغرفة ، وفي داخلها القبر مع شيء من الساحة الخارجية ، وباب الغرفة الثاني وشجرة في الساحة . والصور الاربع التي تليها صور الحجارة المكتوبة على قبر أبي العلاء وقد استعصي علينا قراءة بعضها ، فرغبنا إلى أحسن رجل بدمشق في عصرنا يحسن قراءة مثل هذه الآثار وهو مدير الآثار فيها ، فرسم لنا صورة مااستطاع قراءته منها وهي هكذا .

رقم (٢) الله لا إله إلا هو الحي القيوم .

رقم (٣) رحمة الله عليه .

رقم (٤) أبا العلاء بن عبد الله بن سليم ولعلها سليمان ،

وهذا الحجر هو الذي وضع فوق قبره الآن وحده .

رقم (٥) أبا العلاء بن سليمان رحمه الله تعالى . الثاني الخميس

ليال مضو .. رمضان سنة .. وثلثين وخمسمائة .

هذا ما بينه لنا ويظهر في هذه الحجارة ، أن قبل لفظ الجلالة

في الرقم (٢) كلمة لم تفهم .

وفي أعلى رقم (٣) كتابة على شكل نصف دائرة ، لم تمكن

قراءتها .

وفي أعلى رقم (٤) كلمات محطمة لم تمكن قراءتها أيضاً ،

وأظن أن كلمة سليم فيها ، وهي سليمان .

وفي الرقم (٥) كلمات عسر فهمها ، وما قيل : لفظ خمسمائة

أقرب ، إلى رسم ثمانين منه ، إلى رسم ثلثين .

وهذا التاريخ على علاته بعد وفاة أبي العلاء بكثير من الزمن

لأن أبا العلاء توفي سنة ٤٤٩ ﻫ .

فإما أن يكون هذا التاريخ لعمل القبر لا للوفاة ، ولكن

ذلك غير معروف ولا مألوف ، وإما أن يكون الحجر الذي

عليه تاريخ وفاة أبي العلاء قد فقد ، واستبدل بحجر عليه تاريخ أحد أقربائه من بني عبد الله بن سليمان .

ولا يستبعد أن يكون الحجر الأصلي حطمه بعض المتورعين ، لأن المعرة أتى عليها حين من الزمن كانت تعد فيه أبا العلاء من الزنادقـــة والملحدين ، كما سيأتي في ترجمته عن ابن الوردي وغيره .

أو أن يكون الحجر الاصلي باعه أحد الرعاع الجهلة ، أو أخذه وحطمه ، وجعله في بناء داره .

وقد أخبرني بعض علماء حلب ، أنه زار المعرة ، ورأى حجراً إلى جانب قبر أبي العلاء ، فادعى أنها شاهدة قبره ، ورفع حجراً من القبر ووضعه مكانه ، ومما لا شك فيه أن ذلك الحجر الذي وضعه ليس الحجر الاصلي ، وقد فاتني أن أسأله أي حجر هو ، ولكني أعتقد أنه ذو الرقم (٥) لأن خطه مخالف لخط الحجارة الباقية ، وعلى هذا يكون هذا الحجر من قبر آخر ، والتاريخ لغير أبي العلاء .

وقد زار هذا القبر القِفْطي [١] بعد الستمائة ، فرأى عليه خُبّازَى يابسة ، وهو على غاية من الإهمال ، ورآه الذّهَبي [٢] بعد ذلك بمائة سنة ، فرآه كما رآه القفطي .

فاما أن يكون قبره كان مكشوفاً ، ثم بنيت عليه الغرفة والقبة ، وإما أن يكون رأى الخبازى في ساحته ، لأن الغرفة التي فيها القبر لا يعيش فيها نبات ، لأن الشمس لا تدخلها ، وليس لها إلا باب صغير يتجه إلى الشمال ، وأرضها مفروشة بالبلاط ، وزاره علاء الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ

---

(١) هو علي بن يوسف بن ابراهيم القفطي . عالم ، أديب ، مشارك في النحو واللغة والفقه وعلم القرآن والحديث والأصول والمنطق والفلك والهندسة وغير ذلك . ولد بمدينة قفط بمصر ، ونشأ بالقاهرة ، ورحل إلى حلب وولي الوزارة فيها ، وتوفي بها . له تصانيف كثيرة في عدة علوم .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧ : ٢٦٣ ، ٢٦٤)

(٢) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني الأصل ثم الدمشقي الذهبي . محدث ، مؤرخ . ولد بدمشق ، وسمع بحلب وبنابلس وبمكة من جماعة ، وسمع منه خلق كثير ، وتوفي بدمشق . له تصانيف كثيرة في الحديث والتاريخ .

(ملخصة عن معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٨ : ٢٨٩ — ٢٩١) .

فرآه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا يؤيد أن البناء الذي فوق القبر حادث ، وصفة البناء وأوضاعه تشهد لذلك .

وزعم صاحب (نهر الذهب) [1] أن هذين البيتين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة   نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها   فردها غيرة منه إلى الصدف

مكتوبان على قبر أبي العلاء . وهذا غير صحيح اذ ليس على القبر شيء منها وانما هما مكتوبان في قطعة من ورق ، كتبها استاذنا الحاج أبو بكر صدقي الديوريكي ، حين كان معلماً للمكتب الرشدي في المعرة في نحو سنة ١٣١٣ ه ، وفيهما تحريف وقد صححتهما ، وكتبتهما على قطعة صغيرة بقلم رصاص في السنة المذكورة بخطي .

وقد ذكر صاحب (الروضتين) [2] هذين البيتين :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها   فردها غيرة منه إلى الصدف

للأمير شبل الدولة مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري قالهما

(١) كامل الغزي : نهر الذهب ١ : ٤١٨ (ج) .
(٢) أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ص ٢٦ (ج) .

في الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن اسحق الطوسي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

وذكرهما في (الكامل)[١] وروايته لؤلؤة يتيمة . عزت فلم تعرف ورواهما له الأبشيهي[٢] في (المستطرف) : وروايته لؤلؤة يتيمة عزت ولم تعرف.. فردها عندما عزت إلى الصدف .

كيفية بناء ضريح أبي العلاء الجديد :

في نحو سنة ١٣٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٩٢٥ هـ عزمت الحكومة السورية على بناء ضريح لأبي العلاء المعري ، ثم وقفت عن العمل بسبب نشوب الثورة السورية .

فلما استقرت الأمور أثار أحد النواب هذه القضية في المجلس النيابي المنعقد في سنة ١٣٥٢ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٣ م ، واقترح على الحكومة أن تطبع مجموعة من الطوابع البريدية باسم أبي العلاء المعري في عهد أول جمهورية سورية ، وحاول بعض النواب ممالأة للحكومة ، ارجاء البحث في هذه القضية

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٠ : ٨٥ (ج) .

(٢) الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ٢ : ٣٤٠ .

وتسويفها ، ولكن النواب الآخرين اشتدوا على الحكومة ، فأقرت هذا الاقتراح ، وظهرت الطوابع في سنة ١٣٥٣ ﻫ الموافقة لسنة ١٩٣٤ م ، ونقش عليها رسم أبي العلاء ، وبيعت في عهد قليل ثم فترت عزيمة الحكومة ، وقام فريق من الأدباء يطالبونها بانجاز هذا العمل ، فعهدت إلى الموسيو ايكوشار المهندس المعماري الفرنسي ، أن يضع شكلاً للقبر والبناء الذي يحيط به ، يكون على طراز المدارس الاسلامية القديمة ، فأتم ذلك في أكثر من عام ، وجعل موضعاً للمكتبة بجانب الضريح على نمط الأبنية في القرن الرابع الهجري ، بحيث يرى منها الضريح القديم .

وقد أزيلت الدور التي كانت تكتنف مسجد أبي العلاء من الغرب والشمال .

وقد شرع في هدم المسجد والضريح المذكورين في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م ، وقد زرت المعرة في ذلك العهد ، ورأيت العمال يهدمون حجارة الجدران فوق القبر ، فتتحطم الحجارة من الطرفين ، فاعلمت رئيس البلدية بذلك ، فأوصاهم بأن يغمروا القبر بالتراب حتى لا تتهشم حجارته .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم السبت ، وهو اليوم السابع من شوال سنة ١٣٥٨ هـ ، والثامن عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م ، وضع الحجر الاساسي من البناء المذكور ، بحضور جماعة من الحكومة السورية ، رئيس مجلس المديرين ومدير العدلية ، ومندوب المفوض السامي الموسيو هوتكلوك ، ومستشار الداخلية الموسيو فوكنو ، ومحافظ مدينة حلب ، ومندوب المفوض فيها ، ورئيسا البلدية والنافعة ومدير الشرطة فيها وبعض رجال الصحافة .

وخطب الموسيو هوتكلوك خطبة أعرب فيها عن سروره باشتراكه في هذه الحفلة ، وذكر شهرة أبي العلاء ، وأنه كان أبدع مظهر للذكاء العربي .

ثم أذاعت دائرة المطبوعات في الجمهورية السورية في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٨ هـ و ١٩ كانون الاول سنة ١٩٣٩ م بلاغاً ذكرت فيه أن قد تقرر تأسيس مكتبة في معرة النعمان خاصة بأبي العلاء ، تقام بجانب ضريحه ، وتحتوي على مؤلفاته ، وما ألف فيه في اللغة العربية وغيرها ، لتكون مصدراً يرجع

إليه من يود دراسة أدبه وفلسفته ، وأن بلدية المعرة تتقبل بالشكر كل ما يهدى إلى هذه المكتبة من كتب مطبوعة ، أو مخطوطة ، أو مجلات ، أو غيرها ، وتسجل كل كتاب باسم مهديه ، وقد أهدي لها بعض كتب من نواح مختلفة .

وقد تم بناء ضريح أبي العلاء ومسجده في سنة ، ولكن البناء جاء على شكل يمقته كل من رآه ، وينقم على مهندسه الذي رسم خططه ، والحكومة التي وافقته في البناء على شكله .

ولما أكثر الناس لوم الحكومة وانتقادها من أجله ، غيرت خريطة البناء وهدمته ، ثم بنته على شكل جديد ، رآه الناس حسناً بالنسبة للبناء السابق ، ولكنها لم تقم فيه مكتبة ، ولم تجمع كتباً .

ولعل الحكمة في ذلك هي أن الله تعالى قدر على أبي العلاء أن لا يخلو من منقص في حياته وبعد موته [1] .

---

(١) أعلن الدكتور طه حسين باسم الحكومة المصرية في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري (سنة ١٩٤٤ م) تبرعها بألفين من الجنيهات ، فقال : ثم رأت مصر أن تكون مشاركتها في إحيـاء ذكرى أبي العلاء متصلة بشخصه وبلده ، وقد علمت أن سورية قد جددت

المهرجان الألفي لأبي العلاء :

وفي سنة ١٩٤٤ م الموافقة لسنة ١٣٦٣ ﻫ قرر المجمع العلمي العربي في دمشق ، إقامة مهرجان لمرور ألف سنة على ميلاد أبي العلاء المعري ، وخصصت حكومة دمشق لذلك أربعين

— قبر الشيخ وأقامت إلى جانبه مكتبة ، فقررت أن تشارك في هذه المكتبة ، وكلفني وزير المعارف أن أعلن أن الحكومة المصرية تتبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السورية بعض ما تحتاج إليه هذه المكتبة من الكتب .

وقد وضع هذا المبلغ باسم المرحوم الأستاذ خليل مردم الأمين العام للمجمع العلمي العربي في أحد المصارف بدمشق ، وقد كلفني الأستاذ المرحوم بأن أبتاع مجموعة كبيرة من أمهات الكتب في الأدب واللغة والتاريخ والتفسير والحديث والفقه الخ . . . فقمت بتنفيذ ذلك ، وأرسلت الكتب إلى المعرة ، فوضعت في بناء ضريح أبي العلاء ، وانتفع بها جمهور غفير من طلاب العلم والأدب ، لما ألحق ذلك البناء بوزارة الثقافة والارشاد القومي سنة ١٩٥٨ م ، وأطلق عليه اسم المركز الثقافي العربي .

وزرت هذا المركز في كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م ، فوجدته غاصاً بالمطالعين ، وشاهدت رئيسه السيد عبد العزيز دقـاق يبذل الجهد لازدهار هذا المركز وتقدمه .

وقام هذا المركز بنشاط طيب في خلال عام ١٩٦٢ م ، فزادت كتبه فبلغت ٣١٧٧ ، وبلغ عدد رواد المركز ١٧١٤٣ ، وعدد الندوات والمحاضرات التي أقيمت فيه ١٤ .

ألف ليرة سورية ، ودعا المجمع جماعة من أعضائه وغيرهم ، للاشتراك بهذا الاحتفاء ، فلبى الدعوة فريق ، وتخلف فريق آخر لمعاذر مختلفة . وقد ابتدأت الحفلة في الساعة الخامسة من يوم الاثنين ٨ شوال سنة ١٣٦٣ هـ ٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤ م في الجامعة السورية في دمشق .

فافتتح الحفلة رئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي بكلمة نوه فيها بذكر المعري ، ثم تصدى إلى الترحيب بالضيوف والثناء عليهم .

ثم قال الدوكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف في مصر كلمة في الفصول والغايات ، وقد خصص الوقت الذي بعده للسيد حسن حسني عبد الوهاب وزير القلم في تونس ، ولكنه لم يحضر .

ثم قال الأستاذ مهدي الجواهري ، ممثل وزارة المعارف في العراق قصيدة ، عدد أبياتها خمسة وثمانون بيتاً .

وتلاه المستشرق الأستاذ وليم مرسيه ممثل جامعة الجزائر ، فقال كلمة في موقف الاسلام من العالم الحيواني .

ثم قال بدوي الجبل قصيدة جمع فيها بين مدح أبي العلاء ومدح رئيس الجمهورية ، وعدد أبياتها نحو تسعين ، وهي معدة للالقاء في مدينة اللاذقية ، ولكنها قدمت عن وقتها لما فيها من مدح رئيس الجمهورية ، ولتغيب أحد الخطباء وهو حسن حسني ، وقد أعيدت في اللاذقية في الزمان والمكان المخصصين بها .

وفي اليوم الثاني الثلاثاء ٢٦ ايلول سنة ١٩٤٤ م ، ابتدأت الحفلة الثانية في الساعة الخامسة في مدرج الجامعة السورية فألقى السيد احمد أمين ممثل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ومجمع فؤاد الأول كلمة عنوانها سلطان العقل في نظر المعري وتلاه محمد اسعاف النشاشيبي من علماء القدس ، فقال كلمة عنوانها التفاؤل والاثرية عند المعري . ثم تليت قصيدة للسيد محمد البزم الدمشقي . ثم قال المستشرق الأستاذ ألفريد غليوم من جامعة اوكسفورد ، كلمة عنوانها المعري في نظر المستشرقين وقد خصص وقت للأستاذ رضا الشبيبي رئيس مجلس النواب العراقي ليقول كلمة عنوانها لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي ، ولكنه لم يحضر من العراق .

وفي يوم الأربعاء ٢٧ ايلول سنة ١٩٤٤ م ذهبت الوفود إلى المعرة ، وقد تليت على قبر أبي العلاء في المعرة قصيدة الأستاذ معروف الرصافي العراقي ، عنوانها شاعر البشر . وقد وصل الوفد إلى المعرة في الساعة السادسة من اليوم المذكور وبعد أن استراحوا من عناء السفر ، ذهبوا إلى قبر أبي العلاء ، فابتدئت الحفلة بقراءة عشر من القرآن الكريم ، أولها « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل » ثم قال الدوكتور طه حسين كلمة ابتدأها بأبيات من قصيدة أبي العلاء

غير مجد في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد

ثم تليت قصيدة الرصافي . ثم ألقى السيد مهدي البصير كلمة عنوانها على قبر أبي العلاء . ثم ذهبوا إلى مأدبة أعدها لهم السيد حكمة الحراكي ، ثم ساروا ليلاً إلى حلب .

وفي يوم الخميس ٢٨ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة الرابعة في مدرسة التجهيز في حلب في الساعة الخامسة . وقد خصصت أول ساعة للأستاذ أحمد حسن الزيات المصري ، ليقول كلمة موضوعها فن المعري ، ولكنه لم يحضر ، فقال

ابراهيم عبد القادر المازني ممثل الصحافة المصرية ، كلمة عنوانها بحث أدبي عن أبي العلاء المعري .

ثم تلا الأستاذ سامي الكيالي كلمة موضوعها الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء وأثره في بيئته وشعره ، ثم قال الأستاذ طه الراوي ممثل وزارة المعارف العراقية كلمة موضوعها سر الخلود في شعر المعري . ثم قال الأستاذ عمر أبو ريشة قصيدة عنوانها الفيلسوف .

وفي يوم الجمعة ٢٩ ايلول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة الخامسة في فندق كازينو في اللاذقية . فقال الأستاذ عبد الحميد العبادي عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، كلمة عنوانها الناحية التاريخية في أدب المعري . ثم قال الاستاذ جميل صليبا كلمة عنوانها فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الاستاذ بدوي الجبل قصيدته السابق ذكرها . ثم قال الاستاذ محمد الشريقي كلمة موضوعها أسلوب المعري . ثم قال الاستاذ أنيس الخوري المقدسي ممثل الجامعة الاميركية في بيروت كلمة موضوعها الروح العلائية في أدبنا الحديث .

وفي يوم الأحد في ١ تشرين الأول سنة ١٩٤٤ م ابتدأت الحفلة السادسة في الجامعة السورية في دمشق ، وقد كان الوقت معيناً لخمسة خطباء ، ولكن زيد عليهم أكثر من هذا العدد ، فقال الدوكتور عبد الوهاب عزام كلمة عنوانها اللزوميات متى نظمت وكيف رتبت ، ثم قرئت كلمة كنت أعددتها لهذه الحفلة ، موضوعها دين أبي العلاء ، وقد لقيت قبولاً من السامعين أكثر من كل ما قيل في هذا الاحتفاء ، لأنهم أدركوا أن أكثر الخطباء يتعمد غمز أبي العلاء ليظهر على أكتافه ، وقد ادحضت حججهم وأبطلت مزاعمهم ، وبينت لهم نواحي من أبى العلاء كانوا لا يعلمونها . ثم قال الشيخ عبد القادر المغربي كلمة موجزة من خطبة موضوعها شيخ المعرة والشيخ الدرا . ثم قال الأستاذ هنري لاووست حكمة عنوانها اختلاف الآراء في فلسفة أبي العلاء . ثم قال الأستاذ شفيق جبري قصيدة .

وختم رئيس المجمع الاحتفال بكلمة أثنى فيها على الوفود والحكومة السورية ، وانتهى الاحتفال ، وهذا الذي ذكرنا هو المقرر في برنامج الحفلة في الأصل ، ولكن القائمين بها لم يستطيعوا أن يراعوه فزادوا في كل حفلة أو نقصوا .

وقد زادوا في هذه الحفلة الاخيرة كلمة لمندوب وزارة المعارف اللبنانية ، وكلمة أخرى لجهان الموصلي ، أنكرت فيها على أبي العلاء قسوته على المرأة وارتيابه فيها ، ثم أقامت له العذر في ذلك ، وكلمة ثالثة لعارف العارف [١] .

---

(١) وبهذه المناسبة رأيت من الفائدة ادراج كلمة الدكتور جميل صليبا في وصف حفلة افتتاح مهرجان أبي العلاء فقال : لم يكد المجمع العلمي العربي يعزم على إقامة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ، حتى ابتدأ الاستعداد له في كل مكان . فعهد المجمع إلى لجنته الإدارية في تنظيم المهرجان وتحديد أمكنته ومواقيته وحفلاته ، فرأت أن يدوم المهرجان اسبوعاً كاملاً من ٢٥ ايلول إلى ١ تشرين الأول ١٩٤٤ م ، وان تشمل حفلاته مدن دمشق وحمص وحماة ومعرة النعمان وحلب واللاذقية . ودعا المجمع أعضاءه العاملين والمراسلين إلى الاشتراك في المهرجان ، وكلف بعضهم اعداد كلمة تلقى في الحفلات الخطابية ودعت وزارة المعارف السورية وزراء المعارف في الدول العربية . فأرسلت الدعوة إلى وزراء المعارف في مصر ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، وشرقي الاردن ، ولبنان ، وتونس ، والمغرب الأقصى ، واليمن . ودعي أيضاً مجمع فؤاد الأول للغة العربية (اليوم مجمع اللغة العربية) ، ورؤساء الجامعات العربية ، وغيرها وبعض المستشرقين ، ونقباء الصحف في دمشق وحلب وبيروت والقاهرة ، وممثلو محطات الاذاعة في سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، فلبى كثيرون منهم دعوة المجمع . —

وقد عرض لي عائق منعني من الاشتراك مع الوفد في

—ولم يحن موعد المهرجان ، حتى توافد المدعوون إلى دمشق ، وحلوا ضيوفاً على المجمع ، والتقى أدباء مصر والعراق وفلسطين وشرقي الاردن وأدباء سورية ولبنان في مكان واحد ، وكان هـذا الاجتماع أعظم سوق أدبية شهدتها دمشق في تاريخها .

وكان وفد مصر مؤلفاً من السادة الدكتور طه حسين ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ عبد الحميد العبادي ، والأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، والأستاذ أحمد الشائب . فقدموا إلى المجمع فور وصولهم هدية وزارة المعارف المصرية ، وهي « كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء » الذي طبعته مصر تخليـداً لذكرى المهرجان .

وكان وفد العراق مؤلفاً من السادة الأستاذ طه الراوي ، والأستاذ مهدي الجواهري ، والدكتور مهدي البصير .

وحضر من فلسطين الأستاذ اسعاف النشاشيبي . ومن لبنان السادة فؤاد افرام البستاني ، والدكتور عارف العارف ، والأستاذ أنيس النصولي ، والأستاذ أنيس الخوري المقدسي ، ورئيس جامعة القديس يوسف ، والأستاذ رئيف خوري . ومن شرق الاردن الأستاذان أديب وهبة ومحمد الشريقي . ومن ايران الأستاذ عباس اقبال . ومن المستشرقين الأستاذان ألفريد غليوم وهنري لاووست . ومن القدس السيد عزمي النشاشيبي ممثلاً للاذاعة والمطبوعات ، فضلاً عن الوفود الأخرى التي مثلت الأوساط العلمية في العاصمة والمدن السورية ، ممن سيأتي ذكر أكثرهم في الخطباء .

—

الرحلة إلى حِمْص ، فحماة ، فالمعرة ، ، فحلب ، فاللاذقية ،

— ولقد زارت الوفود في اليوم الأول من أيام المهرجان فخامة رئيس الجمهورية ، ومجلس النواب ، ودار الحكومة . والقى الدكتور طه حسين في مجلس النواب كلمة باسم الوفد المصري ، أعرب بها عن اعتراف مصر بفضل سورية ، لاحتفائها بذكرى أبي العلاء . قال : « وكان طبيعياً أن تقوم سورية بهذا المهرجان الألفي ، فتدعو إليه سائر بلدان العالم العربي . فهي قد أعطت الأدب العربي أكبر شعرائه ولكن أعظم شاعر انساني أنتجته سورية ، وحق لها أن تفخر به على العالم كله ، هو أبو العلاء . فلا غرو إذا سبقت العالم كله إلى الاحتفاء بذكره » فرد عليه رئيس مجلس النواب السيد فارس الخوري بكلمة أشار بها إلى فضل مصر على العالم العربي بأدبائها المعاصرين ومفكريها ، الذين كان لهم أعظم الأثر في احيـــاء تراثنا الأدبي وتوجيهنا الفكري .

ثم أقام المجمع مأدبة غداء في فندق اوريان بالاس أطلق عليها اسم « المائدة العلائية » طبخ بها الطعام وعولج على شرط أبي العلاء ، لم يكن فيه لحم ولا سمن ولا بيض ولا لبن .

وكان موعد الحفلة الخطابية الأولى في الساعة الخامسة بعد الظهر في الجامعة السورية (اليوم جامعة دمشق) ، دعا إليها رئيس المجمع العلمي الأستاذ محمد كرد علي وزراء دمشق ، وعلماءها ، وأدباءها ، وأديباتها ، ووجهاءها ، وكبار موظفيها ، وأساتذتها . وأعد في بهو الجامعة للوفود وأعضاء المجمع سدة خاصة حول منبر الخطابة . وربط المنبر بمحطة الاذاعة بدمشق . واتخذت جميع الوسائل الفنية لتسجيل —

ولكنني سمعت من كثير من رجال الوفد ، ومن كان معهم في

ـــ الخطب واذاعتها من محطة الشرق الأدنى . ونصبت علامة المهرجان في صدر البهو بين الأعلام السورية وأعلام الدول العربية . وعرضت آثار أبي العلاء وما كتب عنه في خزائن خاصة عند مدخل البهو ، كما عرضت بعض تماثيل وصور لأبي العلاء صنعها عدد من الفنانين وكانت صدور أعضاء الوفود وأعضاء المجمع مزينة بعلامة المهرجان ، وكانت موسيقى الدرك السوري تستقبل كبار المدعوين بأنغامها . ولما كان موعد الحفلة أقبل فخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) بحاشيته الرسمية ، فجلس على سدة المهرجان بين وفود البلاد العربية وأعضاء المجمع . وبدئت الحفلة بالنشيد السوري . وكان برنامجها على الوجه الآتي : ١ ـ كلمة الافتتاح لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية (السيد شكري القوتلي) ٢ ـ كلمة وزير المعارف (السيد نصوحي البخاري) ٣ ـ كلمة رئيس المجمع العلمي العربي (السيد محمد كرد علي) ٤ ـ كلمة الدكتور طه حسين رئيس وفد وزارة المعارف المصرية وكان عنوانها (الفصول والغايات) ٥ ـ قصيدة الأستاذ مهدي الجواهري ممثل وزارة المعارف العراقية وكانت بعنوان (الفيلسوف الحر) ٦ ـ كلمة الأستاذ أحمد الشايب مندوب جامعة فؤاد الأول (اليوم جامعة القاهرة) وكانت بعنوان أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف (انتهت كلمة الدكتور صليبا المنشورة في مقدمة المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري) .
وأما الحفلة الثانية فكانت بدمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ ـ سلطان العقل عند أبي العلاء للأستاذ احمد أمين ٢ ـ التفاؤل والأثرية في كلام الشيخ للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي ٣ ـ أبو العلاء ـ

هـــذه الرحلة ، أن الجميع كانوا مسرورين جد السرور من

— قصيدة للأستاذ محمد البزم ٤ — المعري في نظر المستشرقين للأستاذ ألفريد غليوم ٥ — المعري وآراؤه في الاصلاح الاجتماعي للأستاذ عارف النكدي .

وأما الحفلة الثالثة فقد كانت في معرة النعمان على ضريح أبي العلاء وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ — شاعر البشر قصيدة للأستاذ معروف الرصافي ٢ — على قبر أبي العلاء للدكتور مهدي البصير .

وأما الحفلة الرابعة فكانت في حلب وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ — أبو العلاء شاعر انساني للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ٢ — سر الخلود في شعر أبي العلاء للأستاذ طه الراوي ٣ — الفيلسوف قصيده للأستاذ عمر أبو ريشة ٤ — الاضطراب السياسي في عصر أبي العلاء للأستاذ سامي الكيالي .

وأما الحفلة الخامسة فكانت في اللاذقية وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ — ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء للأستاذ عبد الحميد العبادي ٢ — فكرة الخير في فلسفة أبي العلاء للدكتور جميل صليبا ٣ — الدهر ملك العبقرية قصيدة للأستاذ بدوي الجبل ٤ — أساوب المعري ومنهاجه للأستاذ محمد الشريقي ٥ — الروح العلائية وأثرها في أدبنا الحديث للأستاذ أنيس المقدسي .

وأما الحفلة السادسة فكانت في دمشق وألقيت فيها الموضوعات الآتية : ١ — لزوم ما لا يلزم متى نظم وكيف نظم ورتب للدكتور عبد الوهاب عزام ٢ — شيخ المعرة والشيخ الدرا للأستاذ عبد القادر المغربي ٣ — دين أبي العلاء لمحمد سليم الجندي ٤ — اختلاف الآراء —

حفاوة المعريين بهم ، ومعجبين أشد الاعجاب بما رأوه من طلاقة أوجههم وألسنتهم وأيديهم .

فقد خرج لفيف كبير من المعرة فرساناً ومشاة ، إلى استقبال الوفد قبل المدينة ، فلما وصل في الساعة السادسة قبيل غروب

ـ في فلسفة أبي العلاء للأستاذ هنري لاووست ٥ ـ ذكرى أبي العلاء قصيدة للأستاذ شفيق جبري .

وهناك كلمات وردت متأخرة فألحقت بالحفلة السادسة وهي من ضحايا العقل للأستاذ أفرام البستاني ، من هو أبو العلاء للأستاذ أديب وهبة المعري والمرأة للآنسة جهان الموصلي ، أبو العلاء وأقطاب الفكر المحدثون للأستاذ عارف العارف ، كلمة الاذاعة الفلسطينية للأستاذ عزمي النشاشيبي .

وهناك كلمات بعث بها أصحابها لتنشر في كتاب المهرجان الألفي لأبي العلاء بعد أن تعذر حضورهم إلى دمشق في اسبوع المهرجان وهي : لزوم ما لا يلزم في الأدب العربي للأستاذ محمد رضا الشبيبي ، أبو العلاء المعري وعلم النحو للأستاذ ابراهيم مصطفى ، بعض ملاحظات تتعلق بحياة أبي العلاء وآثاره للأستاذ عباس اقبال ، مخطوطات أبي العلاء المعري في مكتبة جامعة برنستون الدكتور فيليب حتي ، والناس تخطب في علاك وتنشد قصيدة للشيخ كاظم الدجيلي ، والمعري والموسيقى للأستاذ فخري البارودي .

الشمس ، استقبلهم الناس بالترحيب والتحية ، وسارت الجموع أمامهم ، واستفرغوا ما عندهم من الاهازيج والالعاب والسباق على ظهور الخيل ، حتى دخلوا المدينة ، وكان الناس على حافتي الطريق وسطوح الابنية يصفقون ويرحبون ، وكان في مقدمتهم السيد حكمة الحراكي ، وهو الذي أعد لهم هذا الاحتفال الشعبي ، وتولاه بنفسه من أوله إلى آخره ، وكان أهل المدينة يشاركونه في الترحيب وكرم الوفادة .

فلما وصل الوفد إلى المدينة استراح قليلاً في دار السيد طالب الحراكي ، ثم سار ماشياً إلى ضريح أبي العلاء ، فجلسوا على المقاعد التي أعدت لهم ، وبعد أن تليت آيات من الذكر الحكيم قال الخطباء ما قدمنا ذكره ، وبعد انتهاء الحفلة ذهبوا إلى دار حكمة الحراكي ، وقد كان أعد لهم مأدبة فاخرة ما رأوا مثلها في طيب الطعام وكثرة أنواعه وكثرة مقاديرها ، ورأوا من صاحبها من جمال اللقاء وحلاوة اللسان وكثرة السرور بهم وكرم الخلق ، ما لم يروه من انسان غيره ، وصفوة القول إن سرورهم بهذه الحفلة واعجابهم بحفاوة المعريين ، وكرم

الحراكي ملأ أعينهم وقلوبهم ، وأطلق ألسنتهم بالشكر والثناء فما رأيت أحداً منهم إلا وهو يتعجب من كرم الوفادة ويثني على أهل المعرة .

ثم سار الوفد ليلاً إلى مدينة حلب ، وقد ذكر ذلك مفصلاً في الكتاب الذي وضعه المجمع العلمي وطبعه ، وسماه المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري [1] .

---

(١) قال الدكتور جميل صليبا في المهرجان الألفي لأبي العلاء ص ١٣٥ ، ١٣٦ :

ولما انتهت مأدبة الغداء غادر أعضاء المهرجان في الأصيل مدينة حماة ، فوصلوا إلى معرة النعمان في الساعة السادسة قبيل غروب الشمس . وكان نائب المعرة السيد حكمة الحراكي قد أعد لهم احتفالاً شعبياً رائعاً . فاستراحوا قليلاً في دار السيد طالب الحراكي عند مدخل المدينة . ثم ساروا إلى ضريح أبي العلاء مشياً على الأقدام والجماهير تصفق لهم وتحييهم وبلغوا القبر في العشية، يحيط بهم أهل المدينة كبارهم وصغارهم في موكب مهيب لم تشهد معرة النعمان مثله وترمقهم أعين النساء من شرفات المنازل بنظرات ملؤها الفرح . ثم أنهم جلسوا على المقاعد التي اعدت لهم حول الضريح ، وبدئت الحفلة بعشر من القرآن الكريم أوله : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

الخانات :

من الأبنية الجليلة في المعرة الخان الكبير ، ويقال له : خان التكية[1] ، وهو في شرقي المعرة ، متوسط بين شماليها وجنوبيها

— ثم ألقى الدكتور طه حسين كلمة بدأها بتلاوة أبيات من قصيدة أبي العلاء الخالدة

غير مجد في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد

وأشار فيها إلى مذهب أبي العلاء في اعتزال الناس ، وابتغاء الوحدة وحرصه عليها قال : لقد وجد أبو العلاء أن خير ما يصنعه لنفسه في الحياة عزلة تبعده عن الناس . ولكنه لم يكد يبدأ سيرته في الاعتزال حتى أخذ الناس يسعون إليه ويلتفون حوله . فشقي في حياته بالناس . وها هو يشقى بهم بعد موته ، ويخفق في طلب العزلة . لقد سجن نفسه في بيته حباً بالزهد واعراضاً عن الجد ، فهل يرضيه أن يجتمع الناس حول قبره ويقيموا له هذه الاحتفالات لا لعمري لو ترك الأمر لأبي العلاء لما أراد شيئاً من هذه .

ولما انتهى الدكتور طه حسين من مناجاة أبي العلاء تلا السيد محمد الشريقي قصيدة للأستاذ معروف الرصافي وعنوانها : « شاعر البشر » ...

ثم القى الدكتور مهدي البصير كلمة عنوانها : على قبر أبي العلاء .

ولما انتهت الحفلة الخطابية دعي أعضاء المهرجـــان إلى مأدبة عشاء أعدها لهم السيد حكمة الحراكي ، فساروا في العتمة إلى بيته وشهدوا عنده من صنوف الكرم العربي ما يعجز القلم عن وصفه . ثم ان أعضاء المهرجان ساروا بعد ذلك إلى حلب .

(١) وهو اليوم مقر لمدرسة سعيد العاص الابتدائية .

وليس في شماليه بناء ، ولا بينه وبين طريق حلب شيء من العُمران قبل سنة ١٣٤٤ ﻫ ، وفي هذه السنة أنشأت الحكومة داراً لها ، جعلتها في شرقي الخان ، وعمر بعض الناس شرقي دار الحكومة ، على الطريق الآخذة إلى حلب بعض دكاكين ومقهى صغيراً ، ثم لما فتح شارع أبي العلاء بنى الناس على استقامته ، من الشرق والغرب ، ومر الشارع في جنوبيه ، والخان بناء عظيم مربع الشكل ، متقن البناء ، محكم الصنع ، يحسبه الرائي من حجر واحد ، وأن بانيه فرغ منه حين يراه ، ثم لما وقعت معركة بين الثوار ، وبين الجنود الفرنسيين الذين كانوا متحصنين فيه ، خدش الرصاص بعض حجارته ، فكسرها وشوه رونقها .

وفي وسط هذا الخان ساحة كبيرة ، وفي وسط هذه الساحة مسجد واسع ، مرتفع عن الأرض ، وفيه محل للوضوء ، وإلى جانبه مصنع للماء من حجر واحد ، ويسمونه جُرْنا ، كان يسيل إليه الماء من حمام التكية الآتي ذكرها .

وحول الساحة أروقة كبيرة ، مرتفعة عن الأرض ، ووراء

الأروقة أمكنة عظيمة ، فيها صُفَف عالية للمسافرين ، وفيها مرابط لدوابهم ، وتكاد هذه الأبنية يتصل بعضها ببعض ، وفي الجهة الشرقية منه بناء جميل ، فيه غرف متعددة ، يقال : انها كانت مقراً للحاكم وأعوانه .

وجميع ساحته وأروقته مفروش بالبَلاط ، وكذلك سطحه وقد فرش سطحه بألواح من الرصاص فوق البلاط ، ثم عبثت بها أيدي المتولين وغيرهم ، فلم يبق منها إلا النزر ، واقتلع الجنود الفرنسيون قسماً من بلاطه ، فجعلوه متارس كانوا يحاربون من ورائها ، وقد تداعى قسم منه في الجهة الشمالية الغربية ، ورمم قبل سنة ١٣١٠ هـ .

وهو على حالته الحاضرة آية خالدة ، يشهد بعظم بنائه على عظمة بانيه ، وهو وقف على أبناء السبيل ، يؤمونه متى شاؤا ، ويقيمون فيه متى أرادوا ، من غير أن يدفعوا أجراً عنهم أو عن دوابهم ، وخلف الباب غرفة يقيم فيها الحارس ، وله باب شاهق عظيم ، يتجه إلى القبلة ، وقد كتب فوقه هذه الكلمات :

« قد بنى هذا لوجه الله تعالى حامي دفاتر الديوان السلطانية مراد چلبي فغني منع فقيراً أو دوابه يتشتى فعليه لعنة الله والملائكة بطرق شتى سنة ٩٧٤ هـ » .

وإلى جانب هذا الخان من الشمال الغربي حمام يقال له : حمام التكية ، وهي أحسن الحمامات في المعرة ، وإلى جانبها الغربي الشمالي بناء عظيم ضخم ، يزعم أهل المعرة أنه كان تكية يطبخ فيها الطعام للفقراء ، وان الغريب ينزل في الخان مجاناً ، ويأكل من التكية مجاناً ، وآثار هذا البناء تدل على ذلك ، ولذلك يقال لهذا الخان : خان التكية الا أن الحمام في عهدنا هذا تؤجر كغيرها من الحمامات ، ويستوفى من داخلها الأجر ، والتكية خربة يستعملها مستأجر الحمام في بعض مرافقه وأما الخان فلا يزال الناس ينزلونه بغير أجر ، وله وللحمام المذكورة أوقاف كثيرة ، وقد ذهبت الايام بكثير منها ، وما بقي منها ضمته الحكومة التركية إلى أوقاف الجامع الكبير ، فهي كلها تعمر وترمم من غلة الوقف المشترك .

وماء هذه الحمام يخرج من رَكِيّة متصلة بها ، ويسال إليه

أحياناً ماء من رَكية الجامع الكبير ، على ساقية فوق جدار عال ممتد بينها ، تحته قناطر ، ويسمى ذلك الموضع بالقناطر ، منها : قنطرة كبرى قريبة من ركية الجامع ، يمر الناس تحتها من المحلة الشمالية إلى القِبلية ، ويليها من الشرق قناطر أصغر منها ثم هدمت هذه القناطر واسيل الماء بواسطة أنابيب حديدية تحت الارض ، حين بنيت المدينة على الشكل الحديث ، أي حين فتح شارع أبي العلاء .

الخان الثاني ، أو الشكنة :

ويقابل خان التكية من الجهة الجنوبية ، خان آخر يقاربه في الحجم ، لا في الاتقان والرونق ، وقد بناه أسعد باشا العظم المعري ، وفوق بابه هذه الابيات ، ويقال إنها من نظم الشيخ عبد الغني النابلسي ، وهو خطأ ، لأن الشيخ توفي سنة ١١٤٣ ﻫ كما ذكره الجبرتي [١]

جزاك الله أسعد كل خير وإسعافا مع الفضل الجزيل

لما بمعرة شيدت خانا تسامى في البناء عن المثيل

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٢ : ٩ (ج) .

ثوابك عند رب العرش حقا أيا خدن الوزارة والقبول

بناؤك مثل طولك فيه أرخ مطل راسخ لابن السبيل

سنة ١١٦٦ ٨٩ ٨٦١ ٨٣ ١٣٣

وفي داخله حوض ماء تحت قوس حجري ، وقد تهدم بعضه في عهد الحكومة التركية ، وقد اتخذته الحكومة العثمانية ثُكْنَةَ ، يقيم فيها الجند من عهد بعيد ، وبنت بجواره من الشرق مدخراً محكما لوضع الاسلحة والمواد المتفجرة ، وبقي كذلك إلى أن جلت عن المعرة ، فأبقته الحكومة التي خلفتها على حالته ثكنة ، ولا يزال كذلك إلى سنة ١٣٥٥ هـ .

وبعمل السلف والخلف ضاعت الغاية المقصودة من بنائه ، وحرم أبناء السبيل الانتفاع به ، وحرم أهل المدينة ما ينجم عن ذلك من الفوائد .

ولهذا الخان أوقاف ، يصرف على ترميمه من ريعها ، عرفت منها :

خمس دور في المعرة ، ومقهى واحد وهي القهوة الكبيرة

وخمسة دكاكين ، وأربع أرضين ومدار واحد[1] ، وله أرض بجوار خان العتيق ، موقوفة ليصب بريعها ماء في الحوض المذكور. وقد رأيته سنة ١٣٥٧ هـ ، وقد خرجت منه الجنود ، وصار سوقاً لبيع الدواب ، وهو على وشك التداعي والسقوط ، وقد بنى الناس حديثاً في شرقيه من الشمال والجنوب .

الخان العتيق :

وكان في المعرة خان ثالث أقدم عهداً من هذين الخانين ، بناه صارم الدين أزبك المنصوري الحموي المتوفى سنة ٧٣٧ هـ وعمل عنده مسجداً وسبيلا « منهلا » للماء ، وأظن أنه هو الذي كان الناس يسمونه الخان العتيق ، وقد أدركت منه بقية عامرة ، وهي من شرقيه ، ولكن لم أر أثراً للمسجد ، ولا للمنهل ، ولعلها تحت الردم ، وحول هذا الخان أربع ركايا في أطرافه الاربعة ، بُعد كل واحدة عن الاخرى نحو ثلاثين متراً فأكثر ، وهو واقع في الجهة الشرقية الجنوبية من الثَّكْنَة

(١) المدار في عرف المعريين طاحونة ، تدار بواسطة الدواب ، يطحن فيها البر والشعير ، وقد كان في المعرة عدد كبير منها ، ثم بطلت لما رأى الناس الطواحين التي تدار بواسطة الكهربائي وغيرها .

على بعد ١٥٠ متراً تقريباً ، يفصل بينهما مكان فسيح ، بعضه أخفض من بعض ، وفيه حفر وآثار أبنية قديمة ، والطريق الآخذ من حماة إلى حلب .

وكان الناس يجلسون على ظهر هذا الخان ينظرون إلى سباق الخيل في أيام العيد ، وهكذا تركته سنة ١٣١٩ هـ .

ثم زرت المعرة سنة ١٣٥٢ هـ فلم أر أثراً للخان ولا لأنقاضه ، والذي علمته من أهل البلدة أن بعض الأغنياء هدم البقية الباقية منه ، وجعل مكانه بستانا ، وبنى من أنقاضه بيتاً في البستان وبركة وغيرها ، وقد أخبرني بعضهم أنه بعد هدم الخان ظهرت رَكِيّة بجواره عذبة الماء ، ولها مجار في جدار الخان الجنوبي .

خان المنقش :

ويقال : إن في شرقي المعرة من الشمال بالقرب من مزار الشيخ القبيباتي على بعد نحو ٤٠٠ متر تقريبا ، خان يقال له : خان المنقش ، وأنه بقي إلى أواخر القرن الثالث عشر ، ثم تهدم ، وذهبت أنقاضه وانطمس أثره ، وأصبح أرضاً يزرع فيها القمح ونحوه .

الحمامات :

وفي المعرة في عهدنا أربع حمامات :

الأولى : حمام التكية ، وهي المتصلة بالخان ، وقد تقدم ذكرها .

الثانية : الحمام التحتانية ، وهي واقعة في وسط المحلة الشمالية من الجنوب ، تتصل من غربيها بدار الحكومة القديمة ، وبالسوق من شرقيها ، وبينها (القَمِيْم) وبابها الى الشمال ، وماؤها يستخرج من الساطورة (الرِّكيَّة) المعروفة بالساطورة التحتانية ، ثم يصب في ساقية تمر من جدار القمين إلى الحمام .

وماء هذه الركية غزير ، يبيع منه مستأجر الحمام للناس بالراوية ، ويسيل بمجرى خاص إلى حوض صغير ، والرشاش الذي يتقاطر منه ربما يعود الى الركية .

وبالقرب منها مسيل للمطر الذي يجتمع من الطرق فيصب فيها ، وبقربه مجرى ماء الحمام الذي يجتمع مما يصبه المغتسلون فيها ، ولا يبعد أن يتسرب شيء منه إلى الركية .

ولذلك لا يعد ماؤها في نظر الأطباء نظيفا ، ومعظم أهل المحلة الشمالية يشربون منه .

والحمام واسع ، محكم البناء، مشتمل على براني ووسطاني وجواني فالبراني القسم الأول الذي ينزع فيه الداخل ثيابه إذا أراد الاغتسال ، وينشف فيه جسده بعد خروجه من الجواني ، وفيه يجلس صاحب الحمام وصناعه ، والجواني القسم الداخلي الذي يغتسل فيه الناس ، وفيه المقاصير التي يجلس فيها المغتسلون ، والوسطاني القسم الذي يكون بين الجواني والبراني ، وتكون حرارته متوسطة بينهما .

الثالثة : حمام الزهور . وهي واقعة في جنوبي السوق من الجهة الغربية ، وفي الشمال الشرقي من مسجد أبي العلاء .

وهي مبنية تحت الأرض ، ينزل اليها من بابها الشمالي ببضع عشرة درجة ، وهي واسعة فسيحة من داخلها .

وربما كان بناؤها مساوياً لبناء غيرها في القديم ، ولكن أحاط بها الردم من كل وجه ، فظهرت كأنها مبنية تحت الارض ، وفي احدى مقصوراتها مقام يقال : ان فيه الشيخ عنبر ، ولم أقف له على خبر ، وماؤها يستخرج من رَكية تتصل بها من الشرق .

وهذه الحمام وقف لبني الحاج يوسف ، من أسرة السيد يوسف المشهورة في المعرة ، ثم سعى بعض خصومهم فهدمتها

البلدية ، وأضافت قسما منها الى الطريق المتصل بشارع أبي العلاء ثم عمرت وجددت نحو سنة ١٣٥٨ ﻫ .

وقد ذكرنا في غير هذا المكان انهم حفروا تحت هـذه الحمام فوجدوا دكاكين ، ووجدوا تحت الدكاكين دكاكين صاغة .

الرابعه : حمام السيد يوسف ، وهي جزء من داره الآتي ذكرها ، وموقعها في المحلة القبلية ، وبابها الى الغرب ، وماؤها يسير بساقية من ساطورة [1] السيد يوسف الواقعة في المحلة القبلية في الزاوية الشرقية الشمالية من الساحة الكبيرة ، ومن رَكية أخرى تتصل بالحمام من الجهة الشمالية داخل القمين .

ولا يوجد غير هذه الحمامات في المعرة في عهدنا ، وسمعت جماعة من شيوخها يقولون : ان الدار الواقعة في المحلة الشمالية شمالي العنبر (الانبار) الى الشرق كانت حماماً في القديم ، ثم عطلت وجعلت داراً ، وبابها يشبه أبواب الحمامات في المعرة .

وقد عثر على حمام قديم في المحلة الشمالية ، شمالي الجامع الكبير الى الشرق ، ووجد فيها مجاري الماء وغيرها وهي متهدمة ، فردمها صاحب الارض التي وجدت فيها وبنى فوقها .

---

(١) والساطورة في عرف المعريين ركية يستخرج ماؤها بواسطة دواليب تديرها دابة وأكثر ما تقال لركايا الحمامات ، ويقال : صاطورة .

وبنى السيد حكمة الحراكي حماماً جنوبي المعرة ، شرقي مسجد نبي الله يوشع (ص) الى الشمال .

المقاهي :

وفي المعرة مقاه متعددة منها ما هو أقدم منا عهداً ، ومنها ما حدث في عهدنا ، أما الأولى فمنها المقهى التحتاني ، ويقال له : القهوة التحتانية ، وهي في السوق غربي الجامع الكبير ، بابها مقابل بابه ، ولها باب ثان على الساحة التي تقع في شمالها .

ومنها المقهى المعلق ، ويقال له : القهوة المعلقة ، وهي في منتصف السوق من الشمال الغربي موازية تقريباً لباب السوق الغربي المقابل لمسجد الشيخ عطا الله ، وإنما قيل لها المعلقة أو الفوقانية لأنها مبنية فوق الدكاكين .

ومنها المقهى الكبير ، ويقال له : القهوة الكبيرة ، وهي في المحلة القبلية ، لها باب شمالي إلى السوق ، وباب قبلي إلى الساحة الكبرى التي أمامها .

وقد جعلت طاحونة يطحن فيها الدقيق على البخار ، ويستخرج منها ماء يسيل إلى بعض البيوت بأنابيب .

وأما الثانية فمنها مقهى في جانب سوق النجارين من الجنوب الغربي، وهو واقع في المحلة القبلية، شرقي حمام الزهور إلى الجنوب.

ومنها مقهى آخر في رأس السوق القبلية، المتصلة بالجامع من الجهة الغربية، مقابل سوق النجارين القديمة، وكان في عهدنا مداراً، ثم جعل مقهى.

ومنها مقهى آخر، وهو واقع في الابنية الجديدة التي حدثت بعد الحرب العامة، جنوبي القناطر إلى جهة الغرب، وهو غربي الحديقة الفاصلة بين الخان والشُكْنة.

الأسواق والدكاكين :

وفي المعرة سوق عظيمة، مبنية في أوقات مختلفة، على أشكال مختلفة، وقد كانت لسوق المعرة في القديم سبعة أبواب احدها بحذاء الدكاكين التي كانت ملاصقة لمنارة الجامع، والثاني غربيه عند ساطورة الحمام التحتانية، والثالث مقابل مسجد الشيخ عطا، والرابع بقرب حمام الزهور، والخامس يخرج منه إلى الساحة الجنوبية، والسادس يمر من أمام الباب الشمالي للقهوة الكبيرة إلى الشرق، والسابع قبلي الجامع مقابل

سوق النجارين ، وكانت لها أبواب تقفل بعد المغرب ، وتفتح بعد الفجر ، ولها حراس موظفون ، وحراس في وسط الاسواق ثم بطل ذلك بعد تغير العمران ، والظاهر أنها مجموعة أسواق ، ضم بعضها إلى بعض ، وجعلت سوقاً واحدة ، ومنها دكاكين بنيت أمامها أروقة عظيمة ، كالسوق المتصلة بالجامع الكبير من الجهة الغربية .

ومنها أسواق مسقوفة بعقد من الحجر ، كسوق الحذاءين (الاساكفة) ، ويسميه المعريون سوق السكيفاتية ، أو الاسكافية ، وكسوق النجارين وغيرها .

وجميع الاسواق غير المسقوفة ، كان أمهامها أروقة مساوية في الارتفاع لسطوحها ، ثم قامت حكومة القضاء ، أو بلديته كشف الله عن بصيرتها ، فهدمت معظم تلك الأروقة ، ثم ندمت على ما هدمت .

وقد حدثت في هذا العهد دكاكين في الجادة المنشأة حديثاً ، من طريق حلب الى مسجد أبي العلاء (شارع أبي العلاء) .

والعادة القديمة في المعرة لا يبنى دكان حتى يهدم عشرة ،

لأن فيها ما يزيد عن الحاجة ، ولذلك يقال : سوق المعرة ألف بياع ، ولا شراء . ويبلغ مجموع الدكاكين التي فيها الآن نحو ٥٠٨ تقريباً ه ، ويوجد دكاكين في المحلات التي يسكنها الناس وهي قليلة .

الدور والمساكن :

أكثر أبنية المعرة حديث ، لأن الحروب والفتن والغارات والزلازل ، ذهبت بأكثر مبانيها ، من معابد وأسواق ومساكن بين هدم وإحراق ، وأكثر هذه الأماكن الماثلة في هذا العهد مبني بناء واهياً ، يدل على فقر بانيه ، وجهله بصنعة البناء .

وقلما وجد الإنسان بناء قديماً شاهقاً ضخماً ، إلا بعض المساجد والمعابد والخانات ، وقليلاً من الدور والمساكن .

وأعظم دار عرفتها في المعرة ، هي دار السيد يوسف كبير الاسرة التي تنسب إليه ، وهي في المحلة القبلية .

وهي دار فخمة يحيط بها الطريق ، من أطرافها الأربعة فيدخل إليها من باب في جنوبيها ، يتجه إلى الشرق ، وعلى يسار الداخل باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة ، كانت تربط فيها الخيل في ليالي الصيف وطرفي النهار .

وفي شمالي الساحة مربط للخيل طويل عريض ، عالي السمك قلما وجد نظيره في مرابط الأمراء والملوك .

وتحته مغارة لها باب من الساحة يتجه إلى القبلة ، وباب آخر من الطريق العام من الجهة الغربية ، رِتاجه[1] حجر واحد أسود عليه كتابة ورسوم ، والناس يبالغون في طول هـــذه المغارة وامتدادها .

وعلى يمين الداخل من باب الدار بعد نحو عشرة أذرع باب يدخل منه إلى ساحة فسيحة تنتهي من جهة الشرق بمصطبة عاليه كبيرة ، وعلى يمين الداخل إلى الساحة غرفة صغيرة ، وعلى يساره غرفتان كبيرتان على قدر الساحة والمصطبة من الشرق إلى الغرب ، بابها إلى القبلة ، وهذا البناء اتخذ في عهدنا (قناقا) أي مثوى للضيوف .

ثم يسير الداخل بعد هذا الباب في دِهْلِيز فيه منعطفات ثلاثة ، ينتهي آخرها بباب قصير ، بابه حجر أسود واحـد ، وعلى يسار الداخل شُبّاك أو باب مرتفع يدخل منه إلى دار

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ١٥١ : الرَتَج بالتحريك الباب العظيم وكذلك الرتاج ومنه رتاج الكعبة ، ويقال الرتاج الباب المغلق وعليه باب صغير .

فسيحة ، فيها إيوان يتجه إلى الشمال وفيه ثلاث غرف : واحدة في صدره واثنتان في طرفيه ، ولها باب حجر أسود على الطريق الغربي ، على مساواة باب المغارة المذكورة آنفاً وفي شماليها الشرقي درج يصعد منه إلى سطح الدار الكبرى وغيرها .

والباب الذي ينتهي به المنعطف السابق ذكره ، يدخل منه إلى فسحة صغيرة مسقوفة ، في صدرها غرفة كبيرة ، وعلى يسار الداخل باب دار فسيحة ، فيها غرفتان ومطبخ وعلية ، كلها أبوابها إلى الجنوب ، وفي جنوبها الشرقي باب للدرج السابق ذكره ، وفي وسط الدرج غرفة كبيرة واسعة هي سقف لباب هـذه الدار ، وفي الدار مغارة ينزل إليها بنحو ثلاثين درجة .

وعن يمين الداخل دِهْلِيز ، ينتهي الداخل منه إلى الدار الكبرى ، وفيها ساحة قَوْراء[1] ، في وسطها حديقة كبيرة ، في جنوبيها بئر غزير ، وعن يمين الداخل إيوان عظيم يتجه إلى الشمال ، وفي طرفيه غرفتان متقابلتان باباهما فيه ، وفوق ذلك قصور شاهقة ليس في المعرة ما يقاربها في علوها وسعة اشرافها وفي شرق الساحة وغربها ، غرف فخمة متقابلة ، وفي شمالي

(١) أي واسعة .

الدار إلى الغرب باب عن يمين الداخل فيه، يدخل منه إلى مطبخ عظيم، يقابل الإيوان والغرفتين المتصلتين به، وفيه محل للحطب والفحم، وبيت للمؤنة، وتحته محمية بعيدة الغور، يبالغون في اتساعها وامتدادها.

وعن يسار الداخل حمام كبيرة، متصلة بالحمام الكبرى الآتي ذكرها، ويسيل إليها الماء منها، وإلى خزان على بابها يأخذ الساكنون حاجتهم منه، ويقابل الداخل باب ينتهي إلى دار فيها غرف ثلاث، تتجه إلى القبلة، وتتصل بها غرفة أمامها ساحة صغيرة، في جدارها الغربي باب على الطريق العام الغربي.

وفي الطرف الغربي الشمالي من الدار الكبيرة، دار صغيرة تشتمل على غرف متعددة، بابها إلى الطريق العام من الشمال وفي جنوبيها داران خارجية وداخلية، يصل بينهما باب في الجدار الفاصل بينهما، الممتد من الشرق إلى الغرب، في الشمالية منهما غرفتان تتجهان إلى الشرق، وفي الجنوبية غرفة إلى الشرق، وغرفتان إلى الشمال وغرفة إلى الجنوب، وباب الدارين يتجه إلى الشرق على الطريق العام الشرقي.

وفي منتهى الدار الكبيرة من جهة الشرق الجنوبية ، جامع مدفون فيه السيد يوسف صاحب هذه الدار وولده اسماعيل ، وفي غربيه إلى الجنوب دار أخرى تتصل من الغرب بأول غرف مر ذكرها .

وفي الجهة الغربية من الدار الكبرى حمام السيد يوسف السابق ذكرها وفوقها القَمين .

وهذه الدار أعجوبة في ضخامة بنائها ، واتساع رقعتها ، واجتماع المرافق المختلفة فيها ، وقد كانت كلها داراً واحدة ، ولكن ذرية الواقف تقاسموها للسكن ، وتهاونوا في أمرها حتى تداعت القصور للانهدام ، وتهدم بعضها وتحطمت أدراجها ، ودب الوَهن في بنائها من جهات مختلفة ، وأعظم ما منيت به هذه الدار تقسيمها إلى دور مختلفة ، واقامة جدران يفصل بينها ، حتى أصبحت دوراً متعددة بعد أن كانت واحدة ، وتعطل أكثر ما فيها من المرافق كمربط الخيل والحمام وما شاكل ذلك ، وربما لا يجد الباحث داراً تشابهها في عظمتها واتساعها في كثير من المدن العظيمة .

وما عدا هذه الدار فأكثر دور المعرة بين قديم على وشك الانهدام ، وجديد صغير بني على قدر فهم صاحبه ، أو هواه أو طاقته ، وليس في شيء منها ما يتفق مع أمثاله في المدن المتحضرة ، أو يقوم على هندسة صحيحة مقبولة ، الا النزر اليسير من الأبنية التي انشئت بعد فتح شارع أبي العلاء .

دار النعمان :

وفي المحلة الغربية دار قديمة ، يسمونها دار النعمان ، وقد أخذت منها الأيام كل شيء حسن ، وذهبت بما فيها من عظمة ورونق ، ولم يبق الا إصْطَبْل عجيب الشكل ، جدرانه من الحجارة الضخمة ، وسقفه من حجارة مبسوطة ، طول الواحدة نحو ثلاثة أمتار ، في عرض متر ونصف ، وكان فوقه بناء عظيم ، ولكنه ذهب ، وأثره يدل على عظمته ، وربما كان أصحابه في القديم كسروا حجارته العظيمة ، ووضعوها في عمائرهم ، كما يفعله أهل المعرة الآن .

وهذه الدار الآن يملكها ورثة رجل يقال له : قَسُّوم الخديجة ، وأهل المعرة يزعمون أنهم من سلالة أسرة يقال لهم :

بنو التيس ، وكانوا من ذوي اليسار والثروة الكثيرة ، فسمع أبو العلاء المعري ذات يوم رُغاء الإبل وخُوَار البقر وثُفاء الشاة وصَهيل الخيل ونَهيق الحُمُر وشَحيج البغال ، فسأل لمن هذه الأنعام والدواب ؟ فقيل : لبني التيس ، فقال :

رزق التيوس يجيئها بسهولة   وذوو الفصاحة رزقهم مغبون[1]

إن كان حرماني لاجل فصاحتي   فامنن عليَّ من التيوس أكون

وانه سمع بما هم عليه من الغنى والسعة ، فضاق ذرعاً بما هو عليه من الفاقة والضنك فقال :

ياقاسم الرزق قد ضاقت بي القسم   ما أنت متهم قل لي من اتهم

إن اللجين قناطير مقنطرة   عند التيوس ونعلي مالها قدم

أعطيتني حكما لم تعطني وَرِقا   قل لي بلا ورق ما تنفع الحكم

وأن أحد الشعراء الورعين أجاب أبا العلاء بقوله :

لو كنت ذا حكم لم تعترض حكما   ربّا حكيما له في خلقه حكم[2]

وينسبون لأبي العلاء مَوَاليا قاله في مثل هذا ، وهو

---

(١) ويروى مسجون .

(٢) أصل الرواية واحد مهيمن له في خلقه (ج) .

أهل الفصاحة ترى أيام مثل الحبر والتيس أصبح بدار و مال مثل التبر

إن كان منعي لاجل فهمي وكثر الخبر

هات اعطني مال واجعل طول قرني شبر

وله مواليا آخر على روي العين ، لم أذكر منه الا قوله :

هات اعطني مال واجعل طول قرني باع

وهذه الرواية وان كانت بعيدة الوقوع من أبي العلاء ، فبقدر بُعد هذا الشعر من كلامه ، فان فيها شيئاً من الطرفة ، وهي تدل مع هذا على قدم الحسد في المعرة ، وقدم التنابز بالألقاب المنكرة ، والتاريخ يعيد نفسه كما يقال : فان المال في المعرة في عهدنا ، والذي سمعناه عن العهد الذي قبله ، قلما اجتمع مع علم وفهم ، والفقراء من المعريين ينبزون ذوي اليسار بمثل هذا اللقب ، ولكنه لا يلبث أن يزول ، وأنا أعتقد أن هذه القصة باطلة وضعها حساد بني قَسُّوم ، ليلقبوهم بهذا اللقب حسداً وحقداً ، وكذلك يفعل غيرهم بمن يحسدونه على ما أتاه الله من فضله . وفي بعض الدور جدران ضخمة ، عليها أقواس من حجارة عظيمة ، وفي كثير منها أبواب من

الحجر الأسود ، ونحو ذلك من آثار الأبنية القديمة ، والناس ينسبون كل أثر من بناء ضخم إلى الرومانيين ، كما قلنا .

وكثيراً ما ظهرت تحت الأرض آثار أبنية عظيمة من مساجد ومساكن ، ولكن الناس كانوا يقتلعون حجارتها ويكسرونها ، ويجعلونها في مبانيهم ، ومنهم من كان يردمها ويردها كما كانت .

المعاصر :

في المعرة جملة من معاصر الزيتون والعنب ، وأكثرها قديم ، ومنها ما هو تحت الأرض ، وقد أهمله الناس لقلة الحاجة إليه .

منها : معصرة في جنوبي المدينة ، تقع في الجهة الشرقية الشمالية من زاوية بني الكيّال .

ومنها : معصرة غربي المدينة ، تقع في شرقي مقبرة بني الجندي إلى الجنوب ، وفيها كثير من معاصر العنب المتخذة خارج المدينة في الكروم وغيرها .

وقد قلت رغبة الناس في هذه المعاصر ، بعد اطلاعهم على المعاصر الحديثة ، التي تكون بواسطة آلات حديدية .

المياه التي هي خارج المدينة :

يقسم أهل المعرة مقار" المياه إلى أقسام ، ويسمون كل قسم باسم يميزه من غيره ، فعندهم الجب ، وهو البئر الذي يجتمع ماؤه من ماء المطر .

والرَكِيَّة ، وهي البئر العميقة ، التي يخرج ماؤها من أرضها ، أو جدرانها ، وقد يسيل إليها شيء من ماء المطر ، وماء هذه الركايا منه ما هو عذب ، ومنه ما هو ملح كما تقدم .

وإذا كانت الركية يخرج ماؤها بدولاب تديره دابة إلى حمام أو مسجد أو غيرهما ، يسمونها ساطورة ، وبعضهم يقول : صاطورة ، كما يسمونها ركية .

فان كان ماء الركية يسيح على وجه الأرض في زمن الربيع يسمونه عيناً .

والعيون كثيرة ، منها : عين قُرَيْع ، وهي في جنوبي المعرة إلى الشرق ، معقودة بحجارة ضخمة ، يظن الناس أنها من بناء الرومان ، وهي على بعد أربعين دقيقة من بناء المعرة ، وماؤها يفيض في زمن الربيع ، فيجري على وجه الأرض إلى

مسافة بعيدة ، وقد جعلت بستاناً في عصرنا الحاضر ، ووضع فوقها دولاب لاخراج الماء والسقي ، وهي لورثة السيد عبدو اليوسفي .

ومنها : عين بَلاَّنَة ، وهي في جنوبي عين قُرَيْع إلى الغرب وهي صغيرة تجري من صخرة صغيرة ، وماؤها قليل لا يتجاوز كثيراً عن منبعها .

ومنها : عين مسَدّة ، وهي في الجنوب الشرقي من المعرة ، على بعد ساعة تقريباً ، وبناؤها واسع ، وماؤها يفيض في زمن الربيع .

ومنها : عين المَرْج ، وهي في جنوبي المعرة أيضاً ، وبناؤها عظيم ، وفمها واسع ، وماؤها يفيض في الربيع ، وقد يمر به ماء عين مسدة ويسيلان معاً .

ومنها : عين مَعْرَاتَا ، وهم يقولون : معراتا بالتاء المثناة ، وهي في جنوبي عين مسدة ، وبناؤها أضيق من عين المرج ، وأوسع من عين مسدة .

ومنها : عين وادي المحروق ، وهي شمالي عين معراتا إلى

الشرق ، وهذه قد يسيل ماؤها في الربيع إلى عين مسدة ، ويجريان معاً إلى عين المَرْج .

ومنها : عين الدَيْر ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ، وبناؤها قديم ، يسيل ماؤها في الربيع للشرق الجنوبي ، حتى يصل إلى دير سمعان ، فيمر بالقرب من مدفن عمر بن عبد العزيز .

ومنها : عين وادي الحكيم ، وهي في جنوبي المعرة الشرقي ، يسيل ماؤها في الربيع ، حتى يجتمع مع ماء عين قُرَيْع في موضع يقال له : صدر الميدان .

ومنها : عين السعنة ، وهي في جنوبي المعرة .

ومنها : عين السوداء ، وهي جنوبي المعرة .

ومنها : عين الحوَّارَى ، وهي في الجنوب أيضاً .

ومنها : عين جربا ، وهي في الجنوب أيضاً .

ومنها : عين كَرِيشَان ، وهي في الجهة الشرقية من المعرة ، قريبة من وادي الضيف .

ومنها : عين التِينة ، وهي شرقي المعرة ، وقد جعل حولها بستان ، يسقى زرعه وشجره منها .

وفي زمن الربيع يجري ماء عين وادي الحكيم ، فيجتمع بماء عين قُرَيْع في صدر الميدان ، ويخالطان ماء عين المَرْج ، وما يسيل إليه من ماء العيون ، ويجتمع ذلك كله في موضع يقال له : عاقول الميدان ، ثم ينضم إليه ماء عين السعنة الذي يمر من الشرق الشمالي بعين السوداء ، ويسيل الجميع إلى العاقول ، ثم يجري هذا المجموع إلى الشمال ، فيمر بشرقي المعرة ، وإذا سال ذلك يسمونه ساقية الوَخم .

وقد تمر بالحوّارِى القِبلية ، فينضم إليها ماؤها مع ماء غيرها ، ويأتيها من الشرق ماء عين كَرِيشان ، ثم يسيل الجميع شمالا حتى يصب في الِهرْماس بالقرب من خراب باب إيلا .

وهذه العيون ، منها ما يبلغ ارتفاع مائها السائل قدر أربع أصابع وأكثر ، وانبساطه يختلف بحسب المجرى والكثرة ، ومنه ما يبلغ نصف متر وأكثر .

ومن الناس من يزعم أن ماء عين مَسدّة ، وعين المَرْج ، من عين مَعْراثا ، وماء عين بَلاَّنَة من عين الدّير ، وماء العاقول ، ووادي الحكيم ، والحوّاري من عين قُرَيْع .

وأهل المعرة يتشاءمون من جريان ساقية الوَخم ، ويعدونها نذير بلاء ، ومؤذن غلاء ، ويزعمون أن العام الذي تسيل فيه تكثر فيه الأمراض والعلل ، وربما كان لهذا الزعم نصيب من الصحة ، لأن ساقية الوخم تجمع الأوخام التي في طريقها ، وتنقلها إلى العيون التي تمر بها ، وتبقي قسماً كبيراً منها في مجراها وفي أطرافه ، وليس هناك حكومة تعنى بمثل هذا ، فاذا جاء الصيف انتشرت الجراثيم الفتاكة من تلك الأقذار والأوخام .

ومنها : عين الُهوتَة ، وهي في وادي الخطيب على طرف الِهرْماس من الشّمال .

ومنها : عين الزُرَيْنِيق ، وهي في الضفة الجنوبية للهرماس غربي الهوتة إلى الجنوب .

ومنها : عين العمياء ، وهي في وادي الخطيب .

ومنها : عين السلاقية ، أو السلاقيات ، وهي غربي المدينة في وادي الخطيب ، وغربي تل منصور باشا ، وقد يفيض ماؤها ، فيصب في الهرماس .

ومنها : عين المغيبين ، وقد رأيت في بعض الحجج في وقف الناصر ابن محمد المعروف بابن ست العيش ، انه وقف الركية التي ببستان الجوزة ، والركية التي ببستان المغيبين سنة ٩٥١ هـ.

ومنها : عين الحمراء ، وهي في أول وادي الخطيب من الشرق ، واقعة في الجنوب الغربي من القلعة .

ومنها : عين النجار ، وهي في طرف الهِرْماس من جنوبي القلعة إلى الغرب ، وهي شمالي الحمراء .

وقد ذكر النُّوَيْري في نهاية الأرب أن الشيخ سراج الدين عمر بن مسعود المعروف بالمَحّار توفي في سنة ٧١١ هـ ، وكان شاعراً ، وهو صاحب الموشحات المشهورة ، وذكر شيئاً من شعره ، منه قوله في مليح نجار :

قالوا المعرة قد غدت من فضلها   يسعى إلى أبوابها ويزار

وجبت زيارتها علينا عندما   شغف القلوب بحبها النجار

وأنا لا أستبعد أن يكون هذا الشاعر ، أراد بالنجار عين النجار التي ذكرناها ، لأن العين المذكورة يحيط بها بستان ،

يتصل ببساتين ، كأنها قطعة من الجنة ، والناس يخرجون إلى عين النجار ، للتنزه والتمتع بمناظرها الرائعة ، وربما قالوا : بستان النجار بدلاً من عين النجار .

ومنها : عين زُرَيْق ، وهي غربي المعرة ، في حافة مجرى الهِرْماس ، يفيض ماؤها مع الهرماس ، فيجريان معاً في الربيع وهي في منخفض جنوبي القلعة إلى الغرب ، وأظن أنها منسوبة إلى زريق ، وهم أسرة عريقة في العلم والفضل وستأتي ترجمة جماعة منهم .

ومنها : عين آسية ، والعامة تسميها عين الآسي ، وهي في الشمال الغربي من المعرة ، والقلعة مقابل المكان المسمى بالمحيا يفصل بينهما مجرى الهرماس ، وفي شماليها الجبل ، وهي تحت الأرض ينزل إليها ببضع عشرة درجة ، وقد يفيض ماؤها في الربيع ، وفوقها بناء يصلى على ظهره ، وأظن أن ماءها يتحلب من مجرى الهرماس ، ومستنقعات الماء حوله ، لأنه يقل حين يقل الهرماس ويكثر حين يكثر .

ومنها : عين سَلْمُون ، وهي شمالي المعرة على بعد ربع ساعة .

ومنها : عين الواكفة ، وهي شمالي عين سلمون على بعد نصف ساعة .

ومنها : عين عبد الحافظ ، وهي شمالي المعرة على بعـــد ساعة تقريباً .

ومجموع هذه العيون الثلاث ، يقال له : وادي العين ، يفيض ماؤها في الربيع ، ويجري إلى الشرق حتى يختلط بالهرماس قرب باب إيلا .

وماء هذه العيون يدوم إلى شهرين تقريباً ، ثم يأخذ في القلة والنضوب ، وربما جف بعضها في السنوات التي يقل فيها المطر .

وقد أقيمت حولها بساتين تسقى منها ، وفيها أشجار كثيرة من المشمش والتفاح والخوخ والتين والجوز واللوز وغيره .

وأهل المعرة يخرجون إليها للتنزه في الربيع والصيف والخريف .

الهرماس :

هو سيل يجتمع من المطر الذي يصب فوق الجبال والهضاب ، ثم ينحدر إلى أودية يضاف بعضها إلى بعض .

وأول ما يجتمع فيه الهِرْمَاس واد يقال له : وادي أيوب ، بالقرب من قرية يقال لها : بسامس ، وأخرى يقال لها جوزف ، ثم يسيل إلى الوادي الكبير المعروف بوادي المغار ، بالقرب من قرية كَفْرَنِبْل ، ثم يمر بالقرب من قرية حاس ، ثم يصب في رام ، قرية كفر روما ، ثم يتتبع الأودية والمنخفضات ، حتى يصل إلى غربي المعرة ، فيصب في وادي الِجنان ، وهو المعروف الآن بوادي الخطيب ، وهو غربي المعرة ، فيملأ ما في جانبي مجراه من الركايا والعيون . ويسير إلى جهة الشرق ثم يعطف إلى الشمال ، فيمر من جنوبي القلعة إلى غربيها ، ثم ينعطف حتى يجتمع بمياه وادي المَحَيْا ، عند عين آسية ، ويسمى هناك هرماس أبي قشة ، أو هرماس وادي بني عُلَيْم ، ثم يسيل الجميع إلى وادي العين ، ثم يخرج من هناك إلى جهة يزعم الناس أنه يسيل إلى جهة المطخ .

وقد يكون هذا السيل شديداً ، فيأخذ ما يمر به من انسان وحيوان ، وقد أخذ رفيقاً لي كان ركب فرسه ، وأراد اجتيازه عند عين الواكفة ، فغرق هو والفرس ، وتحطما من مصادمة الصخور في طريقه ، وذلك نحو سنة ١٣١٧ ﻫ .

وأهل المعرة يبتهجون لمقدمه ، ويبشر بعضهم بعضا به ، لأنهم لا يرون ماءاً كثيراً جارياً على وجه الأرض غيره ، فيخرجون للتنزه والاسترواح على ضفافه ، في وادي الخطيب ، ويخرج بعض النساء فيغسلن فيه الثياب والأمتعة .

وهو لا يجري إلا في السنة التي يكثر فيها المطر ، فيملأ الرّكايا والعيون القريبة منه ، وتبقى أثارة منه إلى أخريات الربيع ، فيمرع مجراه وحافاته ، فيبتهج الناس بذلك الخِصْب ، ويبتهج الحيوان بالمرعى الممرع ، وترى الناس تخرج إليه أصيل كل يوم زرافات للتنزه ، ومنهم من يقضي سحابة نهاره ، فيطبخون ويأكلون ويلعبون ، فالهرماس موسم ابتهاج وفرح ومرح لأهل المعرة ، وقسم كبير من ضاحيتها .

وأهل المعرة يتيمنون بمقدمه ، ويعدونه بشير خِصْب ورخاء وذلك صحيح ، لأن مياه العيون والرّكايا تكثر ، فيكثر الخصب في البساتين وغيرها .

وهو سيء الأثر في الصحة العامة كساقية الوَخم ، لأنه يحمل ما في طريقه من أوساخ وأقذار وجِيَف وغيرها ، وقد

يبقى بعضها في مجراه ، وفي أطرافه ، فاذا نضب الماء عنه انتشرت الروائح الكريهة والجراثيم الضارة ، وقد يشاهد في كثير من المواطن التي يستنقع فيه الماء ، ضروب مختلفة من الدَعاميص [١] والديدان الصغيرة والكبيرة ، والناس يتسامحون في شرب الماء من تلك المستنقعات ، ويغسلون أيديهم وثيابهم منها ، حتى بعد انقطاع جريه . وقد ذكره الأمير أبو الفتح بن أبي حَصينة المعري [٢] في شعره ، فقال من قصيدة :

وزمان لهو بالمعرة مونق بسِياثِها وبجانبي هِرْماسِها
أيام قلت لذي المودة اسقني من خَندريس حُناكها وحاسِها

وقد كان بعض شعراء حلب في المعرة ، فجاء الهرماس ، فرأى ابتهاج الناس بمجيئه وخروجهم إلى مشاهدته في أول يوم من مجيئه ، وفي اليوم الثاني قل ماؤه ، ففترت أحاديث الناس عنه ، وقل خروجه إليهم ، وفي اليوم الثالث انقطع جريانه وأسف الناس لذلك ، فقال هذا الشاعر وقد انسيت اسمه .

---

(١) في الصحاح للجوهري ١ : ٥٠٦ : الدعموص دويبة تغوص في الماء والجمع الدعاميص .

(٢) ابن أبي حصينة : الديوان ١ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

أصبحت أهل المعرة　　في ضجيج ثم نفرة
قلت ما هذا فقالوا　　قد أتى الهرماس مرة
ثاني الأيام أضحوا　　بوجوه مكفهره
ثالث الأيام أمسوا　　كل من يفرك أيره

الأودية :

في المعرة أودية كثيرة ، مسمى كل منها باسم مختص به .

منها : وادي العين ، وقد تقدم ذكره ، وكذلك وادي المحروق ، ووادي الحكيم .

وادي نبا .

وادي الخنازير .

ومنها : وادي الجِنان ، وهو أكثرها شهرة ، وأوفرها خِصْباً وماء ، وهو واقع في الجهة الغربية ، متصل بجبل عَطَّال من الشمال والغرب ، وفيه يسيل الهِرْماس ، كما ذكرنا ، وفيه بساتين كثيرة ، فيها ضروب من الشجر ، كالتفاح والخوخ والجوز والكمثرى واللوز والمشمش ، وفي طرفه الشرقي من الشمال بستان لابن عمي السيد عبد الرحمن الجندي ، فيه أربع

شجرات من الفستق ، ولا أعلم في المعرة من هــذا الشجر غيرها ، وغير التي في دارنا إلى نهاية سنة ١٣١٩ ه ، ثم كثر غرسه بعد ذلك .

وهذا الوادي أعظم متنزه خِصْب للناس في عصرنا ، وماء ركاياه عذب ، وهواؤه طلق ، وأهل المعرة ولا سيما المتقدمين منهم كثيرو التغني بهذا الوادي والحنين إليه ، وكان يقال له : وادي الجنان ، ثم اشتهر بوادي الخطيب ، والخطيب هذا هو السيد محمد الجندي ، لقب بالخطيب لأنه كان خطيباً بجامع المعرة الكبير ، كان له ولدان : إسماعيـــل ، ويحيى ، فاشترى يحيى بستانا في هذا الوادي يقال له : بستان الجنان ، وهو أعظم بستان في هذا الوادي ، ثم وقف منه ستة عشر قيراطاً على نفسه ، ومن سيولد له ، ثم على زوجته أسماء بنت قريبة السيد محمد الجندي ايضا ، ثم من بعدها على أخته عائشة وبنتها سلم خان ، وعلى بنتي أخيه أسماعيل فاطمة وخديجة ، وعلى ذريتها طبقة بعد طبقة ، للذكر مثل حظ الانثيين ، ومات ، ولم يعقب ولداً ، وهذا بموجب حجة وقف صادرة من محكمة

حِمص بتاريخ محرم سنة ١٢٠٦ ﻫ ، موقعة من النائب عبد الرحيم والصورة بتوقيع عبد المجيد الرفاعي ، وفاطمة بنت اسماعيل أم الشيخ أمين الجندي الحمصي الشاعر المشهور ، فتوارث الأعقاب ذلك إلى يومنا هذا ، وأنا وأخوتي منهم .

واشتهر البستان منذ ذلك الحين ببستان الخطيب ، ثم توسع الناس فقالوا : للوادي كله وادي الخطيب .

ومن العجيب أني رأيت حجة شرعية من محكمة المعرة في المحرم سنة ٩٥١ ﻫ ، فيها أن الشريف المدعو الناصري ابن الحاج محمد المعروف بابن ست العيش المعري ، وقف ثلاثة أرباع البستان الخراب ، المعروف ببستان الجنان ، والأرض المعروفة بأرض المجاهدية ، والركايا التي فيها ، ويحد البستان قبلة الهرْماس وشرقاً بيد أولاد الزعكل ، وشمالاً بيد ورثة المعلم فرج ، وتمامه الجبل ، وغرباً أرض مزرعة يحيي ، وأرض المجاهدية يحدها قبلة طريق سالك ، وشرقاً بستان الزعكل ، وشمالاً الهرماس ، وغرباً بيد ورثة محمد البرجي ، على تربة الشيخ فارس ، وعلى نبي الله شيث الكائن ذلك بظاهر المعرة جهة

الغرب ، وما تحتاج إليه من فرش وتنوير وعمال ، وكذلك وقف البركة التي في بستان الجوزة ، والبركة التي في بستان المغيبين ، وبذلك تم الوقف بموجب حجة من قاضي المعرة خليل بن عبد الله .

ورأيت حجة أخرى صادرة من قاضي المعرة عبد الرحمن ابن أبي الجود سنة ١٠٢٣ هـ ، خلاصتها : أن السيد احمد ابن جلال الدين المعري ادعى على درويش جلبي بن نجم الدين بك المعري أن نصف الأرض المعروفة ببستان الجنان ، المحدودة قبلة الهرماس ، وشرقاً وغرباً وشمالاً ، كما تقدم الخ ... هي من وقف جده نجم الدين العجيل ، وشهد عبد اللطيف بن عبد المنعم وابراهيم بن عبيد ، أنها كلها ملك نجم الدين بك ، فحكم بذلك القاضي المذكور ، والمتداعيان والشاهدان من أهل المعرة .

ورأيت حجة أخرى خلاصتها أن أمين بن خالد الجندي باع بالوكالة عن أمه فاطمة بنت اسماعيل الخطيب ، حصصاً من بستان الجنان ، إلى فاطمة بنت عبد الرزاق الجندي ، وهي

بنت خديجة بنت اسماعيل الخطيب ، والحجة من محكمة حماة في ١٥ رجب سنة ١٢١٩ هـ ، والقاضي عبد الوهاب الكيلاني أما البستان المذكور في عهدنا هذا ، فمنه ثمانية قراريط لبني العظم ، والباقي ثلثاه لاعقاب الشيخ أمين بن خالد الجندي الحمصي ، والثلث الآخر لاعقاب عبد الوهاب الجندي في المعرة ، وأنا واخوتي منهم كما تقدم .

وادي المحيا :

هو في شمالي المعرة ، والقلعة إلى الغرب ، يسيل فيه ماء الهرماس كما ذكرنا ، وامام المَحيَا عين آسية ، وهناك ركايا اتخذها الناس لسقي البساتين الكثيرة فيه .

والمحيا عبارة عن ساحة فسيحة جداً ، لها باب من الشمال ، يقابل عين آسية ، وباب صغير يقابله من الجنوب ، وهذه الساحة منحدرة من الجنوب إلى الشمال انحداراً كبيراً ، وعلى يمين الداخل من الباب الشمالي باب صغير ، في داخله شبه قبر مستطيل ، يزعمون أنه قبر شيث عليه السلام ، وفي قبليه إيوان في صدره باب صغير ، يخرج منه إلى الساحة الكبرى ،

وأمام الإيوان رَكِيتان ، يزعم الناس أن شيئاً كان حائكا ، وكان وقت الحياكة يضع رجليه في هاتين الركيتين ، وقد يفيض ماؤهما في زمن الربيع فيجري على وجه الأرض . وفي جنوبي الايوان الغربي ركية في جدار الساحة الغربي ، فوقها حجارة ضخمة ، وأمام الركية غرفة فيها ثلاثة قبور ، فوقها توابيت من خشب ، وبابها يتجه إلى الشرق ، وأمام هذه الغرفة غرفة فيها قبر الشيخ فارس ، وقد اكتشفت في عهدنا ، وقبل ذلك كان الناس يظنون أنها خالية ، وهذه الغرفة والتي قبلها في آخر الساحة من الجهة الغربية إلى الجنوب ، وعلى يمين الداخل من الباب الجنوبي إيوان يتجه للشمال ، وفي شرقيه غرفة متصلة به وفي شرقيها ساحة قبور مندرسة ، ودرج يصعد منه إلى سطح الغرفة والايوان ، ثم يلي المقبرة من الشمال الشرقي غرفة بابها حجر واحد، أسود قصير ، يتجه للغرب ، وفي داخلها أربعة قبور ، وبعضها له تابوت من خشب كالتي في الجهة الغربية ، والناس يزعمون أن هذه القبور السبعة أولاد يعقوب عليه السلام وفي وسط الساحة الكبرى ركية مسدودة بحجارة عظيمة ، ويحيط

بالمحيا من الشرق والغرب بساتين ، ومن الشمال مجرى الهِرْماس وعين آسية ، ومن الجنوب صخيرات تحيط بها بساتين أيضاً .

والمَحْيا أحد منتزهات المعرة المشهورة ، يؤمه الناس زرافات يقضون فيه سحابة يومهم في الأكل والشرب والمرح واللعب ، ومنهم من يبيت فيه .

والرجال يعملون فيه (السيبَانة) ، وهي في عرفهم عبارة عن خروج إلى التنزه في مكان ، يقضون فيه يوماً كاملاً ، فيأكلون ويشربون ويلعبون كما ذكرنا .

وقد تخرج إليه النساء فيعملن فيه (الحِنّاء) ، وهو في عرفهم عبارة عن خروج جماعة من النساء إلى متنزه ، يقضين فيه يومهن بين طعام وشراب وقصف ولهو وغناء وما شاكل ذلك .

وقد يكون ذلك نذرا من الرجال والنساء ، وأكثر ما يكون الحناء في المحيا ، وفي الشيخ حَمْدان ومقام أُوَيْس .

وسيأتي أن الرجال تخرج في ليلة نصف شعبان إلى المحيا ، وهم يجهرون بالتوحيد ، حتى يصلوا إليه ، ويزوروا من فيه ممن ذكرنا ، ثم يعودون كما أتوا بالتهليل والتوحيد .

فالَمحيا مجمع للابتهاج والسرور ، والمرح واللهو ، والعبادة والنسك ، من الرجال والنساء ، ولا يبعد أن يكون سمي بالمحيا ، لأن الناس كانوا يجتمعون فيه ليلة النصف من شعبان ، فيحيونها فيه بالعبادة والذكر والتلاوة .

وباب شِيث أحد أبواب المعرة السبعة ، ولم أجد ما يدل على أن باب المعرة المنسوب إلى شيث في هذا المكان ، ولا استبعد أن يكون شيث محرفا عن سِياث المتقدم ذكرها .

ومنها : وادي الرماحية .

ومنها : وادي النسيم ، وهو في الجهة الشرقية من المعرة ، ويمتد من شمالي المعرة الشرقي إلى جنوبيها الشرقي .

ومنها : وادي الضيف .

الرَّام :

قدمنا ما هو المراد بالرام في عرف المعرة ، وأن فيها الرام الكبير والصغير في جنوبها ، وان الحكومة ردمتها .

رام الزيت :

وفي غربي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً مستنقع كبير ،

يقال له : رام الزيت ، يجتمع فيه ماء المطر ، وبالقرب منه موضع يقال له : حوّارَى الزيت ، وحولها ينابيع كثيرة ، وقد يفيض هذا الرّام ، حتى يتصل بماء حوارى الزيت ، وربما سالا فاجتمعا بالهِرْماس ، عند تل منصور باشـــا ، جنوبي بستان الخطيب .

التلال التي في المعرة :

منها : تل منصور باشا ، وهو غربي المدينة في أخريات وادي الخطيب من الجنوب ويحيط به الهِرْماس من الغرب والشمال ، وبساتين الهرماس التي في الضفة القبلية ، وهو عالٍ ، واسع الأرجاء ، مغمور أكثره بأشجار العنب والتين والزيتون وغيرها ، والناس يزعمون أنه كان حِصنا .

ومنها : تل الفُجْل ، والناس يكسرون الفاء ، وهو شمالي المعرة على بعد ثلثي ساعة تقريباً ، ويزعم بعض الناس أنه كان معقلاً صغيراً .

تل البِلْس ، هكذا يلفظه الناس ، وهو شمالي المعرة إلى الغرب قليلاً ، وفي شرقي القلعة من الجنوب ، وهو أصغر من

تل الفُجْل . وفي شرقيه مقبرة ، وفي شماليه إلى الشرق مقبرة يقال لها مقبرة الساطعية ، يزعم الناس أن فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وقد قدمنا أن الساطع هو النعمان أحد أجداد تَنُوخ ، الذي زعم ياقوت أن المعرة نسبت إليه ، وان الساطع أيضاً ابن عبد الباقي بن المحسن ، من بني أبي حصين التنوخي المعري ، وقد كان من شعراء المعرة وأعيانها ، وقد مدح الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب سنة ٦١٢ هـ ، وكانت له عنده حظوة ، فلعل هذه المقبرة منسوبة إليه ، وكذلك الأرض التي يقال لها : الساطعية ، وقد ترجمه ابن العديم في بغية الطلب وستأتي ترجمته ، والأرض المذكورة هي اليوم ملك لابن شقيقتي فضل الله بن عبد الرحمن الجندي .

ومنها : تل بَنَصْرَة ، وهو في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها ، قريب من المكان المسمى بجدار الخضر ، وينحرف عنه قليلاً إلى الشرق .

وفي أسفله الغربي رَكية ماء يقال لها : عين السوداء ، وماؤها غير مستعذب ، وفي أسفله من الغرب أيضاً مغاور في الصخر وشكله بيضوي ، وامتداده من الغرب إلى الشرق .

وبعض الناس يزعم أنه كان قلعة أو حِصنا للمعرة ، وآخر يزعم أنه كان باباً من أبواب المعرة السبعة ، يقال له : باب النصر ، وفريق يزعم أن فيه كنزاً ، وحقيقته لا تزال سراً غامضاً لم تكشفه الأيام ، وما ذكر كله مزاعم قائمة على الظن ، وأقرب شيء منها إلى الصواب أن يكون حصناً أو معقلاً صغيراً ، ولكن ليس في آثاره الظاهرة ما يؤيد شيئاً مما ذكر .

وهو الآن مكتظ بشجر التين والعنب ، المتصل بالمعرة من الجنوب والشرق .

ومنها : تل الزعتر .

ومنها : تل الزيتون .

الجبال :

لا يحيط بالمعرة جبال شاهقة ، وانما يتصل بها من الغرب جبل يقال له : جبل عطّال ، وهو في شمالي وادي الخطيب إلى الغرب ، ومعنى عطّال في عرفهم أنه خال من الغرس والزرع ، ويتصل به من الشمال الغربي ، شمالي المَحْيا ، وعين آسية ، الجبل المتصل بجبل بني عُلَيْم .

القباب :

اشتهر في المعرة بعض الأماكن بقبة كذا ، والظاهر أن تلك المواضع كانت فيها قباب ، ثم قوضتها الأيام ، ولم تبق الا أسماءها :

منها قُبّة الحجّي ، وهي الآن تل صغير في جنوبي المعرة إلى الغرب على بعد كيلومتر تقريباً ، والناس يزعمون أن هذا التل كان فوقه قبة يجلس الناس فيها ، لتوديع الحجاج واستقبالهم ، وبعد خراب القبة ظل الناس يجلسون فوق التل وحوله لاستقبال الحجاج إلى عهدنا هذا أي سنة ١٣١٩ هـ ، وآثارها الضئيلة القليلة المبعثرة ، تدل على أنهـــا كانت معقودة بالقِرْميد .

وهي الآن مغروسة بشجر التين ، وموقعها جيد ، مشرف على سهول فسيحة ، فيها كثير من الكروم والبساتين ، وعلى أكثر المعرة .

وقد كان الطريق الممتد بين حماة والمعرة يمر من شرقيها ، ثم افتتحت الحكومة طريقاً آخر شرقي هذا ، يمر بشرقي المعرة ، كما قدمنا ذلك .

وسيأتي في ترجمة أبي المجد محمد أخى أبي العلاء ، أنه لما عاد إلى المعرة بعد أن فتكت الفرنجة بأهلها ، دخل إلى داره بباب حُنَاك ، وتعرف بدار القُبَّة ، وهذا الموقع يشبه أن يكون قبة الحجي ، وعلى مقربة منها .

وكان في جنوبي المعرة على بعد خمس دقائق تقريباً قبة يقال لها : قبة الشقراء ، وهي شرقي قبة الَحجّي على مسافة ثلاثمائة متر تقريباً ، ويزعم الناس أنها كانت بالقرب من مطبخ لبني العجمي ، ولكن الآن ليس هناك أثر للقبة ولا للمطبخ ، وفي محلهما الآن شجرتان ، وقد غرس فيه من عهد قريب شجر فستق وغيره .

ومنها : قبة السيد الوردي ، والناس يقولون : قبة السلاوردي وهي مدرسة ابن الوردي ، وقد سبق ذكرها .

ومنها : قبة موسى بك ، وهي قبة كان بناها موسى بك العظم في مقبرة بني العظم ، غربي المدينة ، بالقرب من مقبرة بني الجندي ، وقد تهدمت ، وباع أنقاضها رجل من بني العظم .

أسماء المحلات في المعرة :

تقسم المعرة إلى محلات ، ويقال لها : حارات ، وقد ألفوا تقسيمها إلى قسمين كبيرين : الأول المحلة الشمالية ، والثاني المحلة القِبْلية ، وتقسم إلى أربع محلات : الشمالية ، والقبلية ، والشرقية ، والغربية ، وقد تلحق الشرقية بالشمالية ، والغربية بالقبلية ، وهناك في محلة حارات صغيرة ، والصريق الحديث الذي سمي شارع أبي العلاء ، يقسم المدينة إلى قسم شمالي ، وقسم جنوبي ، والمشهور من المحلات الآن في المحلة الشمالية .

المشهور من المحلات في الحارة القبلية :

حارة الكنيسة في المحلة القبلية الغربية ، وفيها جدار ضخم ماثل إلى الآن ، من بناء الرومانيين ، يشبه جدران الكنائس في ذلك العهد .

وقد ذكرها أبو العلاء في رسالة الغفران [1] ، حيث قال : وحدثت أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصَف [2] ، رؤي يصلي بموضع بمعرة النعمان ، يقال له : كنيسة الاعراب ، وأنه

---

(١) أبو العلاء : رسالة الغفران ١٣٥ (ج) .

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٣ : ٤٠١ : صف ضيعة بالمعرة كانت اقطاعاً للمتنبي من سيف الدولة ، ومنها هرب إلى دمشق ، ومنها إلى مصر .

صلى ركعتين ، وذلك في وقت العصر ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر ، وان القصر له جائز .

والذي أعتقده أنه كانت في هذه الحارة كنيسة عظيمة ، ثم خربت بسبب الزلازل أو غيرها ، فأخذ الناس حجارتها ، وجعلوها في دورهم وعماراتهم ، كما فعلوا في غيرها ، ولم يبق إلا بعض الجدار المذكور .

الأماكن المشهورة في المعرة :

بحا

التنورة

الحمامات

عش الشوحا

السبع قلود : هكذا يلفظها الناس بالدال ، ولعل الصواب بالتاء جمع قَلْت ، وهو نقرة في الجبل ، يستنقع فيها الماء فيكون صافياً ، وهي تقع في غربي المعرة من الشمال في جبل ، حولها دائرة من الصخر ، وفي شمالها الغربي النواويس ، وتبعد عن المعرة نحو ثلاثة أرباع الساعة .

النواويس : والعامة تقول : النواغيص جمع ناووس ، وهو شبه غرفة ، فيها قبر قديم أو أكثر ، وهي في جنوبي المَحْيَا ، أي غربي المعرة من الشمال ، وتبعد عنها أقل من نصف ساعة ، وقد وجد منها في شرقي المعرة أيضاً .

والناس مولعون بالبحث عن النواويس ، لأنهم يجدون في بعضها أنواعاً من الحلي الذهبي ، أو الفضي ، ويجدون رسوماً وتماثيل من حجارة أو فخـــار ، ونحو ذلك من العاديات ، ولكنهم لا يعلمون تاريخ شيء منها ، ولا يستطيعون قراءة شيء مما هو مكتوب عليها ، أو في المكان التي وجدت فيه ، ولذلك يبيعونها بثمن بخس ، فيشتريها علماء الآثار وتجارها في الدول الراقية بثمن بخس .

البروج التي كانت في المعرة :

برج بني الحجال : تقدم ذكره في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

برج وحيدة : ذكر في حوادث سنة ٤٤٠ هـ .

الحصون التي كانت في المعرة وضواحيها :

حصن الكفير ، وهو في الجهة الشمالية من المعرة ، على بعد

ساعة تقريباً منها ، فيه أشجار كثيرة من الزيتون والتين والكرم وغيرها ، وفيه آثار أبنية عظيمة ، وقد أخبرني رجل من أهل المعرة أنه رأى الحجارين يكسرون من حجارة تلك الأبنية ، وينقلونها إلى المعرة ليبنوا بها .

وقد ذكره في شعره أبو اليسر شاكر بن عبد الله في قصيدة مذكورة في ترجمته ، منها قوله :

واذا الكفير رقيته اجزاك عن ظهر البراق

والأبيات تدل على أنه مكان كثير الظل والشجر والثمر ، عذب الماء ، طيب الهواء ، وقد ذكر ابن الوردي في حوادث سنة ٢٠٨ ﻫ أن عبد الله بن طاهر وزير المأمون خرب حصن الكفر ، في جملة ما خربه من حصون المعرة ، كما تقدم .

حصن أرْوح : خربه لُؤلُؤ السيفي المتغلب على حلب ، بعد أبي الفضائل سعد الدولة بن سيف الدولة سنة ٣٩٣ ﻫ .

حصن أسْفُونا : مذكور في حوادث سنة ٤٦١ و سنة ٤٩٥ ﻫ

حصن حُنَاك : خربه عبد الله بن طاهر سنة ٢٠٩ ﻫ كما سيأتي .

حصن البَارَة مذكور في حوادث سنة ٤٩١ و سنة ٤٩٦ و سنة ٥١٣ و سنة ٥١٤ هـ.

حصن كَفَرْ رُوما : خربه لُؤلُؤ سنة ٣٩٣ هـ كما سيأتي .

حصن عار خربه لؤلؤ السيفي مع حصن اروح وكفر روما سنة ٣٩٣ هـ .

وفي سنة ٦٥٨ هـ قدم التتر على المعرة ، وخربوا قلعتها وأسوارها ، قال ابن الوَرْدي [1] : أخبرني والدي أنه رأى شِحْنة التَتَر على قلعة المعرة ، وقد سخر العوام في تخريب سورها .

وقد ذكرنا أبياتاً لبعض المعريين ، يصرح فيها بهذه الحادثة حيث يقول :

وفقا عليها قلعة منيعة	يهدمها من هو من خربها
فغاية المفرط في سلمها	كغاية المفرط في حربها
تحثنا في هدمها أعجم	ونحن مكروبون من كربها
تبخل أيدينا بأرواحنا	وتشتكي منا إلى ربها
فهذه الأرواح من جوّها	وهذه الأجسام من تربها

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

لما رأوها أسرفت في العلى كان علاها منتهى ذنبها[١]

وأشرنا إلى أن ما زعمه بعض المتأخرين ، من أن القلعة كانت قبل الاسلام ، أو هي من بناء الصليبيين ، أو أنها من بناء الملك الظاهر ، ونحو ذلك من المزاعم ، كله قائم على الوهم والباطل .

والذي يفهم من كلام ابن الوردي [٢] وغيره ، أن بناءها قد تم سنة ٦٣١ هـ ، وأنها هدمت سنة ٦٥٨ هـ ، فتكون مدة بقائها عامرة نحو سبع وعشرين سنة .

وسمعت من كثير من شيوخ المعرة أن حجارة القلعة اخذت منها ، وعمر بها خان أسعد باشا المقابل لخان مراد جلبي في مدخل المعرة من الشرق ، وقد كان بناء هذا الخان سنة ١١٦٦ هـ .

قلعة المعرة :

رأيت بعض المؤرخين والأدباء والعلماء في هذا العصر والذي قبله ، كتبوا في قلعة المعرة شيئاً كثيراً ، وأكثرهم لم يسلم من الخطأ فيما كتب ، فأحببت أن ألخص ما عرفته من أخبار هذه

---

(١) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ .

(٢) ابن الوردي : التاريخ ٢ : ٢٠٥ ، ١٦٠ .

القلعة ، وما نقلته عن الثقات والمحققين ليتبين الخطأ والصواب مما كتب فيها .

في سنة ٦٢٦ هـ صارت المعرة للملك المظفر محمود بن المنصور صاحب حماة . وقد استلم أمور حماة وتدبير شؤونها من قبله سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني ، فأشار عليه ببناء قلعة المعرة ، فشرع في بنائها ، وقد تم بناؤها سنة ٦٣١ هـ وشحنها بالسلاح والرجال ، ونزلها في هذه السنة ، وكان بناؤها سبباً لخراب المعرة وخرابها معها ، لأن الحلبيين حاصروا القلعة المذكورة سنة ٦٣٥ هـ بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها ، وخربت المعرة بسببها ، وملكوها أيضاً .

وذكر المَقْريزي [١] في كتاب السلوك أن أهل حلب استنجدوا عسكراً من الخُوَارِزْمية ، واستنجدوا كيخسرو بن كيقباذ ملك الروم ، فأمدهم بخيار عسكره ، فملكوا المعرة في السنة

---

(١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك الجزء الأول القسم الثاني ص ٢٦٩ .

المذكورة أي سنة ٦٣٥ ﻫ ، وفي سنة ٦٣٨ ﻫ نهبتها الخَوَارِزْمية بعد ما خربوا حلب .

وتقع قلعة المعرة في شمالي المعرة في الشمال الشرقي ، من وادي الخطيب ، أو وادي الجنان ، أو حيث ينعطف الهِرْماس إلى الشمال ، فالغرب ، وفيها بقية بيوت تشبه بيوت القرى ، ولا تزال آثار الردم والهدم ظاهرة ، خلال المساكن ، وحولها يسكن فيها جماعة من الفلاحين من أهل المعرة .

وحول القلعة خندق كان باطنه مفروشاً بالبلاط ، ثم اقتلعه السكان ، وزرعوا مكانه تيناً ورماناً وعنباً وغير ذلك .

وبعد سنة ١٣٧٠ ﻫ كان أحد الفلاحين يحرث بقعة من الخندق ، فاصطدمت سكة الحراث بحجر ، وأراد الفلاح أن يزيلها من طريق السكة ، فما استطاع ، فحاول اقتلاعها ، فانحسرت عن فجوة ، فكشف ما حولها ، فتبين له جدار مسجد تحت القلعة ، وعليه كتابة بالحروف العربية ، وبحروف أعجمية .

وقد فهم من قراءة بعض الحروف العربية على الحجر الأول الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس السليماني سنة ٣٥٠ ﻫ ،

ولم يستطع قراءة ما على الحجر الثاني والثالث ، لأن حروفها غير عربية ، وفهمت أن دار الآثار تريد تحقيق هذا البناء ، ولا شك أن البحث سوف يرشد إلى آثار لها شأن عظيم في تاريخ المعرة ، وقلعتها ، وتلالها ، ومقابرها .

لأننا ذكرنا فيما سبق ان في شمالي المعرة ، وفي شرقي القلعة من الجنوب تلاً يقال له : تل البلس ، وفي شماليه إلى الشرق مقبرة يقال لها : الساطعية ، وان الناس يزعمون ان فيها قبر سليمان الجاموس باني قلعة المعرة ، وأهل المعرة يروي المتأخر منهم عن المتقدم أحاديث تدل على شجاعة سليمان الجاموس ، وقد كنت أظن أنه رجل لا حقيقه له ، وبعد العثور على اسمه في جدار الجامع الذي ظهر تحت القلعة تبين لي أنه رجل عظيم.

وصرت أظن أن القلعة التي بنيت ، وهدمها الحلبيون والُخوَارِزْمية ، قائمة على أنقاض جامع أو معبد قديم ، ويجوز أن يكون بني بعد خراب القلعة ، وجعل تحتها ليكون بمنزلة قلعة صغيرة .

وهذا نص الكلمات المكتوبة فوق باب المسجد الغربي :

بناه بعد أن كان كنيسة الأمير عبد القادر الخديجة الجاموس السليمان سنة ٣٥٠ هجرية .

وفوق باب حقير لغرفة تتجه نحو الجنوب مكتوب بالأحرف اللاتينية ثلاثة أسطر وهذه هي :

1/ POYΦINOCKAIEENEKIWISΠ
PICKOC, POYΦINOCS.
2/ ΠENTAΩPWTOITHEBIN
ΔTOYZΛYET OYC.

3/ EKTICANTWCKCINW
THEKWMHC.

سور المعرة :

قال ياقوت في (معجم الأدباء) [1] : وفي جانب سورها قبل البلد [2] قبر يُوشع بن نون عليه السلام في برية فيما قيل ...

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٤ .

(٢) هكذا في ياقوت ، ولعله من قبلي البلد ، لأنه واقع في الجهة القبلية من البلد (ج) .

وقد تقدم عن ابن الشِّحْنة أن الطلسم قريب من السور .

وسيأتي أن عبد الله بن طاهر هدم سور المعرة سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٨ هـ .

وكلام صاحب الروض المعطار يدل على أن قبر يوشع داخل المدينة ، وذكروا أن صالح بن مِرْداس حاصر المعرة ، ورماها بالمناجيق ، وخرج من باب من أبوابها أبو العلاء .

وسيأتي بأن سيف الدولة مُقَلَّد بن كامل المِرْداسي كتب إلى واليه أن يخرب سور المعرة ويهدمه ، وان أمير المعرة أبا الماضي أتم بناء السور سنة ٤٥٥ هـ في سنة واحدة ، وأن الصليبيين قاتلوا أهل المعرة على السور ، بعد ما عملوا برجاً يوازيه ، ثم هدموا السور والبروج .

وفي سنة ٥٢٩ هـ خرب عماد الدين زَنْكي سور المعرة .

وفي سنة ٦٥٨ هـ خرب التتر قلعة المعرة وأسوارها .

ولكن الأيام لم تدع لهذا السور عيناً ولا أثراً ، لنعلم منه موقع المدينة وحدودها على وجه صحيح .

المقابر والجبانات :

إذا مر الإنسان بطرف المعرة من الشمال أو الجنوب أو الغرب هاله ما يراه فيها من كثرة القبور القديمة والحديثة ، وتذكر قول أبي العلاء : خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد . وتكاد هذه القبور المنتشرة في بقاع فسيحة ، تكون أكبر من المدينة نفسها ، ولعل السبب في كثرة القبور هو أن أهل المعرة لا يدفنون ميتاً على بقايا دفين آخر ، وانما يتخذون لكل ميت قبراً يستقل به ، وذلك لأن أرض المقابر موقوفة على الغالب ، لا يدفع أهل الميت ثمنها ، ومن أراد منهم احداث مقبرة يختص بها هو وأسرته اشترى أرضاً ، وجعلها مقبرة ، وأجر الحفر والدفن قليل بالنسبة إلى بقية الأمصار الشامية كدِمَشْق وحلب وغيرهما .

وقد اتخذت كل أسرة مقبرة ، يستقل بالدفن فيها أبناؤها ويسمونها جَبَّانة وتربة ، فيقال مثلاً : جبانة بني الجندي ، جبانة بني العظم وهكذا .

وعادتهم في صنع القبور في هذا العهد ، أن يقيموا حجرين

طويلين ، أحدهما عند الرأس ، وهذا يكتبون عليه اسم الميت ونسبه وتاريخ وفاته ، وربما نقشوا عليه أبياتاً من الشعر ، تشتمل على ذلك ويسمونه شاهدة ومصيبة ، والثاني عند الرجلين وأعلى كل واحد منهما محفور منقوش على صورة تخالف الأخرى ، ويتميز العلماء من غيرهم ، بأن يكون في رأس الشاهدة شكل كروي تقريباً ، مخطط بخطوط منحنية ، يمثل عمامة العالم .

وللمتقدمين أنماط مختلفة في القبور ، يستطيع الباحث المدقق أن يعرف القبر في أي عصر بني .

فمن المقابر ، أو الجبانات المشهورة : المقبرة الغربية ، وفيها مقابر لأسر مشهورة في المعرة ، منها : مقبرة بني الجندي ، وهي غربي المدينة من الشمال ، ينحدر من غربيها إلى وادي الخطيب أو وادي الجِنان ، وفي شماليها مصلى مفروش بالبلاط ، على رابية تشرف على الوادي المذكور ، يقال له : مصلى بني الجندي ، وفي شرقي هذه المقبرة دار قديمة فخمة ، يقال لها : دار بني الجندي ، ولها باب عظيم مبني بحجارة كبيرة ، شاهق يتجه إلى الشمال ، وليس في شماليه بناء قائم في عهدنا ، وفي هذه الدار قبة عظيمة مبنية كلها بحجارة عظيمة .

وقد افتتحت الحكومة في العهد الأخير ، طريقاً يذهب من المعرة إلى أريحا ، فيمر شرقي هذه المقبرة ، وقد أخذ منها قسم ، وضم إلى الطريق .

وبجوار هذه المقبرة إلى الجنوب مقبرة بني العظم ، وكان فيها قُبّة موسى بك ، ثم تهدمت كما ذكرنا .

وفي هذه المقبرة من الجنوب قبور يقال لها : قبور بنات النعمان .

وفي جنوبيها أيضاً قبور يقال لها : قبور شطي ، وهي غربي المعرة من الجنوب .

المقبرة الشّمالية [1] ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة الساطعية ، شرقي بيدر الجعابصة إلى الشمال ، وفيها قبور كثيرة اندرست ، وذهبت حجارتها ، ولم يبق إلا قبور قليلة .

المقبرة القِبْلية ، وفيها أيضاً مقابر كثيرة ، منها : مقبرة بني الشّحْنة ، وهي في جنوبي المعرة ، شرقي زاوية بني الكَيّال ، وفي هذه المقبرة قبور لبني الِحراكي .

ومنها : مقبرة بني السيد يوسف ، وهي في جنوبي المعرة

---

(١) فيها قبور قديمة وأخرى حديثة .

من الشرق ، ولما افتتحت الحكومة الطريق الجديد ، الذي يصل ما بين حماة وحلب ، جعلته يمر على هذه المقبرة ، فاندرست بذلك قبور كثيرة منه ، ومنعت تلك الأسرة من الدفن فيها .

ومنها مقبرة بني الحِراكي ، وهي مقابل قُبّة الحَجّي تقريباً ، ويفصل بينهما الطريق القديم ، الذي كان يذهب منه إلى حماة .

ويزعم الناس أن قبر النُّعمان بن بشير بالقرب من الحوّاري القِبْلية ، ولعل هناك كان قبر ابن النعمان ، الذي افترسه السبع وبنيت المعرة من أجله كما تقدم ، ولما فتح الطريق الجديد الآخذ إلى حماة ، عثروا على قبور كثيرة لبني العجيل ، كلها مردومة ، ويظهر أنها كثيرة ، وأن أصحابها كانوا موسرين .

ومنها : المقبرة الشرقية ، وهي في شمالي الشيخ حمدان وشرقيه ، وهي مقبرة عظيمة قديمة وحديثة ، وقد أصبح بنو الجندي يدفنون موتاهم في هذه المقبرة ، بعد ما منعتهم الحكومة من دفنهم في مقبرتهم الغربية السابق ذكرها .

المزارات :

أهل هذه المدينة أذكياء ، وأولو فطنة ونباهة ، ولكن يغلب

على العامة منهم ، وفريق من الخاصة ، سلامة الطوية ، وطهارة الضمير ، ونقاء القلب ، وابتعادهم عن العلم الذي يثقف العقول ، ويكشف عن البصائر ، وينير لها السبيل ، جعل حظهم من سلامة الصدر وافراً ، إلى حد يخيل للمدقق في أطوارهم وشؤونهم أنهم أولو غفلة وعَيّ .

ولذلك تجد بضاعة الشعوذة رائجة عندهم ، والاتجار بالدين أربح بضاعة في أسواق الخاصة والعامة ، ومن استعصى على كل قوة ، وتمرد على كل سلطان منهم ، متى ذكرت له الدين وما يتصل بالدين ، أسلس لك القياد ، وكان أطوع لك من ظلك ، هذا شأن من أدركناه من شيوخهم وكهولهم وشبانهم إلى سنة ١٣١٩ ﻫ وقد غشت أهلها في الأزمنة المتأخرة ، ظلمات بعضها فوق بعض ، من الجهل والعَسْف والإرهاق ، فأصبحوا كأنما عادت إليهم جاهليتهم الأولى ، وفقد فيهم المرشد والهادي إلى الدين الصحيح ، وفشت فيهم الطرق والدعوة إليها ، وصاروا يعتقدون في بعض الرجال ما لا يعتقدون مثله في الأنبياء ، ويفترون لهم من الكرامات ما لا يسوغ

الشرع والعقل صدور مثله عن مثلهم .

ولعل هذا الداء قديم فيهم فان أبا العلاء يشير إلى مثل ذلك بقوله :

إذا كان التقى بلها وعيا　　فأعيار المذلة أتقياء

وخلاصة القول : ان المعريين كثيرو الاعتقاد بالصالحين ، وان الصالحين عندهم من المتقدمين كثيرون ، وسيأتي في العادات والمعتقدات طريقتهم في النذور والزيارات ، ومن أعجب العجب أن مدينة تنتج مثل أبي العلاء الذي كان يحكم العقل في كل شيء ، فيرتضي ما ارتضاه العقل ويأبى ما أباه ، ثم يأتي من بعده خلف ينقاد بالأحاديث الملفقة ، ويستسلم إلى الشَّعْبَذة والتُرَّهات .

مقامات الأنبياء :

١ ـ مقام نبي الله شِيث (ص) وقد سبق القول فيه في الكلام على المَحْيا .

٢ ـ أولاد يعقوب السبعة (ص) وقد سبق القول فيه في الكلام عن مسجده .

٣ — نبي الله يُوشع (ص) .

٤ — الخضر (ص) ، ومقامه في مكان يقال له : جدار الخضر ، وهذا المكان يقع في جنوبي المعرة على بعد ساعة منها وفيه آثار قديمة ، فيها بعض الرسوم ، وآبار ، ومغاور في الصخر ، ورَكية مطوية بالحجارة ، عمقها نحو من عشرين متراً ، ماؤها عذب ، وركية أخرى ماؤها مِلح ، وفيه نواويس كثيرة ، كانت طافحة بالآثار ، فاستخرجها الجاهلون بها ، وباعوها بثمن بخس ، وفيه مغارة لها قَوْس عظيم من الحجر ، تحته جدار عظيم ، فيه باب من الحجر الأسود ، وفيه عدد كثير من مثل هذا الباب . والناس يزعمون أن هذه المغارة مقام الخضر ، لأن فيها رسم قبر اسلامي ، والعامة ينذرون له البرغل المطبوخ بالدردار ، وهو نوع من النبات عندهم ، ويسمى ذلك الطعام المَغْمُومَة ، وكذلك كل برغل طبخ بنبات ، ومنهم من يذبح الخرفان ، وهذا النذر يسمى الحناء أيضاً ، ولا يكون إلا في زمن الربيع ، فتخرج النساء إليه ويقضين يومهن في القصف واللهو ، ثم يأكلن المغمومة ، ويعدن من حيث أتين ، فيجمعن بين القربى والنزهة ، لأن

هذا المكان محاط بشجر العنب والتين والزيتون والرمان، وهو فسيح أفيح ، واسع الأرجاء ، عذب الماء ، طيب الهواء .

الصحابة والتابعون :

قبر عبد الله بن عمّار بن ياسر الصحابي .

قال ياقوت [1] في (معجم البلدان): وبالمعرة قبر عبد الله ابن عمار بن ياسر الصحابي ، ذكر ذلك البَلاَذُري في فتوح البلدان له .

وقال ابن العديم : في بغية الطلب ، وذكر صاحبنا ياقوت ابن عبد الله في كتابه ، وقال : بمعرة النعمان قبر محمد بن عمار بن ياسر .

ولم نقف على ما ذكره ياقوت في كتاب البلاذري ، ولا وقفنا على ولد لعمار اسمه عبد الله ، ولا على ولد لعبد الله المذكور اسمه محمد ، فلعل في هذا الاسم تحريفاً ، أو حذفاً لبعض الآباء وكذلك لم نقف على أثر لهذا القبر .

وأظن أن هذا القبر لو كان حقيقياً ، لما طمست معالمه ،

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٥٧٥

ولا اندرس أثره ، لأن المعريين يعنون بقبر الصالحين ، فكيف بالصحابة ، أو التابعين ، أو أحد من بينهم .

أُوَيْس القَرَني ، أو السلطان ويس : تقدم الكلام فيه في مسجد أويس أو مقامه .

الصالحون :

الشيخ عطا الله : وهو في المسجد المنسوب إليه ، وهـذا يعلقون على شباكه خروقاً من ثياب المريض ، وينذرون له زيتاً ليوقد عند ضريحه ، ولم أوفق لمعرفة هذا الرجل ، وبعض الناس يعتقد أنه عطاء الله ابن أبي رَبَاح ، وقد بينا بطلان ذلك .

ومنهم الشيخ محمد الرشيدي : ويقال له ، الشيخ المعاليقي وهو في المسجد المنسوب إليه المتقدم ذكره ، وهذا ينذرون له (مِعْلاقاً) ، يجتمع النساء عنده إذا برىء المريض أو حضر الغائب ، ويشتوين معلاقاً ويأكلنه (والمعلاق هو جزء من الحيوان يشتمل على الكبد والرئة والقلب والمَرِيء ، وما عليها من شحم ، وهو يرادف السَحْر في قول ، فقد قال بعضهم : السحر كل ما تعلق بالحلقوم من قلب وكبد ورئة) .

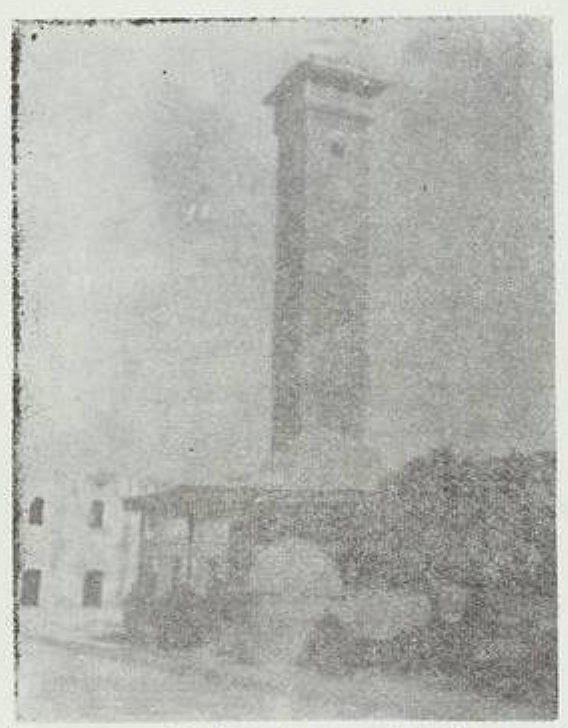
الشيخ دبس ، وهو واقع في الطريق الممتد ما بين مقام الشيخ حَمْدان ، ومدرسة ابن الوَرْدي ، وهو عبارة عن بقعة صغيرة ، مسورة بجدر متهدمة ، ينذر له الناس خبزاً ودبساً وربما كان عنده مسجد فتداعى .

الشيخ محمد الهبولي ، وهو في مسجد البولي ، ولم أقف على ترجمته ، ولا ترجمة من قبله .

تنبيه لغلط مطبعي

وقع سهواً غلط مطبعي في أرقام الصفحات ، فعوضاً من أن يكون رقم الصفحة ٤٣٣ جاء سهواً ٤٤٣ الخ .

فهرس الموضوعات



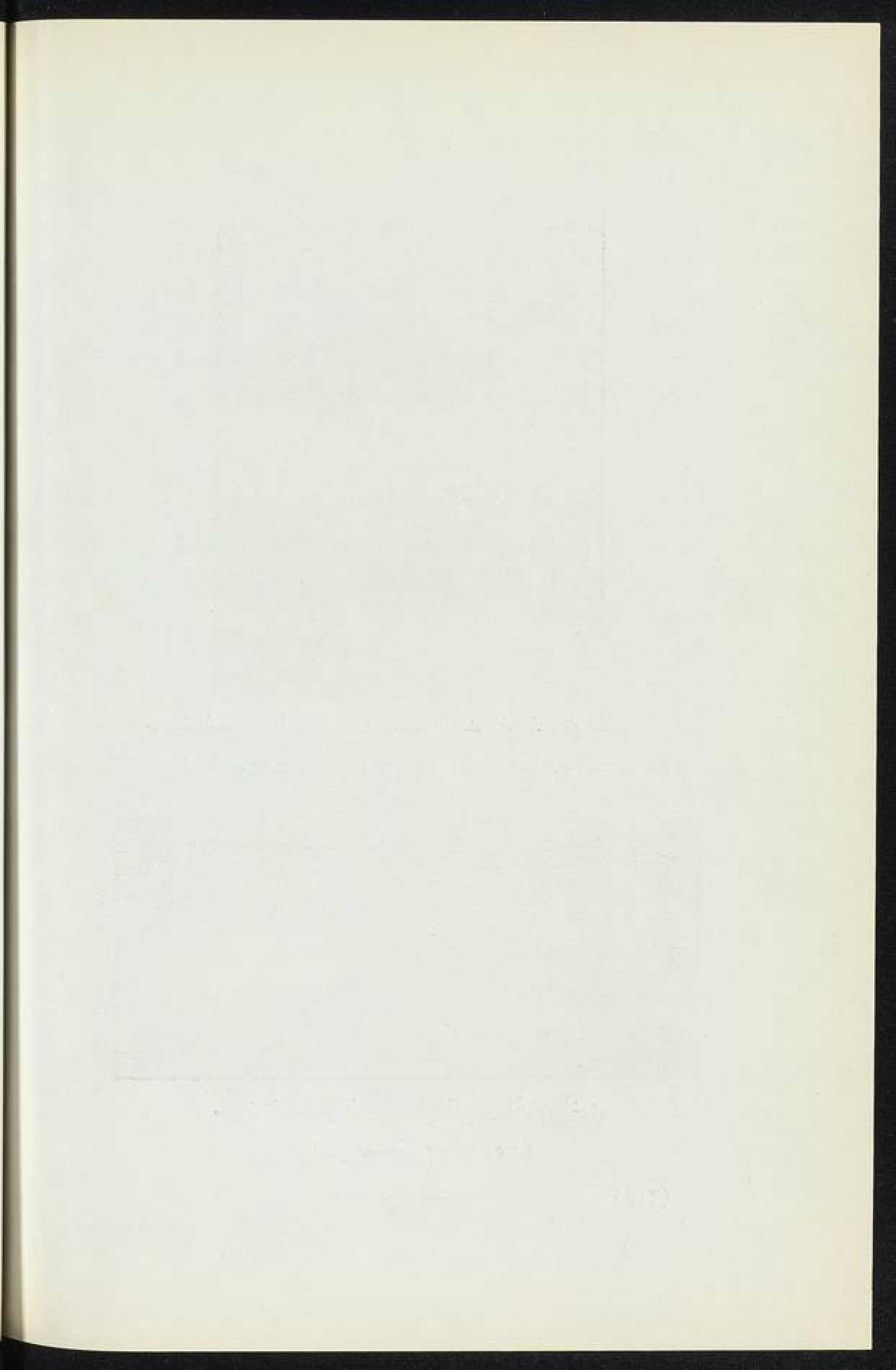
صورة المسجد من الداخل وفيه القباب الثلاث وفيه قسم من الحرم الشمالي

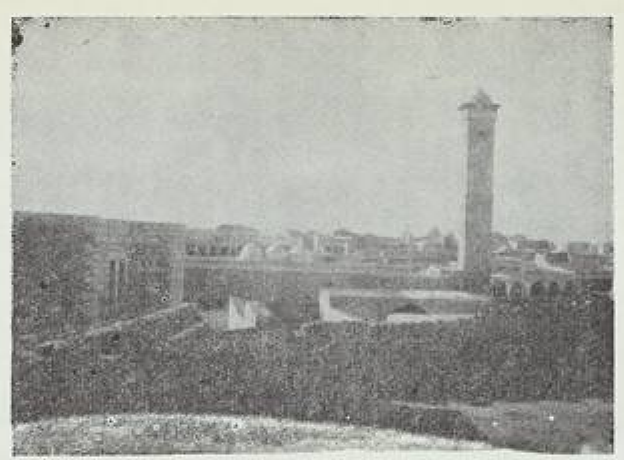
(أخذت سنة ١٣٥٢ ﻫ = ١٩٣٥ م ، انظر الصفحة ٣٣٠ — ٣٥٢)



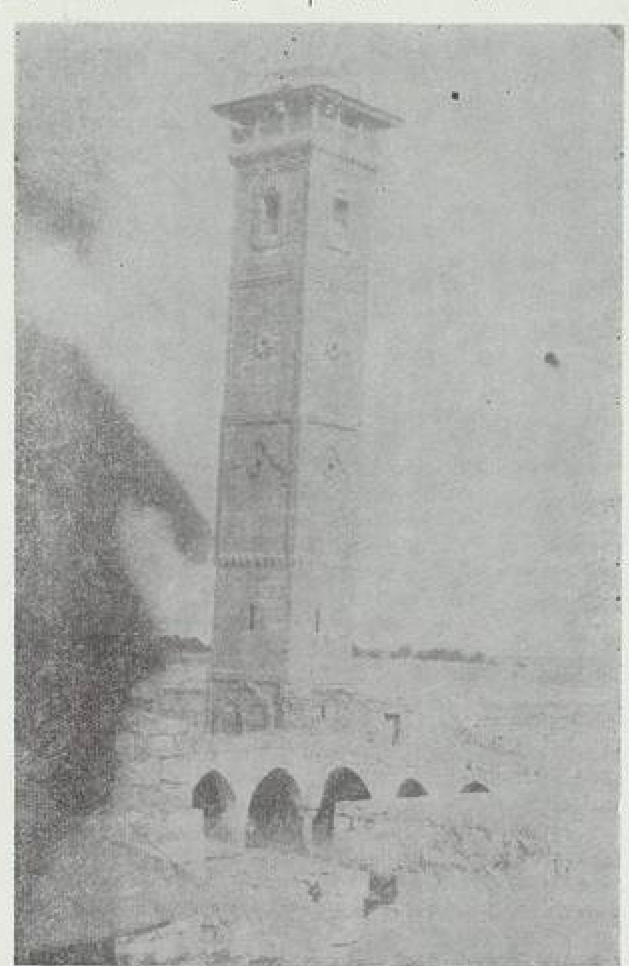
صورة المسجد من الداخل وفيه قسم من الحرم الجنوبي

(انظر الصفحة ٣٣٠ — ٣٥٢)

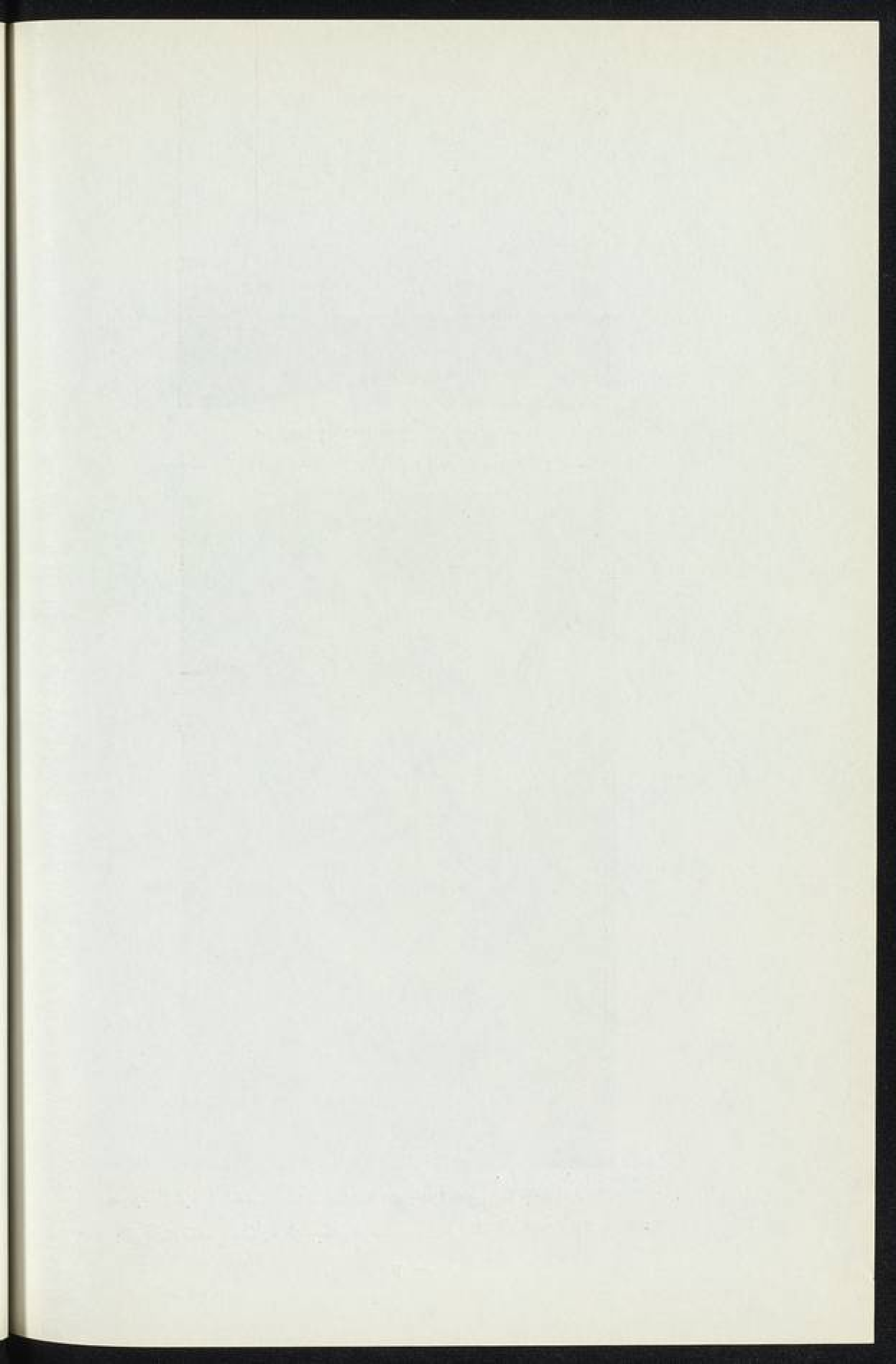




صورة الجامع مأخوذة من جهة الشمال
(أخذت سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م ، انظر الصفحة ٣٣٠ — ٣٥٢)



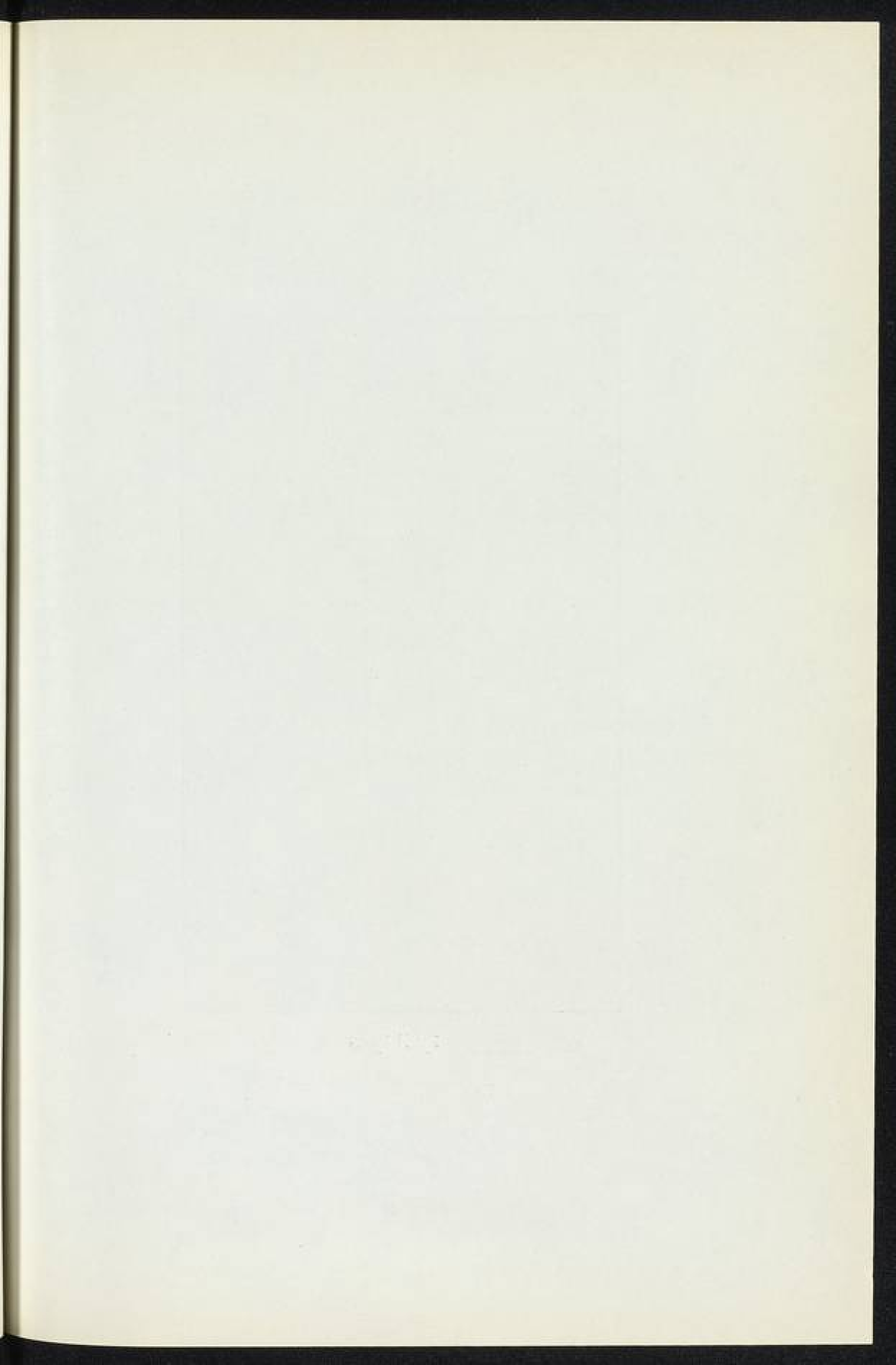
صورة المنارة ، أخذت سنة ١٣٥٠ هـ من السوق قبل أن تهدم الأروقة والدكاكين
التي كانت تتصل بالمنارة من جهة الغرب الشمالي (انظر الصفحة ٣٣١ — ٣٥٢)





صورة المنارة

(انظر الصفحة ٣٣١ — ٣٥٢)

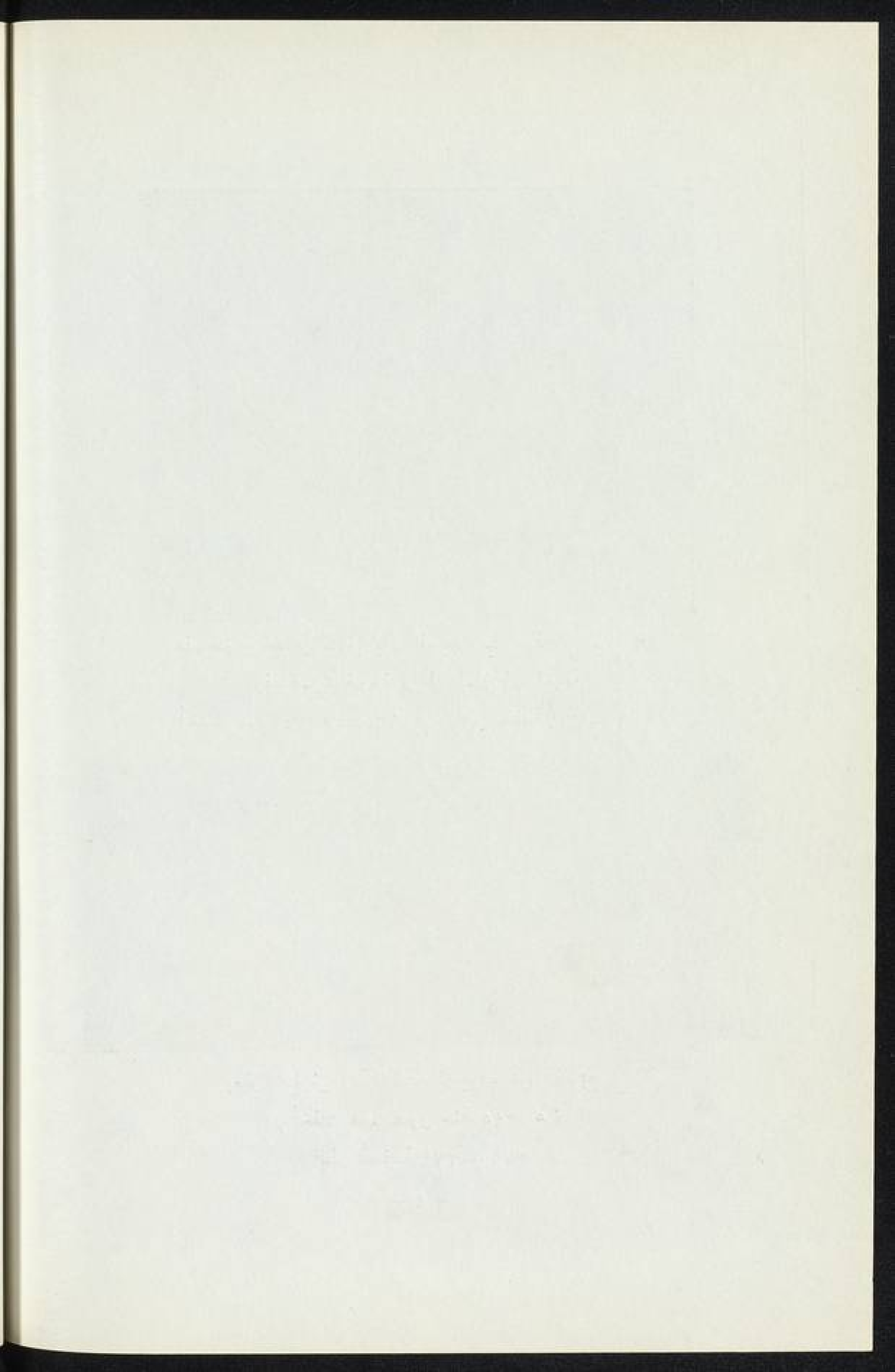




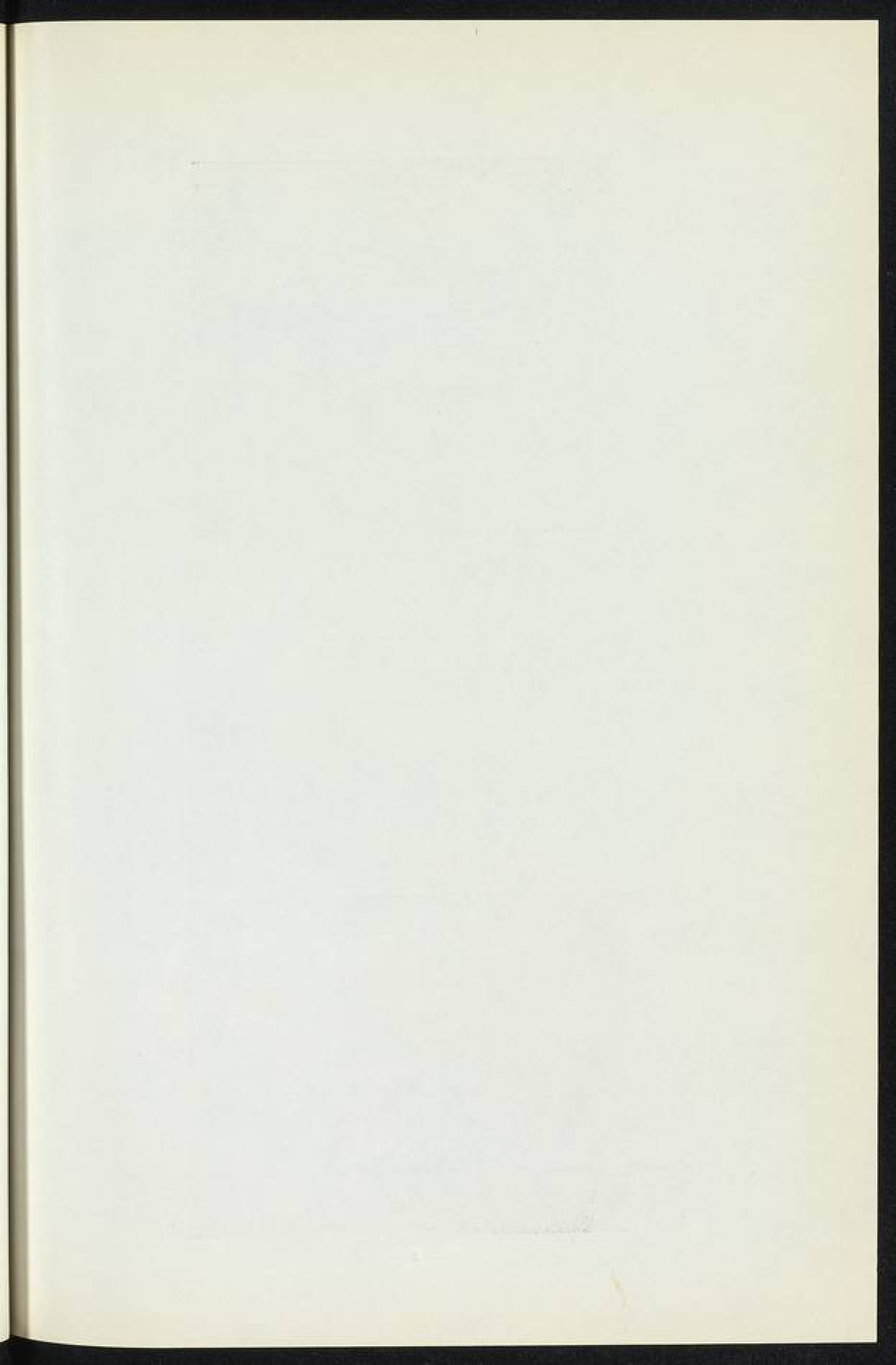
هذه صورة الجدار المقابل لباب المسجد وفيه الغرفة التي فيها القبر
وقد ظهرت صورته والباب الثاني باب الغرفة
(أخذت سنة ١٣٥٢ ﻫ = ١٩٣٥ م ، انظر الصفحة ٣٦٩ — ٣٧٦)



بعض النقوش والكتابات الموجودة على الضريح
(أخذت هذه الصور سنة ١٣٤٥ ﻫ)
انظر الصفحة ٣٧٦ — ٣٧٩







وهذا شكل الساحة والغرف ومساحة كل منها

(انظر الصفحة ٣٣٠)

طريق

جنوب

٦،٣٧

٦،٦٥

مسجد

٥،٥٥

باب

ساحة فيها شجرات
وقبور

١١،٧٥

غرفة

مسجد أبي العلاء كله

٧،٥٦

غرب

مدفن

٣،١٨

٦،٨٢

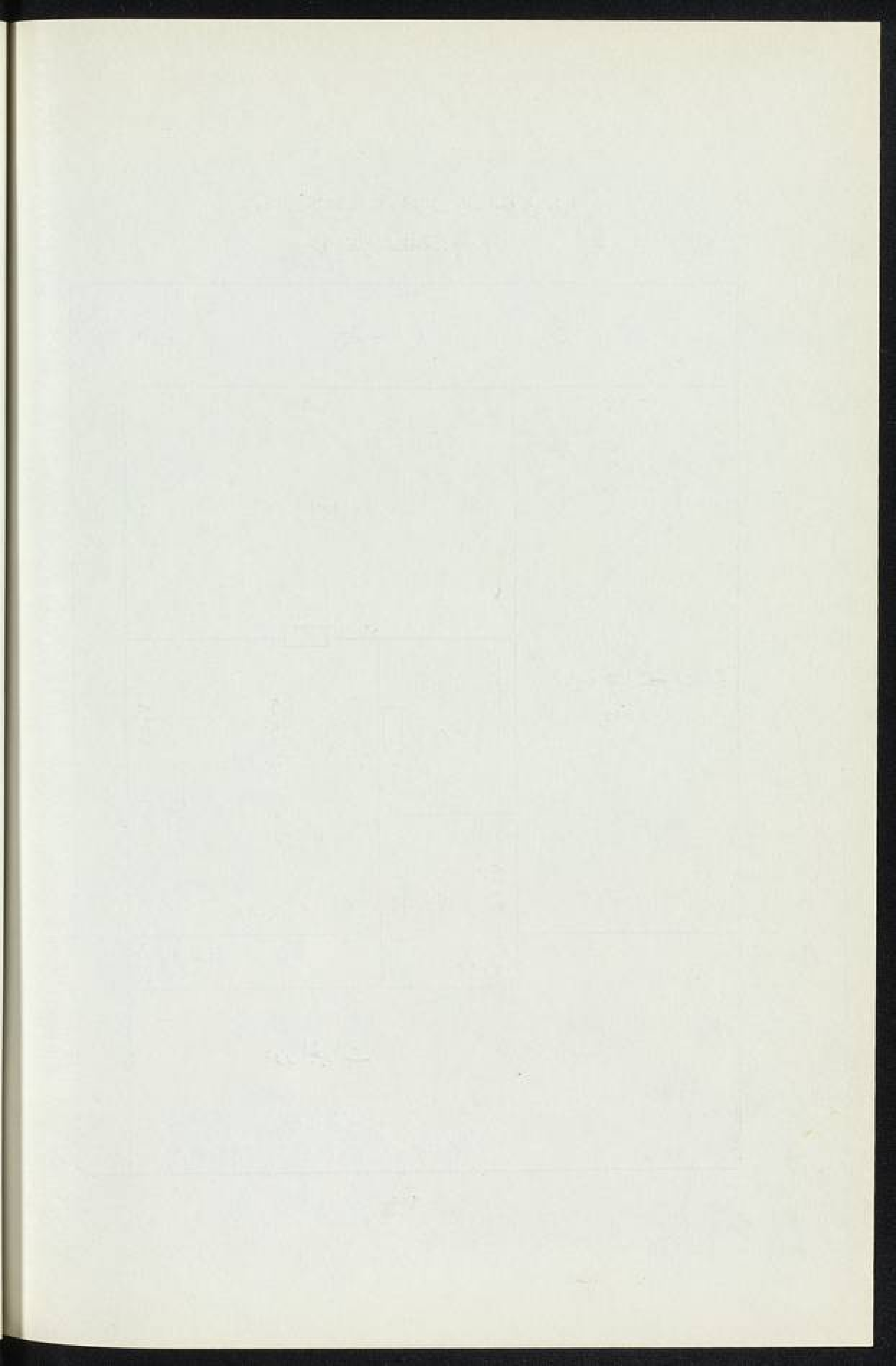
صفة

١،٢٠

٢،٩٥

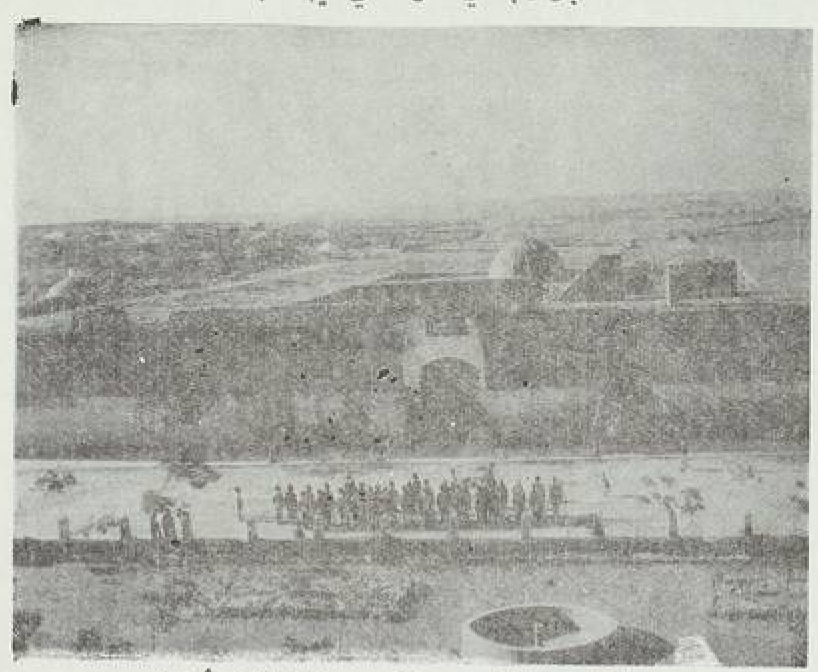
طريق

دور الجيران

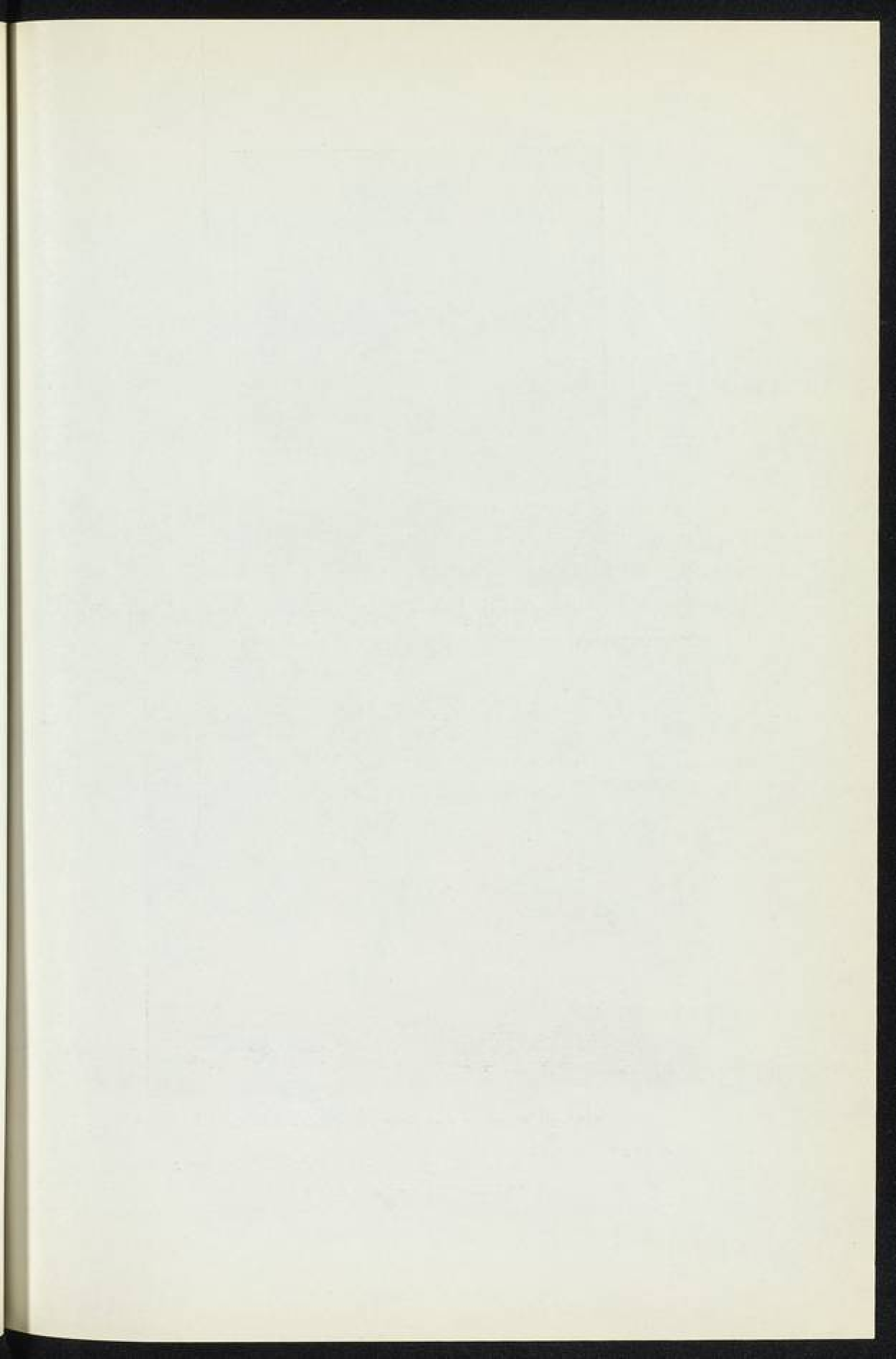


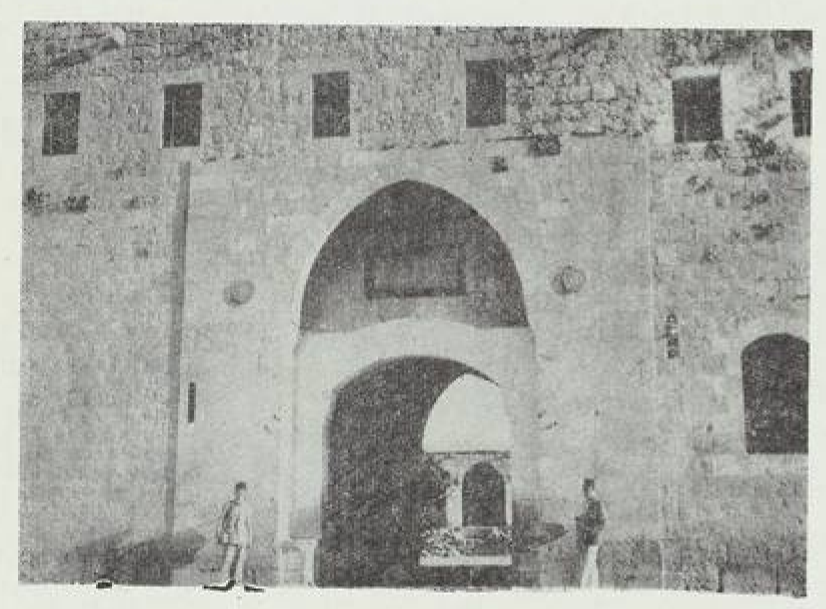


حجر وجد في الغرفة التي فيها القبر



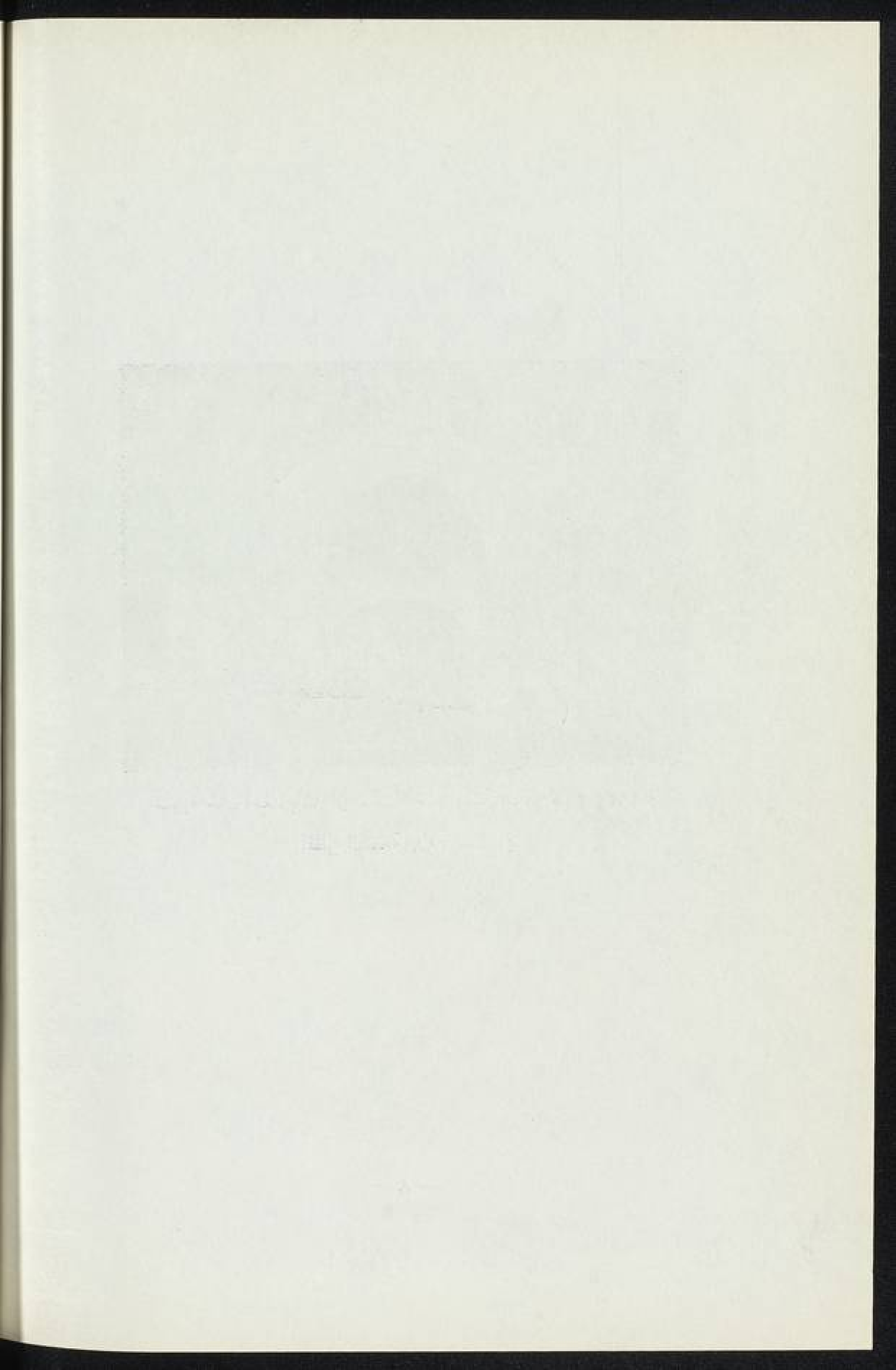
صورة الخان من الخارج مع قسم من الساحة التي أمامه
وفيها قسم من الحديقة ، والبركة التي فيها وقد أخذت سنة ١٣٥٢ ﻫ
(انظر الصفحة ٣٩٤ — ٣٩٨)



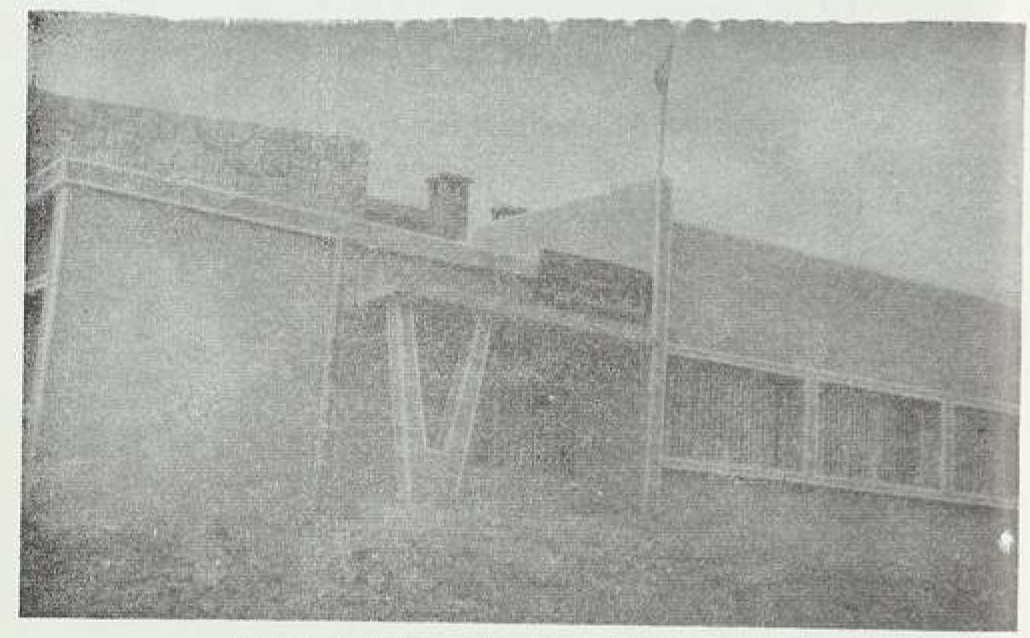


صورة خان أسعد باشا أو الشكنة أخذت سنة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٣ م

انظر الصفحة ٣٩٨ — ٤٠٠



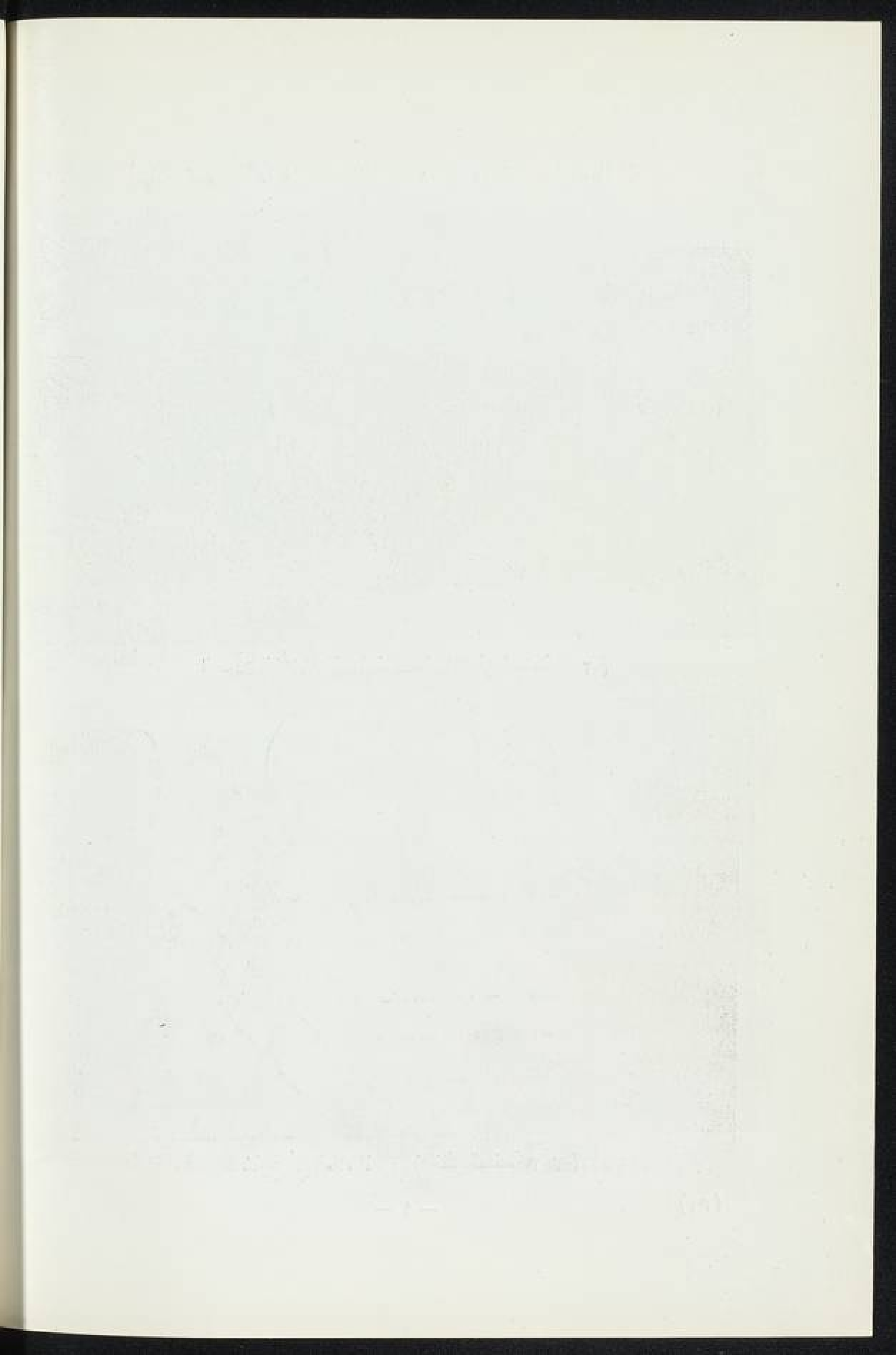
أخذت الصور الآتية في كانون الثاني ١٩٦٣ م وهي تمثل بعض معالم المعرة



الوحدة الإرشادية لصناعة السجاد (انظر الصفحة ٢٧١)



شارع أبي العلاء المعري (انظر الصفحة ٣١٣)

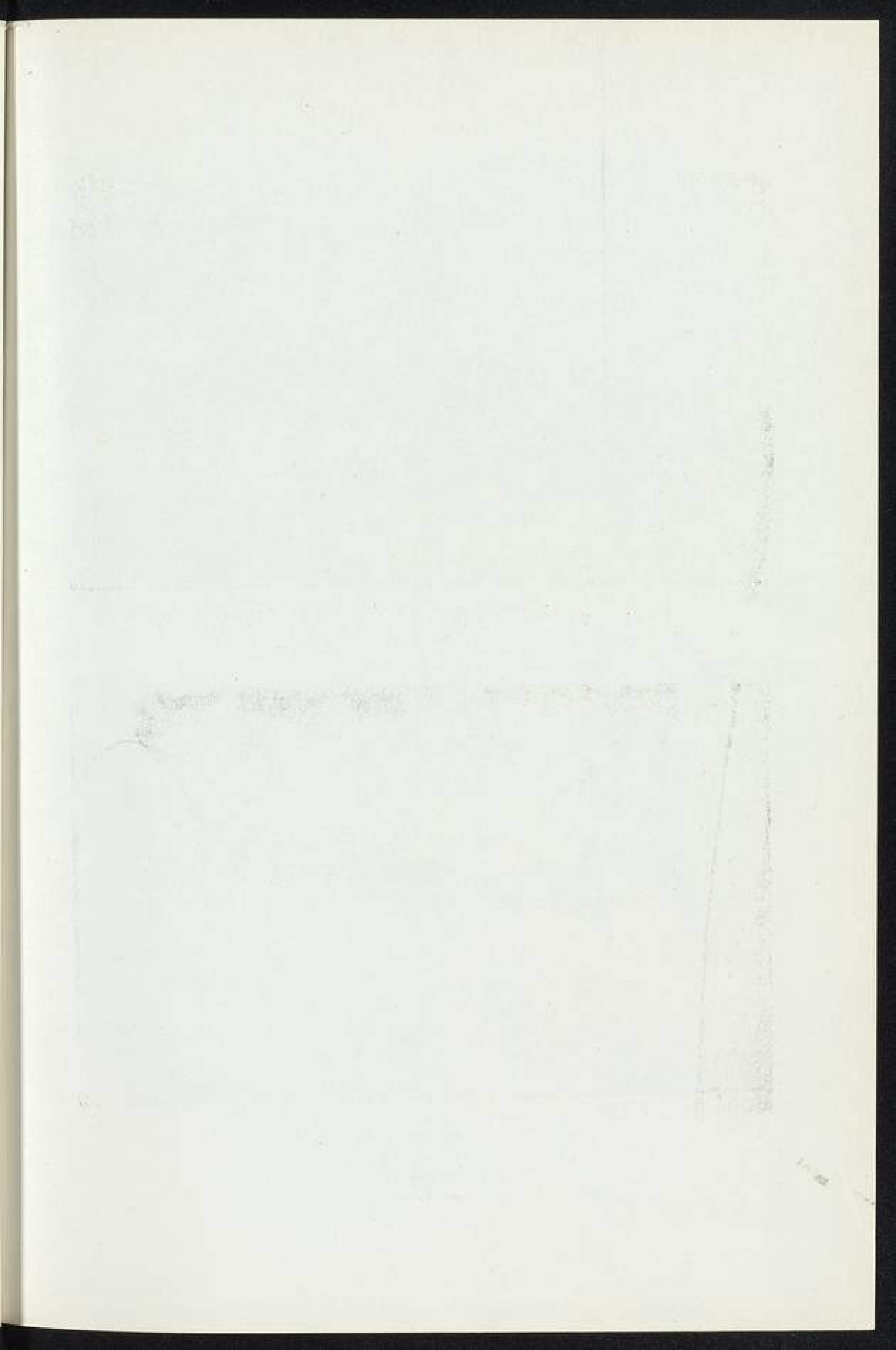


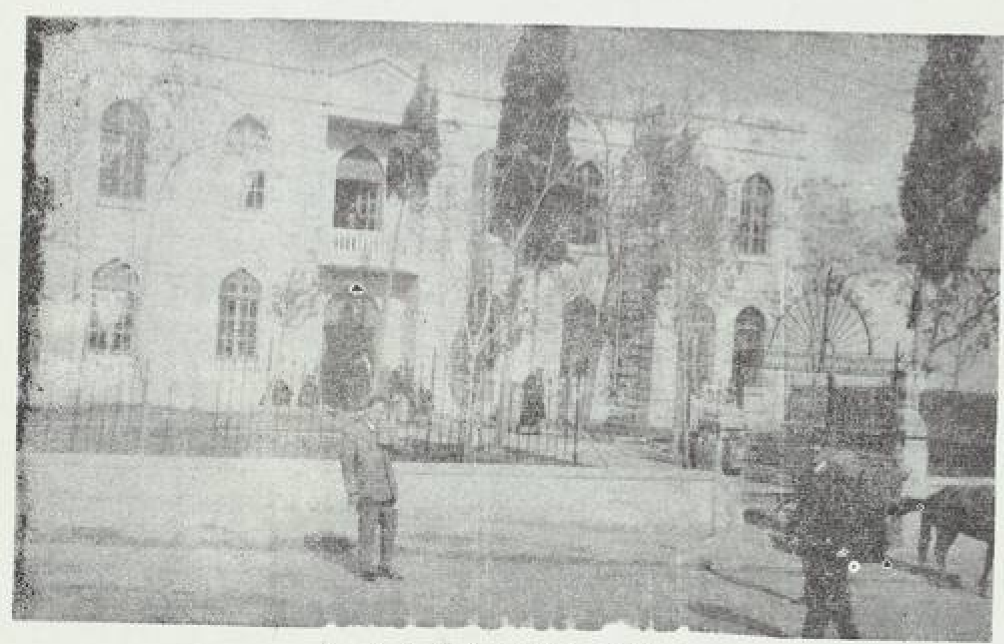


واجهة من الدكاكين في شارع أبي العلاء (انظر الصفحة ٣١٣ — ٣١٤)



بلدية المعرة (انظر الصفحة ٣١٥)

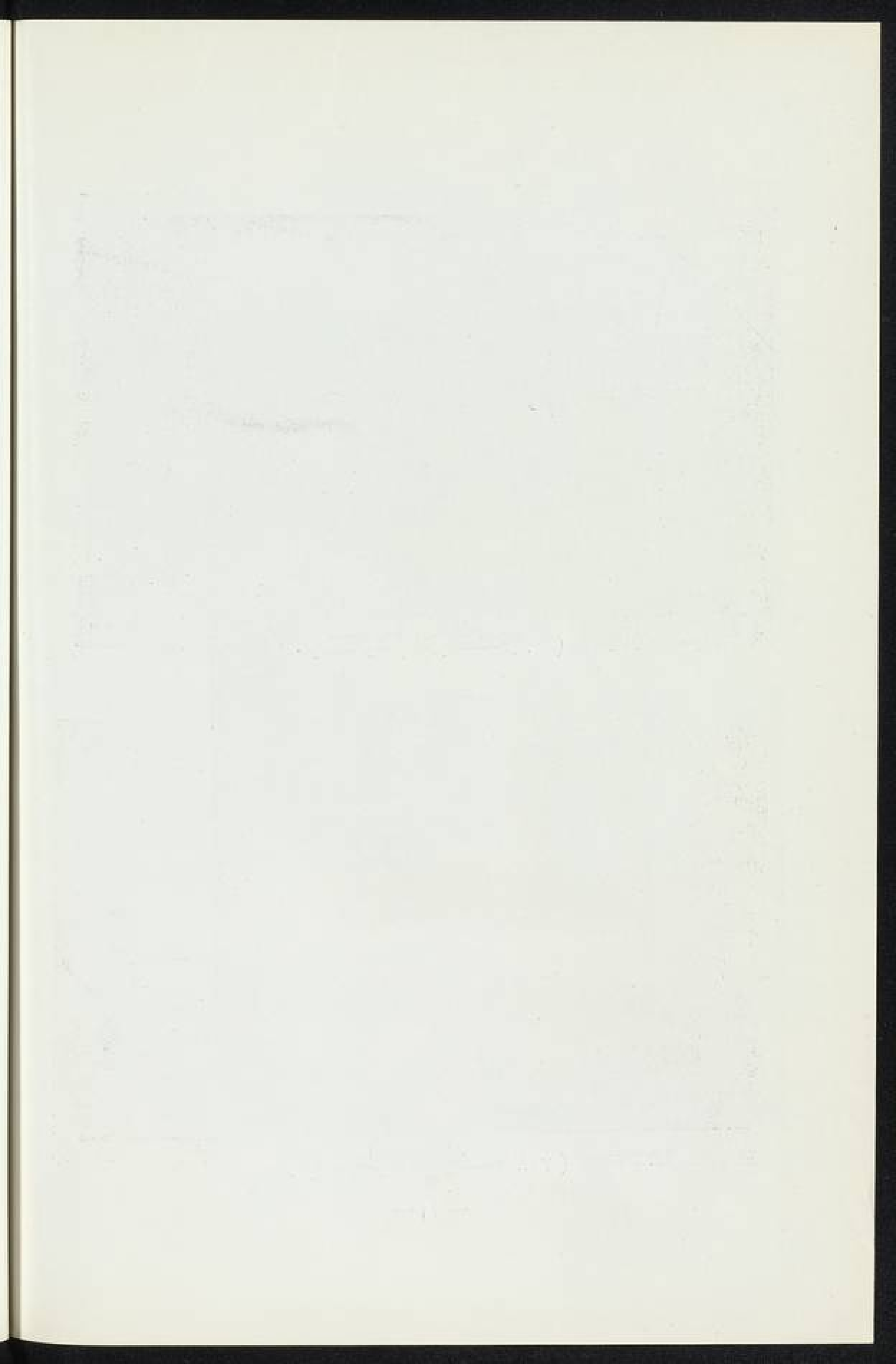


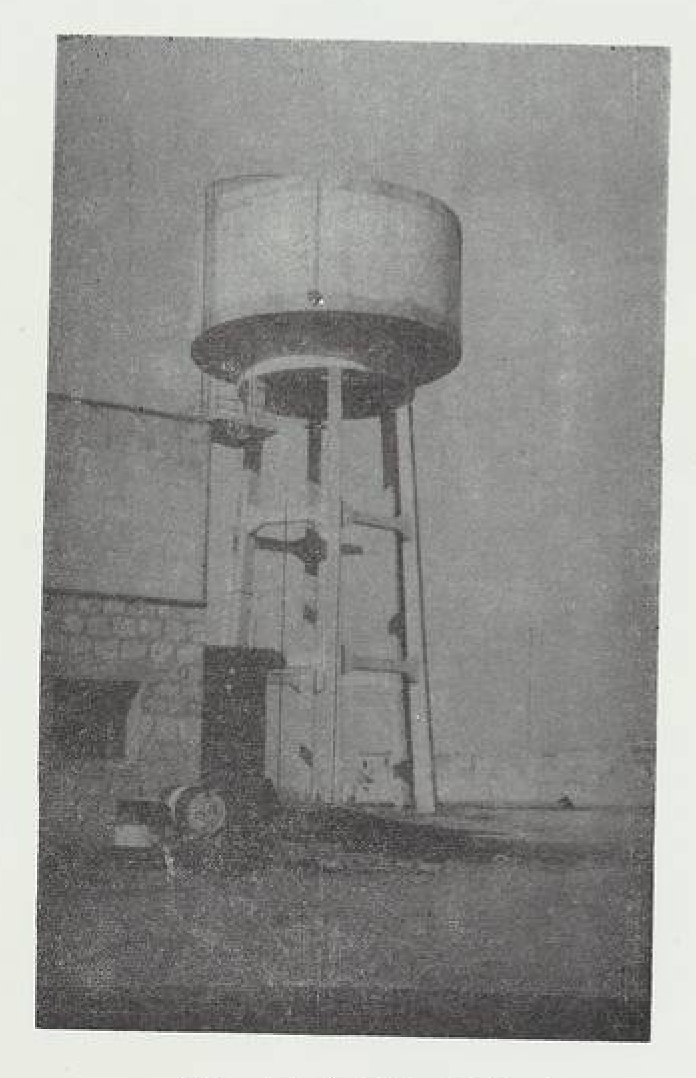


مقر الحكومة (انظر الصفحة ٣١٦)

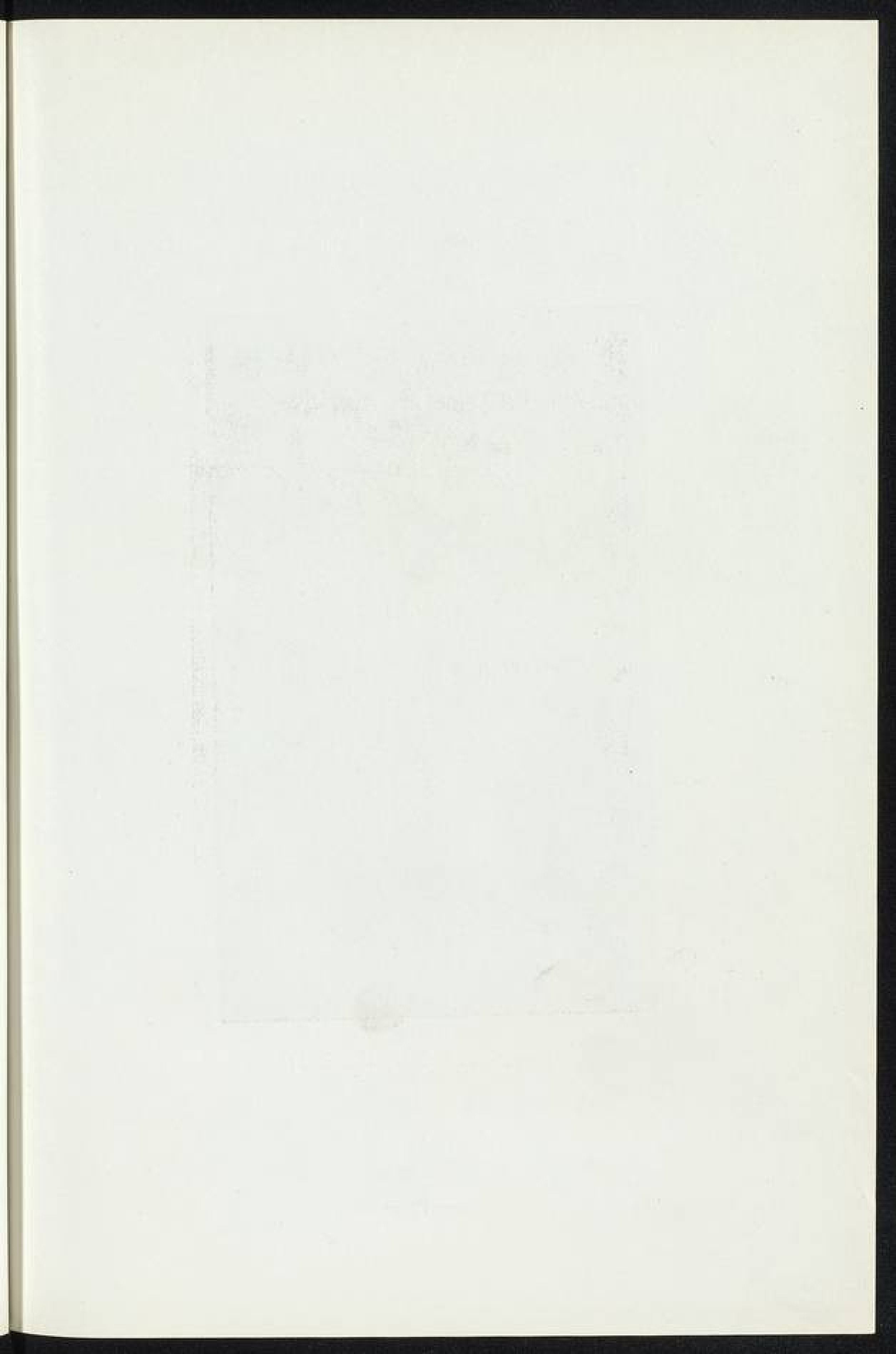


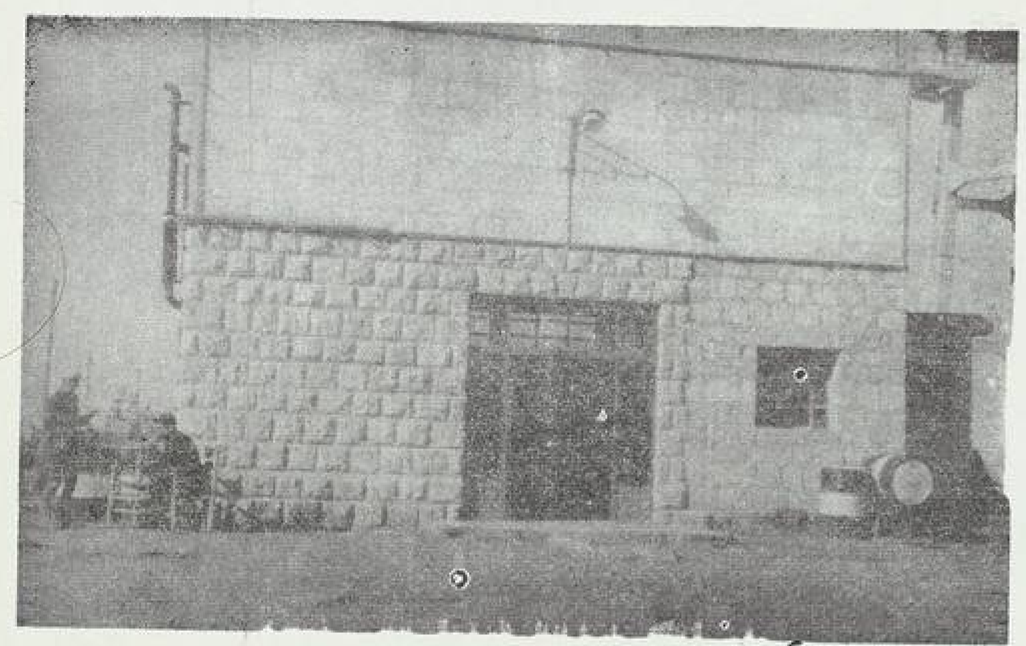
ركية العرائس (انظر الصفحة ٣١٨)



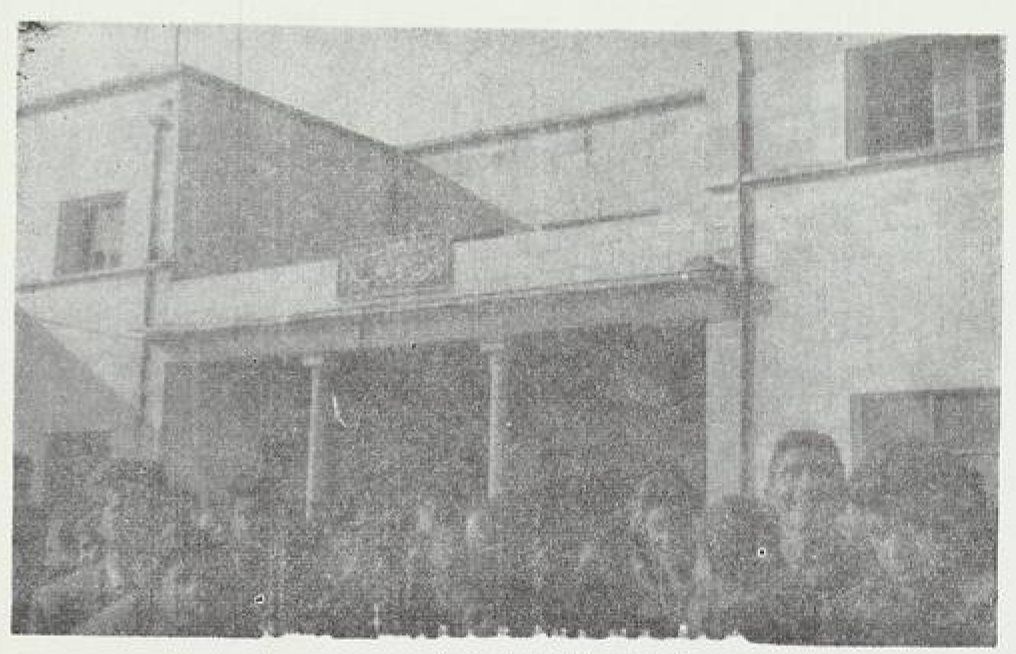


مؤسسة المياه (انظر الصفحة ٣٢٠)

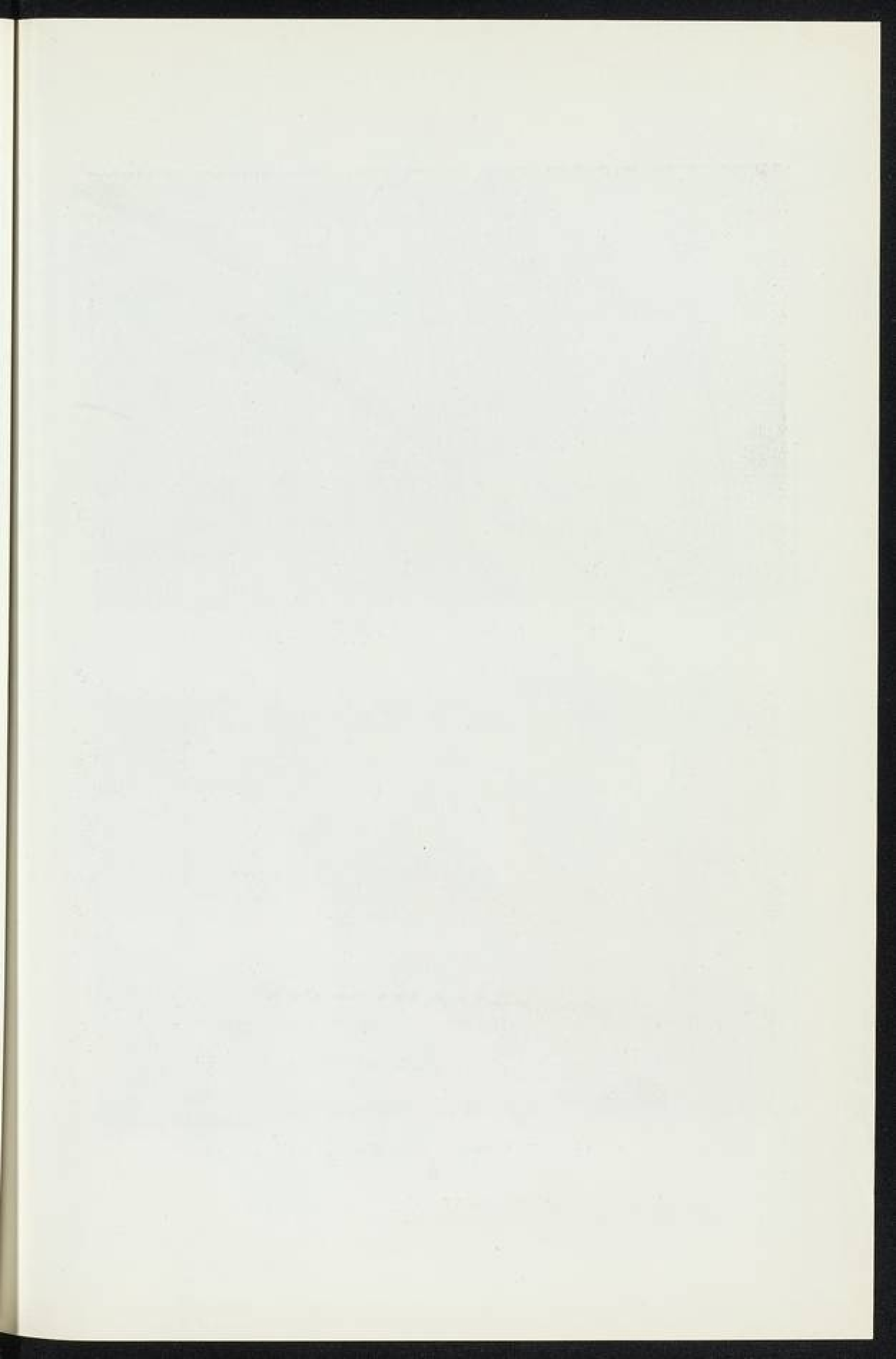


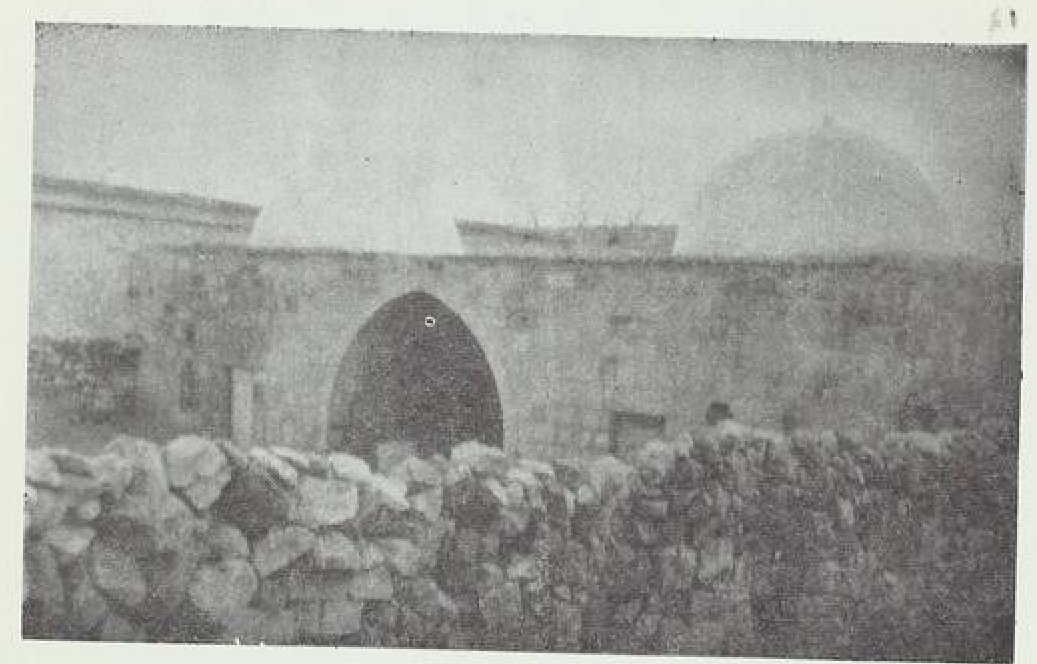


مؤسسة الكهرباء (انظر الصفحة ٣٢٠ — ٣٢١)

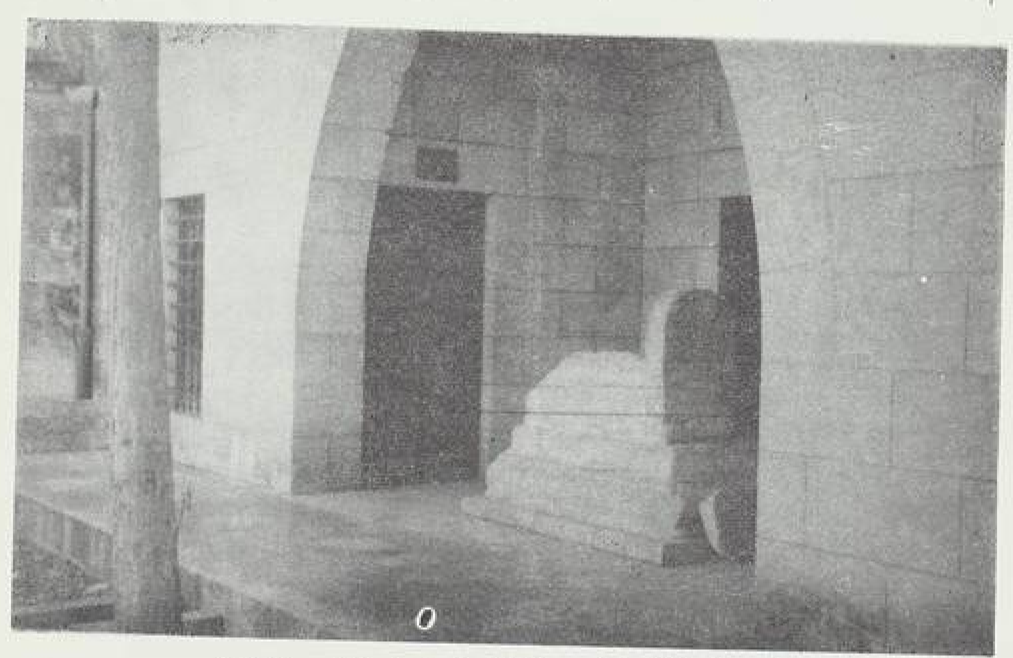


ثانوية أبي العلاء (انظر الصفحة ٣٢٤ — ٣٢٥)

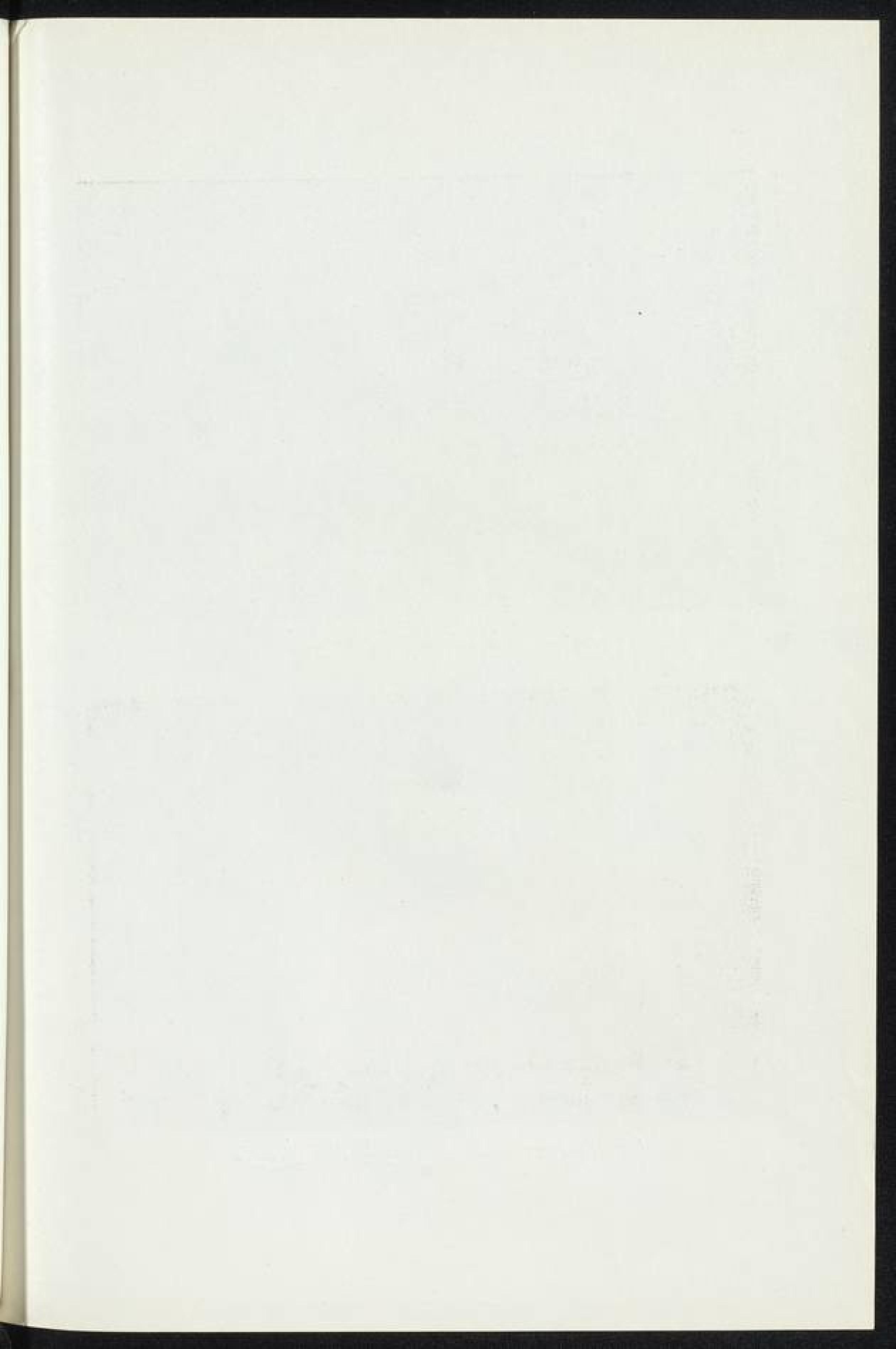




مسجد أويس القرني (انظر الصفحة ٣٦٢ — ٣٦٣)

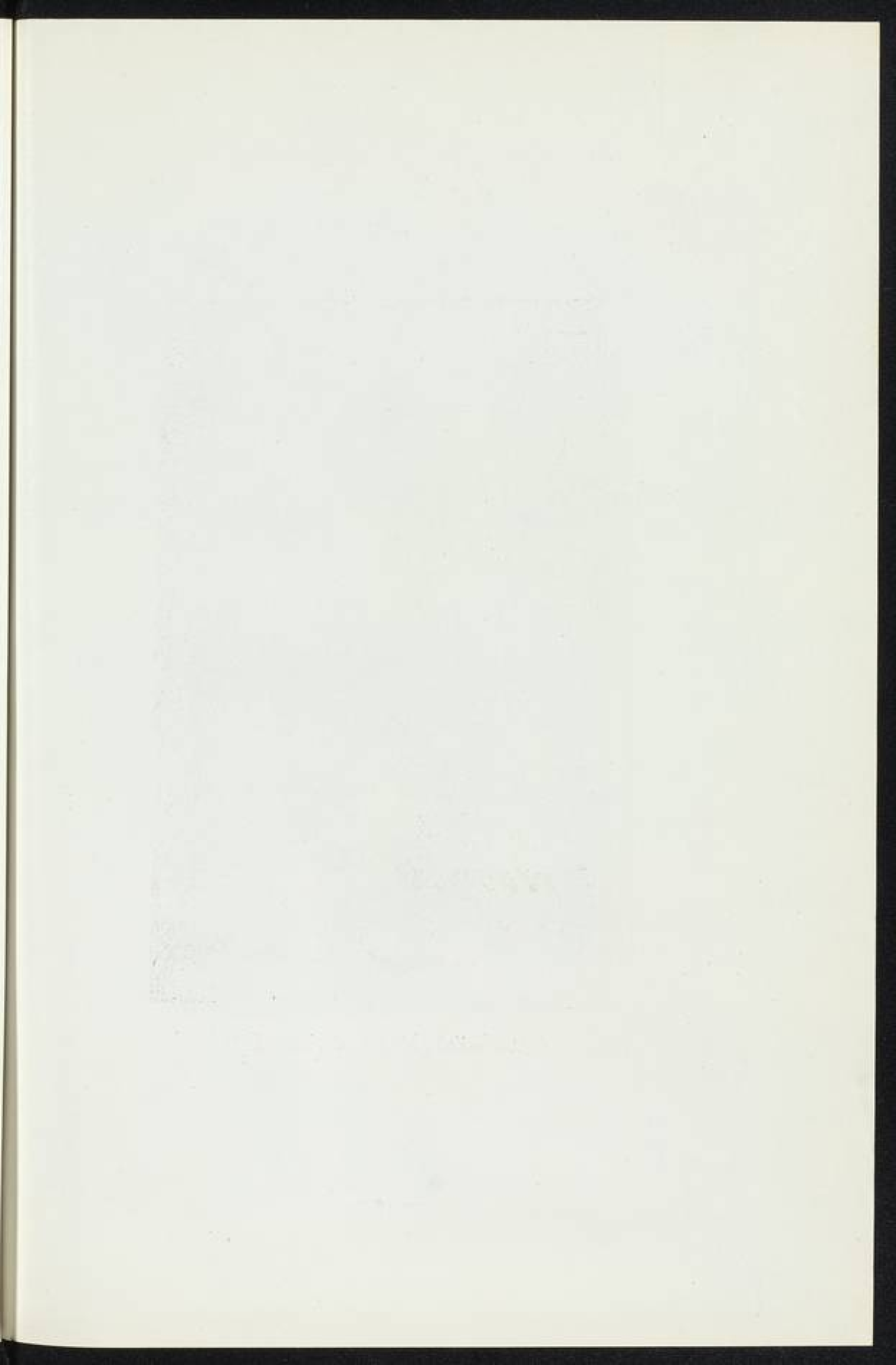


ضريح أبي العلاء الجديد (انظر الصفحة ٣٧٦ — ٣٧٩)





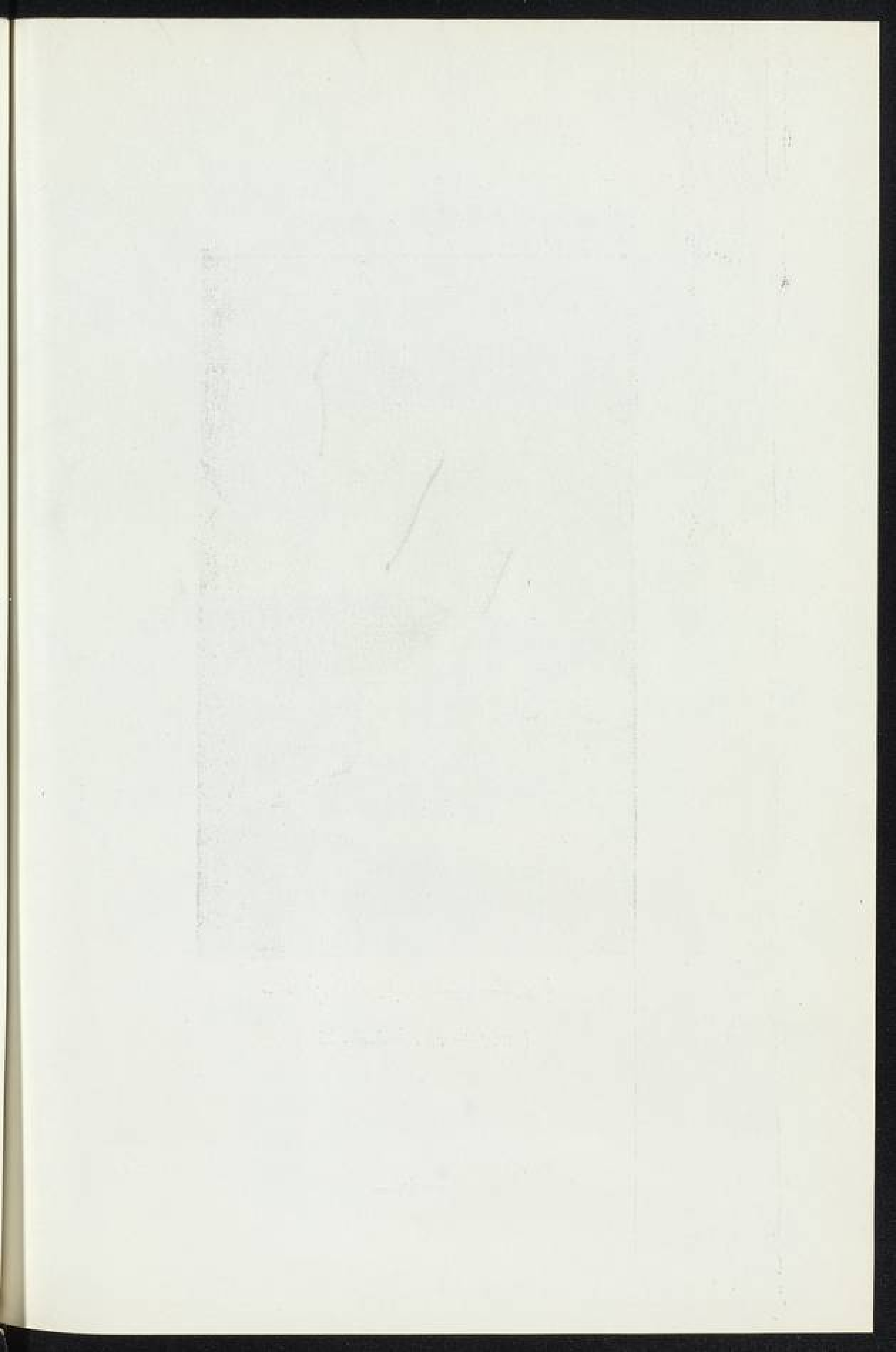
المركز الثقافي العربي (انظر الصفحة ٣٨٠)





ساحة أبي العلاء وفيها النصب التذكاري له

(انظر الصفحة ٣٨٠ — ٣٩٣)

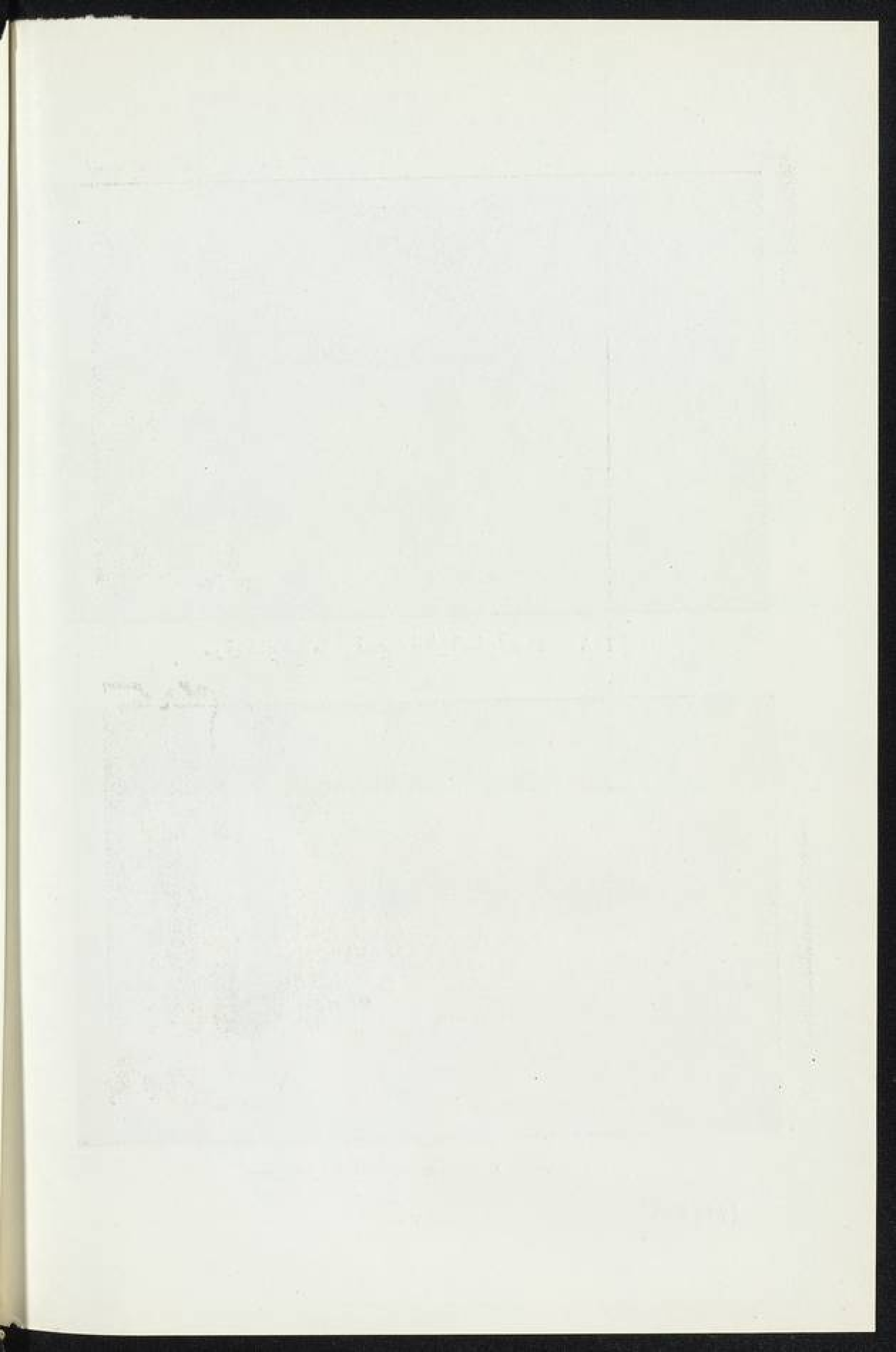




سوق قديم مع مقهى قديم (انظر الصفحة ٤٠٥ — ٤٠٨)



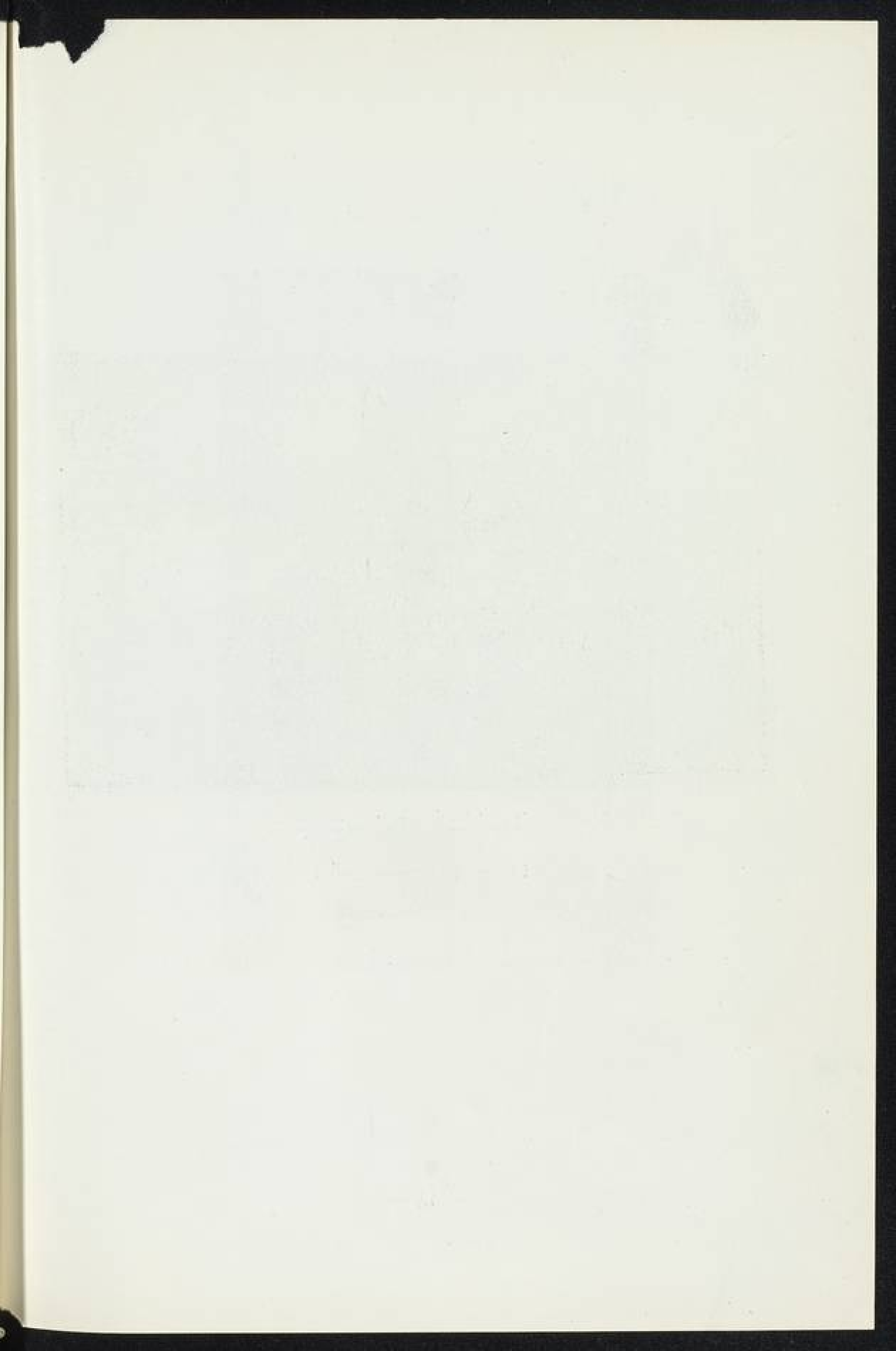
منظر لحارة قديمة (انظر الصفحة ٤٠٨ — ٤١٦)





منظر لبعض الأبنية الحديثة

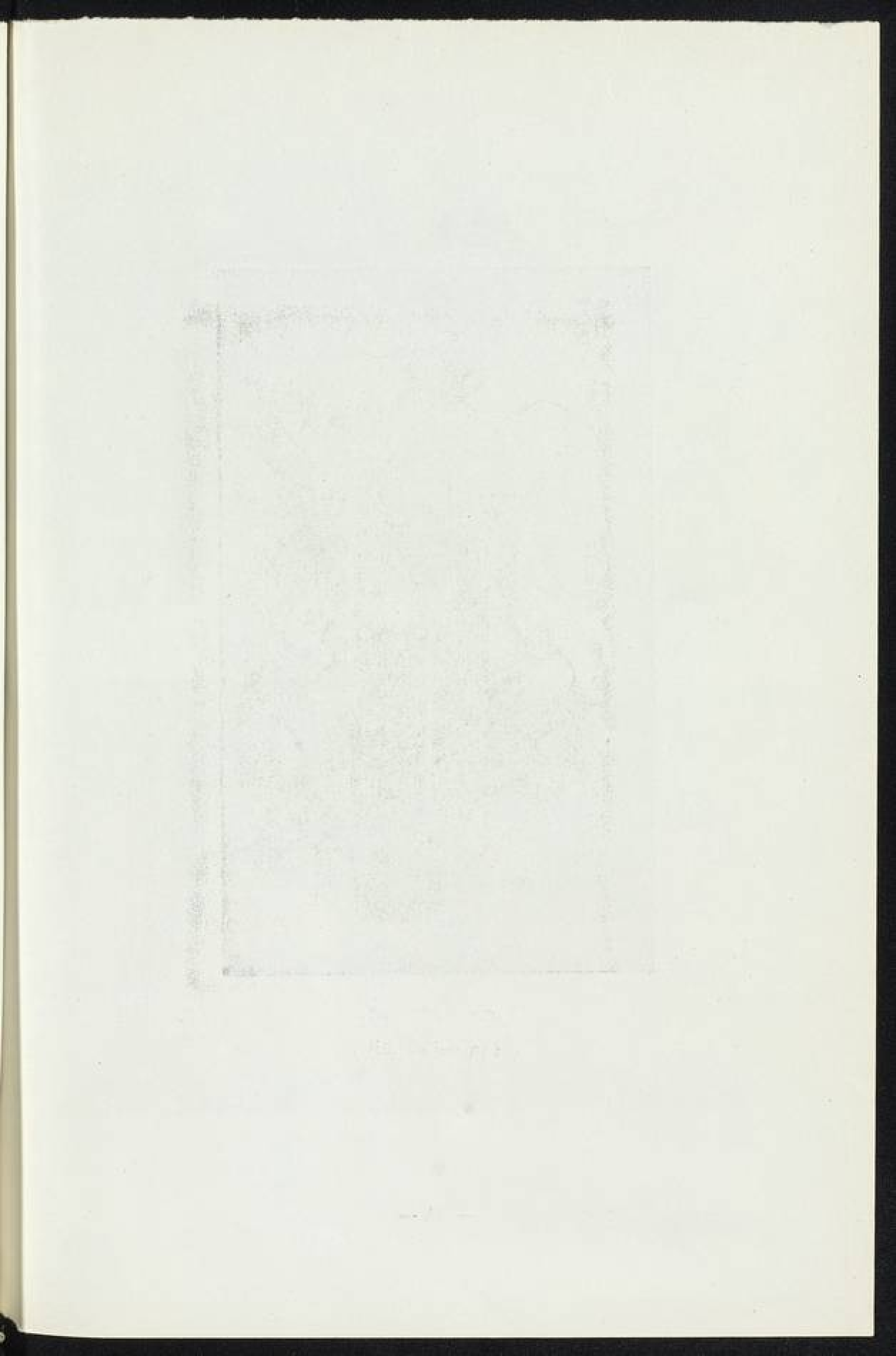
(انظر الصفحة ٤٠٨ — ٤١٦)

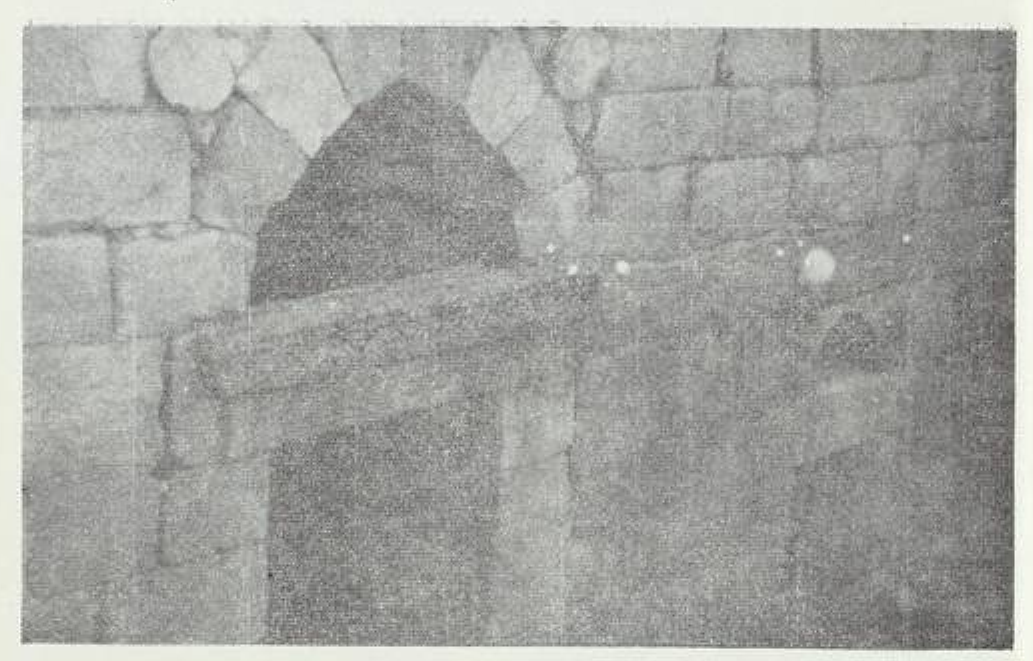




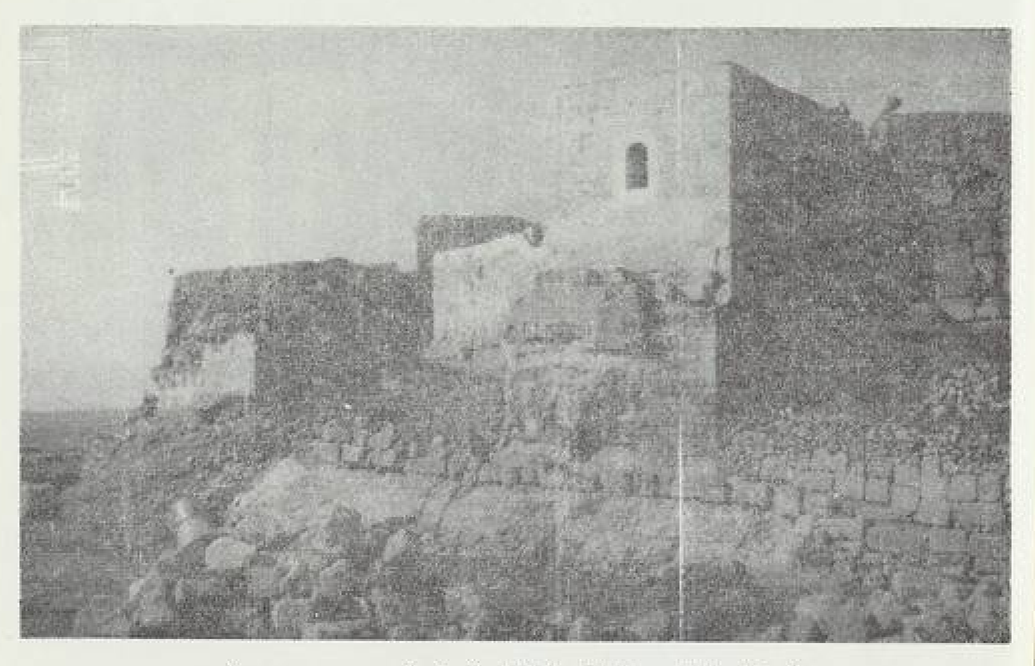
باب معصرة للدبس

(انظر الصفحة ٤١٦)





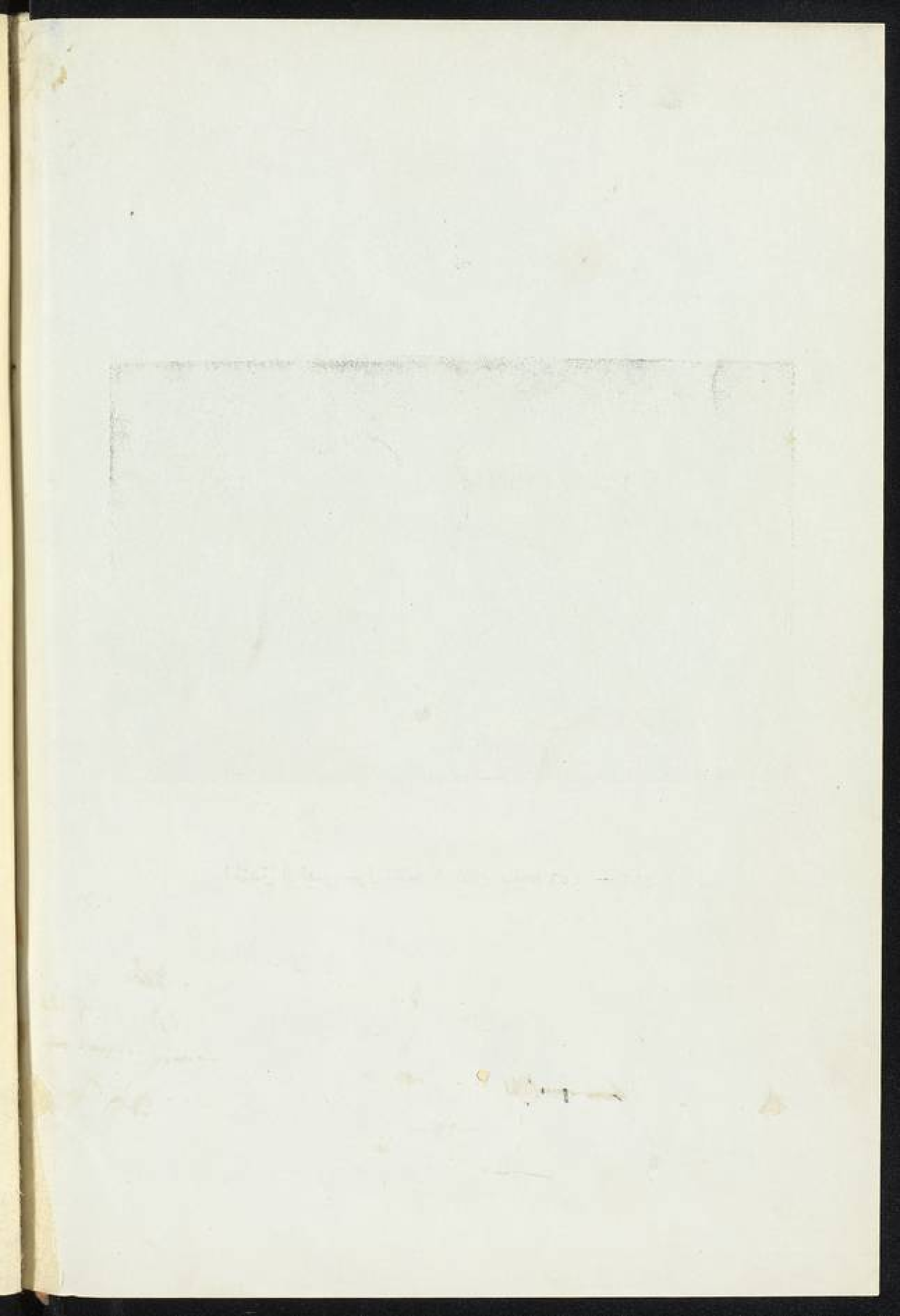
صورة لمسجد القلعة القديم (انظر الصفحة ٤٥٦ — ٤٦١)

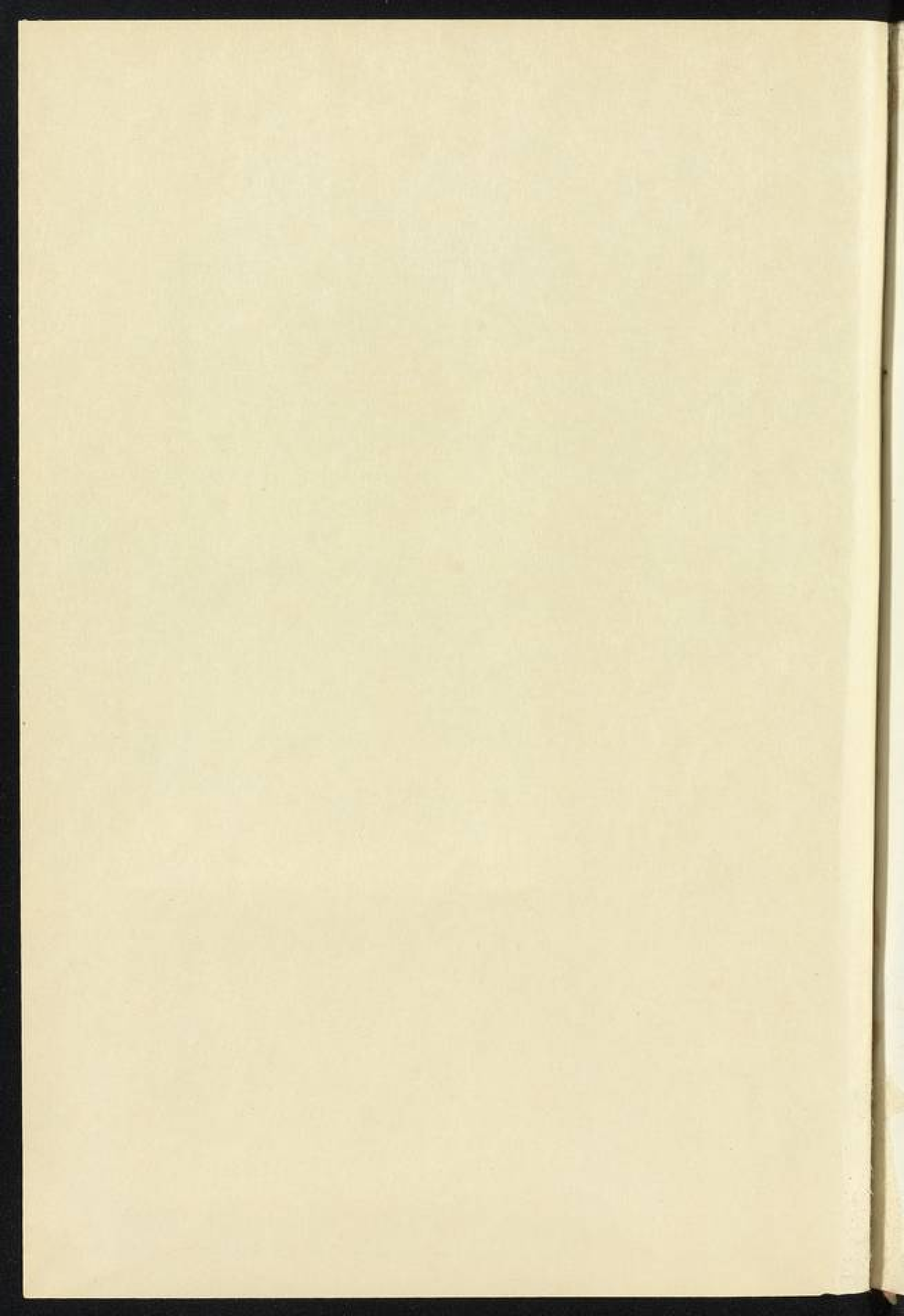


المدخل الرئيسي للقلعة (انظر الصفحة ٤٥٦ — ٤٦١)



الخندق الرئيسي حول القلعة (انظر الصفحة ٤٥٦ — ٤٦١)






COLUMBIA UNIVERSITY
0026813505

